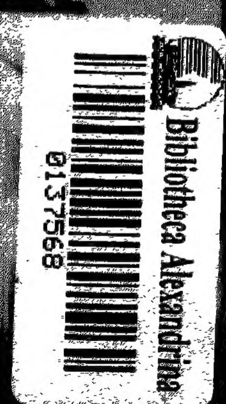
الدكتور/ عدنان محمد فايز الحارثي

عمران القاهرة وخططها فى عهد صلاح الدين الأيوبى

٥٦٤ - ٥٨[illegible]هـ/ ١١٦٨ - ١١١٩م



الناشر
مكتبة زهراء الشرق
١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة
ت: ٣٩٢٩١٩٢

عمران القاهرة وخططها فى عهد صلاح الدين الأيوبى

٥٦٤ ـ ٥٨٩ هـ / ١١٦٨ ـ ١١١٩ م

الدكتور

عدنان محمد فايز الحارثى

الناشر

مكتبة زهراء الشرق

١١٦ شارع محمد فريد ـ القاهرة

ت / ٣٩٢٩١٩٢

اسـم الكتاب	عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الايوبي
اسـم المؤلف	الدكتور/عدنان محمدفايز الحارثي
عدد الصفحات	٤٦٠
رقم الايـداع	٩١٢١ / ١٩٩٩
الترقيم الدولي	I.S.B.N 977 - 314 - 032 - 6
سنة النـشر	١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م
النـاشـر	مكتبة زهراء الشرق
البـلـد	القاهرة
تليـفون	٣٩٢٩١٩٢
فاكـس	٣٩٢٩١٩٢ ، ٣٩٣٣٩٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أبي وأمي منبع الإيثار

إلى من أنار لي طريق المعرفة

أهدي ثمرة غرسهم .

فكرة ومنهاج

* التاريخ ليس هو الحوادث ، إنما هو تفسير هذه الحوادث ، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفيّة التى تجمع بين شتاتها ، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات ممتدة من الزمن والبيئة امتداد الكائن الحى فى الزمان والمكان .

سيد قطب

مقدمة

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيرا .

ان أهمية دراسة التاريخ الحضارى للمسلمين ، يعتبر من الموضوعات المهمة إلى حد بعيد فى عصرنا الحاضر ، ذلك أننا نستطيع من خلال هذه الدراسة ، أن نتفهم وبصورة أعمق الأبعاد والجذور التاريخية لواقعنا المعاصر ، وما يكتنف هذا الواقع من مشكلات اجتماعية وفكرية وثقافية للعديد منها اصولا تاريخية ، كذلك فإن هذا النوع من الدراسة يعتبر ذا أهمية خاصة بالنسبة للدراسات الإنسانية ، نظرا لدوره فى تقديم ممارسة إنسانية إسلامية يمكن اعتبارها رافدا مهما للتنظير والتأطير من مجال الدراسات الإنسانية الإسلامية المعاصرة ، وما يرتبط بهذه الدراسات من موضوعات تخدم التخطيط والتنمية فى العصر الحديث ، ومن هنا اتجهت لدراسة الحضارة الإسلامية فى إطارها العام ، وهو ما يمكن اعتباره الهدف العام للدراسة ، أما بالنسبة لاختيار العمران كموضوع دراسى ، فذلك لأنه الوعاء الذى يستوعب النشاط الحضرى للإنسان ، فالمدينة هى المكان الذى يحتوى هذا النشاط فى قمة توهجه وانبعاثه ، وهذا الهدف المتعلق بأسباب اختيار الموضوع فى الدراسة العمرانية .

ان الإطار التاريخى لفترة الدراسة ، والمتمثلة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى، فهذه الشخصية تعتبر من القمم البارزة فى التاريخ الإسلامى ، فقد تحقق على يدى هذا القائد العظيم انجازات كبيرة جدا ، خاصة على صعيد الجهاد فى سبيل الله الأمر الذى أكسبه احترام الأعداء قبل الأصدقاء ، وقد دفعنى ذلك إلى التدقيق فى مدى ارتباط تلك الانجازات بالعمران البشرى ، وما اذا كان هناك بعدا حضاريا لانتصار حطين ؟؟

ان الإجابة على هذا التساؤل هى إحدى ابرز معالم هذه الدراسة ، فما أحدثه

الناصر صلاح الدين الأيوبى من تغيرات حضارية فى القاهرة ، تجاوزت المفاهيم المادية البحتة ، إلى روح المدينة نفسها ، مما يبرر القول بأنها دخلت فى تلك الأثناء فى عصر جديد ، يختلف جذريا عما كانت عليه فى السابق .

والحقيقة فإن اختيار القاهرة كموضع ، وفى فترة تاريخية معينة أمر فى غاية الأهمية لأن هذه المدينة تعكس تفاعلا تاريخيا خصبا فى مجال التمدن والعمران ، فهى تحمل فى احشائها سجلا ضخما من سجلات الحركة العمرانية عند المسلمين ، ابتدأت بوضع اللبنات الأولى لمدينة الفسطاط ، على يد القائد الفذ عمرو بن العاص ، بتوجيهات أمير المؤمنين الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، ولتستمر حركة العمران فيها على شكل تجمعات عمرانية ومدن متقاربة (العسكر ـ القطائع ـ القاهرة) ولتنتهى بالسور الذى بناه الناصر صلاح الدين ، لكى يجمع بين تلك المدن ويوحدها ، لتبقى بعد ذلك التطورات العمرانية للقاهرة الكبرى تسير فى هذا الإطار لقرون عديدة ، ولتصبح القاهرة الحديثة احدى أكثر مدن العالم ازدحاماً من حيث المحتوى البشرى .

ان موضوعا كهذا ومدينة مثل القاهرة جديرة بالاهتمام والدراسة والمتابعة ، خاصة وأنه لا يوجد حتى الوقت الحاضر دراسات جادة تتناول هذا الموضوع فى كامل الإطار الفكرى المشار إليه سابقا .

ومن المفيد هنا أن نذكر أن الدراسة تقوم على أساس وحدتين متماثلتين ، أولهما، تهدف إلى دراسة الفعل الحضارى للإنسان كمؤثر مهم فى تكوين المظهر العمرانى ، وذلك من خلال المعالجة الجغرافية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والسياسية ، والاقتصادية ، مما يترتب عن تلك المعالجة من نتائج حضارية وعمرانية ، أما الوحدة الثانية ، فهى تهدف للوصول إلى الصورة العمرانية ، التى ترتبت كنتائج للوحدة الأولى، وذلك عن طريق ايضاح مظاهر التأثير على التخطيط المادى للمدينة ،

بالإضافة إلى التطرق إلى نتائج هذا التأثير على المكونات الداخلية لهذا التخطيط ، وذلك عن طريق دراسة أقسام المدينة ، بالإضافة إلى دراسة الانعكاسات التى ظهرت على المنشآت ، والأوضاع السكانية .

ومن خلال هاتين الوحدتين ، جرى العمل على دراسة مجموعة من المداخل التى تسهم فى توضيح ابعاد أهداف البحث ، يمكن تلخيصها فى التالى :

أولا : دراسة الإنسان كوحدة سلوك ، ذات تأثير على النواحى العمرانية فى المدينة، اذ ان حياة الإنسان لا تتميز بالثبات فى جميع اوجهها ، بل انها تكون عرضة لتغير فى أكثر من جانب ، الأمر الذى سينعكس بالتأكيد ، على مكونات نشاطه الحضرى والعمرانى ، ولذلك فإن اجراء مثل هذه الدراسة قد تسهم فى تقديم فهم متعمق لأسباب التغير فى النشاط الحضرى والعمرانى للإنسان ، مما يساعد على تقديم تصورات تنظيرية تفيد فى مجال الدراسات الإنسانية ، وخاصة تلك التى تتعلق بجوانب الانماء والتحضر .

ثانيا : القيام بدراسة وصفية تحليلية للنواحى الحضارية والعمرانية ، للقاهرة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، وذلك بهدف اثراء معرفتنا التاريخية ، وابراز الوجه الناصع للحضارة الإسلامية ، والتى حاول الكثيرون طمسها .

أما عن الصعوبات التى واجهها البحث ، فهى كثيرة ، والحمد لله على كل حال ، ومن ابرزها قلة المعلومات المباشرة فى مجال مظاهر النشاط العمرانى ، فعلى الرغم من توفر المصادر المختصة بالنواحى العمرانية للقاهرة ، فإن اختيار فترة الناصر صلاح الدين الأيوبى ، كشريحة تحكمها فترة زمنية قصيرة لا تتجاوز أربعة وعشرين عاما ، زاد من صعوبة توفر المادة العلمية فأضحت ضيقة النطاق إلى حد بعيد ، الأمر الذى نجم عنه أن واجه البحث صعوبات فى توفير المادة التى تتناسب مع الفروض التى كان ينبغى التأكد من جدواها .

كذلك ظهرت أمام البحث مجموعة من المشكلات ، وسببتها بعض النصوص المتناقضة ، أو الفهم الخاطئ لبعضها ، مما استوجب البحث فى معالجة منطقية لهذه المشكلات .

ومن المشكلات الرئيسية التى واجهها البحث ندرة الخرائط الجغرافية الخاصة بفترة الدراسة ، اذا أنه على الرغم من توفر بعض الخرائط عن القاهرة الفاطمية ، والأيوبية ، والمملوكية ، قام بعملها بعض الباحثين ، واستفاد منها البحث ، فإن تلك الخرائط لم تكن كافيـة اذ أنها لم تغطى سوى اجزاء يسيرة من إطار الموضوعات التى تناولتها الدراسة ، فبالنسبة للخرائط التى تناولت الفترة الفاطمية ، فإنها حرصت على التركيز على القاهرة فى عهدها الأول ، وتناولت فقط تحديد بعض المناطق المهمة ، كالقصرين الشرقى والغربى بالإضافة إلى الأحياء والرحاب والميادين الرئيسية ، ولم تتطرق إلى الكثير من المواضع التى تعود لتلك الفترة ، والتى اقتضت علاقتها بفترة الدراسة الإشارة إليها .

أما بالنسبة للفسطاط ، فنظرا لاندثار معظم أجزائها وتحولها إلى أكوام وخرائب ، فإن ذلك قد أثر إلى حد بعيد على مستوى التوقيع الخرائطى لها ، وان كان ينبغى الإشارة هنا إلى الخريطة الرائدة والمهمة التى أعدها المستشرق بول كازنوفا ، والتى افادت البحث كثيرا ، واتيح لى من خلالها تحقيق بعض التقدم فى مجال انجاز خارطة جديدة توصل إليها البحث عن الشكل العام للمدينة فى أواخر العصر الفاطمى وفى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى .

أما بالنسبة للخرائط التى نشرت فى المراجع المختلفة والتى تناولت الفترة الأيوبية ، فيغلب عليها تناولها الشكل العام للمدينة مع التركيز على السور والقلعة بشكل خاص دون الاهتمام بالمواضع الأخرى التى توضح معالم التطور فى المدينة فى تلك الأثناء . ولعل أكثر تلك الخرائط تعمقا هى ما قامت بعمله الباحثة سوزان جان ، بيد أنه ينقصها الاشارة إلى العديد من المواضع ، ويقتضيها بعض التعديلات .

أما عن الخرائط التى قمدتها المراجع عن الفترة المملوكية ، فيمكن القول بأنها

من أهم وأبرز الخرائط التى نشرت حتى الآن ، ولعل السبب فى ذلك ، يعود إلى أن المدينة فى تلك الفترة قد اتضحت معالمها ، وتوفرت النصوص الكثيرة الواضحة عنها ، بيد أن فائدتها بالنسبة للبحث ليست بالكبيرة وذلك لتأخرها من الناحية التاريخية .

أمام هذه الاعتبارات ، فلقد كان من المهم والضرورى القيام باجراء العديد من التوقيعات الجديدة ، واستعانت الدراسة فى ذلك بالعديد من الخرائط المعتمدة ، أهمها خرائط الحملة الفرنسية وخريطة هيئة المساحة المصرية للآثار الإسلامية ، حيث تم متابعة التوقيعات من خلالها ، وذلك بتدوين الأسماء الحديثة للمواضع التى جرى توقيعها ، معتمدين على أقوال المؤرخ الكبير على باشا مبارك ، فى كتابه الخطط التوفيقية ، وعلى أقوال المحقق العلامة محمد رمزى فى كتابه القاموس الجغرافى ، وتعليقاته فى كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، علاوة على ما ورد عند غيرهم من الباحثين .

أما عن نطاق البحث فإن الدراسة تشمل عصر صلاح الدين الأيوبى ، وقد جرى تقسيم البحث فيها إلى بابين ، الأول يستهدف عرض وتحليل لأبرز عوامل التطور العمرانى للمدينة حيث تضمن بادء الأمر عرضا تمهيديا تم من خلاله استعراض وضع المدينة كوحدة حضارية وعمرانية وذلك من الناحية النظرية ، فضلا عن القاء نظرة تم من خلالها التعرف على العوامل المؤثرة فى التطور العمرانى للمدينة ، ثم اتبعت التمهيد بأربعة فصول .

جرى الحديث فى الفصل الأول عن العوامل الجغرافية ، فمن المعروف أن المدينة تتأثر من البيئة الطبيعية التى تقع فيها ، ولقد تميز موضع القاهرة الكبرى باحتوائه على عدد من العناصر الجغرافية ، أهمها نهر النيل ، وتلال المقطم ، والخلجان والبرك المائية، وأخيراً الأكوام . وقد عمدت الدراسة إلى استكشاف المتغيرات الطبيعية التى تعرضت لها هذه العناصر ـ كانحراف مجرى نهر النيل مثلا ـ علاوة على توضيح التطورات التى طرآت على علاقة الإنسان الذى استوطن القاهرة بهذه العناصر ، ومدى تأثير ذلك كله على النواحى العمرانية فى المدينة .

أما الفصل الثانى ، فقد تناول النواحى الاجتماعية ، فالمدينة مركب إنسانى ومادى فى آن واحد ، وبالتالى فإن المتغيرات الاجتماعية لابد وأن يكون لها تأثير على التكوين المادى للمدينة . ولقد شهد عهد صلاح الدين الأيوبى متغيرات اجتماعية أساسية انتابت حياة المجتمع القاهرى ، كان من أهمها التغيرات المتعلقة بالنواحى الدينية ، فصلاح الدين كان حريصا على القضاء على البدع والخرافات التى سادت مجتمع القاهرة ابان حكم بنى عبيد ، كذلك عمل على نشر التعليم والثقافة بين الناس ، علاوة على ما طرأ على الحياة الاجتماعية من مظاهر ومتغيرات جديدة فى انماطها ، ترتب عنها وعن العوامل السابقة أيضا آثار عمرانية هامة .

وتناول الفصل الثالث ، جوانب إنسانية أيضا ، اذ أنه يتعلق بالنواحى السياسية والعسكرية ، وهى أمور معنوية بطبيعتها . فقد شهدت القاهرة فى عهد الناصر صلاح الدين مواقف سياسية وعسكرية فى غاية الأهمية ، فوظيفة هذه المدينة تطورت فى تلك الأثناء ، نظرا لكونها أضحت عاصمة لدولة قوية مترامية الأطراف ، تضطلع بدور كبير يهدف إلى توحيد العالم الإسلامى ، وطرد الصليبيين من بلاد الشام وفلسطين . كذلك فإن قيام الدولة الأيوبية ، أمر لم يكن ليمر بسلام ، دون أن يشهد ذلك قيام جبهات معادية لها ، وعلى الأخص من قبل الفاطميين ، والصليبيين ، الأمر الذى كان له انعكاس على النواحى السياسية والعسكرية ، ولقد ترتب عن كل ذلك ظهور أشكال من التكيفات العمرانية تنسجم مع هذه الظروف .

أما الفصل الرابع ، فيتناول النواحى الاقتصادية للمدينة ، حيث شهدت اقتصادياتها فى عهد الناصر صلاح الدين ، تطورات أساسية ، فقد أضحت المصب الذى ترتكز فيه ثروات البلاد ، وهى ثروات شهدت تزايدا فى مقدارها نتيجة ازدهار الزراعة والتجارة فى مصر حينئذ . هذا علاوة على أن هذه الثروات جرى اعادة توزيعها بطريقة تؤدى بها نحو شرائح أوسع من مجتمع القاهرة فترتب عن ذلك انعكاسات عمرانية فى غاية الأهمية . هذا فيما يتعلق بالباب الأول . أما الباب الثانى فقد هدف إلى توضيح مظاهر التطور العمرانى فى القاهرة فى تلك الأثناء ، وتكون هذا الباب من تمهيد وأربعة فصول أيضا ، ففى التمهيد جرت الإشارة إلى طبيعة العلاقة بين البابين الأول والثانى ،

مع توضيح اثر العوامل فى ازدهار النشاط العمرانى فى القاهرة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، وأثر هذا الازدهار على طبيعة الأوضاع العمرانية فى المدينة كما كانت سائدة فى العصر الفاطمى .

أما عن الفصل الأول ، فقد تناول التخطيط المادى للمدينة وذلك بتوضيح الشكل العام للمدينة الكبرى ، وما طرأ عليه من تغيرات فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، ولقد جرى توضيح هذه التغيرات من خلال تبيان البنية وما طرأ عليها من تغيرات فى تلك الأثناء أيضا .

وفى الفصل الثانى ، جرى تناول أقسام المدينة ، وهى : الخطط والأحياء السكنية، والشوارع الرئيسية ، والأسواق ، والبساتين ، والمتنزهات والرحاب والميادين ، والمقابر، وهى تشكل فى مجموعها العناصر الأساسية لمادة المدينة . ولقد جرى توضيح ما طرأ على هذه الأقسام من تطورات وتغيرات فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى .

أما الفصل الثالث ، فقد تناول منشآت المرافق وأبرز المتغيرات التى ظهرت عليها فى تلك الأثناء ، حيث دخل عليها فى تلك الأثناء انواع جديدة من العمائر ، كذلك جرى التوسع فى استغلال بعض الأنواع الأخرى التى كانت توجد فى هذه المدينة قبل هذا التاريخ ، علاوة على أنه قد جرى بناء عمائر للمرافق فى مواضع لم تكن توجد بها فى السابق ، بالإضافة إلى بناء منشآت جديدة بدلا من أخرى قديمة ، علاوة على تجديد عمارة بعض المنشآت الأخرى القديمة .

أما الفصل الرابع ، فكان موضوعه الأوضاع السكانية ، وما طرأ عليها من تحولات فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، حيث جرى فى تلك الأثناء إستبدال عناصر سكانية فاطمية بعناصر سكانية أخرى ، شجع النصر صلاح الدين على هجرتها إلى مصر . كذلك جرى فى تلك الأثناء تغيرات فى توزيع الكثافات السكانية والتوزيع الاجتماعى لسكان المدينة .

وفى الاجمال ، فإنه لا يمكن الادعاء بأننى قد تمكنت من تحقيق جميع الأهداف التى أصبو إليها من خلال هذه الدراسة ، وان كنت قد حرصت كل الحرص على بذل اقصى جهد ممكن من أجل تحقيقها ، فإن كنت قد وفقت فى

تقديم شيء مفيد فإن ذلك بفضل من الله جل وعلى ، وان كنت قد قصرت ، فذلك من نفسى ، ولقد خلق الإنسان ضعيفا .

وقبل أن أختتم هذه المقدمة المتواضعة ، أود بعد حمد الله تعالى وشكره على ما تفضل به وأنعم ، أن أتقدم بشكرى الخالص إلى كل من أسهم فى إنجاز هذا العمل ، الذى أسئل الله عز وجل أن يجعل فيه الفائدة للقراء وطلاب العلم . والله من وراء القصد .

عدنان محمد فايز الحارثى

نقد المصادر والمراجع

اعتمدت الدراسة على العديد من المصادر التى زودتها بالمادة العلمية اللازمة ، والحقيقة فإن التعرض لجميع المصادر التى اعتمد البحث عليها أمر يطول شرحه ، علاوة على انتفاء الجدوى من ذلك نظرا لتكرار المعلومات فى الكثير منها ، ولذلك جرى الاكتفاء هنا بالإشارة إلى المصادر الرئيسية منها .

وأولى هذه المصادر كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم [١] ، من تصنيف محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء الشامى المقدسى (ت : ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م) أحد مشاهير الرحالة والجغرافيين المسلمين ، تعاطى التجارة ، وعشق الترحال والسفر ، وخاض غمار الكثير من تجارب الحياة ، وكان له فى الأصقاع المختلفة مشاهدات عدة دونها فى كتابه هذا[٢] . الذى تميز بالاجمال فى الوصف ، وعرض بشد الانتباه من حيث سلاسة العبارة ولطفها . ودقة فى المنهج ، حرص فيه أن لا يدون المعلومات التى دونها من سبقه من الجغرافيين ، علاوة على انه اقتصر فى وصفه على الأماكن التى شاهدها [٣] . ولذلك فإنه يقول عن كتابه هذا (.. اعلم أنى أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة ، وأسندته بدعائم قوية ، وتحريت جهدى الصواب ..)[٤] . والحقيقة فإنه يحتوى على معلومات وفيرة رغم اقتضابها ، وأبتدائه بايضاح لبعض المصطلحات التى ترد فى ثناياه ، ذاكراً أسماء البحار والأنهار المعروفة فى عصره ، والمذاهب والأديان التى كانت فى ديار الإسلام آن ذاك ، وأسماء المواضع المتشابهة وغير ذلك من المعلومات التى وردت مختصرة أو مفصلة عن أقاليم دار الإسلام ، بحيث انه يمكن القول ان هذا الكتاب يعد موسوعة جغرافية ، لما يحتويه من معلومات

---

(١) قام (M. J. Degoege) بتحقيق هذا الكتاب ونشره ، وطبع فى ليدن عام ١٩٠٩م .

(٢) عنه انظر حاجى خليفة ، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ، بغداد ، جـ ١ / ١٦ ـ ١٧ . كحالة ، معجم المؤلفين (تراجم مصنفى الكتب العربية) بيروت ، جـ٨ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ، زكى حسن ، الأعمال الكاملة (الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى) بيروت ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، جـ ٨ / ٤٢ ـ ٤٣ ، محمد محمود محمدين ، التراث الإسلامى ، الرياض ، ط : الثانية ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ٤٥١ .

(٣) زكى حسن ، م. س جـ ٨ / ٤٣ .

(٤) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص : ٣ .

عن الجغرافيا الطبيعية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية

ولقد أفاد هذا الكتاب البحث ، فيما اورده من معلومات عن مصر وأحوالها فى أوائل عهد الفاطميين . خاصة فيما ذكره عن تأثير نهر النيل على الأوضاع الزراعية فيها ، وفيما أورده عن الفسطاط وما كان يجرى فيها من نشاط تجارى واقتصادى وحال اسواقها فى تلك الأثناء ، وما كانت عليه كثافاتها السكانية ، وتوزيع هذه الكثافات بحسب الانتماء المذهبى والدينى ، والعلاقة العمرانية فيما بينها وبين القاهرة وهى مادة كان لها دورها فى الفصل الرابع من الباب الأول . والفصول الأول ، والثانى ، والرابع من الباب الثانى .

ومن المصادر التى اعتمدت عليها الدراسة ، كتاب رحلة ناصر خسروا المشهور بسفر نامة [(١)] ، لأبى معين ناصر خسرو الحكيم القباذيانى (ت ٤٤٥ هـ / ١٠٦١ م) [(٢)] ، وهو رحالة شهير ، زار بلدان عدة منها ايران ، وتركستان ، والهند ، وجزيرة العرب ، ومصر ثم استقر مدة طويلة تزيد عن الثلاث سنوات ، حيث إعتنق هناك المذهب الباطنى الإسماعيلى وتزود بمعارفه ليكون أحد أبرز دعاة هذا المذهب فى شرق العالم الإسلامى ، وصنف فيه المصنفات العديدة التى تدعو إلى هذا المذهب [(٣)]. ولقد تميز كتاب سفر نامة بأنه يحتوى على العديد من المعلومات التى دونها هذا الرحالة عما شاهده فى رحلته ، ومنها تلك المعلومات التى أوردها عن مصر خلال حكم بنى عبيد ، وان كان قد تميز أسلوبه بالمبالغة فى الوصف والتصوير [(٤)] . ولقد أفاد هذا الكتاب البحث بمادة جيدة عن الفسطاط والقاهرة ، حيث أشار بوضوح إلى

---

(١) قام يحيى الخشاب بترجمة هذا الكتاب إلى العربية ، وعلق عليه ، وطبع فى بيروت ، عام ١٩٧٠م .

(٢) زكى حسن : الأعمال الكاملة جـ ٥٧/٨ ، ويذكر البغدادى أن وفاته كانت فى عام (٤٤٤هـ/١٠٥٢م) إسماعيل باشا البغدادى ، هدية العارفين (أسماء المؤلفين والمصنفين) . استانبول ١٩٥٥م ، جـ ٤٨٧/٢ ، والراجح أن وفاته تلت هذا التاريخ ، حيث كان تأليفه لكتابه هذا فى تاريخ لاحق عنه . انظر : ناصر خسرو ، سفر نامة ، (المقدمة) ص ١٦ .

(٣) عنه انظر ناصر خسرو ، م . س ، ص ٩ ـ ٣٢ ، البغدادى ، م . س ، جـ ٢ / ٤٨٧ ، زكى حسن ، م . س ، جـ ٨ / ٥٦ ـ ٦٣ .

(٣) ناصر خسرو ، م . س ، ص ص ١٦ ، ٢٨ ـ ٢٩ .

مدى تأثير نهر النيل على توزيع العمران فى المدينة فى تلك الأثناء ، كذلك زوده بأوصاف عن النشاط الاقتصادى والصناعى فيها ، ومراكز هذا النشاط وأسواقه . الأمر الذى أفاد الدراسة فى فصلها الأول من الباب الأول والفصل الثانى من الباب الثانى .

ومن المصادر التى افادت البحث أيضا تاريخ القاضى الفاضل ورسائله ، من تصنيف محيى الدين عبد الرحيم بن على بن محمد اللخمى العسقلانى الشهير بالقاضى الفاضل (ت ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م) كان فى بادئ أمره موظفا فى ديوان الإنشاء الفاطمى [١] ، فلما تمكن الأيوبيون فى مصر إلتحق بهم واتصل بالأمير أسد الدين شيركوه [٢] ، ثم أخذ أمره بالصعود فى عهد الناصر صلاح الدين ، الذى جعله وزيرا له واختص بمشورته ، عرف عنه التقوى وكثرة الصدقات وكان ذا ثقافة واسعة وشغف بالمعرفة ، اقتنى الكتب من كل فن وجلبها من كل مكان ، حتى قيل ان عددها قد بلغ عنده ، مائة واربعة عشر ألف مجلد ، وذلك قبل أن يموت بعشرين

(١) ديوان الانشاء : كان مختصا بالرسائل ومكاتبات الخليفة ويعتبر القلقشندى أن « كتابات الرسول ﷺ » تشير إلى أنه أول ديوان وضع فى الإسلام . إلا أنه من المرجح أن هذا الديوان لم يعرف كمؤسسة إدارية إلا فى العصر الأموى . ولقد أولى الفاطميون هذا الديوان رعايتهم واهتمامهم ، فكان صاحبه من المقربين إلى الخليفة ومن أهل الشورى عنده ، ولا يختار له إلا من برز فى البلاغة والفصاحة . انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١ / ٩١ ، جـ ٣ / ٤٨٦ ـ ٤٨٨ ، محمد ضيف الله البطانية ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص ص : ١٢٤ ، ١٣٠ ـ ١٣٢ .

(٢) هو أبو الحارث شيركوه بن شاذى بن مروان الملقب بالملك المنصور أسد الدين (ت ٥٦٤هـ / ١١٦٨م) وهو عم الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى ، عرف بالشجاعة والاقدام فولاه الملك العادل نور الدين زنكى قيادة جيوشه ، فكان قائد حملاته على مصر عندما اضطربت امور الدولة الفاطمية فى أواخر عهدها ، ولى فى أواخر عمره الوزارة للخليفة العاضد لدين الله الفاطمى (٥٥٥ ـ ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ ـ ١١٧٢م) فما لبث بها إلا بضعة أسابيع حتى توفى ، ليليها من بعده ابن اخيه الناصر صلاح الدين ، فيكون بذلك أول من ثبت أقدام الأيوبيين فى مصر . للمزيد انظر : أبو شامة ، شهاب عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦ م) ، الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ١٩٦٢م ، جـ ١ ق ٢ / ٣٢٩ ـ ٣٣٨ ، ابن خلكان ، ابى العباس شمس الدين أحمد بن أبى بكر (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) ، جـ ١ / ٢٥٥ ـ ٢٥٧ ، جـ ٢ / ٤٧٩ ـ ٤٨٠، جـ ٧ / ١٣٩ ـ ١٥١ .

عاما . عرف عنه المهارة فى الانشاء والبلاغة فى القول ، فاعتبر من كبار رجال الأدب ، وممن كان لهم باع واسع فى تشكيل المدرسة الأدبية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى وكانت له رسائل كثيرة جدا ، قيل ان مسوداتها لو جمعت لما احتواها مائة مجلد .[١] ولا يعرف فى الوقت الحاضر كتابا من تأليف القاضى الفاضل، ولذلك فإن كتابه فى التاريخ يعتبر من عداد الكتب المفقودة ، اختلفت المصادر فى تحديد مسماه ، فمنهم من سماه تاريخ القاضى الفاضل [٢] ، ومنهم من سماه بالمتجددات أو بالمجريات .. وهكذا [٣] . على أية حال فإن هذا الكتاب كان اشبه بالمذكرات اليومية [٤] ، نقلت عنه المصادر الكثير من المعلومات ، وعلى الأخص تلك التى نقلها المقريزى ، جرت الإفادة منها للتعرف على بعض جوانب النشاط الاقتصادى فى القاهرة فى عهد الناصر صلاح الدين ، كما ورد فى الفصل الرابع من الباب الأول ، كذلك فإن رسائله لم تتوفر مجتمعة فى كتاب واحد ، وإنما جرى جمع بعضها فى بعض الكتب ، مثلما فعل ابن نباتة الذى جمع بعض هذه الرسائل فى كتاب اسماه المختار من كلام القاضى الفاضل . وسترد الإشارة إليه لاحقا . كذلك نقل بعض المؤرخين بعضا من رسائله ، مثل أبو شامة فى كتابه الروضتين ، والعماد

---

(١) عنه انظر العماد الاصفهانى ، محمد بن محمد بن حامد الكاتب الاصفهانى (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) ، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) تحقيق أحمد أمين وآخرون ، القاهرة، جـ ١ / ٣٧ ـ ٥٤ ، ابن خلكان ، م . س ، جـ ٣ / ١٥٨ ـ ١٦٣ . ابن اياس ، محمد ابن أحمد بن إياس الحنفى (٩٣٠هـ/١٥٢٤م) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، فيسبادن ط. الأولى ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م ، جـ ١ / ق ١ / ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ . ابن العماد ، أبى الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى ، (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٨١م) ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، بيروت جـ ٤ / ٣٢٤ ـ ٣٢٧ ، عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول . القاهرة ط : الثامنة ، ١٩٦٨م ، ص ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ ، ٢٨٤ ـ ٢٨٦ ، نظير سعداوى ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ١٩٦٢م ، ص ٢٨ ـ ٣٩ .

(٢) ابن خلكان ، م . س ، جـ١ / ٢٥٨ .

(٣) نظير سعداوى ، م. س ، ص ٣٦ .

(٤) ابن خلكان ، ن . م . س ، سعداوى ، ن . م . س .

الأصفهانى فى كتابه البرق الشامى ، والقلقشندى فى كتابه صبح الاعشى ، وغيرهم من المؤرخين يرد الإشارة إليهم فى ثنايا هذه الدراسة . ولقد غذت هذه الرسائل البحث بمادة وفيرة ، حيث ورد فيها الإشارة إلى مواقف الناصر صلاح الدين تجاه العديد من القضايا السياسية والاجتماعية ، هذا علاوة على ما ورد فيها من معلومات توضح دور بعض المنشآت المعمارية وأهداف بنائها ، وعن الأوضاع الاقتصادية فى أواخر العصر الفاطمى ، وفى عهد الناصر صلاح الدين ، جرى الإشارة إليها فى الفصول الثانى ، والثالث ، والرابع من الباب الأول ، وفى الفصلين الثالث ، والرابع من الباب الثانى .

ومن المصادر التى اعتمد عليها البحث كتاب البرق الشامى ، من تصنيف محمد ابن محمد بن حامد الكاتب الشهير بالعماد الأصفهانى ، وبابن أخى العزيز (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) نشأ فى فارس ، ومنها قدم إلى العراق حيث نال حظا وافر من العلم ، واشتغل هناك بصنعة الكتابة . وتقلب فى الوظائف الادارية . وكان على صلة بوالد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، الأمير نجم الدين أيوب [(١)] ، إلا أن اتصاله بصلاح الدين كان عن طريق القاضى الفاضل ، الذى أشار على الناصر باستخدامه ، ومن هنا بدأت علاقته بالناصر ، فأضحى كتابه الشخصى ، يرحل برحيله ، ويغشى مجالسه العلمية والسياسية والعسكرية ، وبوفاة الناصر صلاح الدين عام (٥٨٩ هـ / ١١٩٣م) انقطع العماد للتأليف فكان له عدة مصنفات ، من أهمها هذا الكتاب[(٢)] ،

---

(١) هو أبو الشكر أيوب بن شادى بن مروان الملقب بالملك الأفضل نجم الدين أيوب (ت ٥٦٨هـ / ١١٧٣م) ، اشتهر برجاحة الرأى والسداد فى التفكير ، ولى تكريت فى العراق فترة من الزمن وكان فى ولايته هذه قد اسدى معروفا للملك العادل نور الدين زنكى (٥٥٨ ـ ٥٦٩ هـ / ١١٥٤ ـ ١١٧٤م) فلما اضطر للخروج منها هو وأخوه أسد الدين شيركوه قصدا الملك العادل فى الموصل فأكرمهما واقطعهما اقطاعا حسنا ، واصبحا من جملة رجاله ، وكبار قادته . اشتهر بحب الخير والصلاح . عنه انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ١ / ٢٥٥ ـ ٢٥٩ .

(٢) عنه انظر : العماد الاصفهانى ، خريدة القصر ، (المقدمة) ، جـ ١ / ص : ك ـ م . ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، جـ ٤ / ٣٣٢ ـ ٣٣٣ . سعداوى ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، ص ١٩ ـ ٢٨ .

الذى يقع فى خمس مجلدات فقد معظمها [١] . بيد أن هذا الكتاب جرى اختصاره تحت عنوان « سنا البرق الشامى » [٢] . كذلك نقل عنه أبو شامة فى كتابه الروضتين الكثير من الأخبار والأحداث ، علاوة على ما نقله المقريزى ، والكتاب أشبه بالمذكرات الشخصية ، تناول فيها المؤلف الكثير من الأحداث والأمور التى واجهته وواجهت سيده الناصر صلاح الدين الأيوبى ، وأورد فيه أيضا العديد من رسائل القاضى الفاضل ، وهو ثرى فى معلوماته ، التى افادت البحث فى أكثر من جانب ، حيث انه تحدث عن الأوضاع التعليمية فى مصر فى تلك الأثناء ، وعن اهتمام الناصر صلاح الدين بهذه الأوضاع ، جرت الافادة منها فى الفصل الثانى من الباب الأول ، كذلك أورد معلومات عمرانية ومعمارية ، وفى غاية الأهمية ، أثرت مادة الفصلين الثانى والثالث من الباب الثانى .

ومن المصادر التى اعتمد عليها البحث أيضا كتاب نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين الفاطمية والصلاحية ، وهو من تصنيف أبو محمد المرتضى عبد السلام بن محمد بن الحسن بن الطوير الفهرى القيسرانى الكاتب المصرى ، الذى لم تورد المصادر أثناء حديثها عنه أى معلومات عن المؤلف ، وعن كتابه واقتصرت على ذكر اسم المؤلف وعنوان الكتاب فقط [٣] ، بيد انه من الواضح أنه عاصر أواخر العهد الفاطمى ، حيث ينقل عنه المقريزى ما يفيد بأنه كان متوليا ديوان الرواتب [٤] فى تلك الأثناء [٥] ، هذا

---

(١) بقى من هذا الكتاب المجلدان الثالث والخامس ، ولا يزال أولهما مخطوطا بمكتبة بلدوين بجامعة اكسفورد ، ويحمل رقم (١١) ، سعداوى ، م . س ، ص ٢٤ ، وأما ثانيهما فلقد قام رمضان شيشن بنشره وتحقيقه فى اسطنبول عام ١٩٧٩م .

(٢) قام أحد مؤرخى القرن السابع (٧هـ / ١٣م) وهو الفتح البندارى باختصار هذا الكتاب الذى نشرته وحققته فتحية النبراوى ، ونشر فى القاهرة ، وانظر أيضا الفتح البندارى ، سنا البرق ، ص ٧ .

(٣) المقريزى ، الخطط جـ ١ / ٣٨٦ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ، بيروت جـ ٢ / ١٩٤٧ .

(٣) ويختص بتسجيل عطاءات الجنود وجميع موظفى الدولة ويشمل بذلك أسماء المرتزقين من الجنود من استجد منهم ومن مات وغير ذلك . عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ، جـ ١ /١٩٢ .

(٥) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٩٨ .

علاوة على معاصرته لعهد الناصر صلاح الدين الأيوبى كما يشير إلى ذلك عنوان كتابه . ويعد هذا الكتاب من الكتب المفقودة فى الوقت الحاضر ، بيد أن هناك من المصادر من نقلت عنه الكثير من المعلومات حيث ينقل عنه القلقشندى ، والمقريزى ، ويتضح من فحوى هذه المنقولات أن المؤلف ركز فيه على الجوانب الادارية وما يرتبط بها من مراسيم وتنظيمات ، بيد أنه قصد بها مقارنة اوضاعها فيما بين العهدين الفاطمى والأيوبى ، كما يشير إلى ذلك أثناء حديثه عن رسوم الضيافة فى هذين العهدين .[1] ولقد كان لمادة هذا الكتاب دورا كبيرا فى اثراء مادة البحث ، خاصة فيما يتعلق بالتنظيمات الادراية والاقتصادية فى العصر الفاطمى ، بحيث أمكن من خلال متابعة التغيرات التى طرأت فى عهد الناصر صلاح الدين ، التعرف على جوانب هامة ارتبطت باقتصاديات المدينة فى تلك الأثناء ، كما سيتضح لاحقا فى الفصل الرابع من الباب الأول ، كذلك أفادت مادة هذا الكتاب فى التعرف على أثر المتغيرات الادراية على وظائف بعض المنشآت التى تعود للعصر الفاطمى ، والتى جرى استغلالها بصورة أخرى فى عهد الناصر صلاح الدين . كما سيتضح فى الفصل الثانى من الباب الثانى .

ومن المصادر التى اعتمد عليها البحث رحلة ابن جبير[2] ، لأبى الحسن بن جبير الكنانى الأندلسى (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧ م) من مشاهير الرحالة المسلمين . وكان له ثلاث رحلات إلى مشرق العالم الإسلامى ، نشأ بالأندلس وتلقى العلم على يد أبيه وعدد من علماء عصره ، ووصف بأنه كان أديبا بارعا وشاعرا مجيدا ، ذا خلق كريم . ولقد قام ابن جبير بتدوين كتابه هذا بدون أحداث رحلته الأولى ، التى بدأت عام (٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م) وانتهت عام ٥٨١ هـ / ١١٨٧م)[3] .

---

(١) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٦١ .

(٢) قام المستشرق رايت بتحقيق الكتاب والتعليق عليه ونشر عام ١٨٥٢م ثم اعيد طبعه فى بيروت عام ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م .

(٣) عنه انظر : ابن جبير ، الرحلة (المقدمة) ص ٥ ـ ٦ ، عبد القدوس الانصارى ، مع ابن جبير فى رحلته القاهرة ، ط . الأولى ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، ص ٢١ ـ ٥١ . ، زكى حسن ، الأعمال الكاملة ، جـ ٨ / ٧٠ ـ ٨٨ .

أما عن محتويات الكتاب ، فهى عبارة عن أوصاف لما شاهده هذا الرحالة فى البلد التى زارها حيث سجل أوضاع الدول ومظاهر العمران وصور الحياة ، وقد أفادت البحث كثيرا خاصة فيما يتعلق بأوضاع مصر وعاصمتها القاهرة ، فى عهد الناصر صلاح الدين ، فأمكن من خلالها التعرف على الكثير من الأوضاع الاجتماعية ، والاقتصادية ، والعمرانية ، والمعمارية ، تزودت منها معظم فصول الدراسة، فدخلت فى الفصلين الثانى والرابع من الباب الأول ، وجميع فصول الباب الثانى .

ومن المصادر التى اعتمد عليهاً البحث كتاب الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة وهو من تصنيف القاضى محيى الدين عبد الله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر بن نشوان السعدى المصرى (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م نشأ بالقاهرة وبها تعلم ، وتقلب فى المناصب الادارية ، فولى القضاء وديوان الإنشاء ، واعتبر من أجود كتاب عصره ، ومدحه معاصروه كثيرا . وكان له مؤلفات عدة منها كتابه هذا [(١)] ، الذى تناول فيه خطط القاهرة الفاطمية ومنشآتها ، وما طرأ عليها من تطورات عمرانية حتى عصره . وعلى الرغم من ان هذا الكتاب يعد من الكتب المفقودة فى الوقت الحاضر ، إلا أن هناك من المؤرخين من نقل عنه الكثير من المعلومات المتعلقة بخطط المدينة وعمرانها ، فلقد نقل عنه القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى كذلك نقل عنه ابن تغرى بردى ، فى كتابه النجوم الزاهرة ، علاوة على ما نقله المقريزى الذى اقتبس منه كثيرا فيما يتعلق بالقاهرة المعزية [(٢)] ، وان كان يلاحظ أنه أُنتقد فى صحة معلوماته ، حيث يقول عنه ابن تغرى بردى (... أنه لم يسلم من الاعتراض عليه فى

---

(١) عنه انظر : ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر الرياض ، ط : الأولى ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م . ص ٩ ـ ١٥ ، الكتبى محمد بن شاكر (، ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عبس . بيروت جـ ٢ / ١٧٩ ـ ١٩١ . اب تغرى بردى ، جمال الدين يوسف الاتابكى ، (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) ، النجوم الزاهرة فى ملو مصر والقاهرة ، تحقيق محمد رمزى ، القاهرة جـ ٨ / ٣٨ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، جـ ٥ ٤٢١ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، جـ ١ / ٩٢٥ ، محمد عبد الله عنان ، مصر الإسلام وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ط : الثانية ١٩٦٩م ، ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(٢) عنان ، م . س ، ص ٤٦ .

كثير مما نقله ، وأيضا مما سكت عنه .. »[١] . ولقد أفادت مادة هذا الكتاب البحث كثيرا ، وعلى وجه الخصوص فى الباب الثانى الذى دخلت المادة فى جميع فصوله .

ومن المصادر التى اعتمد عليها البحث أيضا مقدمة ابن خلدون [٢] والتى كانت مقدمة لكتابه التاريخى الكبير المعروف بالعبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، وهذا الكتاب من تصنيف المؤرخ الشهير عبد الرحمن بن محمد ابن محمد بن جابر الحضرمى الاشبيلى الأصل التونسى ثم القاهرى (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) وهو مؤرخ غنى عن التعريف . كانت نشأته فى تونس وهناك تلقى معارفه وعلومه ، ثم تقلب بعد ذلك فى المناصب الإدارية ، وكان له باع طويل فى السياسة ، وولى القضاء فى القاهرة فى أواخر عمره ، وكانت له تصانيف عدة من أشهرها مقدمته [٣] التى حظيت باهتمام عالمى واسع النطاق ، كأحد روائع الفكر الإنسانى ، ولقد احتوت مقدمته على العديد من المباحث والنظريات التى تتناول شؤون الاجتماع الإنسانى وعوارضه ، وتناقش مسائل العمران ، والتمدن البشرى ، من مختلف الجوانب ، والحقيقة فإن أهمية هذه المقدمة تكمن فيما يرد فيها من عرض للعلل والأسباب ، التى نبعت منها ظواهر العمران البشرى ، وبالتالى فهى تمثل قواعد منطقية ، ونظريات علمية ، تسهم فى فهم حركة الحضارة والعمران . ونظرا لانتماء المقدمة إلى بيئة الحضارة الإسلامية ، فمن المؤكد أن نظرياتها تعكس فى مجملها التفاعل الحضارى الذى ظهر فى هذه البيئة ، حيث ان الفكر الإنسانى يعبر فى كثير من الأحيان عن الواقع الذى ينبت فيه [٤] . وبالتالى فإن اعتماد

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٤ / ٤١ .

(٢) طبع هذا الكتاب طبعات عدة وجرى الاعتماد هنا على طبعة بيروت وهى غير مؤرخة .

(٣) عنه انظر الشوكانى محمد بن على (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، بيروت جـ ١ / ٣٣٧ ، سفيتلانا باتسييفا ، العمران البشرى فى مقدمة ابن خلدون ، ترجمة رضوان إبراهيم ، تونس ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨م ، ص ٥٥ ـ ٨٨ .

(٤) أحمد زايد ، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية ، القاهرة ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ١٥ .

نظريات المقدمة فى دراسة بيئة الحضارة الإسلامية أمرا لا غنى عنه على الاطلاق ، وعليه جرى الاستفادة من نصوص المقدمة فى توضيح الكثير من الجوانب الإنسانية والعمرانية ، التى تطرقت إليها الدراسة ، حيث تم من خلالها التنبيه إلى الفكر العمرانى عند المسلمين ، وما وصلوا إليه من تصورات فى هذا المجال ، وهو ما تم ايضاحه فى تمهيد الباب الأول وكذلك دخلت مادة المقدمة فى تفسير طبيعة مواقف الناصر صلاح الدين تجاه بعض العناصر الاجتماعية ، وذلك من خلال تبيان المقومات التى تقوم عليها السلطة ، كما وردت فى المقدمة ، وهو ما سيرد لاحقا فى الفصل الثانى من الباب الأول . كذلك كان لنظريات المقدمة ، دورا فى تفسير بعض التطورات الاقتصادية التى طرأت خلال فترة الدراسة ، كما سيرد فى الفصل الرابع من الباب المذكور ، هذا علاوة على دورها فى توضيح طبيعة التطور الذى من الممكن أن تتعرض له المنشآت فى حال توفر ظروف معينة ، كما سيرد فى الفصل الثالث من الباب الثانى.

ومن المصادر التى اعتمد عليها البحث كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، من تصنيف صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى الشهير بابن دقماق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) ، الذى ينتمى فى نسبه إلى طائفة المماليك حيث كان والده من امراء دولتهم ، نشأ وترعرع فى القاهرة ، وتزود من العلم ، وحصل منه على جملة وافية فى الفقه والأدب والتاريخ ، الذى كتب فيه كثيرا ، حتى بلغ ما كتبه مائتى سفر ، من أهمها كتابه هذا [١] الذى يتكون من مجلدات عدة [٢] ، تتضمن الجغرافيا العمرانية والاقتصادية ، لأقاليم مصر وما تتضمنه من مدن وقرى [٣] . ولقد وصلنا من خلال هذا الكتاب معلومات جيدة عن الفسطاط وخططها ومنشآتها ، وما

---

(١) عنه انظر : ابن دقماق ، الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، مكة المكرمة (المقدمة) ص ٨ - ١٥ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، جـ ٧ / ٨٠ - ٨١ ، عنان ، مصر الإسلامية ، ص ٤٨ .

(٢) فقدت غالبية هذه المجلدات ولم يبق منها سوى مجلدين ، طبعا طبعا مختلفة ، جرى الأعتماد على طبعة بيروت التى تتضمن تعليقات وفهارس قام بوضعها لجنة احياء التراث العربى فى دار الأفاق الجديدة ، وانظر أيضا : عنان ، ن . م . س وهامش (٣) من نفس الصفحة .

(٣) عنان ، ن . م . س .

يجاورها من المواضع مثل التلال ، والبرك والخلجان ، وان كان يغلب على معلوماته الاقتضاب إلى حد بعيد ، إلا أنه أفاد البحث كثيرا ، حيث استفاد منه فى الفصل الأول من الباب الأول ، وفى الفصل الأول والثانى والثالث من الباب الثانى .

ومن المصادر التى اعتمد عليها البحث كتاب صبح الأعشى فى صناعة الانشا [١] من تصنيف ابن العباس أحمد بن على بن أحمد القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، درس الفقه فى أول أمره ثم اهتم بالأدب ، وخاض بعد ذلك غمار الوظائف الحكومية ، حتى تبوأ مناصب رئيسية فيها [٢] .

أما عن مؤلفه صبح الأعشى والذى يقع فى أربعة عشر مجلدا ، فمن الواضح أن هذا الكتاب قد وضعه لمن يختصون بصنعة الكتابة للعمل فى دواوين الدولة ، الا أن فائدته فى الدراسة ظهرت فيما احتواه من معلومات مفصلة عن مصر ومدنها ، وعلى الأخص تلك التى ترد عن القاهرة ، هذا علاوة على ما احتواه من معلومات ادارية ، وضح فيها الأوضاع الادارية ومراسيمها فى العصر الفاطمى ، والمملوكى ، حيث يعد الأخير امتدادا فى حضارته لما كان عليه الحال فى عهد الأيوبيين ، وبالتالى فإن ما يرد عنه من معلومات يمكن اعتباره بشكل أو بآخر ، ذو جذور أيوبية ، ولذلك فلقد جرت الإفادة من هذا الكتاب فى الكثير من فصول البحث ، خاصة الفصل الرابع من الباب الأول ، والفصول الأول والثانى والثالث من الباب الثانى .

ومن المصادر التى اعتمد عليها البحث كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية [٣] من تصنيف أبى العباس تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) الذى يعود فى اصله إلى

---

(١) طبع هذا الكتاب فى القاهرة عن نسخة مصورة للمطبعة الأميرية وزود بتصويبات واستدراكات ومقدمة جيدة بقلم محمد عبد رب الرسول .

(٢) عنه انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى (المقدمة) جـ ١ / ١٩ ـ ٢٤ . ابن تغرى بردى ، الدليل الشافى على المنهل الصافى ، تحقيق فهيم شلتوت ، القاهرة جـ١ / ٥٥ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، جـ ٧ / ١٤٩ ، كحالة ، معجم المؤلفين ، جـ ١ / ٣١٧ .

(٣) طبع هذا الكتاب طبعات عدة ، وجرى الاعتماد على طبعة بيروت ، وهى على جزئين .

الأسرة الفاطمية ، وكانت أسرته تقطن فى إحدى مدن جبل لبنان حيث كان مولده ، ولي في القاهرة وظائف عدة ، وقام بالتدريس مرارا ، وحمدت سيرته في مباشراته كلها ، تتلمذ على يد ابن خلدون ، وكان يحبه ويجله كثيرا [١] ، وله مؤلفات عديدة ، جرت الأفادة من بعضها ومن أهمها كتابه الخطط ، الذى يعد موسوعة متكاملة عن تاريخ مصر وجغرافيتها ، فاحتوى على الكثير الوافر من المعلومات التى تخص هذا الاقليم من سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، علاوة على كونه يمثل القمة في مجال التأليف فى الخطط ، وان كان من الواضح ان الكتاب لم يصلنا متكاملا كما أراد مؤلفه [٢] .

ولقد أثرى هذا الكتاب الدراسة كثيرا ، بل انه بالإمكان اعتباره المصدر الأساسى فيها ، فلا يخلو فصل من فصولها الا وكانت مادة هذا الكتاب جزءاً رئيسيا فيه ، وعلى الأخص تلك الفصول التى تتناول الجوانب العمرانية . التى اعتمدت بشكل يكاد أن يكون متكاملا على هذا الكتاب .

---

(١) عنه انظر ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، جـ ٧ / ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ، الشوكانى ، البدر الطالع ، جـ١ / ٧٩ ، ٣٣٨ ـ ٣٣٩ ، عنان ، مصر الإسلامية ، ص ٤٩ ـ ٦١ . مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى ، القاهرة ، ص ٨٥ ـ ١٠٤ .

(٢) عنان ، مصر الإسلامية ، ص ٥٤ .

تمهيد

يعتبر ظهور الدولة الأيوبية ، من الأحداث الرئيسية فى تاريخ الأمة الإسلامية ، نظرا لما قامت به من دور كبير فى مواجهة الهجمات الصليبية التى استهدفت الإسلام(١) .

ومن الواضح أن قيام هذه الدولة ، إنما كان امتداد للدولة الزنكية ، حيث كان والد الناصر صلاح الدين الأيوبى الأمير نجم الدين أيوب (٢) ، وأخوه أسد الدين شيركوه (٣) ، من كبار رجال الملك العادل نور الدين زنكى (٤) ، وتحت قيادة أسد الدين شيركوه دخلت القوات الزنكية مصر ، ومن هناك بدأ دور الأسرة الأيوبية بالظهور على ساحة الأحداث ، بالسيطرة على مقاليد الأمور فى مصر ، عندما تولى أسد الدين الوزارة للفاطميين ، بعد قتل الوزير شاور (٥) . غير أن اسد الدين لم يلبث أن توفى بعد ذلك ببضعة أسابيع ، ليتولى من بعده الوزارة ابن أخيه الناصر صلاح الدين الأيوبى (٦) ، الذى تمكن من القضاء على الحكم الفاطمى عام (٥٦٧ هـ /

---

(١) على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية فى مصر ، القاهرة ، ط / الأولى ١٩٥٢م ، ص : ٩٤ ، الباز العرينى ، مصر فى عصر الأيوبيين ، القاهرة ، ص ١٠٠ .

(٢) سبق ذكر ترجمته .

(٣) سبق ذكر ترجمته.

(٤) على بيومى ، م . س ، ص ٥ ، والملك العادل نور الدين ، هو أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكى (٥٥٨ ـ ٥٦٩هـ / ١١٥٤ ـ ١١٧٤م) من مشاهير حكام المسلمين فى عصر الحروب الصليبية ، وكان له معهم وقائع مشهورة ، وفتح الفتوحات ، عرف بحب الخير والميل للعدل ، والحرص على عمارة البلاد ، عنه انظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٥ / ١٨٤ ـ ١٨٨ .

(٥) هو ابو شجاع بن مجير بن عشائر بن شأس السعدى (٥٥٨ ، ٥٥٩ ـ ٥٦٤هـ / ١١٦٢ ، ١١٦٣ ـ ١١٦٨م) كان فى بادئ الأمر واليا على الصعيد الأعلى ثم استولى على الوزارة بالقوة من آل زريك ، إلى أن انتزعها منه ضرغام اللخمى (٥٥٨ ـ ٥٥٩هـ / ١١٦٢ ـ ١١٦٣م) ، فلجأ إلى الملك العادل نور الدين زنكى يعينه على استعادة مركزه فكان ذلك بداية التدخل الفعلى للملك العادل فى شئون مصر . ولينتهى الأمر بقتل هذا الوزير وبسط النفوذ الزنكى على هذه البلاد . انظر : عمارة اليمنى ، أبو محمد نجم الدين عمارة بن أبى الحسن الحكمى (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) . النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية ، تحقيق هر نويغ درنبرغ . بشالون ، ١٨٩٧ م ص ص ٦٧ ـ ٧٣ ، ٧٨ ـ ٩٣ . ابن خلكان ، م . س ، ٢ / ٤٣٩ ـ .

(٦) ابن الأثير ، أبى الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى ، (ت ٦٣٠هـ /١٢٣٢م)، الكامل فى التاريخ ، عنى بنشره ومراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء . بيروت، ط . الثانية ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، جـ ٩ / ٩٩ ـ ١٠٢ .

١١٧١ م) [١] اضافة إلى دوره فى توحيد الجبهة الإسلامية وقيامه بطرد الصليبيين من معظم الاراضى التى كانوا يحتلونها فى بلاد الشام وفلسطين ، وعلى الأخص من بيت المقدس[٢].

أما عن القاهرة الصلاحية ، فلقد أسسها الفاطميون بعد أن تمكنوا من الاستيلاء على مصر عام (٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م) [٣] ، حيث بنوا هذه المدينة لتكون مقرا للخليفة وحاشيته وجنده المخلصين [٤] ، وجعلوها تقع إلى الشمال من عواصم مصر الإسلامية القديمة [٥] ، وهى الفسطاط[٦] ، والعسكر [٧] والقطائع [٨] . وظلت كذلك إلى أن تمكن الناصر صلاح الدين من تأسيس دولته فى هذه البلاد ، حيث دخلت المدينة فى عهده فى متغيرات وتطورات حضارية وعمرانية سيتم الإشارة إليها بالتفصيل فى أبواب الدراسة وفصولها .

---

(١) ابن الأثير ، م . س ، ٩ / ١١١ .

(٢) للمزيد انظر الفصل الثالث من الباب الأول.

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٤ / ٣١ ـ ٣٢ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٣٦٤ ، سعاد ماهر ، القاهرة ، ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٥) عبد الرحمن زكى ، القاهرة ؛ تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، القاهرة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م ، ص ٩ .

(٦) اسست الفسطاط على يد فاتح مصر عمر بن العاص رضى الله عنه فيما بين عامى (١٨ ـ ٢٠هـ / ٦٤٠ ـ ٦٤١م) لتكون مقرا لقوات الفتح الإسلامى بمصر ، ومقراً للإدارة والحكم فيها ، انظر : ابن دقماق : الأنصار ، ق ١ / ٢ ـ ٣ . عبد الرحمن زكى ، الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع ، القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٥ ـ ٦ . حواضر العالم الإسلامى ، القاهرة منارة الحضارة الإسلامية ، القاهرة ، ص ١ .

(٧) قام بنى العباس بعد قضائهم على حكم بنى أمية عام ١٣٢هـ / ٥٧١م ببناء هذه المدينة إلى الشمال من الفسطاط فى عام (١٣٣هـ / ٧٥٢م) ، المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٠٤ ، عبد الرحمن زكى ، الفسطاط ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٨) اسست هذه المدينة على يد أحمد بن طولون (٢٥٤ ـ ٢٧٠هـ / ٨٦٨ ـ ٨٨٣م) وابتدأ بنائها عام (٢٥٦هـ / ٨٦٩م) واختير موقعها إلى الشمال من الفسطاط والعسكر ، تحت الشرف الذى تقع عليه قلعة الجبل الآن ، ابن دقماق ، م . س ، ق ١ / ١٢١ .

الباب الأول

عوامل التطور العمرانى

تمهيد

تعريف المدينة وعوامل نشأتها وتطورها

لا بأس ونحن بصدد التطرق إلى أهم العوامل التى أثرت على التطور العمرانى للقاهرة فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، أن نلقى بعض الأضواء على المدينة كوحدة عمرانية وحضارية . بالإضافة إلى عوامل نشأة المدينة وتطورها بشكل عام ، وعلى الرغم من أن للمدينة واقعا حضاريا وعمرانيا ملموسا ، فإن الدارسين لم يتفقوا على تعريف محدد لها [(١)] .

وفى اللغة ، فإن المدينة لفظ مأخوذ من « مدن بالمكان » ، أى أقام به . وهى على وزن فعيلة ، كذلك تطلق المدينة على « .... الحصن يبنى فى أصطمة [(٢)] الأرض» [(٣)] . والمدينة أيضا لفظ يطلق على الأمة [(٤)] .

وهناك من يقول ، بأن لفظ المدينة مشتق من « دان » اذا أطاع والميم فى كلمة المدينة زائدة . ذلك أن السلطان يسكن المدينة ، فتقام له فيها الطاعة [(٥)] .

بيد أن بعض الباحثين المعاصرين ، يرى أن كلمة المدينة أتت من أصل لغوى غير عربى ، وأنها قد تكون آرامية أو سريانية الأصل [(٦)] .

وعلى أية حال فإن دلالة الأسم تشير إلى أن اللفظ قد ارتبط بمعان عدة . منها الدلالة على الإقامة أو السكنى فى المكان ، إضافة إلى أنه مؤشر إلى مركز السلطة ، أو المكان الذى يتمتع بنوع من الحماية [(٧)] .

---

(١) ـ فادية عمر الجولانى : علم الاجتماع الحضرى ، الرياض ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص ٥

(٢) الأصطمة معظم الشيء . الزبيدى : محب الدين محمد مرتضى الحسينى تاج العروس من جواهر القاموس ، القاهرة ١٣٠٦هـ ، ٣٦٤/٨ .

(٣) الزبيدى : م . س ، ٣٤٢/٩ .

(٤) ن . م . س .

(٥) محمد محمود محمدين : التراث الجغرافى الإسلامى ص ٣٠٣ .

(٦) محمد محمود محمدين : م . س . ص ٣٠٤ ، مصطفى عباس الموسوى : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ، بغداد ١٤٠٢هـ/١٩٨٢، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

(٧) محمد محمود محمدين : م . س . ص ٣٠٤ .

ولقد أفرز الفكر العمرانى الإسلامى عددا من التعريفات ، حيث تناول الفقهاء والجغرافيون والمؤرخون المسلمون ، مصطلح « المدينة » من جوانب مختلفة ، وهى تعكس فى مجملها محاولات جادة لتحديد هوية المدينة ، على اعتبار أنها مظهر حضارى وعمرانى . وقد أطلقوا عليها أيضا لفظ « المصر » الذى هو عندهم ، كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويتخذه الحاكم مقرا له وينفق عليه [١] .

وهناك من يقترح وجود علاقة بين المدينة وبعض المظاهر الحضارية كالمسجد الجامع مثلا ، فالمقدسى يذكر أنه كان ببلاد ما وراء النهر قرى لا يعوزها من رسوم المدن وآلاتها إلا الجامع [٢] .

وهناك من يشترط أن يكون للمدينة سور يميزها عن القرية [٣] .

وينظر السمهودى إلى المدينة نظرة كمية ، فهى عنده عبارة عن عدد من المساكن يزيد عما هو موجود بالقرية ، وبالمقابل فهو يرى بأن عدد مساكن المدينة ، يقل عن عدد مساكن المصر [٤] .

وعلى كل فإنه من الواضح ، أن نظرة المسلمين إلى المدينة لم تكن قاصرة على المظاهر العمرانية فقط ، اذ من المؤكد بأنها تجاوزت ذلك المفهوم فشملت الجانب الإنسانى الدقيق . ذلك أنهم نظروا إلى نشأة المدينة وقيامها كظاهرة إنسانية عامة، من خلال الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى تواجه الإنسان ، وعليه فإن المدينة تعبر عن حالة اجتماعية واقتصادية ، وأمنية .

فيرى قدامة بن جعفر بأن ظهور المدينة ، نتج عن حاجة الإنسان إلى التعايش مع

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٤٧ .

(٢) المقدسى : م . س : ص ١١٣ ، انظر أيضا : محمد محمود محمدين : التراث الجغرافى الإسلامى ، ص ٣٠٤ .

(٣) القزوينى : زكريا بن محمد محمود ت ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٨ م ، آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ص ٧ .

(٤) نقلا عن محمد محمود محمدين : ن . م . س .

الجماعة ، ذلك التعايش الذى تفرضه ضروريات الحياة ، حيث تكيف الإنسان فظهرت المدن والأمصار [(١)] . وتابعه فى ذلك أيضا القزوينى [(٢)] .

أما ابن خلدون فإنه يرى بأن التطور الإنتاجى عند الإنسان ، والارتقاء بمستواه الحضرى ، هو العامل الحاسم لظهور المدينة والتمدن [(٣)] .

بيد أن هذا العامل لا يتبلور وتظهر فعاليته الا بتطور النظام الاجتماعى للإنسان ، وعليه فإن ظهور مؤسسات الحكم التى عبر عنها ابن خلدون باسم « الملك » ، وهو الذى قاد المجتمعات الإنسانية نحو التمدن [(٤)] .

وعلى الرغم من التعريفات آنفة الذكر ، ـ وهى ما تتميز بالوضوح والدقة ـ فإن التمييز الدقيق بين المدينة والريف ، لم يزل من المشكلات الشائكة لكثير من المتخصصين [(٥)] ، ولعل مرد ذلك أن الفروق الأساسية بين كل من المدينة والريف ، لا تظهر بوضوح الا فى الدرجات القصوى لتكوين كل منهما [(٦)] .

ويرى الاجتماعيون فى العصر الحديث ، بأن التمدن هو تعبير عن تمركز سكانى

---

(١) قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادى ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٨ م. الخراج وصناعة الكتابة ، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدى ، بغداد ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م . ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣ .

(٢) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٧ ـ ٨ .

(٣) انظر : هشام جعيط : نظرة ابن خلدون للمدينة ومشكلة التمدين (بحث ألقى ضمن فعاليات ندوة ابن خلدون والفكر العربى المعاصر المنعقده فى تونس فى عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م تحت رعاية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . والمنشورة فى كتاب يحمل عنوان الندوة ، تونس ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م ص : ٤٩٤ .

(٤) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الأشبيلى : مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، المشهورة بمقدمة ابن خلدون ، بيروت ط . الخامسة ٣٤٢/١ ـ ٣٤٣ .

(٥) جون كلارك : جغرافية السكان ، ترجمة محمد شوقى إبراهيم مكى الرياض ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤ م ص ٨٣ .

(٦) أحمد على إسماعيل : دراسات فى جغرافية المدن ، القاهرة ط . الثانية ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م . ص ١٦ .

منظم ، يعيش فيه الناس فى حالة تفاعل اجتماعى واقتصادى ويتمتعون بادارة عامة ، وتسهيلات تتناول جوانب الحياة المختلفة [١] .

بينما لجأ غيرهم من الدارسين إلى أسس مختلفة ، فى تعريفهم أو تصنيفهم للمدينة ، قد تعكس اختصاصات كل منهم إلى حد بعيد .

فهناك الأسس الاحصائية ، التى تعتمد على نوعين من الاحصاء السكانى وهما الحجم والكثافة . فالحجم يقوم على أساس المقياس العددى لمنطقة من المناطق السكانية، فإذا تجاوز العدد السكانى فى موقع ما حدا معينا ، فعند ذلك يجرى اعتبار ذلك الموقع « مدينة » [٢] ولقد اتفقت الهيئات الدولية « الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة » على أن المدينة هى كل تجمع سكانى يزيدعدد أفراده عن عشرين ألف نفس[٣] .

أما الكثافة ، فترتبط بمقدار عددى معين يكون محصورا ضمن مساحة معينة ، وهى على نوعين : الكثافة الكلية التى تنسب مجموع عدد السكان فيها إلى مساحة الموقع العمرانى . والكثافة الصافية التى تؤخذ على أساس نسبة الكثافة السكانية إلى مساحة المنطقة المبينة [٤] .

ومن الأسس التى لجأ إليها بعض الباحثين فى تصنيفهم أو تعريفهم للمدينة ، الأسس الاقتصادية ، وهذه النظرة هى محاولة للبحث عن اطار وظيفى يمكن من خلاله تحديد « المدينة » [٥] .

والسبب فى ذلك أن المدينة تتجاوز فى أهميتها عندهم مجال المساحة التى

---

(١) جون كلارك : ن . م . س .

(٢) جمال حمدان : جغرافية المدن ، القاهرة . ط الثانية ص ٥ ـ ٦ .

(٣) عبد المنعم شوقى : مجتمع المدينة (الاجتماع الحضرى) ، القاهرة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م. ص ٢٥ .

(٤) أحمد على إسماعيل : دراسات فى جغرافية المدن ص ١٩ .

(٥) جمال حمدان : جغرافية المدن ، ص ١٠ ـ ١١ .

تشغلها، أو عدد السكان القاطنين بها ، بل إنها تحتوى على مجالات متعددة للعمل والإنتاج ، يرتبط بكل منهما أدوار اقتصادية متنوعة [١] .

وقد يكون للاعتبارات الادارية دور فى تحديد تعريف « المدينة » ، اذ غالبا ما تقوم بعض الحكومات بوضع تحديدات معينة لغرض تنظيم بعض التجمعات العمرانية ، وتلك التحديدات تؤدى إلى اعتبار بعض التجمعات « مدينة » تمييزا لها عن غيرها وهو ما يمكن أن نعبر عنه « بالإطار القانونى » للمدينة [٢] .

وعلى أية حال ، فإن الأسس السابقة تعتبر الأسس الرئيسية فى تصنيف أو تحديد تعريف « المدينة » ، الا أن هناك بجانب ذلك وإضافة إليه أسساً أخرى معتبرة، وان كانت تقل عن الأولى فى أهميتها منها مثلا :

الأساس الشكلى ، اذ أن المدينة تختلف فى مظهرها وشكلها الخارجى عن الريف، من حيث التنظيم وتوزيع أوجه النشاط الإنسانى ، الذى يتركز فى مناطق محددة فى المدينة ، فالتجارة والصناعة لها أماكنها المحددة ، كذلك الأمر بالنسبة لمراكز الادارة أو المتنزهات وغيرها [٣] .

ويلى الأساس الشكلى فى الأهمية ، الأساس التاريخى ، فقد يعرف موقع تجمع سكانى عمرانى معين بلفظ « المدينة » ، نتيجة لظروف تاريخية مر بها ، وهكذا يبقى الاسم العلم محتفظا بدلالته على المكان [٤] .

ولقد حاول بعض الباحثين ، وضع تقسيمات للمدن تميز بعضها عن البعض الأخر ، معتمدين على أساس الأعمال التى تؤديها كل من تلك المدن ، فصنفوها إلى مدن سياسية ، وأخرى تجارية وثالثة صناعية ، وهكذا [٥]

---

(١) أحمد على إسماعيل : م . س . ص ٢١ ـ ٢٢ .

(٢) أحمد على إسماعيل : م . س . ص ٢٣ .

(٣) أحمد على إسماعيل : م . س . ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٤) جمال حمدان : جغرافية المدن ص ٩ .

(٥) أحمد على إسماعيل : م . س . ص ٢١ .

بينما تقوم بعض التقسيمات التى اعتمدها باحثون آخرون للمدن على أساس درجة تقدمها الحضارى . وهم يستندون فى ذلك على « نوع » و « كمية » الخدمات التى تؤديها المدينة لسكانها (١) .

والواقع فإن ابن خلدون ، أشار إلى هذا التصنيف ، إذ اعتمد فروقا بين المدن تتناسب مع المستوى الحضارى لكل منها ، وان كان يميل إلى اعتبار أن العاصمة المصر » تمثل القمة فى هذا المجال (٢) .

ومن خلال العرض السابق للتعريفات والأسس التى يقوم عليها تصنيف المدن وتحديد أنواعها ، يتضح أن المدينة عبارة عن وحدة عمرانية ، تتميز بأنها المحور أو المركز الذى تتكتل فيه الكثافات السكانية ، والنشاط الحضرى للإنسان ، إضافة إلى ما تتميز به من مظاهر تنظيمية وانشائية .

وتعد ظاهرة نشأة المدن من المسائل الشائكة فى الفكر الإنسانى المعاصر ، فقد دأب المفكرون على معالجتها كل حسبما تمليه تصوراته من آراء وأفكار (٣) .

فإذا كان لظهور النشاط الحضرى للإنسان عوامل وبواعث (٤) ، فإنه من الطبيعى القول بأن ظهور المدينة أو تطورها ـ هى عملية حضارية ـ تحتاج إلى عوامل وبواعث أيضا (٥) . ولقد ظهرت العديد من الآراء أو التصورات التى تحاول أن تبين العوامل والدوافع التى أدت إلى ظهور المدينة وتطورها ، ومما تجدر ملاحظته ، أن بين الباحثين

---

(١) عبد المنعم شوقى : مجتمع المدينة (الاجتماع الحضرى) ص : ٣١ : ٣٢ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ٣٦٠/١ ـ ٣٦٢ ، ٣٦٩ .

(٣) هشام جعيط : نظرة ابن خلدون للمدينة ومشكلة التمدن ، ابن خلدون والفكر العربى المعاصر ، ٤٩٢ ـ ٤٩٣ .

(٤) أرنولد توينبى : مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد محمد شبل ، مراجعة محمد توفيق غربال ، القا ١٩٦٦ م / ١ / ١١٢ .

(٥) عبد الرحمن فهمى : دراسات فى الحضارة الإسلامية ، مذكرات مطبوعة تحتفظ بها مكتبة ق التاريخ فى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية فى جامعة أم القرى ـ بمكة المكرمة تحت رقم (٥ ص ٣٦ .

من يمييز بشكل دقيق بين عوامل ظهور المدينة وبين عوامل تطورها [١].

والحقيقة فإن وضع تصنيف معين يمكن من خلاله توضيح العوامل التى أدت إلى نشأة المدن ، والأخرى التى أدت إلى تطورها ، أمر فى غاية الصعوبة ، اذ أن العلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة تشمل جوانب الحياة ، ولذلك فإن كل مظهر حضارى ينتج عن تلك العلاقة لا بد وأنه يتأثر بأوجهها المختلفة ، كما ويكون له أثره التالى فى عملية التطور التى تصبح كبيرة التعقيد إلى درجة يصعب معها ايجاد العلاقات السببية وما ترتب عنها ، وبالتالى فإن عوامل نشأة المدن قد تكون أيضا عوامل فاعلة لها أثرها الكبير فى احداث التطور الواقع .

وعلى أية حال فلقد تعددت وتنوعت وتشابكت مثل هذه العوامل فكان منها ما هو مرتبط بالنواحى الدينية العقدية للإنسان ، كما أن منها ما هو مرتبط بالجوانب الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية .، ولا يخلو الأمر قطعا من التداخل الكبير فيما بين هذه العوامل جميعا ، وبدرجات متفاوتة تختلف من مدينة إلى أخرى[٢] . ولعل من المناسب أن نلقى بعض الأضواء على أبرز هذه العوامل :

العوامل الدينية :

العلاقة بين الدين والمدينة علاقة وثيقة [٣] ، فلقد كان له دور كبير فى تأسيس العديد من المدن فى العصور القديمة ، ويعتقد بعض الباحثين بأن السومريين لم يؤسسوا مدنهم الا لغرض العبادة ، فلم يكن لهم غرض آخر كالحكم أو التجارة ، كما كان للمدن صبغة دينية عند الآشوريين والفراعنة [٤].

---

(١) لقد ميز الموسوى بين عوامل نشأة المدينة وعوامل تطورها ، فجعل هناك عوامل أدت لنشأة المدينة وأخرى لتطويرها . انظر مصطفى عباس الموسوى : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ص ٥٣ ـ ٣٣٣ .

(٢) فادية الجولانى : علم الاجتماع الحضرى ص ١٣٠ .

(٣) مصطفى عباى الموسوى : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ص ١٥٧

(٤) جمال حمدان : جغرافية المدن ١٧٥ .

وعادة ما تنشأ المدن الدينية حول نواة صغيرة تكون فى الأصل مركزا للعبادة لتتولد بعدها التجارة والصناعة ، الا أن النشاط المدنى فى مثل هذه المدن يظل مصبو بالصبغة الدينية [١] .

وبالنسبة للدين الإسلامى ، الذى يبز غيره من الأديان ، من حيث أثره الكب والبارز فى تأسيس المدن ، فلقد تميزت تشريعاته بكونها تحفز على التعاون والاستق والحياة الحضرية [٢] .

ولا شك بأن هذا ينعكس فى مدى عناية المسلمين بنشر العمران فى الأقطار ال دخلوها ، حيث قاموا بإنشاء العديد من المدن الجديدة التى بلغ عددها مع نه العصر الأموى نحو خمس وعشرين مدينة [٣] ، تحول بعضها إلى أكبر مدن العا فى ذلك الوقت ، حيث شكلت فى مجموعها « ... الهيكل المادى للعا الإسلامى ... » [٤] .

ولم يقتصر أثر المسلمين فى صدر الإسلام الأول على الدعوة إلى تأسيس الم والشروع فى ذلك ، بل تعداه إلى تعميق وابراز أثر عقيدتهم على تلك المدن ، حيث البنية والتخطيط .

فالجامع وما يمثله فى حياة المسلمين باعتباره مركزا للعبادة والادارة والالتقاء [٥] يعد النواة أو المركز الأساسى الذى تجتمع حوله المنازل [٦] والأسواق [٧] . وكان لذل

---

(١) مصطفى عباس الموسوى : م . س . ص ١٥٩ .

(٢) ن . م . س . ص ١٥٨ .

(٣) حسن الباشا : المدخل للآثار الإسلامية ، القاهرة ص ٥٥ .

(٤) موريس لومبارد : الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولى ، ترجمة الرحمن حميده ، دمشق ص ١٦١ .

(٥) أحمد شلبى : موسوعة النظم والحضارة الإسلامية (التربية الإسلامية نظمها ـ فلسفتها ـ تاريخ القاهرة ط . السادسة ١٩٧٨ م ، ٥/ ١٠٢ .

(٦) محمد محمود محمدين : التراث الجغرافى الإسلامى ص ٣٠٢ .

(٧) نيكتيا اليسييف : التخطيط المادى ، بحث ألقى ضمن فعاليات حلقة التدارس عن المدينة الإسلا التى عقدت بمركز الشرق الأوسط ، التابع لكلية الدراسات الشرقية فى جامعة كمبردج بالمملك

الأثر فى بلورة مفهوم واضح لفكرة تخطيط المدينة عند المسلمين ، حيث أصبح المسجد الجامع هو النقطة المركزية الذى تتجمع حوله الوحدات العمرانية للمدينة ، بشكل منسق ومتماثل ، والذى تتفرع من حوله الطرق الأساسية باتجاهاتها المختلفة[١] .

العوامل الجغرافية :

ان تأثير البيئة على المدينة يستمد من علاقة الإنسان بالأرض وتكويناتها بالإضافة إلى المناخ وخصائصه .

فالإنسان ليس كغيره من المخلوقات فهو بفضل ما وهبه الخالق سبحانه وتعالى من خصائص عقلية وبدنية كرمه بها [٢] ، أهله لأن يكون أكثر قدرة على التأثير فى علاقته مع الوسط الطبيعى المحيط به [٣] ، وتسخيره لخدمته واستعماره لمصلحته واستثماره لأغراضه .

وعلى الرغم من أن تأسيس المدن وتطورها يعد عملا إنسانيا بالدرجة الأولى ، فإن هذا العمل لا يخلو من التأثيرات البيئية [٤] . وبالتالى فلا بد أن يؤثر الموقع والمناخ عل تخطيط المدينة ، وتفصيلات وحداتها السكنية إضافة إلى شكلها الخارجى [٥] .

ويقترح جغرافيوا المدن مصطلحين ، يرون أنه تكمن فيهما الدوافع التى تسهم ظهور المدن وتطورها ، هما الموقع والموضع .

= المتحدة ، تحت رعاية اليونسكو ، نشرت فى كتاب يحمل عنوان الحلقة ، بإشراف ر . ب . سرج ترجمة أحمد محمد ثعلب ، اليونسكو ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م ص ١٠٧ .

(١) عبد الرحمن فهمي : دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ٣٥ .

(٢) أشارت الآيات الكريمة إلى تكريم الله سبحانه وتعالى لبنى آدم ، قال تعالى ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ [الاسراء آية ٧٠] .

(٣) قال تعالى ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ﴾ [الحج آية ٦٥] . انظر أيضا عبد الفتاح محمد وهبة : جغرافية الإنسان ، القاهرة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ص ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٤) مصطفى عباس الموسوى : م . س . ص ١٩٩ .

(٥) ن . م . س .

فالموقع يعنى بدراسة علاقة المدينة بالوسط المحيط بها[١] ، وما يربطها بالأقاليم المجاورة ، وبما وراء هذه الأقاليم من طرق ومواصلات ودور ذلك كله فى ظهور المدينة وتطورها[٢] .

وأما الموضع ، فهو ما يتميزبه المكان الذى تقوم عليه المدينة ، وهو تمييز يعنى بالصفات والخصائص الطبيعية ، كتلك التى توفر للمدينة نوعا من الحماية تساعد فى الدفاع عنها[٣] .

ولقد عرف المسلمون أهمية الموضع بالنسبة للمدينة ، وكان لهم فيه نظرة متعمقة ، وتؤكد المصادر التاريخية الموثوقة وجود عوامل بيئية ومناخية أثرت فى اختيار المسلمين الأوائل لمواضع مدنهم .

اذ لم تكن الاعتبارات الأمنية أو الادارية ، وحتى الاقتصادية ، وحدها ذات الأولوية فى ذلك الاختيار . وان استقراء تلك النصوص يكشف بشكل دقيق وثابت اعتبار العوامل المناخية والبيئية فى اختيار الموضع ، فقد أشارت النصوص إلى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، أمر باختطاط الكوفة وذلك لما رأى تأثير وخومة البلاد على المسلمين الفاتحين اذ أشار الطبرى إلى ذلك فقال : « كتب عمر إلى سعد أنبئنى ما الذى غير ألوان العرب ولحومهم فكتب إلى أن العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة ، فكتب إليه أن العرب لا يوافقها الا ما وافق ابلها من البلدان»[٤] .

وعلى نفس الوتيرة سار المسلمون فى اختيارهم لمواضع معظم مدن الفتح

---

١) جمال حمدان : جغرافية المدن ص ٢٨٠ .

٢) عبد الفتاح محمد وهبة : م . س . ص ٥٢٣ .

٣) جمال حمدان : م . س . ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ، مصطفى عباس الموسوى : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ص ٢٠٠ .

٤) الطبرى : محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) : تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م ، ٤/ ١٨٩ .

الإسلامى [١] ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للأمويين الذين كانوا يشتون فى بعض المدن الساحلية طلبا للدفء ، فكان الخليفة معاوية ومروان بن الحكم يشتيان فى الصنبرة، الواقعة على الشاطئ الجنوبى لبحيرة طبرية [٢] .

وكذلك كان لهم قصور فى بادية شرق الأردن ، أختيرت مواضعها ومواقعها ، كمحلات للصيد والنزهة . مثل قصير عمره الذى يقع شرقى مدينة عمان ، وينسب إلى العصر الأموى [٣] .

ولقد انعكست هذه الرؤيا على الفكر العمرانى عند المسلمين فابن خلدون يشير إلى أهمية الموضع عند تأسيس المدن ، من حيث مناعتها الطبيعية ، ولذلك يوصى باختيار المواضع التى تهيء وسائل دفاعية جيدة عن المدينة . كذلك يرى بأن موضع المدينة لا بد أن يكون فى منطقة جيدة المناخ ، وأنه ينبغى الابتعاد عن المناطق ذات المناخ الردئ ، لما فى ذلك من اعتبارات صحية . كما أن المواضع التى تتوفر من خلالها المرافق الأساسية كموارد المياه والمنتجات الزراعية هى من أفضل المواضع المناسبة لتأسيس المدن عليها [٤] .

بيد أن تأثير العامل الجغرافى لا يتحكم فى نشأة المدينة فقط ، بل انه يتعدى ذلك، مؤثرا بشكل بارز فى تطورها ، اذ ان المدن التى تؤسس بالقرب من كثافات سكانية أقل درجة فى التحضر كالبادية ، فإن ذلك يساهم فى التعجيل فى سرعة تطور المدينة ونموها عن طريق الهجرة [٥] .

ولقد كان للعوامل الجغرافية دور كبير عند تأسيس العديد من المدن الإسلامية ،

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ١/ ٣٤٩ .

(٢) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ، الكويت ص ٤٤ .

(٣) زكى محمد حسن : م . س . ص ٤٤ ، فريد شافعى : العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، الرياض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ١٥ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ٣٤٧/١ ـ ٣٤٩ .

(٥) ابن خلدون : م . س . ، ٣٤٣/١ .

علاوة على دوره فى تطورها . وذلك أن المدن التى تأسست فى عصر الفتح الإسلامى قد جرى اختيار مواقع ومواضع لها من نمط خاص ، مما يدل على وضوح الرؤيا عند المسلمين واطمئنانهم إلى توفر المواصفات المطلوبة التى يرونها للمواضع التى يقيمو عليها مدنهم الجديدة [١] . حيث يجرى انتقاء المواضع المناسبة التى تقع على مفترق الطرق أو ملتقاها ، سواء كان ذلك فى السهول ، أو على شطوط الأنهار ، أو على أطراف الصحراء ، أو أكتاف الجبال [٢] .

فالبصرة والكوفة [٣] ، اللتان انشئتا فى عامى (١٤ ، ١٧ هـ / ٦٣٥ ، ٦٣٨ كان موقعهما يتميز بتلاقى شط العرب برأس الخليج العربى ، إلى جانب وجودهـ عند التقاء الطرق البرية التى تربط بين شمال العراق وجنوبه ، وتتصل بالطرق المؤد إلى شبه الجزيرة العربية [٤] .

أما بالنسبة للفسطاط التى أنشئت فى عام (٢١هـ / ٦٤١ م) ، فلقد اختـ موقعها بعناية فائقة ، اذ تقع على نهر النيل إلى الجنوب من الدلتا ، كما أنها ترتبـ بذلك الطريق النهرى الكبير الذى يربط بين شمالى الوادى وجنوبه ، علاوة عـ سيطرتها على الطريق البرى الواصل بين بلاد الشام والمغرب وأفريقية ، كذلك كـ يقع بالقرب من الفسطاط الخليج الذى يصل بين نهر النيل والبحر الأحمر ، والذ عرف بخليج أمير المؤمنين فيما بعد [٥] .

---

(١) عيسى سليمان وآخرون : العمارات العربية الإسلامية فى العراق ، (تخطيط مدن ومساجد) بغ ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م ، ١ / ٤٤٠ .

(٢) أحمد على إسماعيل : دراسات فى جغرافية المدن ، ص ٧٥ .

(٣) البصرة والكوفة : مدينتان إسلاميتان تقعان جنوبى العراق ، حيث تقع الأولى على ساحل شط العر بينما تقع الثانية إلى الشمال منها ، على شاطئ الفرات . للمزيد انظر : الاصطخرى : إبراهيم محمد المعروف بالكرخى (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر العال ، مراجعة محمد شفيق غربال ، القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م ، ص ٥٦ ـ ٥٨ ، لسترنجة : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بيروت ، ط . الثـ ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ص ص ٦٤ ـ ٦٧ ، ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٤) أحمد على إسماعيل : دراسات فى جغرافية المدن ص ٧٥ .

(٥) موريس لومبارد : الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولى ص ١٧٩ .

أما من حيث المواضع ، فيلاحظ أن مدن الفتح الإسلامى الأولى « البصرة ـ الكوفة ـ الفسطاط » تم اختيار مواضعها ، بحيث لا يضطر القادم إليها من شبه الجزيرة العربية إلى عبور الأنهار (١) .

ولقد تم هذا الاختيار بناء على أوامر من الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الذى أمر قائده سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه لما عزم على اختطاط مدينة الكوفة ، أن لا يجعل بينه وبينهم بحرا (٢) . وقال لقائده عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه لما عزم على اتخاذ عاصمة اقليمية لمصر « ... لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ... » (٣) .

والسبب فى هذا الاختيار هو أن الفاتحين وجلهم عرب لم يكونوا قد اعتادوا عبور الماء فى الأعم الأغلب ، فكان هناك نوع من التوجس من البحر والنهر . بالإضافة إلى أن عدم وجود الحواجز المائية فيما بين تلك المدن وشبه الجزيرة العربية تجعلها على اتصال دائم ومباشر بمركز الدولة ، بحيث تتمكن الخلافة من أن تقدم للفاتحين من سكانها ، المدد والعون بسرعة اذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك (٤) ، علاوة على توفير امكانيات مرونة الحركة والانسحاب والالتفاف فى حال تعرض قوات الفتح إلى الخطر (٥) .

على أن تأثير العوامل الجغرافية على المدينة الإسلامية لم يرتبط بمرحلة تأسس

---

(١) أحمد على إسماعيل : م . س ، ص ٧٦ .

(٢) البلاذرى : أحمد بن يحيى البغدادى (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م) ، فتوح البلدان مراجعة وتعليق : رضوان محمد رضوان ، بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٢٤٧ .

(٣) ابن سعيد الأندلسى : على بن موسى بن محمد (ت ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤ م ، الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط (من كتاب المغرب فى حلى المغرب) ، القسم الخاص بمصر ، حققه وعلق عليه : زكى محمد حسن ، وآخرون ، القاهرة ١٩٥٣ م / ٣٩/١ .

(٤) أحمد على إسماعيل : دراسات فى جغرافية المدن ص ٧٦ .

(٥) مصطفى عباس الموسوى : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ص ٦٢ .

المـدن ونشأتهـا فـقط ، بل كـان لهـا دورهـا المؤثر خـلال مرحلـة تطـور المدن ونموها [١]، فالمدن الإسلامية التى أسست فى المناطق الوفيرة الأمطار ، ذات الطقس الدافئ ، مما سمح بقيـام الزراعة المنتجة ، هى التى شـهدت التطورات العـمرانيـة الكبرى[٢] اذ جرى إختيار موقـع بغداد فى منطقة زراعية خصبة [٣] . فهى تتوسط أربعة طساسيج [٤]، [٥] اثنان منها فى الجانب الغربى ، وهمـا قطر بل ، وبادور با وآخران فى الجانب الشرقى وهما نهر بوق وكلواذى ، مما يوفر للمدينة امدادات غذائية كبيرة، فلو (... تأخرت عمارة طسوج منها كان الأخر عامرا) [٦] مما هيأ لهـ الفرصة للتوسع واستيعاب أعداد متزايدة من البشر [٧] .

وتبرز أهمية التضاريس فى التحكم فى التطورات العمرانية فى المدينة ، ما يمكن مشاهدته فى المدينة الكبرى (مصرـ القاهرة) التى أخذت فى التمدد باتجاه الشمال حيث الأراضى المنبسطة السهلة بينما لم تتحول نحو الشرق أو الجنوب نظرا لوجود التلال المرتفعة والصحراء التى كانت تقف عائقا أمام التوسع العمرانى نحو تلك الجهات [٨] .

العوامل السياسية والإدارية :

تعد الإدارة ضرورة أولية نشأت مع نشأة المجتمعات المستقرة ، ولذلك تعتبر الإدار

---

(١) عبد الفتاح محمد وهبة : جغرافية الإنسان ، ص ٥٢٩ .

(٢) مصطفى عباس الموسوى : م . س . ص ٢٠٥ .

(٣) عبد العزيز الدورى وآخرون : بغداد ، نقلا عن دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون ، بيروت ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م ص ٦٦ .

(٤) كى ليسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٩ .

(٥) الطسوج : جزء من أجزاء الكورة ، وهى فارسية الأصل ، أكثر ما تستعمل فى سواد العراق ، ياقوت الحموى : شهاب الدين ياقوت ابن عبد الله الرومى البغدادى . (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م) معجم البلدان ، بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م / ١ / ٣٨ .

(٦) ياقوت الحموى : م . س ، ١ / ٤٥٨ .

(٧) عبد العزيز الدورى وآخرون : م . س . ص ٩٢ .

(٨) حسن الباشا وآخرون : القاهرة : تاريخها فنونها آثارها ، القاهرة ص . ص ١٣ ، ١٨ ، ٢٠ .

من أولى الوظائف التى مارستها المدينة[١] ، ولعل هذا يفسر موقف ابن خلدون من علاقة المدينة بالملك ، حيث يعده من العوامل الرئيسية للاستقرار ومن ثم لظهور المدينة[٢] .

ولقد اقترن تأسيس كثير من المدن بقيام الدولة ونشأتها ، فكل دولة تقوم ينبغى لها أن تتخذ مركزاً للحكم والإدارة ، تظهر من خلاله قوة شخصيتها ، وتشد إليها فيه أنظار الشعوب المحكومة واحترامهم[٣] .

وكان لتوسع الدولة الإسلامية ونموها سبب فى تحول المدن العسكرية التى أنشأها الفاتحون الأولون إلى مراكز محلية للحكم وإدارة البلاد المفتوحة[٤] . فعندما ابتعدت حدود الدولة الإسلامية كثيرا عن الكوفة والبصرة والفسطاط ، وفقدت هذه المدن تدريجيا أهميتها العسكرية الأساسية باعتبارها خطا للمواجهة مع الأعداء أو معسكرات رئيسية على الحدود . ورغم ذلك فقد حافظت تلك المدن ولمدة طويلة على مكانتها اذ تحولت الكوفة إلى عاصمة للدولة الإسلامية فى خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه[٥] ، كما مارست هى والبصرة والفسطاط دورا اداريا متميزا طيلة العصر الأموى ، وكان لها دورٌ مهم فى العصور العباسية الأولى[٦] .

وقد يؤدى تبدل الحكومات ، أو تغيير الأسر الحاكمة إلى انشاء مدن جديدة ،

---

(١) جمال حمدان : جغرافية المدن ص ٨١ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ١ / ٣٤٢ .

(٣) عبد الرحمن فهمى : دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ٣٦ .

(٤) مصطفى عباس الموسوى : م . س . ص ١٠٨ .

(٥) كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٠١ .

(٦) موريس لومبارد : الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولى ص ص ١٦٧ ، ١٧٩ ـ ١٨٠ .

تعبر به السلطة الجديدة التى وصلت لتوها إلى الحكم عن انتصارها ونشأتها [١] ، وكما أنها تضمن بذلك أمنها والتفاف أنصارها حول مركزها ، فانتقال الحكم من أيدى الأمويين إلى العباسيين اقتضى اتخاذ عاصمة جديدة ، حرص العباسيون فى اختيارها أن يضمنوا أمنهم واستقرارهم فيها والابتعاد عن أخطار تأثير خصومهم ، وأن يكون سكانها من الموالين لهم والمرتبطين مصلحيا بدولتهم [٢] . فكان ظهور مدينة بغداد [٣] فى عام (١٥٤ هـ / ٧٦٢ هـ) لتكون بديلا عن دمشق [٤] ، التى كانت عاصمة لبنى أمية [٥] .

ولقد شهد العالم الإسلامى ظهور العديد من العواصم الأقليمية ، كمدن بديلة عن العاصمة المركزية ، وذلك نتيجة لضعف وتفكك الدولة الإسلامية ، حيث ظهرت حكومات أقليمية يدين بعضها بالولاء الأسمى لدولة العباسيين ، كما حدث فى مصر حيث ظهرت مدينة القطائع على يد أحمد بن طولون [٦] الذى أسس دولة تتمتع بالاستقلال عن ارادة العباسيين [٧] . وكان لظهور السامانيين فى بلاد الصغد دور كبير فى أن يشهد هذا الاقليم أوج ازدهاره ، وخاصة مدينتا سمر قند

---

(١) مصطفى عباس الموسوى : م . س . ص ١٢٨ .

(٢) صالح العلى : بغداد مدينة السلام (الجانب الغربى) ، بغداد ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ص ٢٨ . ٣٢

(٣) بغداد مدينة إسلامية بناها ثانى الخلفاء العباسيين أبو جعفر المنصور لتكون مركزا للخلافة العباسية وتقع على نهر دجلة فى العراق ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ٤٥٦/١ ـ ٤٦٧ .

(٤) دمشق قصبة بلاد الشام ، فتحها المسلمون سنة ١٤ هـ واتخذها بنو أمية عاصمة لدولتهم . انظر عن : ياقوت الحموى ، م . س . ٤٦٣/٢ ـ ٤٧٠ .

(٥) كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٢ .

(٦) أحمد بن طولون أبو العباس التركى ، ابتدأ امره بالظهور كوال لمصر من قبل الخليفة العباسى . للمز انظر : ابن تغرى بردى : جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى (ت ٨٧٤ هـ / ٤٣ ٠ م) حققه وعلق عليه محمد رمزى القاهرة ٣/ ١٠ ـ ٢١ .

(٧) موريس لومباردو : الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولى ص ١٨٠ .

وبخارى[١] حيث كانت الأولى المركز الادارى السياسى لهذا الأقليم فى حين كانت الثانية المركز الدينى والثقافى[٢] .

كما كان لظهور دول تنافس بنى العباس فى ادعائهم حق حكم المسلمين وتناصبهم العداء كما هو الأمر مع بنى عبيد (الفاطميين) ، دور فى ظهور مدن كان الغرض منها مناجزة بغداد[٣] ، فبنيت مدينة المهدية عام (٣٠٣ هـ / ٩١٥م)[٤] فى تونس لتليها القاهرة فى عام (٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م)[٥] .

وعلى أية حال فإن مدن الإدارة بشكل عام والعواصم السياسية بشكل خاص ، قد اكتسبت أهميتها الخاصة التى تنعكس فى زيادة تعدادها السكانى[٦] ، والذى أدى بطبيعة الحال إلى نمو المدينة وتطورها العمرانى[٧] . كذلك فإن العواصم الاقليمية غالبا ما تحظى بنصيب وافر من المنشآت والمرافق التى أسهمت فى نموها الحضرى[٨] .

فبغداد عاصمة العباسيين ، سرعان ما نمت فى أقل من أربعين سنة من موقع عمرانى يحوى عددا قليلا من السكان ، إلى مدينة يبلغ عدد سكانها نحو المليونين[٩] ،

---

(١) بخارى وسمرقند من أعظم مدن بلاد ما وراء النهر ، خضعت بشكل فعلى للنفوذ الإسلامى فى عام ٨٨هـ / ٧٠٧ م ، للمزيد انظر عنهما : ياقوت الحموى : معجم البلدان ١/٣٥٣ــ ٣٥٦ ، ٣/٢٤٦ ـ ٢٥٠ .

(٢) كى ليسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤ .

(٣) عبد الرحمن فهمى : دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ٣٧ .

(٤) وقيل ان بناءها تم فى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ، وهى مدينة على الساحل فى تونس ، تقع فى موضع أشبه بالجزيرة . بناها الخليفة المهدى الفاطمى . انظر عنها : ياقوت الحموى معجم البلدان ٥/ ٢٢٩ ـ ٢٣٢ .

(٥) انظر ما سبق

(٦) عبد الفتاح محمد وهبة : جغرافية الإنسان ص ٥٢٥ .

(٧) أحمد على إسماعيل : دراسات فى جغرافية المدن ص ١٩٠ .

(٨) ابن خلدون : المقدمة ١/ ٣٤٣ .

(٩) موريس لومباردو : م . س . ص ١٦١ .

بل ان سعتها والعدد الكبير الذى وصلته رباعها ومحلاتها قد دفع البعض إلى أن يعدها مجموعة من المدن المتلاصقة يتجاوز عددها الأربعين مدينة [١] .

ويظهر أيضا الأثر العمرانى للوظيفة السياسية والادارية فى حالة اختفائها من مدينة من المدن . ذلك أن هناك من يرى بأن اختفاء الوظيفة السياسية والادارية قد كان حاسما فى التناقص السكانى ، ومن ثم فى التراجع الواقع فى المستوى العمرانى للمدينة [٢] .

وعلى أية حال فإن العلاقة بين الدولة والمدينة العاصمة علاقة وثيقة ومترابطة فى أكثر من وجه ، فهى تشبه تلك العلاقة التى بين المادة وصورتها ، لذلك فإن المدينة العاصمة عادة ما تعكس وضع الدولة وتوجهاتها الحضارية [٣] ، فقوة الدولة وغناها وطريقة انفاقها للأموال أمر ذو أثر كبير على الأوضاع العمرانية والحضارية فى هذا النوع من المدن [٤] .

العوامل الاقتصادية :

لقد جعل الله الإنسان مفطورا على العمل والسعى ، وأمره بذلك ، قال تعالى ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[٥] . فسعى الإنسان لا يقتصر على الرغبة فى اشباع الحاجات الإنسانية فقط كما يعتقد البعض [٦] ، وعليه حدث تفاعل بين الإنسان وبين البيئة الطبيعية المحيطة به ، مما أدى لظهور النشاط الاقتصادى [٧] .

ولقد ترتب على تلك العلاقة مجموعة من المظاهر الحضارية ، من أبرزها

---

(١) ابن خلدون : م . س . ١ / ٣٤٣ .

(٢) ابن خلدون : م . س ، ١ / ٣٧٥ .

(٣) ابن خلدون : م . س . ٣٧٦/١ .

(٤) ابن خلدون : م . س ، ١ / ٣٧١ .

(٥) سورة الملك آية ١٥ .

(٦) محمد رياض الإنسان : دراسة فى النوع والحضارة ، بيروت ١٩٧٤ م ، ص ٤٠٦ .

(٧) ن . م . س .

نشأة التقنية التـي تحاول معالجـة المشكلات التى تعـرض لها الإنسان فى تعامله مع البيئة[١] .

ومن المؤكد أن مثل هذه المفاهيم ، هى التى دفعت بعض الباحثين من أمثال ليناردوولى (Leenard Wolly) إلى اعتبار أن التطور فى مجالا النشاط الاقتصادى ـ الزراعة وزيادة الإنتاج الزراعى ـ لدى الإنسان ، هى السبب الرئيسى لتحوله نحو حياة الإستقرار ، ومن ثم إلى ظهور « المدينة »[٢] . لذلك عمد بعض الجغرافيين إلى جعل الأسس والركائز الاقتصادية ، هى القواعد الأساسية فى تصنيف وظائف المدن[٣] .

واذا كانت الزراعة ـ كأحد أوجه النشاط الاقتصادى للإنسان ـ هى التى ساهمت إلى حد بعيد فى ظهور « المدينة » ، فإنها قد ساهمت أيضا فى تطور العديد من المدن .

ففى العراق الذى يعد بقعة تمدن ، تمتد جذورها فى أعماق التاريخ ، شهد فى العصر الإسلامى نهضة عمرانية كبرى ، ارتبطت إلى حد بعيد بمشاريع الرى واستصلاح الأراضى[٤] ، وهى مشـاريع أولاها الحكام المسلمـون كل رعـاية واهتمام[٥] ، ظهر أثرها العمرانى بزيادة المحتوى السكانى للمدن التى كانت موجودة فى هذا الاقليم[٦] .

كذلك كان الأمر بالنسبة للعديد من المدن فى مناطق أخرى مثل بلاد الشام ، وخرسان ، وبلاد ما وراء النهر . التى تطورت بتطور النشاط الزراعى فى المناطق المحيطة

---

(١) ن . م . س .

(٢) نقلا عن هشام جعيط ، نظرة ابن خلدون للمدينة ومشكلة التمدين ، المدينة الإسلامية ص ٤٩٣ .

(٣) أحمد على إسماعيل : دراسات فى جغرافية المدن ص ١١٧ .

(٤) موريس لومباردو : الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولى ص ١٦٤ .

(٥) El -Samarrie - Husam Qawam Agricul Im Iraq During The 3rd. Century A. A. Thesissu Limited For the degree of Goctpr of Philosophy in University of London 1970 p. (94) .

(٦) موريس لومباردو : م . س . ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

بهـا، فـأخـذت هذه المدن تتـمـدد عن طريق أسوارها ، وتضم العـديد من القـرى والضواحى المحيطة بها كما حدث لبخارى وسمرقند [١] .

ومن المؤكد أن دمشق قد انتعشت بانتعاش النشاط الزراعى فيها ، فما أن اتخذها الأمويون عاصمة لهم حتى أخذت المساحة المزروعة المحيطةبها بالتوسع والازدياد [٢] .

ومثلما مارست الزراعة دورا فى نشأة المدن وتطورها ، فإن التجارة كان لها أيضـا اسهام كبير فى هذا المجال ، فهناك الكثير من المدن التى كـانت الأسـواق هى النواة الأولى لها ، والتى كان النشاط التجارى وفعالياته المحـور الذى قامـت عليـه وتطورت منه [٣] .

ونظرا لما تمثله التجارة من عامل لجذب السكان ، فإن الوظيفة التجارية قد أتاحت للمـدينة توسعا وامتداداً قياسيا ، مما دفع البعض إلى القول بأن المدن التجارية تعد من أعظم التجمعات البشرية على الاطلاق [٤] . والواقع فقد كان لظهور المدن التجارية من الناحية التاريخية ، دوراً حاسماً فى تولد النشاط الصناعى ، الذى أدى إلى أن يعرف التمدن المدن الصناعية [٥] .

ولقد كانت هناك علاقة تبادلية فى التطور المشترك بين الصناعة والعمران ، اذ أن الصناعة تنمو بنمو العمران فى المدينة ، كما أن التوجه الصناعى يزيد من حجم المدينة وامتدادها ، ويظل الحال فى توافق كلما كانت الزيادة فى أحدهما [٦] .

وعلى أية حال ، فلقـد كـان للتجارة أثر واضح فى التطور العـمرانى فى العـالم الإسلامى ، اذ أن توحيد هذا المجال الجغرافى الكبيـر فى إطـار موضوعـى واحـد ،

---

(١) موريس لومباردو : م . س . ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

(٢) موريس لومبارد : م . س . ص ١٧٧ .

(٣) جمال حمدان : جغرافية المدن ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٤) جمال حمدان : م . س . ص ٥٥ . .

(٥) عبد الفتاح محمد وهبة : جغرافية الإنسان ص ٥٢٦ .

(٦) ابن خلدون : المقدمة ١ / ٣٧٧ .

أدى إلى تطور النشـاط الاقتـصادى فيه ، وهـو تطور كانت التـجارة إحدى روافده الأساسية [١].

فمدينتا البصرة والكوفة قد بنيتا فى الأصل لتكونا معسكرات لجيوش الفتح ، ثم مارستا بعد ذلك دورا فى الإدارة الاقليمية . أخذتا بالتحول إلى مدينيتن تجاريتين كبيرتين [٢] ، مما أسهم فى جلب العديد من الصناعات والحرف إليهما [٣] . بل ان البصرة على وجه الخصوص ، كانت فى العصر العباسى مستودعا لتجارة المحيط الهندى، والميناء الرئيسى لبغداد وبلاد الرافدين [٤] .

ولا شك فى أن هذا النمو التجارى قد أدى إلى أن تصبح البصرة من أهم مراكز الصناعة فى العالم الإسلامى [٥] ، لتنطلق نحو عصرها الذهبى فى العمران [٦].

ولقد ارتبط التوسع العمرانى الكبير فى مدن فارس وخرسان ، بنمو تجارة العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، اذ أن المدن التى أصابها الازدهار العمرانى فى هذا الاقليم، هى التى تقع على طرق تجارة القوافل ، وتأتى سمرقند فى طليعتها حيث تقع عند نقاط التقاء الطرق التجارية القادمة من الهند وبلاد فارس[٧] .

وشهدت موانئ بلاد الشـام ازدهارا عمرانيا كان مدفوعا بازدياد النشاط التجارى فيها ، فالموانى الفنيقية القديمـة ، التى تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، الشرقى مثـل صـور وعكا وطرابلـس [٨] ، شهدت عمليـة انشـاء وتعمير أرصفة

---

(١) موريس لومباردو : الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولى ص ٢٢ ـ ٢٥ .

(٢) عبد الرحمن فهمى : دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ٤١ .

(٣) مصطفى عباس الموسوى : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ص ٣٢٧

(٤) موريس لومباردو : م . س ص ١٦٧ .

(٥) الخطيب البغدادى : أحمد بن على (ت ٤٦٣ هـ ، ١٠٧٠ م) تاريخ بغداد ، بيروت ١/ ٤٩ .

(٦) موريس لومباردو : الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولى ص ١٦٧ .

(٧) موريس لومبارد : م . س ، ص ١٧٥ .

(٨) هذه المدن من مـدن السـاحل الشامى ، فـتحت زمن عـمـر بن الخطاب رضى الله تعـالى عنه حيث فتحت عكا فى حـدود عـام ١٥ هـ / ٦٣٦ م بينمـا فـتحت طرابلس فى سنة ٢٣هـ / ٦٤٢ م . للمزيد عن هذه المدن انظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ٢ / ٤٣٣ ـ ٤٣٤ ، ٢٥/٣ ـ ٢٦ ، ١٤٣ ـ ١٤٤ .

جديدة لاستقبال السفن المحملة بالبضائع ، كما شهدت تطورا واتساعا عمرانيا كبيرا [١] ، وما شهده شرق العالم الإسلامي من ازدهار عمراني ، ارتبط بذلك التوسع التجارى ، فإن غرب العالم الإسلامي قد عاش حالة مماثلة ، تبعا لعوامل مشابهة .

ومن ابرز الشواهد التى يمكن من خلالها متابعة هذا الازدهار ، ما حدث فى مصر التى كانت تعانى قبل الفتح من تدهور فى الأوضاع العمرانية ، لتنقلب الصورة بعد ذلك وتظهر في شكل حركة ضخمة يمكن متابعتها عند دراسة عاصمة الاقليم نفسه ، فالفسطاط التى ظهرت إلى الوجود كمركز لاستقرار الفاتحين ، ومعسكرا متقدما في غرب الدولة الإسلامية ، أخذت تتطور اقتصاديا [٢] ، بازدهار التجارة فيها ، نتيجة ازدهارها بشكل عام عبر الإقليم المصرى [٣] ، فأصبح ميناؤها أحد أهم مراكز تجمع السفن والبضائع [٤] . وأدى هذا التطور إلى أن تتحول المدينة إلى منطقة تكدس سكانى ضخم [٥] ، حيث تجاوز سكانها المليون نسمة ، وهو تقدير يقوم على أساس تعداد البيوت التى كانت فيها ، والتى قيل أن عددها بلغ مائة ألف منزل ، كما أنها كانت تتوزع على ثمانية الاف شارع مملوك [٦] .

أما فى أفريقية الشمالية ، التى أصبحت بلاد التجارة والنقل والعبور بين الأطراف الشرقية ، والغربية للعالم الإسلامى ، علاوة على احتوائها على مراكز الاتصال ، بين

---

(١) موريس لومباردو : م . س . ص ١٧٧ .

(٢) ن . م . س .

(٣) لاحظ الوصف الذى يرد عند الخطيب البغدادى عن كون مصر بلد التجارة ، تاريخ بغداد ٤٩/١ . انظر ايضا : مصطفى عباس الموسوى : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ص ٣٣٣.

(٤) المقدسى : احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٩٨ .

(٥) ن . م . س .

(٦) عبد الفتاح محمد وهبة : الجغرافيا التاريخية بين النظرية والتطبيق ـ بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ص ٤١٦ ـ ٤١٧ .

هذا العالم وبين بلاد السودان والصحراء الكبرى [١]. فإن هذا الاقليم شهد نهضة عمرانية يدل عليه الزحف المدنى فى أقاليم الصحراء الكبرى ، حيث ظهرت العديد من المدن على أطراف الطرق العابرة لهذه الصحراء ، مثل مدينتى وجده ، وأغلى [٢] «القرن الثالث الهجرى ـ القرن التاسع الميلادى » اللتان ظهرتا فى السوس الأقصى . نظرا لارتباطهما بنهاية الطرق العابرة للصحراء الكبرى [٣].

العوامل الحربية :

الحرب ظاهرة لم ينقطع تكرارها منذ بدء الخليفة حتى الوقت الحاضر [٤] ، وهى بالتالى تمثل محورا مهما من محاور التاريخ البشرى وتجديده ، لا بد وأن يظهر أثرها بشكل أو بآخر على حضارته . وتصديقا لقوله تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾[٥] .

ولقد ارتبطت نشأة المدينة منذ أقدم العصور بالوظيفة الحربية ، بل ان البعض يعد ذلك الأصل فى نشأة المدينة ، والدافع الرئيسى لوجودها تاريخيا [٦].

ويذكر القزوينى أن ظهور الوظيفة الحربية فى المدينة ، كان نتيجة الحاجة الإنسانية إلى الأمن [٧] . وذلك أن الخوف كان أحد الدوافع الرئيسية فى التأثير على السلوك الإنسانى ، كما أن الحاجة إلى الأمن ، هو من الدوافع القوية فى توجيه هذا

---

(١) موريس لمباردو : الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولى ص ١٨٢ .

(٢) لم اعثر فيما اطلعت عليه من مصادر على معلومات وافية عن هاتين المدينتين .

(٣) موريس لمباردو : ن . م س .

(٤) حسن أحمد البدوى : ظاهرة الحرب ومذاهبها : محاضرة ألقيت ضمن فعاليات الموسم الثقافى لكلية الملك خالد العسكرية ، نشرت فى مجلتها ، العدد ١٦ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ص ٢٥ .

(٥) البقرة آية ٢٥١ .

(٦) جمال حمدان : جغرافية المدن ، ص ٢٢ .

(٧) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٧ .

السلوك [١] . ومن المؤكد أن مثل هذه الاعتبارات ، هي التي أدت إلى الأخذ بالأسباب الحربية في اختيار موقع المدينة [٢] .

ولقد عرف تاريخ التمدن نوعين من المدن الحربية ، الأولى عبارة عن حائط يطوق بموضع محصن ، يلجأ إليه سكان المنطقة المحيطة به ، في حال تعرضهم للخطر . بينما الثاني يكون موقعا عسكريا ، أقيم بهدف السيطرة على سكان منطقة من المناطق [٣] .

ونظرا لكثرة ما شهده التاريخ البشري من الحروب والصراعات ، فلقد أدى ذلك إلى ظهور العديد من المدن الحربية ، التي توزعت في مختلف بقاع العالم [٤] .

وكان لظهور الدين الإسلامي ، وما ترتب عنه من انطلاقة كبرى تمثلت في حركة الفتح الإسلامي ، التي استهدفت نشر عقيدة الإسلام بين مختلف الشعوب في مختلف أرجاء العالم القديم [٥] ، أثر بارز في تأسيس عدد كبير من المدن العسكرية الجديدة ، بهدف ايواء الفاتحين وأسرهم ، وتكون حلقة الوصل بين مركز الدولة وأقاليم الفتح [٦] .

ولقد أقام المسلمون كما أسلفنا ، العديد من المدن كمراكز عسكرية أو

---

(١) سعد جلال : المرجع في علم النفس ، القاهرة ، ط . الخامسة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م ص ٢١٤ - ٢١٥ .

حامد عبد السلام زهران : علم النفس الاجتماعي ، القاهرة ط. الخامسة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٢) لاحظ ما ذكره ابن خلدون حول حصانة مواقع المدن وقد سبق الأشارة إليه .

(٣) جمال حمدان : جغرافية المدن ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(٤) جمال حمدان : م . س . ص ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول : دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية بيروت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، ص ١٩ . مصطفى عباس الموسوي : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ، ص ٦٢ .

(٦) مصطفى عباس الموسوي : م . س . ص ٦٣ ـ ٦٤ .

معسكرات ، اذ بنى فى العراق فى صدر الإسلام مدينتان رئيسيتان هما الكوفة والبصرة[1] . فى حين أن بلاد الشام ، شهدت أيضا بناء بعض المدن ، فى مواقع عسكرية بيزنطية مثل طرسوس [2] ، حيث كان موقعها حصنا جلا عنه قاطنوه أثر الفتح ، فتحول موقعها فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه إلى مدينة حربية، اذ قام بتمصيرها [3] . كذلك بنيت الفسطاط فى بادئ الأمر لتكون مقرا لجند الفتح الإسلامى . وبنيت القيروان [4] فى عام (٥١ هـ / ٦٧٠ م) لنفس الغرض [5] فى حين أن مدينة تونس [6] التى ظهرت بعدها بقليل ، لم تنشأ الا لتكون ميناءا ومركزا لصناعة السفن الحربية [7] .

ان تأثير العوامل الحربية لا يظهر فى نشأة مدن جديدة فقط ، بل يتعداه لتكون هذه العوامل سببا فى تطور عمران العديد من المدن : ففى مشرق العالم الإسلامى ، أقام الفاتحون العديد من الأحياء التى تجاور المدن القديمة ، وعرفت هذه الأحياء بالأرباض ، كانت تحتوى على الجامع الكبير إلى جانب القلعة والسوق [8] .

---

(١) سبق الأشارة إلى ذلك .

(٢) تقع هذه المدينة على الساحل الشامى بالقرب من انطاكية فيما بينها وبين حلب . للمزيد انظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ٢٨/٤ـ ٢٩ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٩ .

(٤) مدينة إسلامية أسسها القائد عقبة بن نافع ، كانت عاصمة الحكم والإدارة للأقليم الأفريقى . للمزيد انظر : ياقوت الحموى معجم البلدان ٤٢٠/٢ ـ ٤٢١ .

(٥) موريس لومباردوا : الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولى ص ١٨٧ .

(٦) مدينة إسلامية على الساحل الأفريقى أنشأها القائد حسان بن النعمان فى عام ٧٠ هـ / ٩٦٠ م للمزيد أنظر : ياقوت الحموى ، م . س ٦٠/٢ ـ ٦٢ .

(٧) أحمد مختار العبادى ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس ، الإسكندرية ٢/ ٣٠ ـ ٣٢ .

(٨) موريس لومباردو : م. س. ص ١٧٤ .

بل ان هذه الظاهرة أدت إلى ظهور المدن المزدوجة [١] ، كما حدث لمدينة مروالكبرى [٢] ، التى كانت تتكون من المدينة الأصلية بالإضافة إلى الأحياء المجاورة لها[٣] ، ومدينة بخارى التى أضحت نتاجا لتجمع عدد من المدن المجتمعة مع بعضها البعض [٤] . وهذا التطور العمرانى أسهمت فيه تلك المجمعات التى بناها الفاتحون ، بالإضافة إلى النتائج الناجمة عن تعرض هذه المناطق إلى الغزوات التى تعرض لها مشرق العالم الإسلامى [٥] . مما يبرر القولِ بأنه قد أصبح هناك تكتل مدنى ، يهدف إلى ايجاد نوع من المقاومة ضد الغزوات التى تواجهها هذه المدن .

أما في سواحل بلاد الشام ، فلقد جرى شحن مدنه بالمقاتلة لمواجهة هجمات البيزنطيين المتكررة ، وقد أدى ذلك إلى زيادة أعداد السكان فيها بدرجة عالية [٦] . ومن المؤكد أن تكون الظروف العصبية التى واجهتها تلك المدن نتيجة تعرضها للعدوان المستمر ، قد أدت إلى استقطاب اهتمام الإدارة الإسلامية نحوها ، حيث عمل الحكام المسلمون بدأب واستمرار فى بناء التحصينات وإحكام الاستحكامات ، وشحنها بأعداد إضافية من المقاتلين وأسرهم ، إضافة إلى بناء المساجد والمرافق الأخرى[٧] ويمكن القول بأن نفس العوامل قد أدت إلى تطوير العواصم [٨] ، التى أقيمت على امتداد الحدود الشمالية فى مواجهة الثغور التى ينفذ منها العدو البيزنطى

---

(١) موريس لومباردو : الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولى ص ١٧٤ .

(٢) عاصمة اقليم خرسان ، ومن اعظم مدن الشرق الإسلامى . للمزيد انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان ٥ / ١٢ ـ ١١٦ .

(٣) كى ليسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٤٠ ـ ٤٤٢ .

(٤) كى ليسترنج : م . س . ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥ .

(٥) موريس لومباردو : م . س . ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٧) البلاذرى : م . س . ص ١٣٤ ، ١٣٩ .

(٨) المقصود بالعواصم هنا مدن الثغر البيزنطى وليس مراكز الحكم والإدارة .

في المناطق الجزرية [١] .

العوامل الاجتماعية :

على الرغم أن الجغرافيين لم يتحدثوا عن المدينة كظاهرة اجتماعية من حيث نشأتها وتطورها ، إلا أن هناك من يعد التكوين الاجتماعي للإنسان هو العامل الرئيسي لظهور المدينة ، أو أن العامل الاجتماعي يعد جزءا من عملية أدت في النهاية إلى ظهور المدينة .

ونظرا لوجود الفروق الاجتماعية بين الحياة في المدينة والريف [٢] ، وهي فروق تعني أن هناك اختلافا واضحا في المحتوى الحضاري فيما بينها [٣] ، وهو ما يعده ابن خلدون مظهرا يزداد تعقيدا كلما تقدمت معيشة سكان المدن نحو الترف والرفاه [٤] ، فإن ذلك يعني أن العلاقة بين الحياة الاجتماعية والمدينة ، علاقة عضوية تؤثر بشكل أو بأخر على ظهور التمدن أو تطوره .

ولقد راعى الفاتحون الأوائل طبيعة حياتهم الاجتماعية في مدنهم التي أسسوها ، فالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان ، تم اختيار مواقعها بالقرب من الصحراء ومراعي الإبل [٥].

كذلك روعي في تخطيط هذه المدن ، أن تتوزع السكنى فيها على أسس

---

(١) موريس لومباردو : الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى ص ١٧٨ .

(٢) فادية عمر الجولاني : علم الاجتماع الحضري ص ١٣٠ .

(٣) عبد الرحمن فهمي : دراسات في الحضارة الإسلامية ص ٤٦ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ١/٣٦٠ ـ ٣٦١ .

(٥) ابن خلدون : م . س ، ١/ ٣٥٩ .

اجتماعية [(١)] . ففى الكوفة ، جرى إسكان كل قبيلة على حالها بشكل مترابط ، يتبعها حلفاؤها أو مواليها ، وكل ربع له مسالكه ومنافذه وحماته ومرابطه . وحدث فى البصرة أيضا أن خططت تخطيطا خماسيا ، يقوم على أساس توزيع القبائل بحسب انتماءاتهم العرقية [(٢)] ، وعلى ذلك جرى الأمر بالنسبة للفسطاط [(٣)] . ومن أبرز المظاهر الاجتماعية التى أثرت على المدن فى العصر الإسلامى ، الهجرات السكانية ، التى شجعتها الدولة الإسلامية [(٤)] . وكانت تتم فى بعض الأحيان بشكل مدروس ، ففى العصر الأموى جرى توطين السكان فى السواحل الشامية ، بعد أن استقدموا من مشرق العالم الإسلامى [(٥)] .

ومن الواضح أن من النتائج المترتبة على نجاح حركة الفتح الإسلامى ، وظهور « ديار الإسلام » ما قد أدى إلى إزالة الحدود والعقبات بين أجزاء الدولة الجديدة ، وإلى تكثيف حركة الانتقال والهجرات فيما بين أجزائها ، حتى أصبح بعض سكان مشرق العالم الإسلامى يعيشون فى غربة [(٦)] .

ولا شك فى أن مثل هذه الهجرات السكانية تؤثر بالتأكيد على أوضاع المدن القائمة ، وهو تأثير يظهر على شكل أحياء جديدة ، تلتحق أو تضاف إلى الرصيد العمرانى للمدينة [(٧)] . وان كان ينبغى الإشارة هنا بطبيعة الحال إلى الهجرات

---

(١) مصطفى عباس الموسوى : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ص ٢٦٠

(٢) ن . م . س .

(٣) عبد الرحمن زكى ، الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع ص ١٦٠ .

(٤) عبد العزيز الدورى : المؤسسات الحكومية « ضمن كتاب المدينة الإسلامية » ص ٥٣ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١١٦ .

(٦) كان من ضمن سكان مدينة سلجماسة المغربية سكان من أهل العراق ، استقروا بها لغرض التجارة . انظر : صباح إبراهيم الشحلى ، النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوى الغربى حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، بحث منشور ضمن كتاب تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر . بغداد ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م ص ٢٩ .

(٧) مصطفى عباس الموسوى : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ص ٢٧٨

المعاكسة ، اذ أن هجرة سكان المدينة منها سيؤدى إلى تدهور أوضاعها العمرانية [١] .

العوامل الثقافية والفنية :

على الرغم من أن الثقافة كمصطلح عبارة عن مفهوم واسع المعنى ، يصعب تقييده فى إطار معين باستثناء الإطار الاجتماعى ، وبالتالى علاقة هذا المفهوم بحياة الإنسان[٢] ، إلا أن وجود هذه العلاقة يعنى أن الثقافة ترتبط بتجربة الإنسان الحضارية ، وبالتالى بمظاهر هذه التجربة ، ومن ثم بعملية تأسيس وقيام المدن [٣] .

فمن الواضح أن عملية تأسيس ونشأة المدن فى العالم الإسلامى أصبحت جزءا من ثقافة الحكم فيه ، ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك ماحدث بالنسبة للعباسيين ، الذين حرصوا منذ ظهورهم ، إلى ايجاد مدينة تكون عاصمة لدولتهم الجديدة [٤] . وكذلك كان الأمر بالنسبة للقاهرة نفسها اذ أن المدينة الكبرى (مصر ـ القاهرة) تمثل مجموعة من المدن التى بنتها الحكومات الإسلامية فى فترات متعاقبة [٥] .

ولو نظرنا إلى التعبير الرمزى ، كأسلوب فى الحكم عرفته الدولة الإسلامية منذ العصر الأموى [٦] ، لوجدنا أن هذا التعبير كان له تأثير عمرانى . ويؤكد ذلك وضوحه فى الفكر العمرانى عند المسلمين ، اذ أن ابن خلدون يشير إلى أن أى دولة جديدة تحب أن تطمس معالم الدولة السابقة لها[٧] ، الأمر الذى يكون له تأثيره العمرانى على مدن العواصم .

ويظهر الجانب الثقافى أيضا فى النواحى الفنية ، فالمسلمون عرفوا فن تخطيط

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ٣٤٣/١ .

(٢) محمد الجوهرى : الانثروبولوجيا (اسس نظرية وتطبيقات علمية) الدمام ص ٦٢ .

(٣) عبد الرحمن فهمى : دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٤) مصطفى عباس الموسوى : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ص ١٢٨ .

(٥) موريس لومباردو : الجغرافية للعالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولى ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

(٦) يعقوب لتز : خطط بغداد فى العهود العباسية الأولى ، ترجمة صالح أحمد العلى ، بغداد ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ص ٢٣٧ .

(٧) ابن خلدون : المقدمة ٣٧٥/١ .

المدن، وكان لهم دور في ازدهاره [١] ، وذلك أن تشييد المدن وبناء مرافقيها العسكرية والمدينة ، لم يكن من الأمور المرتجلة عند المسلمين . اذ أنهم اذا أرادوا تخطيط مدينة معينة ، أو عند إضافة مظهر عمراني جديد إلى مدينة قائمة ، فإنهم يعمدون في بادئ الأمر إلى رسم الخرائط التوضيحية واعداد ما يتعلق بمثل هذه المهمة من احتياجات ومواد [٢] .

ولذلك فلقد تناول فقهاء النظم الإسلامية مسألة تخطيط المدن وكيفية اعدادها [٣] ، وكانت عندهم تصوراتَ واضحة عن أهمية انشاء المدن وبنائها [٤] .

هذا بالإضافة إلى أنه قد عرف المسلمون عملية إعادة تخطيط بعض المناطق وتهذيبها ، كتنظيم بعض مناطق السكنى أو المرافق [٥] .

---

(١) حسن عبد الوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها ، القاهرة ١٩٥٧ م . ص ١ .

(٢) مصطفى عباس الموسوى : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

(٣) الماوردى : محمد حبيب البصرى البغدادى الماوردى ٤٥٠ هـ / الأحكام السلطانية والولايات الدينية ص ١٧٩ ـ ١٨٠ . الكتانى : عبد الحى بن عبد الكبير الحسينى ، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية ٢٨٢/١ . .

(٤) محمد عبد الستار عثمان : المفهوم الإسلامى لتخطيط المدن ، بحث منشور فى مجلة المنهل العدد ٤٥٤ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٧٨ م ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٥) حسن عبد الوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها ص ٦ .

الفصل الأول

العوامل الجغرافية

لكى نتمكن من استعياب مدى تأثير الجغرافيا على النواحى العمرانية ، ينبغى ألا تقتصر طريقة المتابعة لدينا على دراسة الجغرافيا التاريخية للمنطقة ، بل تتعداها إلى مجال أوسع من ذلك .

فلقد تأثرت النواحى العمرانية فى القاهرة [١] ، بالأوضاع التضاريسية المكونة للمنطقة التى نشأت عليها هذه المدينة ، شأنها فى ذلك شأن أى مدينة أخرى تتأثر بالتكوين الجغرافى للمنطقة التى تنشأ فيها ، اذ يمكن بسهولة تلمس مدى تأثير التضاريس والمناخ على الأوضاع العمرانية بهذه المدينة . ومن ذلك المجال الذى يهدف إلى فهم الأثر العمرانى للجغرافيا ، من خلال فهم علاقة الإنسان بالبنية الجغرافية للمنطقة ، وطبيعة تلك العلاقة حيث أن هذا الإطار يعد من أبرز مجالات الفكر الجغرافى الحديث [٢] . ويتضح من خلاله مدى تأثير العامل الجغرافى ، على النواحى العمرانية للمدينة .

وليس من المتوقع أن تقدم المصادر التاريخية التى أرخت لنشأة القاهرة الكبرى ، الكثير من المعلومات التى تعين على ادراك التأثيرات المذكورة ، ذلك أنها تقتصر فى ما تقدمه على متابعة أحداث التاريخ ، وقد تتعرض للإشارة إلى المنشآت ، ومناسبات تشيدها ، وبعض التفصيلات الخاصة بها ، دون أى تعرض لما ذكرنا آنفا من تأثيرات ، بيد أن عدم وجود هذه المعلومات فى المصادر ، لا يعنى انهاء امكانية الاستفادة منها فى تزويد البحث بالمادة الأساسية اللازمة ، إضافة إلى مسؤولية الباحث عن الاستفادة من النصوص للاستنتاج باحدى وسيلتين : أولاهما الاستفادة من الاشارات التى ترد فى المصادر ، وتتحدث عن خصائص فهم تلك الإشارات ، ودراسة أسلوب إفادة الإنسان من الموضع ، مما يعكس طبيعة العلاقة التى كونها مع المكان ، ويسهم فى إدراك الأهمية الجغرافية لذلك المكان .

أما الوسيلة الثانية فهى محاولة استيفاء النصوص التى تعكس مدى تأثير العامل

---

(١) المقصود بالقاهرة هنا بالمدينة الكبرى (مصر ــ القاهرة) .

(٢) عبد الفتاح محمد وهبة : جغرافية الإنسان ص ص ٧ ، ٢١ .

الجغرافى على المدينة ، خلال فترة الدراسة على وجه التحديد .

وفى الصفحات التالية من البحث ، محاولة استقصاء جادة ودقيقة لأبرز الظواهر الجغرافية لمنطقة القاهرة الكبرى ، والتى كان لها تأثيرها فى التطور العمرانى للمنطقة موضوع الدراسة ، خلال فترة البحث .

(أ) طرح نهر النيل :

يؤثر النيل بشكل كبير على جوانب الحياة فى مصر [١] . اذ تجمعت حوله الحياة، والنشاط الزراعى ، فى هذا الاقليم ، وعلى مر العصور [٢] .

لذلك فقد تأثرت مظاهر الحياة القائمة على جانبيه ، بالتطورات الطبيعية التى طرأت على مجرى النيل ، وضفافه وواديه ، بشكل عام حيث أن ترسب طرح النيل ، من العوالق الغرينية الغنية ، كانت تعمل باستمرار على تطوير وضع المجرى [٣] .

غير أن ما يعنينا فى هذه الدراسة هو التعرف على آثار هذه الرواسب ، والطروح الغرينية ، على مجرى النيل . خلال مروره بمنطقة القاهرة الكبرى ، خلال فترة البحث ، وكذلك محاولة التعرف بشكل دقيق ، على ما تحقق نتيجة ذلك ، من ظهور أراضى جديدة ملحقة بالضفتين ، أو على شكل جزر أو خلجان ، أو ما نجم عن شدة التيار وتوجيهاته من نحات ، أو تآكل ، أو تدمير لبعض شواطئه ، فى مقابل اثراء وترصيف وإضافة لمناطق أخرى [٤] منها ، تنتج عن ظاهرة الترسيب للطمى الغرينى ، التى يجريها النهر عند جريانه ، أثناء مروره بالمنطقة ، موضوع الدراسة .

وبجانب ذلك فإن من المهم متابعة وجهة النهر ، خلال جريانه ومدى التعديلات أو الانحرفات التى أصابت مجراه ، وآثار ذلك على الحياة العمرانية للمدينة [٥] ، ذلك

---

(١) حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٤ م ص ٢٣ .

(٢) ابن ظهيرة القرشى : مجهول الشخصية عاش فى القرن ٩ هـ / ١٥ م الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق : مصطفى السقا ، كامل المهندس ، القاهرة ١٩٦٩ م ص ١١١.

(٣) جمال حمدان ، شخصية مصر دراسة فى عبقرية المكان ، القاهرة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ ٢١١/١ .

(٤) جمال خمدان : م . س ، ١ / ١٨٥ .

(٥) ن . م . س ، عبد الفتاح محمد وهبة : الجغرافيا التاريخية بين النظرية والتطبيق ، ص ٢٦٢ .

أنه ينتج عن انحراف المجرى ظهور أراضى تكون فى بادئ الأمر أشبه بالجزر ، التى تحيط بها المياه قرب الشواطئ ، تنتشر فيها العديد من البرك أو ما يشبه البحيرات فى الأراضى المنخفضة منها ، ويتكون ذلك بسبب تراجع مجرى النهر . وغالبا ما تتحول هذه المناطق إلى أراض مستوية ، بعد تكرار غمرها بمياه الفيضان ، حيث تعمل الرواسب على تسويتها وتوحيد مستوياتها (١) .

ولقد كان لانحراف مجرى نهر النيل ، دورٌ فى إضافة مساحات شاسعة من الأراضى الجديدة للمدينة الكبرى . وهو ما يمكن ملاحظته بشكل دقيق فى شواطئ مدينة الفسطاط (٢) ، ففى عشية تأسيس هذه المدينة كان جامعها يشرف على ساحل المدينة (٣) ، فى حين أن المتابعة الميدانية الحديثة تشير إلى وجود مسافة كبيرة تفصل بين هذا الجامع والساحل .

الأمر الذى أثر على بنية الفسطاط ، التى كان عليها التكيف مع مثل هذه التغيرات فى أهمية الموقع . نظرا لوجود الحاجة إلى الارتباط بالشاطئ مما استوجب ضرورة الاستغلال العمرانى ، لهذه الأراضى الجديدة المكتسبة بوجه من أوجه النشاط العمرانى كالعمائر أو البساتين (٤) .

ومن المؤكد أن المساحات المكتسبة من الأراضى الجديدة ، لم تكن على مقدار واحد من جميع أرجاء المدينة الكبرى . اذا يتضح من خلال بعض الخرائط التى وضعت لتحديد وصف انحراف مجرى النيل فى المنطقة ، أن ساحل هذا النهر لم يكن يتخذ شكلا مستقيما فى بادئ الأمر ، إذ يبدأ بالاتجاه نحو الشمال الشرقى كلما

---

(١) فؤاد فرج : المدن المصرية وتطوراتها مع العصور ، مجموعة فنية تاريخية (القاهرة) ، القاهرة ١٩٤٣ م ١٨٨/٣ ، عبد الفتاح محمد وهبة : الجغرافيا التاريخية بين النظرية والتطبيق ، ص ٢٦٥ .

(٢) المقريزى : الخطط ٢/ ١٣٢ .

(٣) المقريزى : م . س ، ١/ ٣٤٣ ، ١١٣/٢ ، ١٣٢ ، بول كزانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، ترجمة أحمد السيد دراج ، مراجعة جمال محرز ، القاهرة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ص ٥٥ .

(٤) المقريزى : م . س . ، ١/ ٣٤٣ .

ابتعد عن الفسطاط واقترب من موقع القاهرة الفاطمية [١] .

وينبغى الإشارة هنا إلى أنه من المؤكد أن ظهور هذه الأراضى الجديدة ، وما يتبعها من انحراف لمجرى النهر ، كان يمتد بشكل تدريجى ، حيث تتكون وتضاف بعض الأراضى الجديدة إلى الشاطئ شيئا فشيئا ، ليبتعد النهر عن شاطئه القديم ، ويتخذ شاطئا مستحدثا وهكذا حيث يلاحظ أن . ابتعاد النهر عن ساحل المقس [٢] كان يحصل نتيجة ظهور مساحات جديدة من الأراضى على شكل جزر فى البداية كانت ترتفع مستوياتها بالتدريج نتيجة الطمى الغرينى الذى يرسبه النيل سنة بعد أخرى [٣] . وبالتالى فإن ما تورده المصادر من تحديدات تاريخية (ذكر الأمر بالسنة) ، عن ظهور هذه الأراضى الجديدة ، كما سيتضح لاحقا ، لا بد وأنه يعنى الظهور الكامل ، والواضح لهذه الأراضى ، نتيجة الأرساب التى حملها النهر ضمن تلك السنة .

وعلى أية حال فإن الذى يعنينا من هذه الدراسة ، هو تأثير ظهور هذه الأراضى وما يتبعها من انحراف لمجرى النيل ، على النواحى العمرانية للمدينة ، فى عهد صلاح الدين الأيوبى .

اذ أن هذه الظاهرة برز تأثيرها فى تلك الفترة ، فى ناحيتين أساسيتين . أولاهما : تتمثل فى ظهور الأراضى الجديدة ، نتيجة الطرح النهرى ، ففى أثناء القرن السادس

---

(١) انظر فؤاد فرج : المدن المصرية وتطوراتها عبر العصور (القاهرة) ٤/٣٢١ .

(٢) المقس هو محلة بظاهر القاهرة غربى الخليج ، وكان موضعها قبل الإسلام قرية تعرف بارتين : واختلفت النصوص التاريخية فى تحديد أصل تسميته وأسباب هذه التسمية فقيل أنه المقس من المكس أى الموضع الذى تجبى فيه الضرائب ، وقيل أن اسمه جاء من المقس أى الموضع الذى قسمت فيه غنائم فتح مصر ، انظر المقريزى الخطط ٢/ ١٢١ ، ١٢٣ .

(٣) المقريزى : م . س . ص ١٣١ ، مؤلف مجهول : تاريخ مصر القاهرة ، مخطوط محفوظ فى مكتبة أيا صوفيا فى أسطنبول تحت رقم ٣٠٨٣ ورقة ١٥٧ .

(٦ هـ / ١٢ م) ، شهدت شواطئ المدينة تحولات كبيرة ، حيث أخذت هذه الشواطئ بالاتساع ناحية الغرب والتحقت بالمدينة مساحات شاسعة من الأراضى ، سواء ناحية ساحل الفسطاط أو القاهرة من المنطقة الواقعة غربى الخليج ، فبعد سنة خمسمائة (٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) شهد ساحل الفسطاط ظهور أراضى جديدة تمثلت فى البداية على شكل جزر ، كما يشير إلى ذلك المقريزى أثناء حديثه عن حمام أبى الحوافر [(١)] ، حيث كان موضع هذا الحمام جزيرة ، ظهرت بعد سنة خمسمائة (٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) نتيجة الطرح النهرى [(٢)] . وظهرت أراضى جديدة بازاء هذا الشاطئ ، في حدودسنة (٥٧٠ هـ / ١١٧٤م) [(٣)] ، وأخرى فى عام (٥٧٧هـ / ١١٨١م)[(٤)] . بالإضافة إلى أراضى جديدة ظهرت قبيل نهاية هذا القرن، أى ما قبل سنة ستمائة (٦٠٠ هـ / ١٢٠ م) [(٥)].

كذلك كان الحال فى المنطقة الواقعة غربى الخليج ، والتى شهدت ظهور أرض جديدة (.. بعد الخمسمائة من سنى الهجرة ..) [(٦)]. يذكر أحد الباحثين بأنها كانت فى سنة (٥٣٠ هـ / ١١٢٦ م) [(٧)] وتشير النصوص التاريخية إلى ظهور أراضى جديدة فى هذه المنطقة فيما بعد عام (٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م) [(٨)] لعلها

---

(١) هذه الحمام فى مدينة الفسطاط عرفت بالقاضى فتح الدين ابن العباس أحمد بن الشيخ جمال الدين ابى عمر رئيس أطباء البلاد المصرية ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١١٢ .

(٢) المقريزى : الخطط ٢ / ٨٥ .

(٣) المقريزى : م . س ، ٢/ ١٠٩ .

(٤) المقريزى : أحمد بن على : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ط الثانية ١٩٥٧ م جـ١ ق ١ ص ٧١ .

(٥) المقريزى : الخطط ١/ ٣٤٤ ، عبد العال الشامى : مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى ، الكويت . الأولى ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ص ٥٣ .

(٦) المقريزى : م . س ، ١/ ٣٤٥ .

(٧) عبد الرحمن زكى ، امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك بحث نشر ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة والمنشور فى كتاب يحمل عنوان الندوة ، القاهرة ١٩٧١ ، ٢ / ٦٤٠ .

(٨) المقريزى : م . س ، ٢/١٣ ـ ١٣١ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١٥٧ .

تلك التى ترتبت عن طرح سنة (٥٧٧ هـ / ١١٨١ م) (١) حيث ابتعد ساحل النهر عن منطقة المقس وصارت هناك رمال وجزائر ما من سنة الا وهى تكثر حتى يبقى ماء النيل لا يمر بها الا أيام الزيادة فقط ...) (٢) ولقد كانت هذه الأراضى الناتجة عن الطرح النهرى ، تشكل مساحات كبيرة ، أضيفت إلى أراضى المدينة ، إذ تشمر الماء عن ساحل الفسطاط ، وأضحت الترعة الفاصلة فيما بين هذا الشاطئ ، وجزيرة الروضة جافة فى وقت انحسار فيضان النهر(٣) . مما يدل على أن ساحل الفسطاط أصبح قريبا جدا من جزيرة الروضة . لذلك فمن المؤكد أن المنطقة التى يقع عليها خط الساحل الجديد (٤) ، قد بدأت بالظهور فى تلك الفترة . اذ يلاحظ أن حمام أبى الحوافر ، التى كانت تقع على جزيرة ظهرت فى أوائل القرن السادس (٦هـ / ١٢ م) ، كانت تجاور الجامع الجديد الناصرى (٥) ، الذى كان يقع فى خط الساحل الجديد (٦) .

الا أنه ينبغى الإشارة هنا إلى أن هذه المنطقة ، قد تعرضت أراضيها إلى بعض التعديلات ، بعد عصر صلاح الدين الأيوبى ، فكما سبق أن ذكرنا بأن هذا الطرح النهرى ، أدى إلى ربط ساحل الفسطاط بجزيرة الروضة . واختفى الحاجز المائى فيما

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٧١ .

(٢) المقريزى : الخطط ، ٢/ ١٣١ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١٥٧ .

(٣) المقريزى : م . س . ، ١/ ٣٤٤ .

(٤) أبى دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ق ٢ ص ٤٠ وعن موقع الساحل الجديد انظر :
Casanova - Poul De oreconstution, Topogaphique Deof Ville D' Al-foustat au Misr, Mifao, Tome Trentecinquieme, Le Caire 1919, Plan 1 .

(٥) المقريزى : م . س ، ٢/ ٨٥ هذا الجامع أمر ببنائه الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ ـ ٧٤١ هـ / ١٢٩٣ ـ ١٣٤١ م) وكان الشروع فى بنائه فى سنة ٧١١ هـ . وكان موضعه رملة تتمرغ فيها الدواب . ابن دقماق : م . س . ، ق ١ ، ص ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٦) ابن دقماق : م . س . ، ق ٢ ص ٤٠ ـ ٤١ .

بينهما ، فى فترة احتراق النيل ، وانخفاض مستوى الفيضان . فالجزر والرمال التى ظهرت فى هذه المنطقة (.. خيف منها على المقياس أنه يتقلص الماء عنه ، ويحتاج إلى عمل غيره ..) [(١)]. ونظرا لأهمية دور المقياس فى تحديد مستويات فيضان النيل، وما يترتب على ذلك من نتائج اقتصادية . فلقد قام بعض سلاطين مصر ، بمحاولة السيطرة على الأخطار الناجمة عن هذا الطرح ، إذ قام الملك الكامل الأيوبى[(٢)] ببذل جهود كبيرة لمقاومة هذه النتيجة ، فعمد إلى حفر وتعميق مجرى جديد منتظم ، بين الفسطاط والجزيرة . أجرى فيه مياه النيل حتى فى فترة انخفاض مستوى الماء [(٣)] ، الأمر الذى سيحافظ من خلاله على فعالية المقياس وجدواه والغاء الحاجة إلى إنشاء مقياس جديد . وقد تكرر نفس الاجراء فى زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب [(٤)]، الذى بنى قلعة فى جزيرة الروضة [(٥)] ورغب أن يجعل الماء يفصل بشكل دائم ، فيما بين الجزيرة وساحل الفسطاط ، لذا فقد عمد إلى إزاحة الأراضى الجديدة الناجمة عن الطرح ، عن طريق حفر قناة جديدة فى الشاطئ ، وضغط المياه بوضع حواجز من السفن والحجارة فيما بين الساحل الغربى للجزيرة وساحل الجيزة[(٦)].

---

(١) المقريزى : السلوك ، جظ ١ ، ق ١ ، ص ٧١ .

(٢) هو الملك الكامل محمد بن محمد بن العادل بن أيوب ، أحمد أبرز سلاطين الدولة الأيوبية (٦١٥ ـ ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ ـ ١٢٣٨ م). ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٥ / ٧٩ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين فى تاريخ الخلفاء والملوك والسلاطين ص ٢٣٥ .

(٣) المقريزى : م . س ، جـ ١ ق ١ ، ص ٢٤١ ، عبد العال الشامى ، مدن مصر وقرها عند ياقوت الحموى ، ص ٥٣ .

(٤) هو أيوب محمد بن محمد بن أيوب الملك الصالح نجم الدين آخر سلاطين الأيوبيين الأقوياء فى مصر (٦٣٧ ـ ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ ـ ١٢٤٩ م عنه . انظر ابن تغرى بردى : أبو المحاسن جمال الدين يوسف ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٩ م. الدليل الشافى على المنهل الصافى ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ١/ ١٧٨ . ابن دقماق ، الجوهر الثمين ص ٢٤٢ .

(٥) ابن دقماق : الانتصار ق ١ ص ٧٧ .

(٦) ن . م . س ، المقريزى : الخطط ٣٤٥/١ ، السلوك جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٤١ .

كذلك أعيدت المحاولة مرة أخرى فى عهد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس [١] ، حيث عمد إلى حفر القناة مجددا ليضمن مرور المياه فيها ، وليفصل فيما بين الجزيرة، وشاطئ الفسطاط [٢] .

ولقد نجم عن هذه المشاريع المتكررة لإعادة فتح مجرى النيل فى المنطقة آثار إيجابية على وضع شاطئ الفسطاط ، حيث جرت الاستفادة من الرواسب والأتربة والرمال المستخرجة من المجرى الذى تم حفره لتسوية ورفع مستويات بعض المساحات من الأراضى المنخفضة التى كان الفيضان يغمرها فى الماضى مما أدى إلى تهذيب أراضى الشاطئ ، وأسهم بطبيعة الحال فى زيادة فرصة استغلالها عمرانيا [٣] .

كذلك نتج عن هذا الطرح اضافات جديدة للأراضى الواقعة غربى الخليج . كنوع من الاستمرار لعملية الطرح المتوالية التى كانت موجودة قبل هذه الفترة والتى ترتب عنها تباعد الشاطئ فى هذه المنطقة عن موقع القاهرة الفاطمية وذلك بعدما كان قريبا منها ، كما يشير إلى ذلك المقريزى ، أثناء حديثه عن ظواهر القاهرة المعزية ، حيث يذكر بأن هذه المنطقة لم يكن لها عرض كبير ، كما هو الحال فى عصره . وإنما كانت المساحة فيما بين الشاطئ والساحل ضيقة ، وبأن النيل كان يمر على الموضع الذى يعرف باللوق إلى المقس [٤] .

ومن الواضح أنه يقصد بذلك التنبيه إلى طبيعة وضع الساحل ، عند تأسيس

---

(١) هو ركن الدين بيبرس البندقدارى ، سلطان الديار المصرية أصله من مماليك الأمير علاء الدين أيدكن البندقدارى ، ثم انتقل إلى ملك الملك الصالح نجم الدين أيوب ، كان من أقوى الملوك وأعظمهم وهو أحد من قام بنصرة الإسلام وفتح الفتوحات الهائلة . عنه انظر الكتبى محمد بن شاكر ت : ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢ م ، فوات الوفيات والذيل عليه ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٤ م. ١ / ٢٣٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٢/ ٣٤٩ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٤ .

(٣) ابن دقماق : الانتصار ، ق ١ ص ٧٧ ، المقريزى : الخطط ٢/ ٣٠٤ ، مولف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ٣٦٩ .

(٤) المقريزى : الخطط ٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩ .

القاهرة الفاطمية ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م وبأن أراضى محلة باب اللوق ، كانت جزءاً من مجرى النهر . وأنها قد بدأت بالظهور نتيجة الطرح النهرى خلال العصر الفاطمى [(١)] حيث يترك الطرح أراضى لينة كانت تلاق لوقا عند زراعتها فعرفت بأراضى اللوق [(٢)] .

وكما سبق أن ذكرنا ، فإن هذه المنطقة شهدت منذ أوائل القرن السادس (٦هـ/ ١٢ م) إضافة أراضى جديدة ، فظهــرت فى أوائله القطعة الواقعة فيما بين ميدان اللوق [(٣)] وبستان الخشاب [(٤)] ، وهى التى عرفت بمنشأة الفاضل [(٥)] .

كذلك فإن الطرح الذى ظهر فى سنة (٥٧٧ هـ / ١١٨١ م) ، ترتب عنه ابتعاد الماء عن ساحل المقس ، حيث كان ينتهى السور [(٦)] ، الذى أمر صلاح الدين ببنائه سنة (٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م) [(٧)] الأمر الذى أزعج الإدارة الأيوبية ، خشية أن يؤثر ذلك على وظيفته الدفاعية ، فاستلزم الأمر التفكير جديا ، فى حلول علمية ، وفورية ، لمواجهة هذه المشكلة ، واستشير أهل الخبرة فى ذلك ، فاقترحوا إقامة جراريف

---

(١) حسن الباشا وآخرون ، القاهرة ص ٧٠ .

(٢) المقريزى : الخطط ، ١١٧/٢ ، مؤلف مجهول : تاريخ المضر القاهرة ورقة ١٤٠ ، ولقد استمرت عملية الطرح واتساع الأراضى فى هذه المنطقة حتى العصر العثمانى ، حسن الباشا وآخرون : القاهرة، ص ٧٠ ، لتشمل أراض واسعة من القاهرة الحالية والتى تضم شارع قنطرة الدكة ، وأول شارع رمسيس ، ومستشفى قصر العينى ، وشارع بستان الفاضل ، وشارع بور سعيد ، وشارع نوبار حتى شارع الشيخ ريحان إلى الشاطئ الشرقى لنهر النيل حاليا ، عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام ، القاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م . ص ١٠ .

(٣) هذا الميدان ينسب إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب وكان بستانا فحوله ميدانا بعد أن اشتراه . وكان يقع فى المنطقة الممتدة فيما بين جامع الطباخ ، وقنطرة قد اداره على باشا مبارك : الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة . القاهرة ط . الثانية ١٩٧٠ م ٣/ ٢٢٣ـ ٢٢٤ .

(٤) محل بستان الخشاب هو معظم الأراضى الواقعة فى مواجهة القصر العالى والقصر العينى ، من الناحية الشرقية . على باشا مبارك م . س ، ٣/ ٢٣١ .

(٥) المقريزى : الخطط ، ٣٤٥/١ . وعن منشأة القاضى الفاضل انظر ما يلى .

(٦) المقريزى : الخطط ٢ / ١٢٤ .

(٧) سيرد ذكر السور لاحقاً .

لقطع جزر الرمل التى ظهرت أمام الساحل ، فى هذه الناحية ، كما اقترحوا انشاء دعامات ومصدات « أنوف » ، على الشاطئ المقابل لها غربى النيل . لغرض طرد تيار النهر باتجاه الشاطئ الشرقى [١] ضمانا لتأمين ارتباط السور بالمياه، مما يعيد له كفاءته الدفاعية ، ويحقق الهدف الذى جرى انشاءه من أجله . الا أن هذه الاقتراحات قد أهملت[٢] ، ولعل ذلك يعكس ادراك المسؤولين عدم جدوى الوقوف أمام تلك الظاهرة الطبيعية المتكررة . كذلك لا بد وأنهم أدركوا مدى ضخامة الأموال والجهود المطلوبة التحقيقَ مثل تلك الأفكار وتحويلها إلى واقع عملى ، خصوصا أن المصادر قد أشارت إلى محاولة مشابهة جرت فى أواخر العصر الفاطمى ، فلقد ظهرت خلال وزراه الافضل بين أمير الجيوش [٣] ، أراضى جديدة أمام دار الملك[٤] على ساحل الفسطاط . ففكر هذا الوزير بإزالتها بالجراريف وبإقامة المصدات « الأنوف » على جزيرة الروضة غير أنه عدل عن ذلك بعد أن أدرك الكلفة الاجمالية الباهظة التى كان عليه أن يوفرها ، من أجل انجاز هذا العمل [٥] . مما يعنى بدوره أن أراضى الطرح هنا أصبحت واقعا عملياً ، فى تلك الفترة وأن إضافات جديدة من الأراضى قد ظهرت أمام ساحل المقس . وان كانت المصادر لا تقدم معلومات وافية ، يمكن من خلالها تحديد مدى هذه الإضافات . بيد أنه من المؤكد أنها كانت كبير لدرجة أنها أدت إلى نشوء مخاوف من مدى تأثيرها على وظيفة السور الدفاعية ، حينئذ .

---

(١) المقريزى : م . س ، ٢ / ١٢٤ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر والقاهرة ، ورقة ١٤٩ .

(٢) ن . م . س .

(٣) هو أبو القاسم الأفضل أمير الجيوش شاهن شاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ٤٨٧ ـ ٥١٥ هـ / ١٠٩٤ ـ ١١٢١ م ولى الوزارة بعد أبيه وكان المتحكم فى أمور الدولة فى عهد الخليفة المستعلى العبيدى والآمر بأحكام الله الذى قيل بأنه هو الذى قتله بسبب أنه سمح للناس فى إظهار عقائدهم فكرهه أهل الباطنية والشيعة . ابن العماد : شذرات الذهب ، ٥ / ٤٧٠ .

(٤) سيرد ذكر دار الملك لاحقاً .

(٥) المقريزى : الخطط ٢ / ١٢٤ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١٤٩ .

وعلى أية حال ، فإنه من الواضح أن ساحل المدينة الكبرى قد شهد فى تلك الفترة تبدلات واسعة ، تمثلت فى إضافة مساحة شاسعة إلى أراضى المدينة [١] . وهذه هى الناحية الأولى من تأثير انحراف مجرى النيل كما سبق أن ذكرنا .

أما الناحية الثانية من تأثير انحراف مجرى نهر النيل ، على مدينة القاهرة ، فهى متعلقة بالفيضان النهرى [٢] الذى ظهرت عليه فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، تطورات أثرت على وضعية الأراضى فى المدينة الكبرى . ففى عهد صلاح الدين ، تراجع تأثير الفيضان عن مساحات كبيرة من الأراضى فى هذه المنطقة ، ولم يعد المد يشملها كما كان عليه الحال فى العصر الفاطمى . اذ أصبح المد لا يصل إلا إلى ساحل المقس ، وذلك فى حالة زيادته القوية [٣] مثلما حدث فى سنة (٥٨٧ هـ / ١١٩١ م) عندما بلغ فيها فيضان النيل مستويات عالية الأمر الذى أثر على جامع المقس [٤] ، اذ (.. انشقت زريبة من هذا الجامع فى شهر رمضان لكثرة زيادة ماء النيل وخيف على الجامع السقوط ..)[٥] . فى حين أن فيضان هذا النهر كان اذا بلغ زيادة عالية فى العصر الفاطمى ، فإنه يشمل أراضى المنطقة كلها ، ولا ينجو من تأثير الفيضان سوى الأماكن المرتفعة . كما يشير إلى ذلك ناصر خسروا [٦] ، وهذه الظاهرة ظلت مستمرة حتى أواخر العصر الفاطمى ، وان كان تأثيرها بدرجة أقل على

---

(١) انظر خريطة سوزان جان ، المنشورة فى : Sauza Jane Staffa : Conquest and Fusion The Social Elvolution of Cairo, A. D. 642 - 1890 .

(٢) يبدأ النيل بالزيادة ويرتفع مستوى الماء فيه فى أشهر الصيف فتندفع المياه لتشمل كافة الأراضى الزراعية ، وعلى هذا الفيضان كانت تقوم الحياة الزراعية ، والاقتصادية فى هذه البلاد انظر فصل العوامل الاقتصادية .

(٣) عن زيادة النيل ومستوياته انظر فصل العوامل الاقتصادية .

(٤) هذا الجامع أنشأه الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، المقريزى : الخطط ٢/ ٢٨٣ . وهو يعرف الأن بجامع أولاد عنان ، على باشا مبارك : الخطة التوفيقية ٣/ ٣٦٨ .

(٥) المقريزى : ن . م . س ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة رقم ٣٤٣ .

(٦) ناصر خسرو : سفر نامة ، ص ص ٩٣ ، ١٠١ .

ما يبدو اذ أن الفيضان عندما يبلغ زيادة عالية فى تلك الفترة ، فإنه يغطى الأماكن الواقعة إلى الجنوب الغربى من القاهرة الفاطمية ، فيما بينها وبين الفسطاط ، ففى سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) كان المد عاليا لدرجة أنه قطع الطريق الواصل فيما بين القاهرة والفسطاط . الأمر الذى ترتب عنه أن اضطر الناس إلى سلوك طريق المقابر[١] الواقعة على يسار الخارج من باب زويلة [٢].

ان هذا التحول فى تأثير الفيضان كان سببه عاملين أساسيين : أولهما هو ما سبق الإشارة إليه ، من أن الفيضان النهرى كان يترتب عنه أرساب وطمى يؤدى إلى الارتفاع التدريجي للأراضى عن مستوى النهر بيد أن هذا العامل يعد تأثيره بطيئا جدا ، ولا يظهر الا بعد فترات متباعدة ، تصل إلى مئات السنين ، كما يشير إلى ذلك التغير فى تحديد مستويات فيضان نهر النيل [٣] . وان كان بالامكان القول بأن تأثير ارتفاع مستوى الأراضى ، ظاهرة ملموسة فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، حيث تغير تأثير مستوى الفيضان ، عما كان عليه الحال فى العصر الفاطمى [٤] .

أما العامل الثانى ، فهو الأشد تأثيرا وذلك بسبب أن الفيضان أصبح تأثيره بعيدا عن المنطقة بأسرها ، اذ يلاحظ أنه فى عصر صلاح الدين ظهر أمام ساحل المدينة ، من جهة المقس جزيرة عرفت بجزيرة الفيل [٥] ، وهى جزيرة لم تتكون نتيجة الطرح النهرى ، وإنما كان سبب ظهورها ، غرق مركب كبير فى هذه المنطقة فى أواخر العصر الفاطمى كانت تعرف بالفيل ، فتجمعت أرساب النهر عليه حتى ظهرت هذه

---

(١) المقريزى : تقى الدين أحمد بن على ، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء . تحقيق محمود حلمى محمد ، القاهرة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ / ١٨٦ ـ ١٨٧ .

(٢) سيرد ذكر هذه المقابر لاحقاً .

(٣) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٤) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٥) موضع الجزيرة اليوم هى المنطقة التى يخترقها شارع شبرا من الجنوب إلى الشمال . عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ٦٦

الجزيرة [١] فيما بعد سنة (٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م) [٢] .

فأدى ذلك إلى أن أصبح مدى الفيضان النهرى ، وتأثيره ، وقوته ، فى ناحية الساحل الغربى للنهر [٣] . بل أن ظهور هذه الجزيرة هو الذى أدى ايضا إلى ابتعاد ساحل النهر عن المقس . اذ يذكر المقريزى أن ساحل النهر (.. كان بالمقس وأن الماء انحسر بعد سنة سبعين وخمسمائة عن جزيرة عرفت بجزيرة الفيل وتقلص الماء عن سور القاهرة ..) [٤] كذلك يبدو أن الأمر ظهر على نفس الوتيرة فى ساحل الفسطاط فأصبحت قوة الفيضان تمر من خلال الفرع الواقع فيما بين ساحل جزيرة الروضة الغربى والجيزة . وذلك نتيجة إقتراب ساحل الفسطاط فى تلك الفترة من جزيرة الروضة ، حتى أصبح الماء لا يمر فى الفرع الواقع فيما بينهما ، الا فى وقت الزيادة فقط ، وأن التعديلات التى أجريت بعد صلاح الدين الأيوبى للمحافظة على استمرارية التدفق الدائم للمياه فيه لم تؤدى الا إلى ظهور ترعة صغيرة تفصل فيما بين المنطقتين كما هو الحال فى الوقت الحاضر [٥] ، فأصبح الفرع الواقع غربى الجزيرة هو أكبر الفروع بعدما كان الفرعان متساويين فى أوائل العصر الفاطمى ، حيث كانت جزيرة الروضة تقع فى وسط النهر [٦] . وبالتالى فإن ذلك أدى إلى حفظ الأراضى الناتجة عن الطرح وبشكل دائم من تأثير الفيضان النهرى ، خاصة وقت الزيادة القوية . ولا شك بأن ذلك الوضع يفسر إلى حد بعيد ، عدم تقدم المبانى فى العصر الفاطمى تجاه الساحل ، ففى جهة القاهرة الفاطمية ، كانت منشآت النزهة تبلغ أقصى حد لها منطقة بر ابن التبان الواقعة على الشاطئ الغربى للخليج [٧] ، ولم

---

(١) مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ٢١٦ .

(٢) المقريزى : الخطط ٢/ ١٣٠ ـ ١٣١ ، مؤلف مجهول : م . س . ورقة ١٥٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٧١ .

(٤) المقريزى : الخطط ، ٢ / ١٣٠ ـ ١٣١ .

(٥) انظر خريطة الآثار الإسلامية ، الصادرة عن هيئة المساحة المصرية .

(٦) ناصر خسرو ، سفر نامة ، ص ١٠٤ .

(٧) سيرد ذكر بر ابن التبان لاحقاً .

تتجاوزها باتجاه الساحل لتشمل أراضى اللوق ، التى كانت تستخدم للزراعة فى ذلك العصر [١] . وكذلك كان الحال فى الفسطاط اذ أن المبانى لم تكن تتقدم نحو الساحل، فى الأراضى التى يمكن أن يتركها الطرح النهرى ، خلال العصر الفاطمى . يدل على ذلك سور المدينة الذى بنى لها فى سنة (٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م) فهذا السور كان ينتهى فى الناحية الغربية ، إلى موقع دار النحاس تقريبا [٢] ، وهذه الدار يعود تاريخ بنائها إلى العصر الأموى [٣] ، مما يدل على أن المبانى لم تتقدم باتجاه الساحل ، منذ عقود طويلة من الزمن ، ومن المؤكد أن السبب ، يعود إلى أن الأراضى التى يكونها الطرح النهرى ، لم تكن مهيأه طوال تلك الفترة ، للاستغلال العمرانى المناسب لأن فيضان النيل كان يشملها فى ذلك الوقت كما سبق أن ذكرنا . وهذا فيما يتعلق بظاهرة انحراف مجرى النيل فى عصر صلاح الدين الأيوبى ، أما عن أثر هذا الانحراف على التطور العمرانى للقاهرة ، فإن من أبرز المكتسبات التطويرية فى هذا الشأن هو زيادة الفرصة المتاحة لاستغلال أراضى جديدة استغلالا عمرانيا . ففى الفسطاط تقدمت المبانى بشكل كبير باتجاه الساحل . فاستغلت الأراضى المتكونة من الطرح النهرى فى بناء العديد من المنشآت والدور ، حيث أخذ النشاط العمرانى فى هذه المدينة بالتحول ناحية الساحل [٤] ، ليبلغ ذروته فى عهد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس ، اذ قام سكان الفسطاط فى تلك الفترة بالانتقال من شرقيها إلى ساحل المدينة الكبرى . فعمروا فيه العديد من الدور والمبانى [٥] ، كذلك بدئ فى استغلال أراضى الطرح الواقعة غربى الخليج ، التى بنى عليها العديد من منشآت النزهة

(١) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٢) سيرد ذكر هذا السور وموقع دار النحاس لاحقاً .

(٣) ابن دقماق : الانتصار ، ق ١ ص ٦٠ .

(٤) سيرد تفصيل ذلك لاحقاً .

(٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٣ / ٣٣٤ .

والبساتين علاوة على الدور السكنية [١] .

ولم يكن تأثير انحراف مجرى النيل قاصرا على هذه الناحية فحسب ، بل تجاوزها إلى التأثير على قيم المكان فى بعض أجزاء المدينة الكبرى . اذ أن منطقة القاهرة الفاطمية ، تأثرت قيمة الموقع بها نتيجة الطرح النهرى ، فظهور أراضى جديدة ، فى غربى هذه المدينة أثر على الوظيفة الدفاعية التى كانت تقوم بها ، اذ كان الفاطمين يعتمدو فى طريقتهم الدفاعية عن المدينة الكبرى على أساس جعل القاهرة ـ وهى الجزء المحض من المدينة الكبرى فى ذلك الوقت ـ هى التى تقوم بتحمل عبء الدفاع عن هذه المدينة [٢] .

وهو ما أشار إليه المقدسى ، حيث ذكر بأن الوصول إلى الفسطاط لم يكن يتم الا بعد المرور على القاهرة ، نظرا لكون القاهرة ممتدة فيما بين الماء والجبل[٣] ، فهى تحجز الفسطاط من الجهة الشمالية . وهى الجهة التى يسهل منها الدخول إلى هذه المنطقة ،. لأن أراضيها كانت أراضى سهلية[٤] ، فى حين كانت تلال المقطم تحد المدينة من جهة الشرق ومعظم الأجزاء الجنوبية [٥] . فهى تكون خطا دفاعيا ممتازا ، علاوة على وجود النهر فى غرب المدينة ، مما يوفر مناعة طبيعية من هذه الجهات ، وعند ذلك فإن الفسطاط لا تحتاج إلا توفير الحماية بإزاء الطرف الشمالى منها .

ونظرا لأن القاهرة الفاطمية لم تكن تقع على نهر النيل مباشرة [٦] فمن الواضح أن إشارة المقدسى سابقة الذكر ، لا بد وأنها تعنى أن موضع القاهرة كان يؤهلها للسيطرة على المساحة الواقعة فيما بينها وبين النيل ، ذلك أن بر الخليج الغربى لم يكن عرضه كبيرا حينئذ فاعتبر المقدسى المدينة واقعة بين النهر والجبل .

---

(١) سيرد تفصيل ذلك لاحقاً .

(٢) Susan, Conquest and Fasion, p. 94 .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٠ .

(٤) سبق الأشارة إلى ذلك .

(٥) انظر ما يلى من هذا الفصل .

(٦) حسن الباشا وآخرون : القاهرة ص ٥٤ .

الا أنه مع مرور الزمن ، فإن الطرح النهرى أدى إلى تباعد الشاطئ عن المدينة ، الأمر الذى سيجعلها منطقة استقرار صالحة لأى قوة عسكرية ، تستهدف الدخول إلى مصر ، وهو ما جربه صلاح الدين بنفسه ، حيث أن القوات الزنكية لما دخلت مصر فى سنة (٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م) استقرت فى هذه المنطقة اذ كان نزولهم فى أرض اللوق (١) .

لذلك فقد اقتضت الضرورة إلى اجراء نوع من التكيف ازاء هذه التطورات ، فجرى مد سور المدينة حتى الشاطئ وذلك ضمن المشروع التحصينى الذى أمر صلاح الدين ببنائه سنة (٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م) لحماية المدينة الكبرى من الغزوات المعادية (٢) .

وبشكل عام ، فبالإمكان القول بأن انحراف مجرى نهرالنيل أدى إلى أن تنجذب المدينة باتجاه الغرب ، ضمانا لمصالحها مع النهر ، سواء الأمنية ، أو الاقتصادية ، التى لا بد وأن النهر كان له دور أساسى فى ايجادها .

ب : تلال المقطم :

ومن العوامل الجغرافية ، التى أثرت على التطور العمرانى لمدينة القاهرة ، وفى عهد صلاح الدين الأيوبى ، تلك التكوينات الصخرية ، التى كانت جزءا من المكونات التضاريسية ، لأراضى المدينة الكبرى .

اذ يكتنف القاهرة من جهتها الشرقية ، كتلة صخرية ضخمة ، هى جزء من سلسلة الجبال الشرقية فى الاقليم المصرى ، والتى تسير بمحاذاة نهر النيل ، لتترك بينها وبين النهر شريطا سهليا ضيقا ، يبدأ بالانفراج والاتساع عند القاهرة ، حيث ينتهى امتداد هذه السلسلة فى المقطم وتأخذ السلسلة الجبلية بعد ذلك بالابتعاد عن طرف

---

(١) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) سيرد ذكر تفاصيل هذا المشروع لاحقاً .

الوادى متجهة نحو الشرق [١] .

ولقد اصطلح على تسمية الكتلـة الصخـرية ، التـى تقـع شرقى المدينة الكبرى (مصر ـ القاهرة) باسم جبل المقطم [٢] . وتختلف الروايات التاريخية ، حول أصل تسمية المقطم ، ذلك أن رواة السير ينسبون الاسم إلى بعض القدماء ، حيث ينسبه البعض إلى شخص يدعى المقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام [٣] . أما ياقوت ، فإنه يناقش ما اذا كان الاسم عربيا ، ويقدم ثلاثة فروض لغوية : الأول أن أصل التسمية جاءت من القطم ، وهو تناول الحشيش بأدنى الفم ، وعليه فربما جاءت التسمية من حيث أن هذا الجبل لا نبات فيه . أما الثانى ، فمنبعه من قولهم : (... فحل قطم وهو شدة اغتلامه فشبه بالفحل الأغلم لأنه اغتلم أى هزل فلم يبق فيه دسم) [٤] . وكذلك حال هذا الجبل الذى لا ماء فيه ولا مرعى . أما الفرض الثلاث ، وهو ما استحسنه ياقوت ، فهو أن كتلة الجبال الشرقية ، تنقطع عن الامتداد بمحاذاة الساحل ، عند هذه المنطقة . وذلك يعد قطما فكانت تسميته على هذا الأساس [٥] . ومن الواضح أن الكتل الصخرية التى كانت تقع فى المنطقة نفسها وتحمل أسماء أخرى تعد أيضا من ضمن تلال المقطم [٦] . وكانت هذه التلال تحيط

(١) ابن مماتى : أسعد بن المهذب بن أبى مليح ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م ، قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ م. ص ٧٠ ـ ٧١ . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ٥/ ١٣١ .

(٢) ابن مماتى : م . س . ص ٧١ ، ياقوت الحموى : م . س ٥ / ١٧٦ ، المقريزى : الخطط ١ / ١٢٣ .

(٣) ابن مماتى : م . س . ص٨١ ، ياقوت الحموى : ن . م . س ، المقريزى : م . س ١ / ١٢٤ . بول كزانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ص ٦١٠ .

(٤) ياقوت الحموى : ن . م . س

(٥) ن . م . س .

(٦) ن . م . س .

بالمدينة من الجهة الشرقية [١] والجنوبية حيث يوجد الرصد [٢]،[٣].

ان الأهمية العمرانية لهذه الأماكن تكمن في خصائصها التي تعطيها بعدا وظيفيا يمكن استغلاله من قبل المدينة ، فمن الملاحظ أن ارتفاع بعض المناطق قد اكسبها هواء نقيا جافا ، مما جعلها تعد من الأماكن التي يتمتع أهلها بوضع سكني مميز [٤].

ولقد كان لهذه التلال تأثير عمراني على المدينة في عهد صلاح الدين ، اذ استقطبت بعض المشروعات العمرانية التي أقيمت في المدينة حينئذ ذلك أن الموضع الذي جرى اختياره لإنشاء القلعة التي أمر صلاح الدين ببنائها في عام (٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م)[٥] كان عبارة عن بروز صخري يتميز بانكسار حاد من الجهة الغربية يعرف بالشرف[٦]. وكان هذا الوضع يحقق مجموعة من الخصائص ، من المؤكد أنها هي التي أكسبته الأهمية التي دفعت الإدارة الصلاحية إلى تفضيل اختياره موقعا للقلعة .

فهو من الناحية العسكرية يتميز باشرافه على منطقة الوادي بأكملها . وعلى الرغم من أن هذه الكتلة يقع خلفها كتلة أخرى أشد علوا منها الأمر الذي قد يثير

---

(١) فتحي حافظ الحديدي ، دراسات في مدينة القاهرة ، القاهرة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ص ٧٠ ، عبد الفتاح محمد وهبة : الجغرافيا التاريخية بين النظرية والتطبيق ص ٤٠٤ .

(٢) المقريزي : الخطط ١/ ١٣٥ ، وهذا الجبل يعرف الأن بجبل اصطبل عنتر ، فؤاد فرج : المدن المصرية وتطوراتها عبر العصور (القاهرة) ١٨٧/٣ .

(٣) وسمي بالرصد لأن الأفضل بن أمير الجيوش بنى عليه مرصدا لرصد الكواكب ، المقريزي : ن . م . س ، بول كزانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ص ٦١ .

(٤) المقريزي : م . س ، ١ / ٣٤٠ .

(٥) سيرد ذكر القلعة لاحقاً .

(٦) كان بالمدينة الكبرى ثلاثة مواضع تعرف بالشرف : الأول : وهو الذي عليه القلعة ، والثاني في الرصد جنوبي الفسطاط ، والثالث : فهو الذي بين الكوم الجارح والجامع الطولوني . المقريزي : الخطط ، ١/ ١٢٥ . وانظر عن موقع القلية ايضا : ك . أ . كويزويل . وصف قلعة الجبل ، ترجمة جمال محمد محرز مراجعة عبد الرحمن زكي ، القاهرة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ ، ص ١٧ ـ ١٨ .

اعتراضات حول أهمية اختيار هذا الموقع ، الا أنه يلاحظ أن أقرب نقطة بين المنطقتين تقع على مساحة ثلاث مائة وخمسين مترا (٣٥٠ م) وهى مسافة يصعب على آلة من آلات الرمى فى ذلك الوقت أن تصلها كما يذكر كريزويل [١] . وأخذ فى الاعتبار أيضا لتحديد موقع القلعة ، مسألة المناخ واعتداله اذ أريد بها أن تكون مقرا سكنيا لصلاح الدين الأيوبى [٢] . ومن هنا جرى اختبار صلاحية المنطقة من هذه الناحية[٣] . أضف إلى ذلك فإن من الخصائص التى يتميز بها موضع القلعة ، إشرافه على أرجاء المدينة الكبرى حيث يقع بين القاهرة والفسطاط وبالإمكان مشاهدته من مختلف أرجائها ، وبالتالى فإن اختياره يعد أمرا مهما لإرهاب أولئك الذين يفكرون بالعصيان من سكان المدينة [٤] ، حيث يرمز للقوة والسيطرة والتحكم [٥] ، خاصة وأن فكرة السيطرة والضبط ، كانت واضحة كل الوضوح عند صلاح الدين الأيوبى ، فقد أورد أبو شامة ، بأن السبب الذى دفع صلاح الدين ، نحو تجديد عمارة سور القاهرة القديم ، هو أن هذا السور قد تلف وأصبح لا يرد داخلا ولا يمنع خارجا [٦] . وهكذا فإن إعادة ترميمه وبنائه كان يهدف إلى الضبط والسيطرة على دخول الأفراد وخروجهم من القاهرة فى ذلك الوقت . أضف إلى ذلك فإن ربط المدينة الكبرى بالقلعة ، التى تقع على الجبل يحقق نقله نوعية فى وظيفة المدينة الحربية بشكل عام

---

(١) ك . أ . كريزول ، م . س ص ٨٠ .

(٢) انظر الفصل الأخير من الباب الثانى .

(٣) لاحظ ما يذكره المقريزى عن تجربة تعليق اللحم للتأكد من جودة مناخ المنطقة . المقريزى : الخطط ٢/ ٢٠٣ . وانظر أيضا : جاستون فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ترجمة مصطفى العبادى ، بيروت ١٩٦٨ م ص ٧٥ .

(٤) جاستون فييت : م . س ص ٧٧ . جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث مع فذلكة من تاريخ مصر القديم ، القاهرة ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٩ م ١/ ٣٢٢ .

(٥) جاستون فييت : ن . م . س .

(٦) تم تجديد عمارة هذا السور فى عام ٥٦٦ هـ / ١١٦٨ م انظر : أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٨ .

إذ أن ربطها بالجبل ، يؤدى إلى بناء علاقة كانت تحتاجها المدينة فى تلك العصور لتحقيق وضمان الوظيفة الحربية [١]، وهو ما ذكره ابن خلدون الذى أشار إلى أهمية التلال الجبلية كمواضع تقام عليها المدن [٢] ، خصوصا وأن القاهرة قد أصبحت فى عهد صلاح الدين الأيوبى هى العاصمة التى تتحمل عبئا خاصا ومتميزا فى التصدى بصلابة للهجمة الصليبيــة الشرسة ، التى كانت تستهــدف بلاد الإسـلام فـى ذلك العصر .

جـ : الأكوام :

يطلق هذا اللفظ على الرمل المشرف ، كما أن الكوم عبارة عن حجارة وتراب مجتمعين ، يرتفع عن سمت الأرض بمقدار ذراعين [٣] وهى تنسب فى مصر أما إلى أصحابها ، أو إلى شيء ما تعرف به [٤] .

وتحتوى الفسطاط فى الوقت الحاضر ، على مجموعة ضخمة من التلال هى

---

(١) جمال حمدان : جغرافية المدن ص ٣١ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ١ / ٣٤٧ .

(٣) الذراع : هو ما يذرع به وهو من معدات القياس وقد استخدم فى تحديد أطوال المسافات المختلفة كالبريد والفرسخ والميل ، والأذرعة سبعة أصناف ، الذراع العمرية ، الهاشمية الصغرى ، والهاشمية الكبرى ، والسوداء ، والقاضية اليوسفية ، الشرعية ، المأمونية ، فالترهنس : المكاييل والأوزان الإسلامية ، وما يعادلها فى النظام المترى ، ترجمة كامل العسلى ، عمان ١٩٠ هـ / ١٧٠ م ص ٨٧ ــ ٩٢ . ضيف الله يحيى الزهرانى : موارد بيت المال فى الدولة العباسية فيما بين سنة ١٣٢ ــ ٢١٨ هـ / ٧٤٩ ــ ٨٣٣ م . مكة . ط . أولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ص ٣٠٨ ــ ٣١٢ . طلال جميل رفاعى : نظام البريد فى الدولة العباسية حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، رسالة دكتوراه مخطوط ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م . ١ / ٨٠ ــ ٨١ .

(٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان ٤ / ٤٩٥ .

عبارة عن أكوام تعبر عن التغيرات العمرانية الكبرى ، التى تعرضت لها المدينة عبر العصور المختلفة [١] ، ومناطق هذه الأكوام فى الأصل مناطق سكنية ، كانت معمورة فى وقت من الأوقات ، فلما هجرت انتقضت وتحولت إلى خرائب تداعت على بعضها ، فعرفت بالأكوام [٢] . ويفهم من نص أورده المقريزى ، بأن العامة فى مصر ، قد استعملوا للدلالة عليها لفظا آخر هو « كيمان مصر » [٣] .

وتتفق المصادر على أن سبب وجود الأكوام وقوع حادثتين رئيسيتين ، تعرضت لها الفسطاط فى العصر الفاطمى ، أولاهما الأزمة الاقتصادية الخانقة والغلاء والقحط الذى واجهته البلاد فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله [٤] والتى نسبت إليه فعرفت بـ « الشدة المستنصرية » . وقد رافق هذه الأزمة ـ كما هو متوقع ـ اضطرابات أمنية وفوضى ضارية [٥] ، ونجم عن ذلك تأثر أجزاء كبيرة من المدينة الكبرى ، حيث هجرها أهلها ، وكان ذلك مدعاة لتدهور عمرانى ، انتهى بها إلى أن تحولت إلى خراب .

أما الحادثة الثانية ، فكانت حادثة إحراق الفسطاط المتعمد التى أقدم عليها الوزير

---

(١) عبد الرحمن زكى : الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع ، ص ٣٤ ـ ٣٥ ، القاهرة تاريخها وآثارها ، القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م. ص٤ ـ ٥ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٣ / ٣٣٤ .

(٣) المقريزى : الخطط ، ١ / ٣٣٩ .

(٤) هو المستنصر بالله سعد بن على الظاهر لإعزاز دين الله ، ابن الحاكم بأمر الله (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ)، أبو تميم ، بلغت الدولة الفاطمية فى عهده أوج اتساعها ، عنه انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان، ٢٢٩/٥ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٢٥٨ .

(٥) المقريزى : تقى الدين أحمد بن على : إغاثة الأمة بكشف الغمة (أو تاريخ الجماعات فى مصر) ، ص ص ٢٣ ـ ٢٦ . وانظر أيضا بمزيد من التفاصيل : أحمد السيد الصاوى : المجاعات وتأثيرها على النواحى المالية والحضارية زمن الفاطميين ، دراسة أثرية حضارية ، رسالة ماجستير مخطوط ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، القاهرة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ص ص ٧٣ ـ ١٠٩ .

الفاطمى شاور ، تحسبا لاحتمال استيلاء الصليبيين عليها وحرمانا لهم من إمكانية الاستفادة منها أو من بيوتها وعمائرها ، عندما عزموا على الاستيلاء على مصر فى عام (٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م) [١] . ويذكر المقريزى ، بأن هذا الحريق ، هو الذى أدى إلى خراب الفسطاط بشكل كبير ، حتى تكونت الكيمانات التى تعرف بكيمانات مصر [٢] . ولم ينفرد المقريزى بذكر الإشارة إلى الكيمانات ، فقد أشار ابن المتوج إلى ستة أكوام ، من المسماة فى عصره بالكيمانات [٣] . وفى الوقت الذى أشار فيه ابن دقماق إلى ثلاثة عشر كوما[٤] ، أما القلقشندى فإنه ذكر أحد عشر كوما [٥] . فهل هذه الكيمانات التى توردها المصادر ، تعود كلها لهاتين الحادثتين ، إن الإجابة على ذلك بالنفى ، اذ أن من غير المتوقع أن يكون وجود جميع الأكوام فى المنطقة موضوع البحث ، مرتبط بالحادثتين المذكورتين آنفا ، وذلك أن المصادر تشير إلى أن الكوم المعروف بكوم « عابس » [٦] ، وكان قد كبس بعد سنة ٢٦٠ هـ وبنيت عليه الآدر [٧] .

وبالتالى فإن بالإمكان القول بأن التطورات العمرانية التى مرت بها مدينة الفسطاط قبل العصر الفاطمى ، قد أسهمت بدون شك فى ظهور عدد من الأكوام . والواقع فإن خطط مدينة الفسطاط ، لم تستمر بنيتها بالاستمرار على وتيرة واحدة منذ نشأتها ، فقد حصلت تغيرات مختلفة فى بعض مواضع الخطط فيها ، فلقد كان لمهره [٨]

---

(١) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٢) المقريزى : الخطط ١ / ٣٣٩

(٣) المقريزى : م . س ، ١/ ٣٤٢ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ، ق ١ ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، ٣ / ٣٣٤ .

(٦) نسبة إلى عابس بن سعيد المرادى القطيعى ولى القضاء والشرطة بالفسطاط وتوفى سنة ٦٨هـ / ٦٨٨ م . ابن دقماق : م . س ، ق ١ ص ٥٣ .

(٧) ن . م . س .

(٨) مهرة بن حمدان بن عمر بن الحاف بن قضاعة من قبائل حمير ، المقريزى م . س ، ١ / ٢٩٨ .

خطة على جبل يشكر [١] ، غير أن هذه القبيلة قامت بالانتقال منها فى وقت من الأوقات لم تحدده المصادر ، ودون سبب ظاهر معروف ، وسكنت بعد ذلك موضعا آخر ، يقع إلى الجنوب من خطة أهل الراية [٢] . وتعرضت الفسطاط إضافة إلى ذلك لبعض الحوادث قبل العصر الفاطمى ، لعل من أبرزها الحريق الذى تعرضت له إبان انهيار الحكم الأموى ، وظهور الدولة العباسية فى سنة (١٣٢ هـ / ٧٥٠م)[٣] .لذلك فبالإمكان القول ، بأن ظاهرة وجود الأكوام ، تعود أصولها التاريخية إلى ما قبل العصر الفاطمى . وان كانت كظاهرة لم تتضح الا خلال ذلك العصر حيث كانت الحادثتين المذكورتين آنفا ، عاملا رئيسيا فى أن يشمل الخراب أجزاء كبيرة من المدينة [٤] . فبالنسبة للشدة المستنصرية ، فلقد كان لها التأثير الكبير على القطائع والعسكر ، بالإضافة إلى الأجزاء الشرقية من الفسطاط التى تتصل فيما بينها وبين القرافة ، فهذه المواضع جلا سكانها عنها ، عقب الشدة المستنصرية [٥] . بيد أنه يلاحظ ، أن الخراب لم يستمر بشكل كامل فى مواضع القطائع والعسكر اذ جرى تعمير أجزاء كبيرة منها فى عهد الخليفة الأمر باحكام الله العبيدى [٦] ، وأعيدت

---

(١) هذا الجبل فيما بين الفسطاط والقاهرة وهو الذى يقع عليه جامع أحمد بن طولون ، المقريزى : م . س ، ١ / ١٢٥ .

(٢) المقريزى : م . س ، ١ / ٢٩٧ ، عبد الرحمن زكى : الفسطاط ص ١٧ ، وأهل الراية هم جماعة من قريش والأنصار وخزاعة ، ومنطقتهم تقع حول الجامع العتيق . المقريزى ن . م س ، عبد الرحمن زكى : ن . م . س .

(٣) عبد الرحمن زكى : م . س ، ص ٨٢ ، حسن الباشا وآخرون : القاهرة ص ١٨ .

(٤) المقريزى : م . س ، ١ / ٣٣٥ ، عبد الرحمن زكى : م . س ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٥) المقريزى : م . س ، ١ / ٣٣٧ ، عبد الرحمن زكى : م . س . ص ٣٣ .

(٦) هو الأمر باحكام الله أبو على منصور بن المستعلى بن المستنصر ابن الظاهر بن الحاكم العبيدى الفاطمى (٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ / ١١٠٢ ـ ١١٠ م) ولى أمور الدولة الفاطمية وهو ابن خمس سنوات . قتله جماعة من الباطنية وهو ذاهب إلى جزيرة الروضة . عنه انظر أبا عبد الله محمد بن على بن حماد (ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م) . أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، تحقيق التهامى نقره ، وعبد الحليم عويس . الرياض ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م ص ١٠٥ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

عمارتها أيضا فى عهد صلاح الدين الأيوبى [١] . لذلك فمن المرجح أن تكون الأجزاء الواقعة شرقى الفسطاط هى التى ظلت أكواما منذ عهد الشدة المستنصرية . أما الأكوام التى ترتبت عن حريق الفسطاط ، فيذكر المقريزى أنه قد نتج عن هذا الحريق الخراب الذى هو كائن فيها فى عصره حيث يقول : (... خربت مصر الفسطاط هذا الخراب الذى هو كيمان مصر ..) [٢] . ولقد أشار ابن جبير عند زيارته لمدينة الفسطاط ، إلى هذا الخراب فقال : (.. وبمدينة مصر آثار من الخراب الذى أحدثه الاحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انفساخ دولة العبيديين) [٣] . ومما تجدر ملاحظته أن المقريزى وابن جبير ، لم يقدما معلومات واضحة عن الأماكن التى أصابها الخراب ، والتلف ، نتيجة الحريق ، وأن هناك أجزاء كبيرة من المدينة ، قد أعيدت عمارتها فى عهد الناصر صلاح الدين ، خاصة المناطق التى تحيط بالجامع العتيق [٤] ، وهى أماكن لم تهجر نهائيا ، وتتحول إلى أكوام من الخراب ، وظلت عامرة إلى عهد السلطان المملوكى الملك الظاهر بيبرس[٥] . ولذلك فمن المؤكد أن الأكوام التى ظهرت نتيجة هذا الحريق ، فى تلك الفترة ، هى التى يفصلها عن الجامع العتيق مساحات واسعة ، وعلى الأخص تلك التى تقع فى الجنوب الشرقى من الجامع المذكور [٦] ، حيث تقع الكيمانات التى اصطلح على تسميتها بكيمان مصر ، وكانت تمتد من الكوم الجارح [٧] ، وما

---

(١) سيرد تفاصيل ذلك فيما يلى .

(٢) المقريزى : الخطط ، ١ / ٣٣١ .

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٢٩ .

(٤) سيرد تفاصيل ذلك فيما يلى .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٣٣٤ .

(٦) انظر خريطة رقم (١) .

(٧) هذا الكوم يقع فى الشرق من جامع عمرو بن العاص ، انظر

Casanova : Paul , De Reconstitution , Plan 1 .

يليه من الأكوام جنوبا ، إلى الرصد [١]، فهذه الأماكن كانت الأكثر تضررا من الحريق المذكور [٢].

والحقيقة فإن ظاهرة وجود الأكوام قد أثر على توزيع النشاط العمرانى فى الفسطاط ، إضافة إلى تأثيره على مخطط مشروع السور الذى أمر صلاح الدين ببنائه فى عام (٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م) والذى كان يهدف إلى توحيد مهمة الدفاع عن مدينتى الفسطاط والقاهرة معا ، عن طريق ضمهما فى سور واحد [٣].

أما بالنسبة للنشاط العمرانى فى الفسطاط فيلاحظ أن حركة التوسع فى المدينة قد اتجهت بشكل عام نحو الشاطئ والقاهرة [٤] ، لتترك بذلك الأجزاء التى فيها الأكوام دون عمران يذكر ، حيث تركز النشاط العمرانى والاقتصادى فى المنطقة المطلة على شاطئ النيل ، عوضا عن أن يتركز فى المناطق التى فيها الأكوام كما كان عليه الحال فى السابق [٥]. وان كان هذا لم يمنع أن تكون هذه الأماكن مناطق سكن للفقراء ورعاع الناس ، لأنها لم تكن تعد من العامر كما يذكر القلقشندى [٦] .

أما تأثير الأكوام على مخطط مشروع السور ، فيمكن ادراكه من متابعة خط توجه السور ، الذى يظهر من رسمه ، أنه قد تعمد عدم ضم أغلب أكوام مصر ، الممتدة من « كوم الجارح » حتى منطقة الرصد ، وتشير التوقيعات الخرائطية إلى أن السور كان قد احتوى أجزاء من « كوم الجارح » مارا من جهته الجنوبية [٧] ، أى أنه

---

(١) المقريزى : الخطط ١ / ٣٤٣ .

(٢)انظر خريطة رقم (١) .

(٣) البندارى ، سنا البرق ، ص ١١٩ .

(٤) انظر خريطة رقم (١) .

(٥) سيرد تفاصيل ذلك فيما لاحقا .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ، ٣ / ٣٢٤ .

(٧) انظر

Casanova, Paul , De Reconstitution, Plan 1 .

تجنب الأكوام [١] ، مما يشير إلى أنه سكنى هذه الأماكن فى ذلك العصر لم يعد مرغوبا فيه .

د ـ الخلجان والبرك :

من العوامل الجغرافية التى أثرت على خريطة المدينة ، التضاريس الطبيعية المائية ، والتى كانت تقع فى الدائرة العمرانية للمدينة الكبرى بشكل عام . وكما سبق أن شاهدنا كيف أن النيل قد كان عاملا لجذب عمران المدينة باتجاهه.

فقد أثرت المظاهر المائية الأخرى ، على بعض النواحى العمرانية المرتبطة بالمدينة ، إذ أن منطقة القاهرة تحتوى على العديد من الخلجان وأولها وأهمها خليج القاهرة أو خليج أمير المؤمنين ، وقد عرف أيضا بالخليج الحاكمى ، وبخليج اللؤلؤة ، وان كانت أقدم الأسماء التى عرف بها الخليج المصرى [٢]. وتختلف الروايات التاريخية حول أصل هذا الخليج وتاريخ نشأته ، فهناك من يرجعه إلى عصر ما قبل الإسلام[٣] ، وذلك أن انحراف مجرى نهر النيل والترسبات والطرح ، قد أدى إلى تباعد شاطئ النهر عن مدينة عين شمس ـ احدى عواصم مصر القديمة ـ فعمد قدماء المصريون إلى حفر هذا الخليج فى مجرى النهر القديم ، لكى تصل المياه إلى المدينة [٤]. وتذهب الرواية إلى القول بأنه كان يتصل منذ تلك الفترة بالبحر الأحمر (القلزم) [٥] . بينما تذكر بعض المصادر إلى أن هذا الخليج قد حفر بأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضى

---

(١) لاحظ ما يذكره ابن دقماق عن الأكوام الواقعة خارج السور . ابن دقماق الجوهر الثمين ص ٢١٨.

(٢) المقريزى : الخطط ١ / ٧١ ، ٢ / ١٤٠ .

(٣) المقريزى : م . س ، ٢/ ١٣٩ .

(٤) فؤاد فرج : المدن المصرية وتطوراتها عبر العصور (القاهرة) ٣/ ١٨٧ .

(٥) المقريزى : م . س ٢/ ١٣٩ .

الله عنه ضمانا لتيسير وصول شحنات المؤن من مصر إلى بلاد الحجاز فى عام الرمادة[١] .

ويمكن التوفيق بين الروايتين ، حين ننظر إلى الاجراء المتخذ فى زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه على اعتبار أنه اجراء إضطرارى ، اتخذ لمواجهة أزمة غذائية مستحكمة فى الحجاز ، تطلبت حلا سريعا . وهكذا فمشروع ربط النيل بالبحر الأحمر ، كان يقتضى السرعة والإفادة من الإمكانات والظروف المتاحة ، فاستفاد المسلمون الأوائل فى مصر من وجود الخليج فى منطقة عين شمس . وربما من وجود أثر لقناة جافة ومهملة ، تمثل مشروعا قديما للربط بين النيل والبحر الأحمر ، فعمل عمرو بن العاص رضى الله عنه والى مصر ، على تنفيذه عن طريق تعميق تلك القناة ، وربطها بخليج عين شمس ، حيث نجحوا فى إعادة جريان الماء ، ووصوله إلى البحر الأحمر بحيث يستوعب حمل سفن الشحن المطلوبة . وهذا الرأى يتفق مع نص المقريزى بهذا الشأن ، حيث ذكر : بأن هذا الخليج (... جدد حفره باشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى عام الرمادة ...) [٢] .

ويظهر أن هذا الارتباط قد روعى وتولى المسلمون تأمينه ، حتى توقف فى العصر العباسى[٣] ، والذى يعنى البحث هو تحرى موقع الخليج بشكل خاص وأثره فى التوسع العمرانى لمدينة القاهرة . ذلك أن الخليج المذكور يقع إلى الشمال من الفسطاط، حيث يتفرع من هناك من نهر النيل ، جنوب القصر العينى من المنطقة التى تعرف حاليا بفم الخليج [٤] ، ويسير باتجاه الشمال الشرقى . ثم ينعطف على شكل قوس بعد ذلك ؛ نحو الجنوب الشرقى ، حيث يوجد ميدان السيدة زينب ، فى الوقت الحاضر ، ليعاود السير بعد ذلك نحو الشمال الشرقى مارا غربى بركة الفيل [٥] ، ثم

---

(١) ياقوت الحموى : شهاب الدين بن عبد الله ، المشترك وضعا والمفترق صقعا . بغداد ص ١٥٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٢٩٨ .

(٢) المقريزى : الخطط ٢/ ١٣٩ .

(٣) ن . م . س .

(٤) حسن الباشا وآخرون . القاهرة ص ٣٢ .

(٥) عن هذه البركة انظر : ما يلى .

يتجه شمالا حتى يخترق سور القاهرة إلى خارج المدينة [١] . وهذا الخليج يعد الخليج الأساسى فى المدينة . وان كان هناك خلجان أخرى كانت تعمل على تغذية البساتين والبرك المائية فى المدينة ، منها خليج الذكر أو فم الخور[٢] . وهو خليج حفره كافور الأخشيدى [٣] وكان يزود بستان المقس بالمياه فى عصره ، فلما حول هذا البستان إلى بركة فى العصر الفاطمى كان هذا الخليج مصدر المياه لها [٤] . ومن الواضح أن كلمة الخور التى تعنى فى اللغة مصب الماء [٥] إنما هو امتداد لهذا الخليج نشأ نتيجة انحراف مجرى النهر ، فكانت الأرض التى يتركها النهر تحفر حتى يتصل ماء النهر بالخليج . فعرفت بالخور . ومن المؤكد أن التوسعة التى أجرها الملك الكامل[٦] لهذا الخليج[٧] ، قد قصد منها ضمان ارتباط الخليج بالنيل ، بعد ما عرقل ذلك ظهور الأراضى التى تكونت من ترسبات الطرح النهرى [٨] .

---

(١) وعن موقع هذا الخليج حديثا . انظر عبد الرحمن زكى ، موسوعة مدينة القاهرة ص ١٠٠ ـ ١٠١ ، خريطة الآثار الإسلامية حيث يطلق عليه شارع الخليج بعد أن ردم هذا الخليج ، ثم عرف بعد ذلك بشارع بور سعيد .

(٢) حسبما ورد فى الخطط فإنه يشير إلى خليجين بقوله (ذكر خليج فم الخور وخليج الذكر ، الا انهما فى الأصل كانا خليجا واحدا ثم أصبحا خليجين بعد تأسيس الخليج الناصرى فى العصر المملوكى حيث قطع هذا الخليج الأول ، فقسمهما إلى قسمين ، وسمى بالذكر نسبة لأحد المماليك يعرف بشمس الدين الذكر . انظر : المقريزى : الخطط ٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥ .

(٣) كافور الأخشيدى (٣٥٥ ـ ٣٥٦ هـ / ٩٦٥ ـ ٩٦٦ م) مملوك ولد فى النوبة كان للأخشيد ملك مصر فتولى الحكم بعد وفاته للوصاية على أبى القاسم أجور ابن الأخشيد ثم استولى على حكم مصر . عنه انظر : ابن العماد شذرات الذهب ، ٣/ ٢١ ـ ٢٢ .

(٤) المقريزى : م . س ، ٢ / ١٤٤ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة : ١٧٤ .

(٥) الزبيدى : تاج العروس ٣/ ١٩٣ .

(٦) سبق ذكر ترجمته .

(٧) المقريزى : الخطط ، ٢/ ١٤٤ ومن الواضح أن هذا الخليج يدل على موقعة المنطقة التى تعرف حديثا بتل سن ابرة أو تل اليهودية ، ذلك أن خط فم الخور الذى ينسب لهذا الخليج كان يقع فيها . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ٣ / ٢٣٦ .

(٨) لاحظ ما ذكرناه عن انحراف النهر فى المنطقة الواقعة غرب الخليج .

ومن هذه الخلجان أيضا خليج « بنى وائل » ، غير أن المصادر لا تقدم عنه معلومات واضحة . وهو يقع جنوبى الفسطاط [١] ، حيث كانت تقطعه قنطرة [٢] نسب إليها بابى الفسطاط ، اللذين كانا يقعان بالقرب منها [٣].

ومن المرجح أن يكون الخليج موجودا زمن صلاح الدين الأيوبى ، ذلك أنه كان يمد بركة شطا بالمياه . من خلال برابخ كانت تخترق السور [٤] . والثابت أن السور المذكور هو السور الذى أمر صلاح الدين ببنائه ليضم الفسطاط والقاهرة .

أما البرك الأخرى الواقعة إلى الجنوب من الفسطاط ، فقد كانت تردها المياه من بعض الخلجان الأخرى ، فبركة الشعيبة مثلا ، والتى تقع إلى الجنوب من الفسطاط ، كان لها خليجان يربطانها بالنيل[٥] ، أحداهما من الجهة الجنوبية ، والأخر من الجهة الشمالية [٦] .أما البرك فى منطقة القاهرة الكبرى ، فقد أشارت المصادر إلى وجود عدد من البرك تكونت نتيجة تغيرات طبيعية فى المنطقة ، أو نتيجة انجاز بشرى مقصود .

ومن أهم هذه البرك ما نشأ جنوبى الفسطاط ، مثل بركة الحبش [٧] والتى كانت تقع فيما بين الرصد والنيل [٨] ، وكانت تحتل مساحة

---

(١) Casanova, Paul , Re Constitution plan 1.

(٢) المقريزى : الخطط ، ١/ ٣٤٧ .

(٣) سيرد ذكر هذين البابين لاحقاً .

(٤) ابن دقماق ق ١ / ص ٥٤ ، وعن هذه البركة انظر ما يلى .

(٥) ابن دقماق ، م . س ، ق ١ / ٥٥ .

(٦) ابن دقماق : ن . م . س ، المقريزى : م . س ٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٧) سميت بالحبش نسبة لإحدى الجنان التى تطل عليها . وكانت تعرف ببركة المغافر وبركة حمير، عنها انظر : ابن دقماق : الانتصار ، ق ١ ص ٥٥ ـ ٥٦ ، المقريزى : م . س : ٢/ ١٥٢ ـ ١٥٩.

(٨) المقريزى : م . س . ٢/ ١٥٢ ، مولف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ، ورقة : ١٨٣

كبيـرة [(١)] ويجاور هذه البـركـة إلى الشـمـال منهـا ، برك أخـرى منهـا بركـة الشعبية[(٢)] ، وبركـة شطا [(٣)] . وتشير المصادر إلى بركتيـن تقعـان فيمـا بين الفسطاط والقاهرة أولهما « بركة الفيـل » ويذكـر المقريـزى بأنها كانـت كبيـرة جدا [(٤)] .

ويجاورها بركة أخرى تعرف « ببركة قارون » ولم يكن يفصل بينهما سوى جسر ، عرف بالجسر الأعظم [(٥)] .

---

(١) كانت هذه البركة تشغل مساحة قدرها الفان ومائتا فدان (٢٢٠٠) وتحد هذه البركة من الشمال بجبل اصطبل عنتر (الرصد) وبصحراء القرافة ، واراضى قرية أثر النبى كحد فاصل فيما بينها وبين دير الطين ومعادى الخبيرى ، ومن الجنوب والشرق باقى أراضى ناحية البساتين التابعة لمركز الجيزة . محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ م. القاهرة ١٩٥٤م ق ١ البلاد المندرسة ص ١٥٠ . ولقد قام بتحديد هذا الموقع بول كزانوفا ، انظر :

Paul Casanova , De Constitution, plam 1 .

(٢) يبدو أن سبب تسميتها بالشعبية لأن أناسا يعرفون ببنى الشعبية كان لهم وقف فيها . انظر ابن دقماق : الانتصار ، ق ١ ص ٥٥ . وعن موقعها انظر :

Paul Casanona, Op. Cit.,

(٣) عن هذه البركة انظر : ابن دقماق : م . س ، ق١ ص ٥٤ ـ ٥٥ ، ولا تذكر المصادر سببا يعرف منه أصل مسماها . وعن موقعها انظر : Paul Casanova, Op. Cit.,

(٤) المقريزى : م . س ٢/ ١٦١ ، ويدل عليها فى الوقت الحاضر المنطقة التى تحد من الشمال بسكة الحالية ، وغربا بشوارع درب الجماميز واللبودية والخليج المصرى ، وجنوبا شارع مراسينا ثم ينحرف هذا الحد من ناحية الشمال الشرقى حتى يتقابل مع أول شارع نور الظلام ، وصولا إلى شارع الألفى، وتحد من الشرق بكمالة شارع نور الإسلام فشارع مهذب الدين الحكيم ، فسكة عبد الرحمن بك وماضى امتدادها إلى الشمال حتى الحد الشمالى . وسميت ببركة الفيل لأن الأمير خماروية بن أحمد بن طولون جعل عليها دارا خاصة بالحيوانات تعرف بهذا الاسم . محمد رمزى : م . س ق ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .

(٥) المقريزى : الخطط ٢/ ١٦١ . وهذا الجسر يدل عليه شارع مراسينا ، وكانت هذه البركة تمتد جنوبا حتى شارع الشيخ البغال . عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ٣٠ ولا تذكر المصادر سببا لتسميتها .

كما كان يوجد فى غربى الخليج عدد آخر من البرك من أهمها بركة « بطن البقرة »[١] تذكر بعض المصادر بأن موقعها كان فى الأصل بستانا يعرف ببستان المقس، ثم حول إلى بركة فى عهد الخليفة الفاطمى الظاهر [٢][٣] ، الا أن ناصر خسروا ، الذى زار مصر فى عهد الحاكم بأمر الله [٤] يشير إلى وجود هذه البركة رغم أنه لم يسمها ، ويذكر بأنها تختلط بمياه خليج القاهرة وأن فيها مراكب للسلطان وتشرف عليها مناظرة[٥] ، وذلك يؤكد بأن بركة بطن البقرة يعود تاريخها إلى ما قبل عهد الخليفة الظاهر ، ويظهر من نص ناصر خسروا أن هذه البركة كانت كبيرة جدا [٦] ، ولعل اسمها يرمز إلى ذلك . ويعتقد على باشا مبارك بأن هذه البركة كانت تمثل المنطقة الممتدة فيما بين قنطرة الموسكى وباب القنطرة [٧]. ولا شك فى أن على باشا يقصد بباب القنطرة ، الباب الذى كان يقع على رأس شارع مرجوش ، من جهة الخليج [٨]. الا أن تحديد على باشا هذا ، إنما هو تحديد عام ، وقد بنى على تصور شخصى دون التقييد الدقيق بالنصوص ، التى توردها المصادر ، فى مجال تحديد موقع البركة .

---

(١) لعلها عرفت بهذا الاسم لأنها كانت كبيرة جدا وتستوعب كميات كبيرة من الماء . فشبهت ببطن البقرة .

(٢) المقريزى : الخطط ٢/ ١٦٣ . مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ١٩٥ .

(٣) هو الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله على بن الحاكم بأمر الله (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ / ١٠٢٠ ـ ١٠٣٥ م) عنه انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣/ ٤٠٧ ، ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ١٠٣ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٢٠٦ .

(٤) هو الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بالله (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ / ١٠٢٠ ـ ١٠٣٥ م) ولى الخلافة وهو ابن إحدى عشر سنة وبضع شهور . عنه انظر : ابن خلكان : م . س ٣ / ٤٠٧ . ابن حماد : م . س ص ٩٤ ـ١٠٣ ، ابن دقماق : م . س ص ٢٠٤ .

(٥) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٩٧ .

(٦) يذكر ناصر خسرو بأن هذه البركة باتساع ميدانين أو ثلاثة : ن . م . س .

(٧) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ٣ / ٢٥٠ وعن قنطرة الموسكى وباب القنطرة انظر الفصل الثالث من الباب الثانى .

(٨) على باشا مبارك : م . س ٣ / ١٢٨ .

وقبل الإشارة إلى هذه النصوص وما يترتب عليها من نتائج ، لا بد من الإشارة إلى نقطتين أساسيتين ، أولاهما ان باب القنطرة الذى أشار إليه على باشا مبارك ، ليس هو الباب الذى يعود إلى العصر الفاطمى ، إنما هو باب كان قد بناه الناصر صلاح الدين الأيوبى ، ضمن مشروعه التحصينى (٥٧٢ هـ / ١)[١] ، فى حين أن البـاب الفـاطمى يقع إلى الشمال من الباب المذكور ، وتحديدا فى الجهة الغربية من شارع الفراخة ، عند تقاطعه مع شارع الشعرانى [٢] . وثانيهما أن الشارع الذى كان يقع أمام باب القنطرة ، من الجهة الغربية للخليج ، يتميز بأن فيه انحناء ناحية الشمال ، بمعنى أن الخارج من باب القنطرة ، فإنه بعد أن يعبر القنطرة التى كانت قائمة أمام الباب ، فإنه ينزل إلى طريق يتجه به شمالا . ويدل على ذلك شكل عطفة المسطاحى [٣] التى تقع فيها قنطرة الباب الفاطمى ، والتى سدها السور [٤] . وهو سور صلاح الدين بطبيعة الحال ، الذى انحرف فى هذه الجهة ليتصل بباب القنطرة الجديد [٥] . ولذلك فإنه من الواضح أن تحديد على باشا لنهاية البركة من الناحية الشمالية عند باب القنطرة، قد قصد منه الغاء التناقض الحاصل بين المعلومات عن موقع الشارع الذى يتصل بهذا الباب من بر الخليج الغربى ، وبين المعلومات الأخرى عن موقع البركة .

وبما أن الباب الفاطمى كان يقع إلى الشمال وأن الشارع الذى يرتبط به كان

---

(١) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٢) انظر خريطة رقم (٢) . وقارن بين موقع هذا الباب :: A. Raymond E. & G. Wiet Les Marcees de Caire traduction annotced du texte de Magrizi, Caire, 1979, Plan 3 .

وموقع شارع الفراخة والشعرانى . حيث كان الأخير يقع فيه خط باب القنطرة . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة . ٢/ ٣٣٧ ، ٣ / ١٢٥ .

(٣) عن هذه العطفة وموقعها انظر : على باشا مبارك : م . س ٣/ ٢٧٢ . انظر خريطة رقم (٢) .

(٤) على باشا مبارك : ن.م.س .

(٥) يذكر على باشا مبارك أن السور الذى سد هذه القنطرة هو سور فاطمى ، ن.م.س ، ولكن لا دليل على ذلك اذ لم يجر الفاطميون أى توسعة فى هذه الناحية والتعديلات التى أجريت تعود إلى عصر صلاح الدين . انظر الفصل الثالث من الباب الثانى .

ينحرف شمالا ، فلا شك فى أن ذلك يعنى بأن هناك سببا قاهرا قد أثر على تصميم الشارع وإستقامته ، ومن المؤكد أن ذلك يتمثل فى وجود البركة التى تفيد المصادر بأنها لم تكن تنتهى فى هذه الجهة عند باب القنطرة كما ذكر على باشا ، وإنما كانت تمتد حتى تصل إلى أرض الطبالة [١] ، والتى تقع شمالى سور المدينة الذى بناه صلاح الدين فى هذه الجهة [٢] .

وقد وجدت فى هذه المنطقة مجموعة أخرى من البرك ، كانت تقع غربى الخليج . والمرجح أنها قد تكونت بتأثير عملية طرح النهر الذى عادة ما يخلف وراءه بعض المواضع المنخفضة التى تغمرها المياه فى موسم الفيضان ، كما تساعد المياه الجوفية على استمرار امدادها بالمياه خلال المواسم الأخرى ، مع ملاحظة قربها من النيل . وتوافق مستواها مع مستوى الماء فيه فى الظروف الأعتيادية . وكانت تعرف لذلك باسم البرك . ومن المرجح أن تكون هذه البرك قد ظهرت فى أزمنة مختلفة ، وأن يكون بعضها قد وجد فى عصر صلاح الدين ، ذلك أنها تقع ضمن الأراضى التى كانت موجودة فى المنطقة فى ذلك الوقت ، ومن أبرز تلك البرك « بركة الشقاف » والتى تقع فى باب اللوق ، ويشير المقريزى إلى وجودها فى زمانه حيث كان يطل عليها جامع الطباخ [٣]، وتعد من جملة

---

(١) المقريزى : الخطط ٢/ ١٦٣ . مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١٩٥ ، وسميت هذه الأرض بأرض الطبالة نسبة لمغنية للخليفة بالله الفاطمى وهبها هذه الأرض . القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٣٥٦ . ويدل عليها فى الوقت الحاضر شارع الفجالة ، على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ٣/ ٢٥٩ .

(٢) على باشا مبارك : م . س ٣ / ٢٦٠ .

(٣) هذا الجامع أنشأه الأمير جمال الدين أقوش ، وجدده الحاج على الطباخ فى المطبخ السلطانى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون فنسب إليه ، المقريزى : الخطط ، ٢ / ٣١٥ .

أراضى الزهرى [١][٢] . وكانت توجد فى المنطقة بركة أخرى هى « بركة السباعين»[٣] وهى من جملة أراضى الزهرى أيضا [٤] .

لقد كان التأثير العمرانى لهذه المواضع المائية على القاهرة فى عهد صلاح الدين الأيوبى كبيرا ، فوجود الأنهار والترع والبرك والخلجان فى مكان ما تكسبه سمة وظيفية أو نوعا من القيمة الإضافية ، فالغدران التى كانت فى القرافة ، هى من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى أن تكتسب أهميتها كأحد متنزهات القاهرة [٥] . ولذلك فإنه من أبرز المظاهر العمرانية التى أثرت فيها الخلجان على الخريطة العمرانية فى عصر صلاح الدين ، وهو جذبها لمنشآت النزهة ، ذلك أنه فى ذلك العصر كثرت

---

(١) المقريزى : م . س ٢/ ١٦٢ . وهى بذلك تقع بشارع باب اللوق (الصنافيرى) حيث يقع الجامع المذكور ، وحل محلها ميدان عابدين . انظر : على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ٣/ ١٠٧، ٣٢٣ .

(٢) نسبة لعبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن ابن عوف الزهرى ولى شرطة الفسطاط ، وتوفى سنة (٢١٠هـ) المقريزى : م . س ، ١١٤/٢ . وكان هذا الحكر يحتل مساحة واسعة تشمل براين التبان الذى يدل عليه المبانى الواقعة قبال باب الخرق غربى الخليج . وشق الشعبان الذى يدل عليه حارة تحمل نفس الاسم فى شارع الخلوتى ، وسويقة القرى وهى حارة القرى بشارع الخلوتى أيضا . وبركة الشقاف حيث ميدان عابدين ، وبركة السباعين التى بها دور سكينة ، وحدره المرادنيين الذى يدل عليها شارع حدرة جميزة وشارع الحدره ، على باشا مبارك : م . س ، ٣/ ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٣) سميت بالسباعين لأنه اتخذ عليها دار للسباع . المقريزى : م . س ، ٢/ ١٦٢ . ويذكر محمد على باشا بأنه يقع عليها مجموعة من المبانى السكنية فى شارع سويقة السباعيين . على باشا مبارك : م . س ، ٣ / ٣٣١ .

(٤) المقريزى : ن . م . س ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة : ١٩٥ .

(٥) ابن فضل الله العمرى : شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٠٠ م) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، مخطوط فى مكتبة أيا صوفيا باستانبول رقم ٣٤١٦ ، جـ ٣ ، ورقة ١٢٧ ـ ١٢٨ .

المناظر التى تطل على خليج القاهرة ، وكذلك كانت البرك عامل جذب للكثير من البساتين ومنشآت النزهة التى أخذت تحيط بها ، بل يلاحظ أن بعض البرك استغلت أجزاء منها لإنشاء المبانى عليها [١] .

---

(١) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

الفصل الثانى

العوامل الاجتماعية

نظرا لما تعنيه مظاهر النشاط الاجتماعي والثقافي للإنسان من تأثير مباشر أو غير مباشر على ظاهرة التمدن الإنساني ، فلقد تأثرت القاهرة الصلاحية بعدد من العوامل الاجتماعية والثقافية التي كان لها أكبر الأثر على تطورها العمراني . فحياة الإنسان بمظاهرها المختلفة لابد لها من وعاء مادى يستوعبها ، والعمران بطبيعة الحال هو ذلك الوعاء . لذلك فقد كان للمتغيرات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها القاهرة في عهد صلاح الدين آثارها وانعكاساتها العمرانية ، ومن أبرز هذه المتغيرات :

أ ـ التحول إلى المذهب السنى :

يمكن القول بأن توجه السلطة الصلاحية نحو الالتزام بمذاهب أهل السنة كان من أكبر وأبرز المؤثرات الاجتماعية التي أسهمت في احداث بعض التطورات العمرانية ، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر على القاهرة الصلاحية في ذلك الوقت .

فلقد كان العبيديون يتذهبون بمذاهب الشيعة العلوية وقد تبدى ذلك في ادعائهم الانتساب إلى فاطمة الزهراء رضى الله عنها وتسميتهم لأنفسهم بالفاطميين [١] . ومع أن المقريزى يعتبر من المعتزين بالانتساب إليهم والمدافعين عنهم ، إلا أنه لم يجد بدا من الاعتراف بأنهم كانوا من غلاة الشيعة العلوية ومن غلاة الروافض [٢] . أما علماء أهل السنة ومؤرخى الفرق الدينية فقد ذهب بعضهم إلى اخراجهم من الملة الإسلامية ونسبتهم إلى الديانة المجوسية ، حيث ذكروا أن مذهبهم هو من مذاهب المجوسية التي اتخذت ثوبا إسلاميا ، فعبد القاهر البغدادى يذكر بأن الذين اسسوا الحركات الباطنية (.. كانوا من أولاد المجوس وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ولم يجسروا على إظهاره خوفا من سيوف المسلمين فوضع الأغماد منهم أساسا من قبلها،

---

(١) انظر في نسب الفاطميين وما ورد فيه من أقوال للمؤرخين في الدراسة المستفيضة التي كتبها الأستاذ إحسان الهى ظهير عنهم . إحسان الهي ظهير الإسماعيلية تاريخ وعقايد ، لاهور ط ـ ١ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ص ١٦٧ ـ ٢٦٦ .

(٢) المقريزى ، الخطط ١/ ٤٩٢ .

منهم صار فى الباطن إلى تفصيل أديان المجوس ..) [١]، ولذلك عمدوا إلى تأويل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بما يوافق أفكارهم وأهوائهم [٢]، فابتعدوا عن الصواب وخالفوا مسلك السلف ومنهاجهم [٣].

وباستيلاء الفاطميين على مصر سنة (٣٥٨ هـ / ١١٦٢ م) حرصوا على نشر مذهبهم فى تلك البلاد، ولجأوا إلى مختلف الوسائل لجذب الناس إلى ساحتهم [٤].

وتختلف النصوص التاريخية فى تحديد ما وصل إليه الفاطميون من نجاح فى هذا الصدد، اذ ان هناك من النصوص ما تذكر بأن الفاطميين لم يستطيعوا جذب المصريين إلى مذهبهم، حيث ظلوا محتفظين بمذاهب أهل السنة التى كانت فاشية بينهم، كما يشير بذلك عبد القاهر البغدادى عند تعرضه للحديث عن استيلاء الفاطميين على مصر [٥]. وعلى ذلك سار عدد من الباحثين المحدثين الذين يرون بأن التشيع فى مصر لم يحظى فيها بالانتشار الواسع [٦]، بيد أن هناك من النصوص التاريخية التى تشير إلى أن الفاطميين قد حققوا نجاحا كبيرا فى نشر مذهبهم فى مصر، اذ يشير المقريزى أثناء حديثه عن داعى الدعاة [٧] إلى انتشار التشيع فى مصر حيث يذكر بأن داعى الدعاة له الحق فى أخذ أموال النجوى (.. من المؤمنين بالقاهرة ومصر وأعمالها

---

(١) عبد القاهر البغدادى (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم ط ٤، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ص ٢٦٩.

(٢) ن. م. س.

(٣) إحسان ظهير، الإسماعيلية، ص ٢٦٧.

(٤) الأمين عوض الله، الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى، جدة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ص ٦٨.

(٥) عبد القاهر البغدادى، م. س، ص ٢٧٥.

(٦) الأمين عوض الله / م. س. ص ٦٦، موريس لومباردو، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولى ص ٣٨.

(٧) داعى الدعاة، منصب استحدثه الفاطميون بعدما حكموا مصر وكانت مهمة صاحبة نشر المعتقدات الشيعية بين الناس. وكان يختار له نوابا لذلك، انظر عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ط ٣، ١٩٧٨ م، ١ / ١٧٧ _ ١٩٠.

لا سيما بالصعيد ..)[١] . ويؤيد ابن تغرى بردى ما ذهب إليه المقريزى ، فيذكر أثناء حديثه عن حوادث سنة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) بأن غالبية أهل مصر كانوا قد اعتنقوا المذهب الشيعى العلوى فى عصر التسلط العبيدى مسايرة منهم لحكامهم[٢] . ومن الواضح أن هذا الاختلاف فى النصوص التاريخية يعكس فى مجمله تطور الأوضاع المذهبية خلال العصر الفاطمى . فلا شك بأن المصريين كانوا فى بادئ الأمر متمسكين بسنيتهم ، فحرصوا عندما دخل الفاطميون مصر على أن يأخذوا منهم أمانا يلتزم الفاطميون بموجبه بعدم فرض معتقداتهم على أهل البلاد[٣] . لكن هذا الالتزام لم يدم طويلا ، حيث لجأوا بعد ذلك إلى نشر عقائدهم بكل السبل والوسائل ، وعمدوا إلى الترغيب والترهيب ، فبثوا دعاتهم فى المساجد ودور العلم ، وقصروا الوظائف فى بعض الأحيان على معتنقى مذهبهم[٤] ، بل إنهم قاموا باخراج علماء السنة من مصر لكى يتمكنوا من نشر مذهبهم ، ففى سنة (٤١٠ هـ / ١٠١٩ م) أمر الخليفة الفاطمى الظاهر[٥] باخراج (.. من بمصر من الفقهاء المالكيين وغيرهم ..)[٦] ، وجعل مبلغا من المال لكل من يحفظ كتب المذهب الشيعى[٧] . وبشكل عام ، فمن المؤكد أن الفاطميين كانوا لا يرغبون فى وجود المذهب السنى داخل بلادهم ، فيقال ان الخليفة الفاطمى العاضد[٨] كان اذا ظفر بسنى قتله[٩] .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١/ ٣٩١ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ٥/ ١٢٠ .

(٣) الأمين عوض الله ، الحياة الاجتماعية ، ص ١٦٠ .

(٤) الأمين عوض الله ، م . س ، ص ٦٨.

(٥) سبق ذكر ترجمته .

(٦) المقريزى ، م . س ، ١/ ٣٥٥

(٧) ن . م . س .

(٨) هو ابو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله العبيدى (٥٥٥ ـ ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ ـ ١١٦٧ م) آخر خلفاء الفاطميين مات بعدما قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية بثلاثة أيام. انظر عنه ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٤ / ٢٢٢ ـ ٢٢٣

(٩) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٥ / ٣٣٩

وعلى الرغم من أن هذا القول فيه من المبالغة الشيء الكثير ، الا أنه يؤكد وجود المذهب السنى فى مصر ، وفى نفس الوقت يوضح موقف الفاطميين تجاه أهل السنة .

ومن الواضح أن السياسة الفاطمية هذه قد لاقت نجاحا فى بادئ الأمر ، حيث دخل الكثير من المصريين فى التشيع [١] أو تظاهروا به على أقل تقدير [٢] . ولم يبق من المصريين محافظا على سنيته إلا القليل [٣] ، الا أن المذهب السنى عاود الانتشار مرة أخرى فى مصر فى أواخر العصر الفاطمى [٤] حيث تزايد نفوذ أهل السنة فى مصر ، ومن ابرز الدلائل على ذلك ظهور المدارس فى الإسكندرية ـ وهى من وسائل محاربة التشيع ـ فى أواخر العصر الفاطمى [٥] .

ومن المؤكد أن من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى عودة المذهب السنى إلى مصر هو الاحباطات الكبيرة التى واجهها المصريون خلال فترة التسلط الفاطمى من مجاعات وأزمات اقتصادية [٦] أحدثت لدى شعب مصر العريق فى حضارته أنواعا من ردود الفعل الرافضة لهذا الحكم [٧] ، على أن ذلك ينبغى الا يفهم منه بأن حركة التشيع قد أضحت ضعيفة فى مصر فى أواخر العصر الفاطمى بل ان التشيع العلوى كان فى مصر قويا لدرجة كبيرة ، يدل على ذلك الثورات التى واجهها صلاح الدين الأيوبى من اتباع هذا المذهب ، والتى كانت تستهدف القضاء على حكمه [٨] .

---

(١) حسن عبد الحميد صالح ، الحافظ ابو طاهر السلفى ، بيروت ، ط ١ ، ص ٧٣ .

(٢) الأمين عوض الله ، الحياة الاجتماعية ، ص ٦٨٠ ، حسن عبد الحميد صالح ، ن . م س .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٥ / ١٢٠ .

(٤) حسن عبد الحميد صالح ، م . س ، ص ٧٣ .

(٥) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٦) عن هذه المجاعات والازمات الاقتصادية انظر أحمد السيد الصاوى ، المجاعات فى العصر الفاطمى ص ٢٢ ـ ١١٦ .

(٧) فريد شافعى ، العمارة العربية الإسلامية ص ٧٤ .

(٨) عن هذه الثورات وأهدافها انظر الفصل الثانى .

لقد كان دخول عصر صلاح الدين هو بداية تحول ديني في مصر ، حيث اخذت الدولة الأيوبية على عاتقها إزالة المذهب الشيعي ونشر عقيدة أهل السنة والجماعة [١] . ولقد كانت بداية هذا التحول في عام (٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م) أى قبل القضاء على الخلافة الفاطمية بعام واحد تقريبا . فألغى الكثير من مظاهر التشيع ، حيث الغى من الأذان عبارة (حى على خير العمل) [٢] ، وأنكر على كل من يعتنق هذا المذهب أشد الإنكار [٣] .

كما قام بعزل قضاة مصر الشيعة وأقام قاضيا شافعيا بمصر الذى استناب بدوره قضاة شافعية فى سائر الأقاليم [٤] ، وارفق السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى بهذه الاجراءات ، اجراءات أخرى تتعلق بالناحية الثقافية ، فقام بإنشاء مدرستين فى الفسطاط هما المدرسة الناصرية والمدرسة القمحية [٥] فى سنة (٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م) ، وكان من مهامهما تدريس الفقه السنى على المذهبين الشافعي والمالكى. ولقد كان أثر تأسيس هاتين المدرستين على الدولة الفاطمية صاعقا ، اذ ان بناء أولها وهى المدرسة الناصرية يعد من (.. أعظم ما نزل بالدولة ..) [٦] الفاطمية . نظرا لما تقوم به من دور كبير فى نشر مبادئ الدين الصحيح ، وإزالة ما علق فى أذهان الناس من أفكار ومبادئ التشيع الهدامة خلال العصر الفاطمى . كذلك فإن الناصر صلاح

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ٢ / ٣٦٣ ، حسن الباشا وآخرون ، القاهرة ص ٢٣٠ . فنون التصوير الإسلامى فى مصر ، القاهرة ص ٩١ .

(٢) ابو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ . المقريزى ، م . س ١ / ٣٥٩ .

(٣) ابو شامة / ن . م . س .

(٤) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ٩ / ١١٠ . ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م . مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٠/ ١٩٨ . ابن اياس ، بدائع الزهور ، هـ جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٣ .

(٥) عن هاتين المدرستين انظر الفصل الثالث من الباب الأول.

(٦) المقريزى ، الخطط ، ٢/ ٣٦٣ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٤٤٣ .

الدين قام بالغاء التعليم الشيعى ، حيث ألغى هذا التعليم من الجامع الأزهر [١] الذى كان من أهم مراكز الدعوة الشيعية فى ذلك الوقت [٢] .

ولتأكيد الصفة السنية على الحياة الاجتماعية فى مصر ، فإن الناصر صلاح الدين الأيوبى أمر بإلزام الناس فى حضور صلاة الجمعة والجماعة [٣] ، وهو أمر يتعارض مع تطبيقات المتشيعة التى لا ترى جواز إقامة الجمعة الا للإمام القائم [٤] . وهذا التوجه الجديد هو ما دعى إليه فقهاء أهل السنة فى ذلك العصر ، فالشيزرى الذى عاصر صلاح الدين الأيوبى [٥] ، ألف كتابا فى الحسبة بناء على طلب متوليها فى ذلك الوقت [٦] ، يذكر بأن على المحتسب حث الناس على صلاة الجماعة فى المساجد لما فى ذلك من إظهار لشريعة الإسلام فى زمن كثرت فيه الفتن والحركات الهدامة [٧] هذا علاوة على قيام صلاح الدين بإخراج الكثير من اتباع الفاطميين الشيعة إلى خارج القاهرة [٨] .

---

(١) أحمد أحمد بدوى ، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، القاهرة ص١٥ .

(٢) الأمين عوض الله ، الحياة الاجتماعية ص ٧٧٠ ، أحمد البدوى ، م . س . ص ١٥ .

(٣) على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ١٧٩ .

(٤) لجأ الشيعة للتأويل لكى يجعلوا نصوص الكتاب والسنة تتوافق مع أهوائهم فانتهى الأمر بهم إلى تعطيل الشرائع لذلك لم يكن الفاطميون يصلون الجمعة سوى ثلاث مرات فى السنة ، انظر المقريزى ، الخطط ، ١/ ٤٩٥ ، ٢/ ٣٦٢ . وعن تأويل الصلاة عند الإسماعيلية انظر إحسان الهى ظهير ، الإسماعيلية ص ٤٤٩ ـ ٥٠٥ .

(٥) كانت وفاة الشيزرى عام ٥٨٩ هـ ١١٩٣ م. رشاد عباس معتوق ، نظام الحسبة فى العراق حتى عصر المأمون ، (نشأته وتطوره) جدة ط ١ ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ص ١٨ .

(٦) الشيزرى ، عبد الرحمن بن نصر ٥٨٩ هـ ١١٩٣ م نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق السيد العرينى بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ص ٣ ، د . حسام الدين السامرائى ، المؤسسات الادارية فى الدولة العباسية ، ط ٢ مكة المكرمة ص ٣١٢ . رشاد عباس معتوق ، م . س ص ١٩ .

(٧) الشيزرى / م . س ص ١١١ .

(٨) سبق ذكر ذلك لاحقًا .

ان تلك الاجراءات ـ بالإضافة إلى الغاء الخلافة الفاطمية ـ أدت إلى أن يستطيل أهل السنة على الإسماعيلية[١] ، وأن يتظاهر الناس (.. بمذهب مالك والشافعي رضى الله عنهما واختفى مذهب الشيعة إلى أن نسى من مصر ..) [٢] . إلا أن هذا التحول لا يعنى بأن مظاهر هذا المذهب قد اختفت فى مصر بشكل كامل فى تلك الفترة ، فابن جبير يشير إلى بقاء هذه المظاهر عند حديثه عن المشهد الحسينى [٣] حيث كان بعض الناس يطوفون بهذا المشهد ويتضرعون عنده بالدعاء [٤] وهى أمور تتنافى مع مبادئ الدين الصحيح وتعتبر من البدع التى لا أصل لها فى الإسلام[٥] .

ويرى لينبول ان مثل هذه الإجراءات الهادفة إلى القضاء على التشيع ـ علاوة على الموقف المتحفظ من قبل صلاح الدين تجاه نصارى مصر [٦] ـ تعتبر من النواقص التى أثرت على عظمة صلاح الدين [٧] ، بيد أن هذا المستشرق قد فاته أن مثل هذا الموقف من صلاح الدين يعد أمرا طبيعيا منه لكونه شديد التمسك بقيمه ومبادئه الإسلامية كما هو ثابت تاريخيا [٨] . وبالتالى فإن توجهه نحو مقاومة حركة التشيع

---

(١) ابو شامة . م . س ، جـ ١ ق ١ ، ص ٥٠١ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ / ٣٥٩ .

(٣) هذا المشهد يقال ان فيه رأس الحسين بن على رضى الله عنه . وقد بناه الفاطميون سنة ٤٩١ هـ / ١١٥٤ م فى داخل القصر الشرقى الكبيربجوار باب الديلم . انظر المقريزى ، م . س ، ١/ ٤٢٧ . والفاطميون هم أول من ابتدع بناء المشاهد فى مصر . فريد شافعى ، العمارة العربية الإسلامية ، ص ٧٤ .

(٤) ابن جبير ، الرحلة ص ٢٠ ، لينبول ، سيرة القاهرة ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وادوارد حلمى ، القاهرة حلمى ، القاهرة . ١٩٥٠ م . ص ١٦١ .

(٥) على بن حفوظ ، الابداع فى مضار الابتداع ، بيروت ص ١٩١ .

(٦) من المواقف التى اتخذها صلاح الدين ضد أهل الذمة فى مصر أنه أمر سنة ٥٦٧ هـ بأن يعزلوا من الوظائف الادارية فى الدولة المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(٧) لينبول ، م . س ص ١٦٢ .

(٨) ابن شداد ، أبو المحاسن يوسف بن رافع ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٩ م. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق جمال الدين الشيال ، ط ١ ص ٧ ـ ١٦ . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٧ / ١٥١ .

إنما كان تعبيرا صادقا عن قناعة وإيمان بحقيقة وعدالة المبادئ التى ارتضاها وعاش من أجلها وأخلص فى الدعوة لها . علاوة على أن الإبقاء على التشيع فى مصر سيكون له أكبر الأثر فى زعزعة السلطة إذ أن الدولة مظهر اجتماعى للإنسان [(١)] ، وبالتالى فإن ثبات سيادة الدولة لا بد وأن يستمد وجوده من الواقع الاجتماعى الذى تسيطر عليه الدولة . فابن خلدون يشير إلى أن قيام الدولة مرتبط بتأييد عناصر اجتماعية لها ، وهو ما عبر عنه بـ (العصبية) [(٢)] . ولذلك عندما طلب الملك العادل نور الدين زنكى [(٣)] من صلاح الدين الغاء الخلافة الفاطمية وإقامة الدعوة للعباسيين بمصر ، فإنه اعتذر منه بقوله (.. ان المصريين لهم جماعة كبيرة متفرقة فى بلاد مصر ..) [(٤)] ، أى أن للفاطميين قاعدة اجتماعية تحول دون القيام بمثل هذا العمل فى ذلك الوقت ، وبالتالى كان لا بد من الاعداد لهذا الأمر [(٥)] ، وهو ما قام به صلاح الدين حيث بدأ بالتحول الدينى قبل الغاء الخلافة الفاطمية . أما بالنسبة لموقف صلاح الدين من النصارى فى مصر ، فمن الواضح أنه كان رد فعل تجاه ما قام به النصارى من أعمال تخريبية فى مصر فى بداية حكم صلاح الدين. ففى عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٧م قاموا باحراق الجوامع والمنشآت الرئيسية فى الفسطاط من رباع ودور كبيرة ، فأراد صلاح الدين أن يتخذ ضدهم بعض التدابير فى تلك السنة ، لكنه أجلها حتى يقوى أمره [(٦)] .

ولقد كان للتحول إلى المذهب السنى آثار عمرانية متنوعة من أهمها ، فقد بعض

---

(١) إبراهيم درويش وبكر العمرى ، دراسة الحكومات المقارنة ، جدة ط ٢ ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٨١ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ١/ ١٥٤ .

(٣) انظر ترجمته ص : .

(٤) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٦٨ .

(٥) ن . م . س .

(٦) ابن أيبك الدوادارى (ت ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م) كنز الدرر وجامع الغرر الدر المطلوب فى أخبار بنى بنى أيوب ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م /٧ ٣٩ ـ ٤٠ .

الأماكن وظيفتها التى كانت تقوم بها ، مثل ما حدث لمصلى العيد الفاطمى الذى كان يقع خارج القاهرة إلى الشمال منها . اذ انه من المؤكد أن هذا المصلى لم يعد يستخدم فى ذلك الوقت لأداء صلاة العيد لأن فقهاء الشافعية يجيزون إقامتها فى المساجد [(١)] ، وهو ما نوه به العبدرى الذى زار مصر فى أواخر القرن (٧ هـ / ١٣م) حيث يذكر بأن سكان القاهرة كانوا يجيزون لأنفسهم أداء صلاة العيد فى المساجد ، ولا يظهرون خارج البلد كما جرت به السنة على حد تعبيره [(٢)] . وهكذا لم يعد هذا المصلى الفاطمى يستخدم فى أغراضه المرسومة . ثم ظهرتَ فى عهد صلاح الدين الحاجة إلى مساحته الواسعة لأغراض أخرى ، حيث جرى تحويل اجزاء منه إلى ميدان للعب الأكره وأخرى لكى تكون مقبرة لأهل القاهرة [(٣)] .

ولقد كان لسيادة المذهب الشافعى على المذاهب السنية الأخرى فى عهد صلاح الدين دوراً فى التأثير على وظيفة بعض الجوامع حيث ألغيت الخطبة فى الجامع الأزهر، وابقيت في جامع الحاكم ، فقد ذكر المقريزى بأنه (.. لما استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالسلطنة فإنه قلد وظيفة القضاء لقاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس [(٤)] فعمل بمقتضى مذهبه وهو امتناع اقامة الخطبتين للجمعة فى بلد واحد كما هو مذهب الإمام الشافعى فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر وأقر الخطبة بالجامع الحاكمى من أجل أنه أوسع) [(٥)] ، الا أن هناك من الباحثين من

---

(١) أحمد بن محمد المالكى ، الحاشية على تفسير الجلالين ، للجلال المحلى والجلال السيوطى ، القاهرة ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م ، ١/ ٣٠٦ .

(٢) العبدرى ، عبد الله محمد بن محمد ، رحلة العبدرى المسماه الرحلة المغربية ، تحقيق محمد القاسمى ؛ فاس ، ص ١٢٨ .

(٣) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٤) صدر الدين بن عبد الملك بن درباس (ت ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م) ولى قضاء مصر فى عهد صلاح الدين بعد أن كان قاضى الغربية من أعمال ديار مصر . عنه انظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ٢/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦ ، وانظر ايضا : حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ١٩٤٦ م. ١/ ٥٢ ـ ٥٣ .

يعتبر بأن صلاح الدين مارس سياسة إهمال للجامع الأزهر [١] ، بدافع موقفه العدائى ضد الفاطميين . اذ ان هذا الجامع يعتبر رمزا للسيادة الشيعية فى مصر [٢] . لذلك فإن الجامع تشعث وتشقق تشققا فاحشا [٣] . ويبدو أنه قد جرى الاستيلاء على أوقافه فى تلك الفترة [٤] ، الا أنه على الرغم من كل ذلك لم تبتعد عنه صفته التعليمية فى عهد صلاح الدين حيث حل التعليم السنى فى هذا الجامع [٥] ، ودُرس فيه عدد من العلوم المختلفة مثل الطب والرياضيات وغيرها [٦] .

وكان للتحول عن التشيع دورٌ فى أن تختفى الكثير من العادات والتقاليد الشيعية ، الأمر الذى كان له بعض الآثار العمرانية سنشير إليها لاحقا . ومن المؤكد أن هذا التحول إلى المذهب السنى يعد من العوامل الأساسية التى ساهمت فى ادخال المدارس كمنشآت جديدة إلى القاهرة . اذ يكاد يجمع الباحثون على أن المدارس تعتبر من أنجح الوسائل فى محاربة التشيع [٧] . وعليه فإن توسع صلاح الدين فى تأسيس المدارس فى مصر لا شك بأنه كان بدافع محو هذا المذهب والقضاء عليه [٨] .

---

(١) أحمد بدوى ، الحياة العقلية ص ١٥ .

(٢) الأمين عوض الله ، الحياة الاجتماعية ص ١٧ .

(٣) السخاوى ، نور الدين على بن أحمد بن عمر ، تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات ، تحقيق محمود ربيع وحسن قاسم ، ط ١ ، ١٣٥٦ هـ ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(٤) ابن ظهير ، الفضائل الباهرة ص ١٨٤ .

(٥) عبد الفتاح محمد وهبة ، جغرافية العمران ، الأسكندرية ١٩٧٥ م ص ٢٦٩ .

(٦) عبد الرحمن زكى ، الأزهر وما حوله من آثار القاهرة ، ص ٦٤ .

(٧) عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر ، ص ٧٧ ، حسن الباشا وآخرون ، القاهرة ص ٢٣٠ ، حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، القاهرة ١٩٦٦ م ، ٣ / ١٠٧٥ . عبد الرحمن زكى ، القاهرة ص ٧١ ، أحمد بدوى ، الحياة العقلية ، ص ٣٠ .

(٨) أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة ٢/ ١٤ .

ب ـ رعاية التعليم :

تشير المصادر التاريخية إلى أن عصر صلاح الدين قد شهد بحق ازدهارا علميا كبيراً ، وهو يعبر عن خطة مدروسة تبناها هذا السلطان بهدف نشر المعرفة بين أفراد الشعب [١] فأصبحت المدارس التى أنشئت فى القاهرة حينئذ مراكز لرواية الأحاديث النبوية الشريفة والدراسات الفقهية والأدبية [٢] . كذلك كانت الكتاتيب التى أمر صلاح الدين بإنشائها فرصة يتلقى فيها الصبيان آيات القرآن الكريم[٣] ، وما يرتبط بذلك من علوم شرعية وآداب وحكمة .

ومن الواضح أن هذا الاهتمام يؤكد رغبة الدولة الأيوبية محو التشيع والقضاء عليه عن طريق نشر مبادئ الدين الصحيح بالتعليم ، علاوة على أنه يعبر عن اهتمام صلاح الدين بالعلم والعلماء . فكان مجلسه حافلا بالعلماء (.. حيث جمع به من أهل العلم والعلماء عنده اشتاتا ..)[٤] يتذاكرون فيه أصناف العلوم المختلفة ، وصلاح الدين يحسن الاستماع والمشاركة يدل على ذلك ما حصل عليه من نصيب وافر من العلم نتيجة مخالطته العلماء [٥] الذين كان يحثهم على الهجرة إلى بلاده [٦] .

ومن الثابت أن صلاح الدين قد شجع على التأليف وأجزل العطاء على ذلك ، فالشيزرى ألف كتابه فى السياسة لصلاح الدين [٧] ، كذلك فإن ابن شداد وضع كتابا لصلاح الدين فى الجهاد[٨] فى حين أن الطرسوسى ألف له كتابا فى صناعة

---

(١) بول كازانوفا ، تاريخ ووصف قلعة القاهرة ص ٢٨ .

(٢) الفتح البغدادى ، سنا البرق الشامى ، ص ١١٥ .

(٣) ابن جبير ، الرحلة ص ٢٧ .

(٤) ابو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ٢/ ٢١ .

(٥) أحمد بدوى ، الحياة العقلية ص ٥ ـ ٦ .

(٦) أحمد بدوى ، م . س ص ٣١ .

(٧) الشيزرى ، المنهج المسلوك فى سياسة الملوك ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ص ١٣ ، أحمد بدوى ، الحياة العقلية ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .

(٨) أحمد بدوى ، م . س ص ١٦ .

السلاح وكيفية عمله [١] . ومن المؤكد أنه قد اقتدى بصلاح الدين اقربائه الأمراء وكبار رجال الدولة ، فالقاضى الفاضل [٢] كان شغوفا بالمعرفة ، حيث يجمع الكتب من الاصقاع المختلفة وله نساخ لا يفترون باستنساخ الكتب ، علاوة على المجلدين والمركبين [٣] . ويبدو أن ذلك أدى إلى ازدهار المكتبات الخاصة والعامة ، فالمدرسة الفاضلية [٤] كان بمكتبتها مائة ألف مجلد [٥] .

ولقد ترتب على الاهتمام بالعِلم أن أقيم فى القاهرة العديد من المنشآت التى تخدم العلم وتنشره ، فأسست الزوايا فى الجوامع . فقد عمر صلاح الدين (.. بجامع عمرو بن العاص بمصر زاويتين أحداهما للشافعية والأخرى للمالكية وتعرف الآن بالخشابية ..) [٦] كما قام صلاح الدين بانشاء العديد من المدارس [٧] فاعتبره البعض من أعظم بناة المدارس فى الإسلام [٨] . ولقد اقتدى به فى ذلك اقربائه ورجال دولته الذين أسسوا العديد من المدارس فى مصر والشام وغيرها من البلاد [٩] . كما أن صلاح الدين أمر بالاكثار من انشاء الكتاتيب لتعليم الصبيان قراءة القرآن الكريم .

---

(١) الطرسوسى ، مرضى بن على (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) تبصرة أرباب الألباب فى كيفية النجاة من الأسواء ونشر أعلام الاعلام فى العدو والالات المعينة على لقاء الاعداء ، تحقيق كلود كاهين ، بيروت ١٩٤٨ م ورد على غلاف الكتاب انه ألف لصلاح الدين الأيوبى .

(٢) سبق ذكر ترجمته .

(٣) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٤ / ٣٢٥ .

(٤) عن هذه المدرسة انظر الفصل الثالث من الباب الثانى .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ٢/ ٣٦٦ .

(٦) السخاوى ، تحفة الأحباب ، ص ٤٩ ، وعرفت زاوية الخشابية أيضا بالزاوية الصلاحية نسبة لصلاح الدين الأيوبى ، انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٢ / ٣٩ .

(٧) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٨) حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، ٣/ ١٠٥٦ .

(٩) المقريزى ، م . س ، ٢ / ٣٦٣ . مؤلف مجهول ، تاريخ المصر ، القاهرة ، ورقة ٤٤٢ .

وقد امتدح ابن جبير مآثر صلاح الدين فى هذا الشأن فذكر بأنه (... أمر بعمارة محاضر [(١)] الزمها معلمين لكتاب الله تعالى عز وجل يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة ..) [(٢)] . ويندرج تحت رعاية العلم والعناية به الاهتمام بالعلماء وطلبة العلم ، فصلاح الدين كان يقرب العلماء إليه ويرفع مكانتهم [(٣)] هذا بالإضافة إلى الانفاق على المعلمين وطلبة العلم وتوفير أسباب الراحة لهم ، فخصص الرعاية الطبية والغذاء وكل ما يكفل راحتهم ، فيذكر ابن جبير أثناء حديثه عن الإسكندرية أن من مفاخر هذا السلطان أنه جعل لأهل العلم فيها (.. حُمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك . ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت ايديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رتب أيضا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة . وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم ..)[(٤)] . بل ان الذين يفدون إلى هذه البلاد لطلب العلم سيجدون المأوى والمدرسين الذين يعلمونهم الفن الذى يرغبون فى تعلمه [(٥)] .

وبطبيعة الحال ، فإن مثل هذه الرعاية للعلم تحتاج إلى نفقات مالية ، فكان الاجراء متصل من قبل السلطان على كل المنشآت التعليمية بمختلف أنواعها ، اذ بلغت جملة نفقاتها فى المدينة الكبرى فى الشهر الواحد ألفى دينار [(٦)] ، بل ان

---

(١) يذكر محقق كتاب الرحلة أن المقصود بالمحاضر هنا هو المدارس الا أنه من الملاحظ ان ابن جبير ورد عنده لفظ المدارس فى نفس الصفحة مما يفيد به غيرها ، ولا شك بأن المقصود بها الكتاتيب لأنها مخصصة للصبيان . ابن جبير ، الرحلة ص ٢٧٠ .

(٢) ن . م . س .

(٣) أحمد بدوى ، الحياة العقلية ، ص ٥ .

(٤) ابن جبير ، الرحلة ص ١٥ ــ ١٦ .

(٥) عبد القدوس الأنصارى ، مع ابن جبير فى رحلته ، ط الأولى ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م ، ص ١٠٥ .

(٦) ابن جبير ، م . س ص ٢٤ . عبد القدوس الأنصارى ، م . س ص ١٢٨ .

بعضها حظى بالأوقاف الضخمة [١] حيث أوقف صلاح الدين على المدارس الأراضى والدكاكين والقياسر [٢] ، علاوة على الانفاق على المعلمين وطلبة العلم ، فكانت النفقات تصل إلى أهل العلم والمنقطعين له وللعبادة فى القرافة [٣] . كما كانت صلاته تصل إلى المغاربة الذين قدموا من شمال أفريقية وبلاد المغرب، وكانوا يسكنون فى الجامع الطولونى للعبادة والتعليم ، [٤] .

ولقد كان لرعاية الدولة الأيوبية للتعليم آثار عمرانية هامة من ابرزها المنشآت التعليمية التى ستكون بطبيعة الحال جزءا من التكوين المادى للمدينة هذا بالإضافة إلى دورها فى التأثير على النشاط العمرانى فى بعض المناطق اذ ان بعض المناطق التى تقع فيها منشآت تعليمية يزداد محتواها السكانى . فبناء المدرسة الناصرية فى القرافة كان من العوامل التى جذبت السكان إلى المنطقة المحيطة بها [٥] .

كما اسهمت مؤسسات التعليم فى تشجيع الهجرات السكانية إلى القاهرة ، وهو أمر اسهم بلا شك فى الازدهار العمرانى الذى شهدته القاهرة فى ذلك الوقت حيث سيحتاج مثل هؤلاء إلى مساكن يأوون إليها وغيرها من متطلبات الحياة ذات الصلة بالنواحى العمرانية .

جـ ـ التغيرات الاجتماعية :

شهد عصر السلطان صلاح الدين الأيوبى تغيرات اجتماعية هامة . كان لها اثرها المباشر والغير مباشر على الأوضاع العمرانية فى القاهرة حينذاك . اذ وجه هذا السلطان

---

(١) الوقف هو حبس العين وتسبيل ثمرتها أو التصدق بها . انظر محمد أبو زهرة ، محاضرات فى الوقف، القاهرة ط ٢ ، ص ٣٩ .

(٢) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٣) ابن جبير ، م . س . ص ٢٤

(٤) ابن جبير ، م . س ، ص ٢٦ . عبد القدوس الأنصارى ، م . س ص ١٢٩ .

(٥) انظر الفصل الثالث من الباب الثانى .

اهتماما كبيرا تجاه سكان هذه المدينة فبذل الجهد الكبير نحو رعايتهم والاهتمام بمصالحهم . فمنذ أن تولى الوزارة فى عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ، وهو يحرص كل الحرص على إظهار الحق ودرء المفاسد ، فساس الرعية أحسن سياسة وأظهر لها من العدل ما لم تكن تعلمه أو تعرفه من قبل الأمر الذى زاد من حنق الفاطميين عليه[١] .

وبعد ان استقل بحكم مصر ورغم الحروب التى كان يخوضها لتوحيد جبهة الإسلام من أجل طرد الصليبيين ، فإنه على الرغم من ذلك لم يكن يتوانى فى توجيه الاهتمام نحو رعيته كلما سنحت له الفرصة ، فعندما يكون فى مصر فى تلك الأثناء فإنه يظل مشتغلا بأمور الدين والدولة والجلوس للمظالم فى دار العدل يومى الأثنين والخميس (.. لتشييد منار الحق وتفريج الكروب واسداء المعروف وكشف المظالم..)[٢] كذلك قام صلاح الدين بنشر الأمن فى ربوع بلاده الأمر الذى آثار إعجاب ابن جبير . فأهل الإسكندرية كما يذكر يتصرفون فى ليلهم كتصرفهم فى النهار [٣] ، بل كانت بضائع التجار تترك على الطرقات اليرية دون أن يمسها أحد حتى يأتى أهلها ليأخذوها [٤] . بل ان الناصر صلاح الدين وجه اهتمامه نحو توفير حياة الترف والرفاه بين رعاياه والداخلين إلى هذه البلاد من الأصقاع المختلفة ، فأهل الإسكندرية كانوا (... فى نهاية الترفيه واتساع الأحوال لا يلزمهم وظيفة البتة ..)[٥] وكان الداخلون إلى مصر يجدون ما يكفيهم من الطعام فكان كل واحد منهم يصرف له الخبز لقوت يومه ، وهى من السنن التى يحمد عليها هذا السلطان والتى كانت مقطوعة منذ زمن بعيد على حد تعبير ابن جبير [٦] ، فالمصريون فى العصر الفاطمى كانوا لا ينالون

---

(١) ابو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٦ .

(٢) صاحب حماه محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى (ت ٦١٧ هـ / ١٢١٩ م) ، مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ص ٥٣ .

(٣) ابن جبير ، م . س . ص ١٧ ، عبد القدوس الأنصارى : مع ابن جبير ، ص ١٠٧ .

(٤) ابن جبير ، م . س. ص ٤٣ ـ ٤٤ ، عبد القدوس الأنصارى ، م . س . ص : ١٤٠ .

(٥) ابن جبير ، م . س . ص ١٦ .

(٦) ن . م . س .

سوى الفتات [١] على الرغم مما كان عليه خلفائهم من ترف ورفاه لم تعرفه مصر الإسلامية فى تاريخها [٢] . ومن المؤكد أن ذلك الازدهار يعكس إلى حد بعيد الازدهار الاقتصادى فى البلاد فى عهد السلطان صلاح الدين ، علاوة على ما قام به الأيوبيون من توجيه النفقات بطريقة تؤدى فى نهاية الأمر إلى أن تصل الثروات إلى قطاعات كبيرة من رعاياهم [٣] . ومن المؤكد أن هذه التغيرات تعكس نظرة السلطان صلاح الدين تجاه رعاياه ، وهى نظرية تقوم على أساس أن أفراد الشعب كلهم سواء لا فروق بينهم [٤] . ومن أبرز الدلائل على ذلك أنه أباح سكنى القاهرة للجمهور العامة. وجعلها مبتذلة لجميع طوائف الناس . بل كانت جميع أجزاء المدينة الكبرى مباحة بعدما كانت السكنى فيها فى العصر الفاطمى مقسمة إلى أجزاء طبقية، فكانت القاهرة الفاطمية للخليفة وحرمه وخواصه من رجال دولته وجنده فى حين أن هناك اجزاء أخرى من المدينة الكبرى يقصر سكناها على الشيعة فقط ، وتبقى أجزاء لبقية الرعايا [٥] .

ولم تكن التغيرات فى مظاهر الحياة الاجتماعية فى عهد الناصر صلاح الدين قاصرة على هذه المظاهر فحسب ، فلقد ازدهرت فى مصر فى ذلك الوقت الروح الدينية وهى روح اوقدتها الحروب الصليبية [٦] ، فانتشرت الآداب والثقافة التى تزكى هذه المشاعر [٧] .

---

(١) عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر ، ص ٥٩ .

(٢) الأمين عوض الله ، الحياة الاجتماعية ، ص ٤٧ .

(٣) انظر الفصل الرابع من هذا الباب .

(٤) Suzan , Conquest and Fasion, p. 97 .

(٥) سيرد تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٦) عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر ، ص ٦٨ . محمد سيد الكيلانى ، الحروب الصليبية وأثرها على الأدب العربى فى مصر والشام ، القاهرة ط ٢، ١٤٠٤ هـ / ص ٥١ .

(٧) محمد سيد الكيلانى ، ن . م . ص .

ومن المؤكد أن السلطان صلاح الدين قد عمل جاهدا على تقوية تلك المشاعر، ومن أبرز الدلائل على ذلك رعايته للتعليم ونشر العلوم الدينية ، ولا جرم فى ذلك فإنه كان ذو نزعة دينية قوية، علاوة على أن تعزيز الروح الدينية يعتبر من أقصى الضروريات فى ذلك الوقت ، نظرا لأهمية مثل هذه المشاعر فى مقاومة ومجاهدة الخطر الصليبى ، فاستخدم التعليم لتحقيق هذا الغرض [١] . والحقيقة أن رعاية الجوانب الدينية فى الحياة الاجتماعية لم تكن فى عهد الناصر صلاح الدين قاصرة على تنمية هذه الروح بين أفراد الشعب المصرى فحسب ، بل تجاوزت ذلك إلى رعاية التصوف [٢]، حيث وجه اهتماما كبيرا تجاه هذه الحركة الدينية فكان يشجع على هجرة المتصوفة إلى مصر وينفق عليهم [٤] .

ومن المؤكد أن السبب فى توجيه هذه الرعاية هو اعتقاد بعض حكام المسلمين حينئذ بأن فى دعوات هؤلاء يكمن النصر على اعدائهم من الصليبيين .فعلى ذلك كان اعتقاد الملك العادل نور الدين زنكى [٥] الذى كان يعتبر أن من أهم العوامل المؤدية إلى النصر دعوات هؤلاء الزهاد [٦] .

---

(١) حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، ٣/ ١٠٥٧ . أمينة بيطار ، التعليم فى الشام فى العصر الأيوبى ، بحث منشور فى مجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد (٧٠) ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م. ص٥٨ .

(٢) اختلف فى أصل هذه التسمية ، فقيل ان اسمها جاء من الصفة ، وهو الموضع الذى بنى لايواء جماعة من المسلمين بالمسجد النبوى الشريف وقيل انها جاءت من الصفا أى صفاء الروح والسريرة، وقيل من الصف أى التقدم فى الصفوف بين يدى الله . وقيل ان اسمها جاء من لبس الصوف . للمزيد انظر أحمد بن محمد بنانى ، موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ ص ٦٧ ـ ٧٠ .

(٤) حسنين ربيع ، النظم المالية فى مصر ، ص ٧٨ .

(٥) سبق ذكر ترجمته .

(٦) شاكر أحمد أبو بدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، بيروت ص ١٨٢ .

ومن المرجح ان صلاح الدين أراد بتشجيعه للتصوف أن يستوعب التغلل الشيعى داخل الحركات الصوفية التى تنتشر بين طوائف الصناع[(١)] وبالتالى يمكن تحويل هذا التصوف نحو المذهب السنى [(٢)] ، ضمانا لتأمين جبهة المسلمين الداخلية ضد الخطر الصليبى ، خاصة وان فترة الحروب الصليبية قد شهدت ازدهارا فى حركات التصوف الذى وجد فيه الكثير من المسلمين الملجأ للهروب النفسى من واجب الجهاد المقدس[(٣)] .

وعلى كل فإن هذا المظهر الاجتماعى قد ترتب عنه ان أصبح التصوف مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية فى مصر فى ذلك الوقت [(٤)] . فكان سكان القاهرة يعتبرون خروج المتصوفة لصلاة الجمعة من خنكاه سعيد السعداء[(٥)] التى بناها صلاح الدين للمتصوفة ، من الفرج التى يحرصون على مشاهدتها [(٦)] .

ولقد شمل التغير الاجتماعى فى عصر صلاح الدين الكثير من العادات والتقاليد التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، حيث صبغ هذا الجانب من الحياة الاجتماعية بصبغة جديدة تتفق مع التحول إلى المذهب السنى فى القاهرة [(٧)] ، فاختفت الكثير

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحياة الاجتماعية فى المدينة الإسلامية ، بحث منشور فى مجلة عالم الفكر ، جـ ١١ العدد الأول ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ص ١٤٠ ، موريس لومبارد ، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى ص ٢٠٧ .

(٢) موريس لومبارد ، م . س ، ص ٢٠٩ .

(٣) محمد سيد الكيلانى ، الحروب الصليبية ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٤) سعيد عاشور ، مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ص ١١٧ ، اسمت غنيم ، الدولة الأيوبية والصليبيون ، الإسكندرية ١٩٨٥ م ص ١٣٥ ، عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر ص ٩٥ .

(٥) عن هذه الخانكاه انظر الفصل الثالث من الباب الثانى .

(٦) المقريزى ، الخطط ، ٢/ ٤١٥ ، حسنين ربيع ، النظم المالية فى مصر ص ٧٤ ، السيد الباز العرينى، مصر فى عهد الأيوبيين ، القاهرة ص ٢١٧ ـ ٢١٨ ، سعيد عبد الفتاح عاشور، ن . م . س ، اسمت غنيم ، ن . م س .

(٧) شحاتة إبراهيم ، القاهرة ص ١١١ .

من المواكب والاحتفالات التى كانت سائدة فى مصر زمن الفاطميين [١] فلقد كانت أعياد الفاطميين متعددة ، وبلغت من الكثرة حتى ليخيل إلى الباحث أن أيامهم فى مصر كانت كلها أعيادا [٢] . ومن الواضح أنهم قصدوا بذلك ابراز سلطانهم وقوتهم أمام رعاياهم إمعانا فى تثبيت هذا السلطان وتأكيد وجوده [٣] .

وبالغاء الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ، والتحول إلى المذهب السنى أدى إلى اختفاء العديد من هذه الاحتفالات وما يرتبط بها من بدع لا أصل لها فى الدين الإسلامى [٤] .

فى حين أن ما بقى منها جرى تحويره على عادات أهل السنة فى ذلك الوقت ، فيوم عاشوراء [٥] الذى اتخذه الفاطميون يوم حزن [٦] ، جعله الأيوبيون يوم فرح وسرور يدخلون فيه الحمامات ، ويوسعون فيه على أهليهم وعيالهم على عادة أهل

---

(١) عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر ، ص ٥٩ .

(٢) الأمين عوض الله ، الحياة الاجتماعية ص ٢٤ ، وكان عدد هذه الأعياد يتراوح ما بين خمسة وعشرون وثمانية وعشرون عيدا ، عبد اللطيف حمزة ، م . س ص ٥٧ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ، ٢/ ٤٢ ـ ٤٣ ، عبد اللطيف حمزة ، ن . م . س .

(٤) كان للفاطميين عدد من الأعياد الشيعية من أهمها الموالد مثل مولد النبى صلى الله عليه وسلم . ومولد على بن أبى طالب رضى الله عنه ومولد ابنيه الحسن والحسين . ومولد الخليفة الحاضر ... إلخ .

الأمين عوض الله ، الحياة الاجتماعية ص ٢٤ . وعن الاحتفالات بهذه الأعياد انظر المقريزى ، الخطط ، ١/ ٤٦٠ ـ ٤٩٢ .والقلقشندى ، صبح الأعشى ، ٣ / ٤٩٤ ، ٥٠٥ . ومحمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة فى عهدها ، القاهرة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ١٦٣ ـ ١٦٩ .

(٥) هذا اليوم معظم عندالمسلمين وهو اليوم العاشر من المحرم ولقد أوصى عليه الصلاة والسلام على صيامه وصيام يوم قبله أو بعده . انظر سيد سابق ، فقه السنة ، ط ١ ، ١٣٩٧ هـ / جـ ١ ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ .

(٦) جعله الفاطميون يوم حزن لأنه وافق فيه مقتل الحسين بن على رضى الله عنه سنة ٦١ هـ . الأمين عوض الله ، الحياة الاجتماعية ، ص ٢٦ . عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ، جـ ٢ ص ١٢٨ .

الشام [١] . واختفى فى ذلك العصر الاحتفال الرسمى بمواسم النصارى وأعيادهم[٢] ، حيث كان الفاطميون يشاركون النصارى أعيادهم ، ضمن سياستهم التى اتبعوها فى مصر والقائمة على محاباة أهل الذمة [٣] . فاختفت هذه المشاركة الرسمية من قبل الدولة كما يشير إلى ذلك ابن اياس عند حديثه عن عيد خميس العدس [٤]، ففى العصر الفاطمى كانوا يضربون فى هذا العيد (.. خراريب من ذهب ويفرقونها على أرباب الدولة برسم التبرك بها ... فبطل ذلك فى دولة صلاح الدين يوسف بن أيوب) [٥] الا أن عدم المشاركة الرسمية من قبل بنى أيوب لهذه الاحتفالات لا يعنى اختفائها من الحياة الاجتماعية فى مصر . اذ أن اهلها ظلوا يحتفلون بها . وربما شاركهم فيها فى ذلك الوقت بعض المسلمين كما يشير إلى ذلك القاضى الفاضل عند حديثه عن النوروز القبطى [٦][٧] . ومن التقاليد الاجتماعية التى اختفت فى عهد صلاح الدين عادات التنزه التى كانت عند الخلفاء

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ / ٤٩٠ ، عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر ، ص ٥٩ ، سعيد عاشور ، مصر والشام ، ص ١٣٣ ، اسمت غنيم ، الدولة الأيوبية ، ص ١٤٠ .

(٢) كان للأقباط فى مصر عدد كبير من الأعياد من أهمها النوروز القبطى وعيد الميلاد والغطاس والفصح وغيرها من الأعياد ، انظر المقريزى ، م . س ، ١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٩ . عبد المنعم ماجد ، م . س ، ٢/ ١٣١ ـ ١٣٦ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، م . س ، ٢ / ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٤) سمى خميس العدس لأن النصارى يطبخون به العدس المصفى ويزعم النصارى بأن عيسى عليه السلام أمر تلاميذه بأن يملئوا اناء بالماء ويزمزموا عليه ثم يمسحون أرجلهم فى مثل هذا اليوم ليعلمهم التواضع ، المقريزى ، م . س ، ١/ ١٦٦ .

(٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢١٣ .

(٦) نقلا عن المقريزى ، م . س . ، ١/ ٢٦٩ .

(٧) النوروز القبطى ، هو أول السنة القبطية وهو من مواسم اللهو عند أقباط مصر ، عنه انظر المقريزى ، م. س ، ١/ ٢٦٧ ـ ٢٦٩ . عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ، ٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣ . وهو من مواسم الفرح التى اتخذوها لأعياد العام الجديد ، على إبراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى ، القاهرة ص ٥٢٧ ، وكان العامة بمصر ينتخبون فى النوروز رجلا يسمونه أمير =

الفاطميين ، الذين كان ميلهم لحياة الترف والرفاه سببا فى أن يقيموا العديد من المنشأت الخاصة بنزهتهم مثل تلك التى كانت فى جزيرة الروضة والقرافة[١] ، علاوة على البساتين الجيوشية [٢] ، وهى منشأت كان من عادة الخلفاء الفاطميين الخروج إليها فى كل يوم سبت وثلاثاء [٣] . ومن المؤكد أن مثل هذه التقاليد اختفت فى عهد صلاح الدين الذى عرف عنه الميل للزهد والبعد عن الترف[٤] ، لذلك لم يؤثر عنه سوى الخروج إلى بركة الجب [٥] للصيد ولعب الاكره[٦][٧] ، ولا تذكر المصادر انه قد كان له منشآت خاصة بنزهته كتلك التى عند الفاطميين .

= النوروز يطلى وجهه بالدقيق أو بالجير ويلبس ثوبا أحمر أو أصفر ، ويسير مخترقا الشوارع على حمار، ومعه جمع كبير من الناس يتسلطون على المارة ويطلبون منهم رسم رتبة ومن لا يدفع يرش بالماء الممزوج بالأقذار . آدم متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، بيروت ، ط ١ سنة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ، ٢/ ٢٩٣ . الأمين عوض الله ، الحياة الاجتماعية ، ص ٣٥ .

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ / ٤٦٥ .

(٢) المقريزى ، م . س ، ١/ ٤٨٧ ، والبساتين الجيوشية بستانان كبيران أحداهما يمتد من خارج باب الفتوح حتى المطرية والأخر من خارج باب القنطره حتى الخندق وسميت بذلك نسبة لأمير الجيوش بدر الجمالى لأنها من جملة حبسه على ذريته ، ن . م . س . ويذكر على باشا مبارك بأنه يدل فى عصره على موضع هذين البستانين الأراضى التى فى المزارع والبساتين الممتدة من المنطقة الواقعة من أمام بوابة الحسينية إلى الدمرداش ، والمطرية وصولا إلى الخليج القاهرى . على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، ٢/ ٦٧ .

(٣) المقريزى ، م . س ، ١ / ٤٩٥ .

(٤) سعيد عاشور ، مصر والشام ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبى ، ترجمة يوسف ايش ، بيروت ص ١٩٩ .

(٥) بركة الجب أو جب عميرة بركة تقع شمالى القاهرة على مسيرة ست ساعات منها وعرفت فى العصر المملوكى ببركة الحاج لنزول قوافل الحجاج عندها . انظر عنها ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ليدن ، ص ١٤٩ ، وهشام عجمى ، قلاع الازنم والوجه وضبا دراسة معمارية حضارية رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة أم القرى ١٤٠٦ هـ ، ص ١٥ .

(٦) المقريزى ، م . س ، ٢/ ١٦٤ مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة : ١٩٧ .

(٧) الاكرة : عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة أشبه بالفلين ونحوه وتلقى فى الميدان فيتسابق الفرسان إلى التقاطها بعصا معقوفة تعرف بالصولجان أو الجوكان جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، بيروت ٢/ ٦٩٨ .

ولقد كان للتغير الاجتماعى فى عصر صلاح الدين دور هام فى سيادة بعض المظاهر الاجتماعية الجديدة ، فنتيجة للحروب الصليبية ظهرت فى ذلك الوقت الاحتفالات الخاصة بالانتصارات الحربية [١] ، فكانت المدينة الكبرى تزين عندما تنتصر الدولة على أحد خصومها ، مثلما حدث فى سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م عندما تمكن صلاح الدين من ضم ميافارقين [٢] إلى حكمه زينت بهذه المناسبة مصر والقاهرة [٣] .

كذلك سادت فى ذلك الوقت عادة لعب الأكره ، فكان من عادة صلاح الدين الخروج إلى « بركة الجب » للصيد ولعب الأكره هناك وهى من العادات التى ورثها عن سيده الملك العادل نور الدين زنكى الذى كان مغرما بممارسة هذه اللعبة ، لما فيها من روح الفروسية المفيدة للخيل فى المعارك ، فمن هذه اللعبة تتعود الخيل (... سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها فى الحرب ..) [٤] .

ونتيجة للحروب الصليبية تزايد الاهتمام بسير السلف وأخبارهم ، علاوة على ظهور العناية بالشعر خاصة الحماسى منه [٥] ، فساد فى ذلك الوقت ظاهرة عقد الحلق لقراءة الأخبار والسير وإنشاد الأشعار فى الأسواق كما يشير إلى ذلك المقريزى عند

---

(١) عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر ص ٦٠ .

(٢) من أشهر مدن ديار بكر ، وقيل هى قاعدتها ، وتقع بين الجزيرة وأرمينية عنها انظر : الواقدى : محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) فتوح الشام ، بيروت ٢/ ٩٥ . ابن شداد : عز الدين محمد بن على (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) ، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق : يحيى عبادة ، دمشق ١٩٧٨ م جـ ٣ ، ق ١ ، ص ٢٦٠ . أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل بن محمد ابن عمر ، تقويم البلدان ، تحقيق دينور والبارون ما كوكين دى سلان ، باريس ١٨٤٠ م ص ٢٧٨ .

(٣) صاحب حماه ، مضمار الحقائق ، ص ٢٢٢ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ٢٦٦ .

(٥) محمد سيد الكيلانى ، الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى ص ٥١ ، ٣٠٠ .

حديثه عن سوق بين القصرين [١] الذى يعود تاريخ ظهوره إلى عصر صلاح الدين[٢].
ومن العادات الاجتماعية التى سادت فى القاهرة فى ذلك الوقت ، عادة شراء الأطعمة المطبوخة من الأسواق ، وهذه العادة يبدو انها ظهرت فى عصر صلاح الدين نتيجة تحول الاماء الطبخات اللواتى كن فى القصور الفاطمية إلى العمل فى أسواق الطعام [٣] ، بعد أن أخلى صلاح الدين القصور من سكانيها وتخلص من محتوياتها ، واطلق ما فيها من اماء بالبيع والهبة والعتق [٤] .

ونظرا لماكن يتمتعن به من مهارة فى الطبخ ، ولهن فيه صناعة عجيبة [٥] فمن المؤكد أن ذلك أدى إلى إقبال الناس على شراء ما يعملنه من أطعمة ، فأصبح سكان القاهرة لا يأكلون الا من الأسواق ، على اختلاف درجاتهم [٦] ، بل ان الوزراء أنفسهم كانوا يمارسون هذه العادة ، فكانت تشترى لهم الأطعمة المطبوخة من هذه الأسواق [٧] .

كما دخلت إلى القاهرة فى عصر صلاح الدين عادات جديدة فى مجال الزى ، فأصبح الجنود فى العصر الأيوبى يلبسون الأقبية التتارية [٨]

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ٢/ ٢٨ . الخاصكى : آق بغا (دوادار السلطان قنصوه الغورى) ، التحفة الفاخرة بذكر رسوم خطوط القاهرة ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس ، ومنه نسخة مصورة بمعهد البحوث بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، تحت رقم (١٤٣٧ ت) لوحة : ٣٦ .

(٢) انظر الفصل الثانى من الباب الثانى .

(٣) ابن سعيد الأندلسى ، على بن موسى بن محمد بن عبد الملك (ت أواخر ق ٧ هـ / ١٣ م) ، النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة (القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب فى حلى المغرب) ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٧٠ م ، ص ٢٩ .

(٤) المقريزى ، م . س ، ١/ ٤٩٦ .

(٥) ابن سعيد الأندلسى ، ن م . س .

(٦) العبدرى ، الرحلة المغربية ، ص : ١٢٨ .

(٧) مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة : ٣٣ .

(٨) القباء من الملابس الخارجية ، وهو عبارة عن رداء يقفل من الأمام بأزرار وأكمام ، سناء بلال ، الملابس فى العصرين القبطى والإسلامى ، ط ١ ، ١٩٨٢ م . ص ٣٩ ، والقباء التتارى من أصل أجنبى سمى بذلك لأنه بدلا من عمل الشقة المستقيمة العادية للأقمصة التى كانت تستخدم =

والكلوتات [١] الصفراء التى توضع على الرأس بدون عمامة ، إضافة إلى المنطقة [٢] فى وسط الجسم ، وذكر القلقشندى ذلك بقوله : (... فأما ما به تغطية رؤوسهم فقد تقدم أنهم كانوا فى الدولة الأيوبية يلبسون كلوتات صفر بغير عمائم ، وكانت لهم ذوائب شعر يرسلونها خلفهم ... أما ثياب أيديهم فيلبسون الأقبية التترية والتكلاوات فوقها ثم القباء الإسلامى[٣] فوق ذلك يشد عليه السيف من جهة اليسار والصوالق [٤] والكزلك [٥] من جهة اليمين ..) [٦]. وهذا النوع من الزى ورثه بنوا أيوب عن زنكيوا الموصل[٧].

ولقد ترتب عن ذلك التغيرات الاجتماعية العديد من المظاهر العمرانية أهمها ما يلاحظ بشكل عام على أن الحياة الاجتماعية فى القاهرة بدأت تزخر بالنشاط

= فى العصر الفاطمى فإنه جعل لها كمران تلف الصدر من اليسار إلى اليمين . وكان القباء يصنع عادة من الصوف والاطلس الحرير أو القطن البعلبكى ، وألوانه هى : الأبيض يزين أحيانا بالأزرق والأحمر . ل. أ . ماير ، الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى مراجعة وتقديم عبد الرحمن فهمى ، القاهرة ص ٤٠ ــ ٤١ .

(١) الكلوته هى غطاء للرأس ، وهى أخف من الشربوش ، وكانت فى بادئ الأمر صغيرة الحجم تصنع من الصوف المطلى يحيط بحافتها شريط عريض مزخرف . ل . ماير ، م . س ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) المنطقة : وتعرف أيضا بالخياصة ، وهو حزام يلبسه العسكريون ، يصنع من معدن ثمين ــ الذهب أو الفضة ــ ل . ماير . م . س ص ٤٧ ــ ٤٨ ، السيد الباز العرينى ، المماليك ، بيروت ص ٢٢٤ . سناء بلال ، م . س ، ص ٥٩ .

(٣) يذكر ماير بأن هذا القباء لا يختلف عن الأقبية التارية على عكس ما ظنه كاتر مير ودوزى اللذان يريا أن هذا الرداء له طريقة عربية مميزة فى التفصيل ، ل . ماير ، م . س ص ٤٢.

(٤) الصولق : جيوب من الجلد البلغارى كبيرة الحجم يسع الواحد منها أكثر من نصف ويبه غلة يغرز فيها منديل طويل ثلاثة أذرع ، وتكون الصولق ضمن الكمران اللذان يلبسهما الجندى فوق القباء . المقريزى ، الخطط ، ٢/ ٩٨ ، ل . ماير ، م . س ، ص ٥٠ ــ ٥١ .

(٥) الكزلك : وهى عادة تطلق فى أقليم مصر على السكين الصغيرة ولم يرد لها أى تعريف فيما اطلعت عليه من مصادر ومراجع .

(٦) القلقشندى ، صبح الأعشى ٤/ ٣٩ ــ ٤٠ .

(٧) القلقشندى ، م . س ، ٤/ ٥ ــ ٦ .

والحيوية [١] نتيجة الأمن والاستقرار الذى يعد ضروريا لأى نمو حضارى وعمرانى[٢]. وهذه الظاهرة لا بد وأنها أثرت فى ازدهار النشاط العمرانى الذى شهدته القاهرة فى عهد صلاح الدين ، علاوة على ان المستوى الحضارى لإنسان القاهرة قد تزايدت درجته وارتفع مقداره [٣]، يشير إلى ذلك ما يذكره عبد اللطيف البغدادى عن حمامات هذه المدينة عند زيارته لها فى تلك الفترة ، حيث يقول (... وأما حماماتهم فلم اشاهد فى البلاد اتقن منها وضعا ولا اتم حكمة واحسن منظرا وخبرا ..)[٤] فكان يستخدم فى بنائها الرخام بأحجامه وألوانه المختلفة ، بَل إنه يشير أيضا إلى مدى الاهتمام فى بناء العمائر والاهتمام بأساساتها ومرافقها المختلفة [٥]، والأمر الذى يؤكد على أن هذه الأمور كانت من المظاهر التى تميزت بها القاهرة فى ذلك الوقت والذى لفت انتباه هذا الرحال .

ولقد كان لاختفاء المناسبات الفاطمية دورا عمرانيا أيضا اذ أن اختفاء هذه المظاهر الاجتماعية كان له دور كبير فى تغير الوظيفة العمرانية لبعض المساحات الخالية من البناء فى القاهرة الفاطمية ، فلقد ربط الفاطميون العديد من المناسبات التى كانت فى عصرهم برسوم ونظم [٦] كان الغرض منها إظهار حكمهم بنوع من القوة والفخامة والإجلال ، وذلك لكسب ولاء رعاياهم ، بالإضافة إلى منافسة الخلافة العباسية ومحاولة التفوق عليها فى هذا المجال [٧] . لذلك كان فى بعض الأعياد الفاطمية ما

---

(١) حسن الباشا ، القاهرة ص ٢٩١ . شحاته إبراهيم ، القاهرة ، ص ١١١ .

(٢) Suzan Jane , Conqwst and Fasion, p. 95 .

(٣) حسن الباشا وآخرون ، القاهرة ، ص ٢٩١ . سعيد عاشور ، مصر والشام ، ص ١٣٤ .

(٤) عبد اللطيف البغدادى ، أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على ، عاش فى القرن ٦ هـ ١٢ م. وعاصر عهد الناصر صلاح الدين ، الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، المجلة الجديدة ص ٥٣ ، زكى حسن ، الاعمال الكاملة ، ٨/ ١١٦ .

(٥) ن . م . س .

(٦) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ، ٢/ ٣٩ .

(٧) سناء بلال ، الملابس فى العصرين القبطى والإسلامى ، ص ٣٤ .

يطلق عليه بـ (المواكب) [١] حيث كانت تصطف الحاشية والجنود يتقدمهم الخليفة فى ترتيب معين ليسيروا وفق مراسيم محددة موضوعة مسبقا [٢] وتطالعهم الناس بشغف وشوق أثناء سير هذه المواكب فى الشوارع [٣] . ومن المؤكد أن هذه المواكب كانت تقتضى أن تكون شوارع المدينة الرئيسية التى تسير فيها واسعة . اذ أن المشتركون فيها عادة ما يكونون بعشرات الالاف كما يشير إلى ذلك ناصر خسرو أثناء حديثه عن موكب فتح الخليج [٤][٥] وان كان هذا العدد تراجع كثيرا فى أواخر العصر الفاطمى عما كان عليه . فابن الطوير عند حديثه عن موكب أول العام [٦] يذكر بأن عدد الذين يشتركون فى هذا الموكب (.. يزيد على أربعة آلاف فى الوقت الحاضر وهم أضعاف ذلك) [٧] ، وترتيب هذه المواكب يتطلب أيضا شوارع واسعة ، فحرس الخليفة الخاص والذين كان عددهم يصل إلى ألف فرد كانوا يحيطون بالخليفة

---

(١) وتعرف أيضا « بالمواسم » و « بالركوب » وكلها تدل على خروج الخليفة ورجال الدولة والجيش فى موكب رسمى يلبسوا فيه الملابس الفاخرة مصطحبين الالات الملوكية ، وذلك فى أيام محدودة من السنة ، وهى على نوعين : المواكب الكبيرة والتى تعرف (بالمواكب العظام) ، والمواكب الصغيرة وتعرف (بالمختصرة) . عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ، ٢ / ٤٥ ـ ٤٦ .

(٢) عبد المنعم ماجد ، م . س ، ٢/ ٤٦ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، م . س ، ٢/ ٩١ .

(٤) بلغ عدده حسبما يذكر ناصر خسروا أكثر من (مئتى) ألف وان كان يبدو على هذا الرقم المبالغة ، انظر ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص ٩٤ . عبد المنعم ماجد ، م. س ، ٢/ ٤٨ .

(٥) يعتبر فتح الخليج من المناسبات الرئيسية للنزهة بالنسبة لسكان المدينة . ابن دقماق ، الانتصار ، ق ١ ، ص ١١٥ ، لذلك كان الفاطميون يحتفلون به احتفالا زائدا ، وكان لهم منظرة تعرف (بالسكرة) تشرف على السد الذى يفتح فى وقت فيضان النهر ليدخل الماء إلى خليج القاهرة ، وكان الفاطميون يسيرون فى موكب خاص بذلك وله زيه الخاص . القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٣/ ٥١٤ ـ ٥١٧ . عبد المنعم ماجد ، م . س ، ٢/ ١٠٧ ـ ١٠٩ . الأمين عوض الله ، الحياة الاجتماعية ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٦) كان الفاطميون يحتفلون ببداية العام الهجرى حيث يكون لهم موكب يجتمع فيه رجال الدولة من أرباب السيف والقلم . المقريزى ، الخطط ١/ ٤٤٥ ـ ٤٥٠ ، القلقشندى ، م . س ، ٣/ ٤٤٩ ـ ٥٠٥ . عبد المنعم ماجد ، م . س ، ٢/ ٤٤٩ ـ ٥٠٥ .

(٧) المقريزى ، م . س ، ١/ ٤٥٠ .

كالجناحين الممتدين عن يمينه وشماله [١] ، علاوة على تلك المساحات التى يحتاجها المتفرجون من عامة الشعب والذين كانوا يصطفون فى الشوارع أيضا للتفرج على مثل هذه المواكب . كما استغلت رسوم هذه المناسبات بعض الرحاب والميادين ، ففى موسم أول العام كان يجتمع فى ميدان بين القصرين [٢] فى صبيحة يوم الاحتفال من القاهرة والفسطاط ، ارباب الرتب من حملة الأقلام والسيوف انتظارا لخروج الخليفة [٣] ، كما يحتفل فى هذا الميدان بالموالد : كمولد النبى ﷺ [٤] ، والاحتفال بليالى الوقود الأربع [٥] فى حين أن الميدان الذى يعرف بالمنحر [٦] كان مخصصا لكى تتم فيه مراسيم النحر التى كان يقوم فيها الخليفة فى المناسبات الخاصة بذلك كالنحر فى عيد الغدير [٧] وعيد الأضحى [٨] ، فى حين أن رحبة العيد [٩]

---

(١) المقريزى ، م . س ، ١/ ٤٤٩ . القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٣ / ٥٠٣ ، عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ، ٢/ ٨٩ .

(٢) عن هذا الميدان انظر الفصل الثانى من الباب الثانى .

(٣) المقريزى ، م . س ، ١/ ٤٤٨ .

(٤) المقريزى ، م . س ، ١/ ٤٣٣ . والاحتفال بالمولد للنبى عليه الصلاة والسلام أو غيره من الصالحين من الأمور التى لا أصل لها فى الإسلام وهى ليست من منهج السلف ومن المظاهر التى ابتدعها الخلفاء الفاطميون فى مصر . انظر ابن محفوظ ، الابداع فى مضار الابتداع ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

(٥) وهذه الليالى هى أول ليلة من رجب وليلة النصف منه وأول ليلة من شعبان والنصف منه ولا يكون فيها موكب للخليفة وإنما لقاضى القضاه الذى يذهب إلى ميدان بين القصرين ويطل الخليفة من منظره على الميدان ثم تقام الخطبة . انظر القلقشندى ، م . س ، ٣/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨ . الأمين عوض الله ، الحياة الاجتماعية ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٦) عن موقع المنحر انظر الفصل الثانى من الباب الثانى .

(٧) وهذا العيد من بدع الشيعة واصله يقوم على أساس أن الرسول ﷺ قال فى غدير خم (.. من كنت مولاه فعلى مولاه ..) فاعتبر الشيعة ذلك دليلا على أحقية على رضى الله عنه بالخلافة بعد الرسول ﷺ ، المقريزى ، م . س ، ١/ ٣٨٨ .

(٨) المقريزى ، م . س ، ١/ ٤٣٦ .

(٩) عن موقع الرحبة انظر الفصل الثانى من الباب الثانى .

كان يصطف فيها الجنود انتظارا لخروج الخليفة لصلاة العيدين [١] .

وكما سبق أن اشرنا فإن المناسبات الفاطمية قد اختفت فى عهد صلاح الد
باستثناء بعضها ذات المردود الاقتصادى ، حيث شارك صلاح الدين فى الاحتف
بتخليق المقياس[٢] وفتح الخليج . فقد قام بالمشاركة بهذه المناسبة فى عام[٣] ٥٧٧
وفى فتح خليج ابى المنجا [٤] الذى حافظ الأيوبيون على الاحتفال بفتحه كما
عليه الحال فى العصر الفاطمى [٥] ، وهذه المواكب على الرغم من بقائها لم ت
على ما كانت عليه فى العصر الفاطمى من فخامة ، اذ تراجع مستواها عما كا
عليه كثيرا [٦] ، اذ أن الدولة الصلاحية لم يكن لديها الاستعداد للانفاق على
هذه المظاهر المترفة التى لا تجنى من ورائها طائلا ، خاصة وأنها كانت تحمل
مجاهدة الصليبيين فى الشام ، الأمر الذى يتطلب توجيه الأموال تجاه هذه الجهود ،
فإن اختفاء مثل هذه التقاليد وتراجع مستوى ما بقى منها قد أثر بدون شك
الوظيفة العمرانية للأماكن التى كانت تشغلها من شوارع فسيحة ورحاب وميادين
ومن ثم فقد جرى استغلال مثل هذه الأماكن ليبنى عليها المنشآت والدور، حيث
يعد لوجودها خالية من البناء أى حاجة .

وكان لتغير عادات النزهة أيضا دور فى أن تستغل المنشآت التى خصص

---

(١) الخاصكى ، التحفة الفاخرة / لوحة ٦٣ . مؤلف مجهول تاريخ المصر القاهرة ، ورقة : ٥٥ .

(٢) المقياس منشأة يحدد بها مقدار وفاء النيل ومبلغ الزيادة ، ولذلك فإنه يتخذ من مصر مناسبة يعبر عن الفرح والسرور . وكان للفاطميين فى ذلك رسوم واحتفالات . ويدهن المقياس فى ذلك بالزعفران والمسك . انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٢/ ٥١٢٠ ـ ٥١٤ ، ٤/ ٤٧ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٧٣ .

(٤) هذا الخليج من خلجان الشرقية من أعمال الديار المصرية أمر بفتحه الوزير الفاطمى الأفضل بن الجيوش الا انه نسب إلى المشرف عليه وهو رجل يهودى يدعى أبى المنجا ، المقريزى ، الخطط ٤٨٧ .

(٥) المقريزى ، م . س ، ١/ ٤٨٨ .

(٦) سعيد عاشور ، مصر والشام ، ص ١٣٣ ، حسنين ربيع ، النظم المالية فى مصر ، ص ٦٠ .

الفاطميون لنزهتهم لأغراض أخرى فجرى تحويل العديد منها إلى مواضع للسكنى. ومن المؤكد أن ظهور عادة شراء الأطعمة من الأسواق وتغير الزى قد اثرت على أسواق المدينة حيث ازدهرت أوضاع هذه الأسواق بظهور أسواق جديدة واتساع الأسواق القديمة وكان لانتشار لعبة الأكره دورا فى ظهور ميادين جديدة خارج أسوار القاهرة [١] .

وكان للتغيير الاجتماعى دور فى إضافة منشآت جديدة إلى المدينة ، فرعاية التصوف أدى إلى بناء الخانقاوات للمتصوفة ، وهى منشآت تدخل إلى المدينة لأول مرة . فى حين تزايدت عمارة الأربطة ، حيث اخذت فى الانتشار فى اجزاء المدينة المختلفة بعدما كانت قاصرة فى وجودها على القرافة [٢] .

---

(١) سبق ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٢) سبق ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

الفصل الثالث

العوامل السياسية والعسكرية

نظرا لكون العوامل السياسية والعسكرية تعتبر من العوامل التى لها دور رئيسى فى نشأة المدن وتطورها، فلقد كان لهذه العوامل أيضا تأثير كبير على التطور العمرانى للقاهرة فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى ، ففى هذه الفترة أخذ دور هذه المدينة فى المجالين السياسى والعسكرى يبرز بشكل كبير ، مما أدى إلى تطور فى بعض نواحيها العمرانية ، كنوع من التكيف مع وظيفتها السياسية والعسكرية المستجدة.

ومن أبرز مظاهر التأثير السياسى والعسكرى على القاهرة حينئذ يمكن ملاحظته فى ثلاث جوانب رئيسية هى :

١ ـ أهمية القاهرة سياسيا :

ان الأهمية السياسية لأى مدينة ترتبط بعدد من العناصر التى تظهر من خلالها وتعمل على ترسيخ الدور الذى تقوم به هذه المدينة كوظيفة وبالتالى كقيمة موضوعية . ومن أبرز هذه العناصر وأشدها تأثيرا الناحية الجغرافية ، فالموقع أحد أهم العناصر التى تكسب المدينة صفة من الصفات ، سواء سياسية أو عسكرية أو تجارية ... إلخ[١] لذلك فإن دراسة موقع القاهرة والبعد الجغرافى لها ، يعد من الأمور الضرورية لاكتشاف أهمية هذه المدينة .

والحقيقة فإن أهمية القاهرة جغرافيا لا تكمن فيما يمتلكه موقعها من أهمية أو خصائص معينة [٢] ، فهذه السمات الجغرافية ـ لموقع القاهرة ـ لا يوجد لها أى بعد سياسى يمكن الاستفادة منه هنا . بيد أنه نظرا لكون القاهرة عاصمة للاقليم المصرى فقد أكسبها صفة سياسية مهمة نبعت من موقع مصر الجغرافى .

فمصر تقع على الطرف الشمالى الشرقى من القارة الأفريقية ، وتتصل فى الوقت نفسه مع الطرف الجنوبى لآسيا لتكون جزءا من المنطقة التى يتداخل فيها الماء واليابس

---

(١) جمال حمدان ، جغرافية المدن ، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

(٢) سبق الإشارة إلى أهمية موقع الفسطاط التجارى والعسكرى ، وهذا ينطبق على المدينة الكبرى بمجملها .

بشكل كبير [١] ، حيث يوجد البحر المتوسط ، والبحر الأحمر ، وخليج السويس ، والخليج العربى ، ولقد تميزت هذه المنطقة على الدوام بأنها أهم مركز لحركة التجارة العالمية منذ أقدم العصور [٢] . الأمر الذى جعل مصر مهيأة للاتصال ببقية العالم القديم . ولقد أكسب هذا الموقع مصر أهمية سياسية كبرى اذ يعتبر بعض المختصين بدراسة الجغرافيا السياسية أن مصر هى المركز الأساسى فى التأثير السياسى فى المنطقة[٣] . وهو تأثير يتسع ويضيق بحسب الأوضاع السياسية المختلفة التى مرت بها هذه البلاد عبر تاريخها الطويل [٤] . فمثلما كانت القوى المتحكمة فى منطقة الهلال الخصيب خطرا داهما يهددمصر على الدوام ، فإن مصر كانت أيضا على نفس درجة الخطورة تجاه هذه المنطقة [٥] ، ولعل ذلك ما يفسر الهلع الشديد الذى أصاب القوى الصليبية عندما تمكنت القوات الزنكية بقيادة الناصر صلاح الدين من إحكام قبضتها على هذا الأقليم [٦] . وهذه المكاسب التى تتحقق للبلاد المصرية من خلال موقعها تزداد أهمية اذا ما أخذنا فى الاعتبار خصائص التكوين الجغرافى لهذه البلاد فمصر بنهرها الذى يخترق أراضيها الجافة تعتبر بقعة خضراء فى وسط صحراوى . فعلى امتداد الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ، ولمسافة ألف ميل من الصحراء ، لا يوجد نطاق معمور بشكل كبير سوى وادى النيل ، الذى يمتد على طول ذلك النهر العظيم [٦] ، والذى حول مصر إلى بلاد تملك قوة اقتصادية ضخمة ممثلة (.. فى

---

(١) جمال حمدان ، شخصية مصر ، ٢/ ٦٩١ .

(٢) انظر فيما يذكره نقولا زيادة عن طريق التجارة فى العصور الوسطى والتى كانت ترتكز حينئذ فى هذه المنطقة أو على أطرافها . نقولا زيادة ، الطرق التجارية فى العصور الوسطى ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، العددان ٥٩ ــ ٦٠ ، ١٤٠٤ / ١٩٨٣ م . ص ١٢ ــ ٢٢ .

(٣) جمال حمدان ، شخصية مصر ٢/ ٦٩٠ .

(٤) جمال حمدان ، م . س ، ٢/ ٧٠١ وانظر أيضا فى حدود مصر ، عبد الفتاح وهبة ، الجغرافيا التاريخية ، ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥ .

(٥) جمال حمدان ، م . س ، ٢/ ٦٩٣ ــ ٦٩٥ .

(٦) جمال حمدان ، م . س ، ٦٩١ .

وفرة انتاجها وثراء غلاتها ..[١] فاعتبرت مصر عند المسلمين (... معظم دار الإسلام، وحلوبه بيت مالهم ..)[٢] والبلاد التى لا يحتاج أهلها إلى غيرهم ، بينما غيرهم يحتاج إليها [٣]. فإذا أضفنا إلى الاعتبارات السابقة ، أهمية مصر كمنطقة تمركز بشرى ضخم ، نظرا لوجود النهر الذى جعلها على الدوام مهوى أفئدة الجماعات البشرية المهاجرة [٤]، ولوقوعها عند اطراف قارتين كبيرتين ـ أفريقيا وآسيا ـ حيث عادة ما تكون أطراف القارات منطقة جذب سكانى [٥]. فإن كل الاعتبارات الجغرافية السابقة ـ الموضع ، الاقتصاد ، السكان ـ أدت إلى أن تكتسب هذه البلاد أهمية سياسية على مستوى المنطقة على أقل تقدير ، الأمر الذى دفع بأحد قادة لويس الرابع عشر إلى القول بأنه لا يوجد بين اجزاء المعمورة جميعها بلد يمكن السيطرة من خلاله على العالم وبحاره سوى مصر [٦]. إن مثل هذه الخصائص التى تمتع بها هذا البلد ، ستكون مجسدة بشكل أو بآخر فى العاصمة التى تدير شئونها ، وبالتالى فإن مصر من ناحية ـ الجغرافيا السياسية ـ هى القاهرة أيضا .

بيد أن أهمية القاهرة سياسيا ليست قاصرة على هذه الناحية ، فعلى الرغم من القيمة المكتسبة من الوضع الجغرافى فإن أهمية هذه القيمة لا تظهر إلا من خلال الدور الإنسانى فيها ، فجغرافية المكان لا تبرز أهميتها إلا من خلال علاقة الإنسان بالمكان ، لأن هذه العلاقة هى التى تبرز أهمية المكان وشخصيته .

ولذلك فإن حوادث التاريخ تعد إحدى أهم الجوانب التى يمكن من خلالها

---

(١) ن . م . س .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٥ .

(٣) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٤) جمال حمدان ، شخصية مصر ، ٢/ ٦٩٣ .

(٥) جون كلارك ، جغرافية السكان ، ص ٤٣ .

(٦) جمال حمدان ، م . س ، ٢/ ٦٩٤ .

التعرف على أهمية القاهرة فى فترة من الفترات . وما مرت بهذه المدينة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، يعتبر من الجوانب الفاعلة التى يمكن من خلالها التعرف على أهمية القاهرة فى تلك الفترة .

ولقد أدرك الأيوبيون أهمية مصر خاصة بعدما تعرفوا على هذه البلاد ومقدرتها من خلال الحملات المتعاقبة عليها كقادة لجيش نور الدين زنكى ، حيث تنقل المصادر عن أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبى [١]، ما يفيد بأنه كان راغبا فى الاستيلاء على هذه البلاد والتمكن منها [٢] لما تمتلكه من خصائص جغرافية اذ قال أسد الدين لاصحابه (.. قد علمتم رغبتى فى هذه البلاد ومحبتى لها وحرصى عليها ولا سيما وقد تحققت أن عند الفرنج منها ما عندى ..) [٣].

ومن المؤكد أن هذا الوضوح فى التصور حيال مصر يعنى الكثير بالنسبة للدولة الأيوبية ، التى يعتبر بعض المؤرخين أن بداية ظهورها كان منذ أن تولى صلاح الدين منصب الوزارة فى عام (٥٦٤ هـ / ١١٦٨م) فى عهد الخليفة الفاطمى العاضد[٤].

إذ كان ميلادها ايذانا بتحول تاريخى للموقف السياسى للقاهرة ، حيث دخلت فى مرحلة سياسية جديدة ، تختلف عما كانت عليه فى أواخر العصر الفاطمى ، والذى تدهورت فيه قيمة هذه المدينة بشكل كبير ، كما يدل على ذلك حريق الفسطاط ، الذى لم يجد الفاطميون بدا منه لعدم قدرتهم فى الدفاع عنها ، ضد

---

(١) سبق ذكر ترجمته .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٨ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٧/ ١٤٧ ، ابن سعيد الأندلسى ، النجوم الزاهرة ، ص ١٣٩..

(٣) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٢٣٥ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ١٧١/١ ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ص ٤٢ . .

محاولة الصليبيون الإستيلاء عليها [١] ، وهذه الحادثة ذات دلالة واضحة على مدى التردى الذى وصلت إليه الدولة الفاطمية وقتئذ حيث اضطرت إلى التضحية بأحد أهم أقسام المدينة الكبرى (مصر ـ القاهرة).

ولذلك فإن وصول الأيوبيون إلى السلطة فى القاهرة كان ايذانا بوقف هذا التردى السياسى الذى كانت المدينة تعانى منه اذ تطور الموقف السياسى للمدينة من خلال هذه الدولة والتى تبنت موقفاً جديداً يقوم على أساس دينى أخلاقىً ، يهدف إلى توحيد العالم الإسلامى [٢] فى ظل سيادة واحدة هى الخلافة العباسية التى كان صلاح الدين يكن لها الولاء الشديد [٣] يهدف ايجاد جبهة قوية موحدة قادرة على مقاومة الوجود الصليبى فى بلاد الشام والقضاء عليه [٤]. وقد ورث صلاح الدين الأيوبى هذه السياسة عن سيده نور الدين زنكى [٥] الذى كان يعمل جاهدا على تحقيق أهدافها [٦] .

وتذكر المصادر التاريخية أنه عندما آلت إليه الأمور فى البلاد المصرية بتوليه منصب الوزارة وقع فى صدره ما يدفعه نحو مجاهدة الصليبيين ، فشعر بأنه أصبح مكلفاً بمهمة تحرير الأراضى الإسلامية وانقاذها من أيديهم [٧] ، فأقبل على الجد وأخذ

---

(١) عن هذا الحريق ، انظر ما يلى .

(٢) سعيد عاشور ، مصر والشام ، ص ٤٧ ، محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والادارية (للدوله ، الفاطمية والأتابكية والأيوبية) ، دراسة ونصوص بيروت ط. الأولى ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٦٩ .

(٣) هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبى ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

(٤) محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والادارية ، ص ٦٩ ، هاملتون ، جب ، م . س ص ، ١٩٢ .

(٥) سبق ذكر ترجمته .

(٦) سعيد عاشور ، مصر والشام ، ص ٩ ـ ١٠ ، جمال الدين الرمادى ، صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ١٩٥٨ م ، ص ١٤ ، جمال الدين الشيال تاريخ مصر الإسلامية ، (العصران الأيوبى والمملوكى) القاهرة ١٩٦٧ م ، ص ١١ .

(٧) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤١ ، أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٦ .

يعد العدة نحو تحقيق هذا الهدف الذى سيطر على جهاته وسلوكه [١].

فكان حريصا على توحيد الجبهة الإسلامية ، ورفع راية الجهاد ، بل ان طموحه تعدى ذلك إلى مواصلة الفتح الإسلامى فى بلاد الشرك والكفر ، فابن شداد ينقل عن صلاح الدين رغبته فى مواصلة الفتح فى (.. جزائرهم ، أتتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت ..) [٢] .

ومما تقدم يمكن أن نصل إلى تفسير أشد وضوحا ، لما قام به صلاح الدين الأيوبى من تحركات سياسية وعسكرية تهدف اعادة توحيد الجبهة الإسلامية : والتى بدأت أبعادها تتضح بعد قضائه على الخلافة الفاطمية سنة (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) .

وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن ننفى وجود الدافع الشخصى لدى الناصر صلاح الدين ، كدافع أسهم بفاعلية فى هذه التحركات ، حيث تذكر بعض المصادر أن من أسباب ما قام به من ضم لبلاد اليمن فى عام (٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) : رغبته فى أن يجد له ولأسرته ملجأ يلوذ به فيما لو هاجمه نور الدين زنكى [٣] ، الذى أصبح بينه وبين صلاح الدين جفاء ووحشة ، لأن الأخير ظن بأن صلاح الدين لم يكن على ولاء له وأن الأيوبيين يريدون إقامة ملك خاص لهم فى مصر [٤] . وأيا كان الأمر فإننا لا يمكن أن نجزم بأن هذا هو الدافع الرئيسى الوحيد الذى أدى بينى أيوب

---

(١) ابن شداد ، م . س ، ص ٤٠ ، ابن سعيد الأندلسى ، النجوم الزاهرة ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

(٢) ابن شداد ، م . س ، ص ٢٢ .

(٣) ابن الأثير ، أبو الحسن على بن محمد الشيبانى (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م الكامل فى التاريخ ، تحقيق نخبة من العلماء، بيروت ط . الثانية ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م. ٩/ ١٢٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ٢٣٧ . الباز العرينى ، مصر فى عصر الأيوبيين ص ٤٠ .

(٤) ابن الأثير ، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل ، تحقيق عبد القادر أحمد طلميات ، القاهرة ص ١٥٨ أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٨ ـ ٥١٩ . ابن واصل ، م . س ، ١/ ٢٢١ ، على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ١٥٦ .

إلى القيام بهذا العمل ، لأن من المؤكد أن وراء ضم اليمن أسبابا أخرى من أهمها رغبة صلاح الدين فى توحيد القوى الإسلامية ، وهو ما أشار إليه فى احدى رسائله للخليفة المقتفى [(١)] العباسى[(٢)] ، أضف إلى ذلك أن هذه الخطوة يمكن أن تعبر أيضا عن مدى رغبة واصرار صلاح الدين فى القضاء على ذيول التشيع والمفاسد التى نشرها أتباع الفاطميين فى تلك البلاد [(٣)] ، فلقد كان (.. باليمن ما علم من ابن مهدى الضال ، وله آثار فى الإسلام ، وثار طالبه النبى عليه السلام ، لأنه سبى الشرائف الصالحات ... ، وكان يبدعه قد دعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة ، وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأباحها ، ... فأنهضا إليه أخانا[(٤)] بعسكرنا بعد أن كلفنا له نفقات واسعة وأسلحة رائعة ، وسار فأخذناه ، ولله الحمد ، وأنجح الله فيه القصد ، ..) [(٥)] .

وإلى جانب ذلك فإننا ينبغى ألا نهمل أهمية ضم اليمن من الناحية الاقتصادية حيث أن نجاح صلاح الدين فى ذلك سيمكنه من السيطرة الكاملة على البحر الأحمر، الذى كان يعتبر فى ذلك الوقت أحد أهم الشرايين التجارية فى العالم [(٦)] .

وكذلك الحال بالنسبة لتوسعات صلاح الدين فى بلاد الشام ، على حساب أسياده من بنى زنكى ، وهو ما قام به بعد وفاة نور الدين فى عام (٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) [(٧)] .

---

(١) هو أبو محمد الحسن بن المستنجد يوسف بن المقتفى محمد (٥٦٦ هـ ٥٧٥ / ١١٧٠ ـ ١١٧٩ م) اشتهر بالعدل والإحسان والجود . عنه انظر ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ ، ابن العماد شذرات الذهب ، ٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

(٢) محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والادارية ، ص ٢٥٤ .

(٣) جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ، ص ٣٦ ، جميل حرب ، الحجاز واليمن فى العصر الأيوبى ، ص ٨٣ .

(٤) يقصد بذلك شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين ، ابن الأثير الكامل ، ٩/ ١٢٢ .

(٥) ورد هذا النص ضمن الخطاب الذى بعث به صلاح الدين إلى الخليفة المقتفى العباسى ، محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والادارية ص ٢٥٧ .

(٦) جمال الدين الشيال ، م. س ، ص ٣٧ ، جميل حرب ، م . س ، ص ٩٦ .

(٧) على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

فمن الواضح أنه لم يكن ناجما عن طموح شخصى ومطامع ذاتية[١] ، بقدر ما هو ناجم عن الرغبة فى تحقيق الأهداف السامية لرفع شأن الإسلام وضمان نصرته وهو شأن يعلو على كل شأن[٢]. فبعد وفاة نور الدين أخذت هذه الدولة فى التدحرج نحو الهاوية ، حيث ورث أمورها ابن قاصر [٣]، أخذ الأمراء المحيطون به يوجهون الأمور حسب أهواءهم ومصالحهم الشخصية ، غير مبالين بالأخطار التى تواجه الأمة [٤] والتى كان من أكثرها الحاحا الوجود الصليبى [٥].

وهكذا فإن تحرك صلاح الدين نحو ضم بلاد الشام كان يهدف إلى توحيد الجبهة الإسلامية وهو هدف أساسى عنده .

ان هذا الموقف السياسى الذى اتخذته الدولة الصلاحية ، أخذ ينعكس فى شكل قوة متنامية عسكريا واقتصاديا [٦]، وبشكل متناسق وكأن الأمر يبدو من أوله إلى أخره مخططا له ؛ فمنذ أن امسك صلاح الدين بمقاليد الأمور كوزير للخليفة العاضد، فى سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨م وحتى وفاته فى عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م والدولة الأيوبية تتنامى وتتطور أوضاعها بشكل سريع ، فشملت مساحات واسعة من الأراضى تمتد

---

(١) لاحظ ما يذكره ابن تغرى بردى عن أخذ صلاح الدين لبلاد الشام من الملك الصالح اذ يعتبر ذلك انتقاضا على النعمة . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٩٠ .

(٢) محمد ماهر ، الوثائق السياسية والادارية ، ص ٢٦٣ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٥٠ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٧/ ١٦٥ ـ ١٦٦ ، ابن تغرى بردى ، م . س ، ٦/ ٢٤ . هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبى ، ص ١٨٨ .

(٤) على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٢٠٥ ، هاملتون جب ، ن . م . س ، الباز العرينى ، مصر فى عصر الأيوبيين ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢/ ٢٨٧ ، سعيد عاشور ، مصر والشام ص ٣٣ ، كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمير فارس ، منير البعلبكى ، بيروت ط . السابعة ١٩٧٧ م ص ٣٥٤ .

(٦) Suzan Jane , Conquest and Fasion, p. 95 .

من نهر الفرات شرقا وتنتهى فى أطراف بلاد المغرب غربا ، علاوة على الحجاز واليمن فى الجنوب [(١)] .

ولتحقيق الأهداف التى تبناها هذا الفاتح العظيم ، فقد عمل منذ توليه الوزارة ، على توطيد مركزه فى مصر ، وعمل على تقوية أتباعه واضعاف أتباع الفاطميين ، فأخذ من أولئك اقطاعاتهم وقام بتوزيعها على رجاله بل وزاد فى اقطاعاتهم [(٢)] . فضلا عن ذلك فقد عمل على نشر العدل وبذل الأموال للناس مما أدى إلى شغفهم به [(٣)]. بيد أن تزايد نفوذ صلاح الدين الأيوبى لم يظهر بشكل جلى الا بعدما تمكن من القضاء على ثورة العبيد السودان (٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م) وهى ثورة كانت تستهدف القضاء على حكمه [(٤)] ولقد أدى قضاء صلاح الدين على تلك الثورة إلى ضعف الخلافة الفاطمية ، فأصبح الخليفة العاضد [(٥)] خالى الوفاض أمام صلاح الدين [(٦)] ، ووصل الأمر إلى منعه من سائر موارده ، والاستيلاء على كافة ممتلكاته [(٧)] حتى قيل أن صلاح الدين لم يبقى لهذا الخليفة الفرس التى كان يركبها [(٨)] .

وقد تزايد نفوذ صلاح الدين بوصول أقربائه إليه [(٩)] ، ضمن التدفق البشرى

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٩ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ٩/ ١٠٣ ، أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ص ٤٥٠ ، المقريزى ، الخطط ، ١ / ٣٥٨ .

(٣) المقريزى ، م . س ، ٢/ ٢٣٣ .

(٤) عن هذه الثورة انظر ما يلى .

(٥) سبق ذكر ترجمته .

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ١٧٨ ، الخاصكى ، التحفة الفاخرة لوحة ، ٢ ، مؤلف مجهول ، تاريخ ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٢ .

(٧) المقريزى : م . س ، ١ / ٣٥٨ .

(٨) ابن واصل ، م . س ، ١/ ١٧٩ ، المقريزى : ن . م . س .

(٩) العينى ، أبو محمد بدر الدين بن أحمد بن موسى ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ١٩٦٦ م. ص ١٩٢ .

على مصر ، حيث قدم فى عام ٥٦٥هـ / ١١٦٩ م إلى مصر من بلاد الشام ،
كبير من أقرباء صلاح الدين منهم والده واخوته ، علاوة على اصدقائه ومن يعز
وعدد كبير من التجار [١] .

ولما قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية فى عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١
أخذ فى توسيع نفوذه فقام فى سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م بإرسال حملة إلى
النوبة بقيادة أخيه شمس الدين توران شاه [٢] فاتجهت إلى أسوان [٣] ثم استولت
ذلك على أبريم [٤][٥] . ومن الواضح أن من أهداف هذه الحملة التعرف
المنطقة واكتشاف بعض الامتدادات الاقليمية لمصر ، غير أنها سرعان ما عادت
مصر بعدما تبين عدم الجدوى من السيطرة على تلك المنطقة [٦] .

وفى عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م جهز صلاح الدين حملة كبيرة وجهها إلى
الحجاز واليمن بقيادة أخيه شمس الدين أيضا [٧] ، وقد سبقت الإشارة إلى أهدا

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٩/ ١٠٦ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ص ٤٦٥ ، ابن واصل . س ، ١/ ١٨٥ . ويذكر ابن كثير بأنه قد قدم مع هؤلاء جيش كثيف أرسله نور الدين إلى صا الدين ابن كثير ، البداية والنهاية ، ص ٢٦٠ .

(٢) الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن نجم الدين أيوب كان أسن من أخيه صلاح الدين ، اش بالسخاء والكرم والشجاعة ، انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٨٧ ، ابن العماد ، شذ الذهب ، ٤/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

(٣) أسوان : مدينة كبيرة باقصى جنوب مصر تشرف على النيل من شرقيه وتشتهر بزراعة التمور . انظ الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٤٠ . ياقوت ، معجم البلدان ١/ ١٩١ ـ ١٩٢ .

(٤) أبو شامة ، م . س ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٥٣٠ ـ ٥٣١ ، ابن كثير ، م . س ١٢ / ٢٧٠ ، سـ عاشور ، مصر والشام ، ص ٢٨ . على بيومى قيام الدولة الأيوبية ، ص ١٨٥ .

(٥) ابريم : حصن كان قاعدة لبلاد النوبة ، ابن الأثير ، م . س ، ١١٨/٩ ، ابن كثير ، ن . م . س .

(٦) ابن الأثير ، م . س ، ٩/ ١١٨ ـ ١١٩ ، أبو شامة ، الروضتين جـ ١ ، ق ٢ ص ٥٣١ ، واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ٢٢٩ ، ابن كثير ، ن . م . س .

(٧) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤٦٠ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٧/ ١٦٥ .

الدينية والسياسية والاقتصادية ونتج عن هذه الحملة خضوع بلاد الحجاز واليمن لنفوذ الأيوبيين منذ تلك الفترة [١] . وكان لوفاة نور الدين زنكى فى أواخر عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م أثراً كبيراً فى تعبير خطط صلاح الدين الأيوبى ، حيث توجهت أنظاره نحو بلاد الشام بصفة عامة وأملاك الدولة الزنكية بصفة خاصة ، نظرا لأهمية هذه البلاد فى مواجهة القوى الصليبية [٢] ، علاوة على ان هذه الدولة أصبحت عرضة للانقسام[٣] ، ووجد الصليبيون فى ذلك فرصة للتقدم نحو دمشق ، فقاموا فى نفس العام بتوجيه حملة عسكرية نحو بانياس [٤] القريبة منها . ولم يتراجعوا . الا بعدما تعهدت الدولة الزنكية بدفع مبلغ معين من المال ، وهددتهم باستدعاء صلاح الدين من مصر ، ان هم أصروا على خططهم [٥] . كذلك فإن حكام الموصل من أمراء البيت الزنكى ، والذين كانوا فى أواخر عهد نور الدين زنكى تابعين له [٦] أخذوا يوسعون أملاكهم على حساب الدولة الزنكية فى البلاد الجزرية [٧] .

ولقد كانت تلك الاضطرابات سببا رئيسا فى أن يتوجه صلاح الدين نحو بلاد

---

(١) جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ص ٣٩ . سعيد عاشور ، مصر والشام ص ٢٨ .

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٣٥٤ .

(٣) سعيد عاشور ، مصر والشام ، ص ٣٢ ـ ٣٣ ، هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبى ، ص : ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٤) هذا الموقع هو فى الأصل نهر من أنهار دمشق ، كانت تحيط به القرى والمزارع ، ياقوت ، معجم البلدان ١/ ٣٣٠ ، ويذكر ابن واصل ان به قلعة ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٧ .

(٥) ابن كثير ، ٩/ ١٢٧ ـ ١٢٨ ، أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٩ . ابن واصل : ن . م . س .

(٦) ابن واصل : م . س ، ١/ ٩١ـ ١٩٣ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٩/ ١٢٧ ، التاريخ الباهر ص ١٧٥ ، أبو شامة الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٠ ـ ٥٩١ ، هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبى ، ص ١٢٧ ، جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ص ٤٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشام رافعا شعار الوصاية على الملك الصالح [١] بن نور الدين[٢] والذى كان عمره إحدى عشر سنة [٣] فتم لصلاح الدين ضم دمشق فى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م [٤] ودخل بعد ذلك فى صراع مع ثلاثة أطراف أساسية تكاثفت ضده هم ، الزنكيون فى حلب والموصل ، والقوى الصليبية فى بلاد الشام ، وفرقة الحشاشين من الإسماعيلية، أما الطرف الأول وهم الزنكيون فى الموصل [٥] وحلب[٦] الذين انتقل إليهم الملك الصالح بناءا على توصية بعض قادته [٧] فكان بينه وبينهم حروب ومفاوضات وهدن ، أطنبت بذكرها المصادر [٨] ، وهى ليست من شأن هذه الدراسة ، وقد انتهت الأحداث بإنتصار صلاح الدين حيث ضمت إليه حلب ، وخضعت الموصل والبلاد الجزرية إلى

(١) هو الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود ٥٦٩ ـ ٥٧٧ هـ / ١١٧٣ ـ ١١٨١ م ولى الحكم بعد أبيه وكان عمره إحدى عشر عاما ، توفى وعمره تسعة عشر سنة كان حليما كريما . عنه انظر : ابن العماد ، شذرات الذهب ٤ / ٢٨٥ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٥٠ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،٧/ ١٦٦ ، الباز العرينى ، مصر فى عصر الأيوبيين ص ٤٣ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، ٤ / ٢٨٥ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ،٩/ ١٣٠ ـ ١٣١ .

(٥) المدينة المشهورة وهى إحدى قواعد بلاد الإسلام بها سعة مساحة وكثرة خلق فهى باب العراق ومفتاح خرسان . انظر ابن خردازبه ، المسالك ، ص ٩٣ ، ابن الفقيه الهمذانى ، مختصر كتاب البلدان ص ١٢١ ، ياقوت ، معجم البلدان ٥/ ٢٢٣ ، سعيد الديوه جى ، تاريخ الموصل ، ١/ ١٧٥ ـ ٢١٨ ، طلال رفاعى ، البريد ، ٦٠٩ .

(٦) مدينة عظيمة واسعة كانت قصبة جند قنسرين وهى من سكك البريد انظر ابن خرداذبه ، المسالك ، ص ٧٤ ، قدامة ، الخراج ٤٥٤ ، ياقوت ، معجم البلدان ٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤ .

(٧) ابن الأثير ، م . س ، ٢/ ١٢٦ ـ ١٢٧ ، ١٣٠ ـ ١٣١ ، هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبى ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٨) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ص ٥٠ ـ ٥٢ ، ٥٤ ـ ٩٧ ، ٥٩ ـ ٦٧ ، ٧٠ ـ ٧١ . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ص ١٦٦ ـ ١٧٢ جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ص ٤٧ ـ ٤٨ .

حكمه [١] . وبذلك يكون قد ضمن جبهته الشمالية والشمالية الشرقية ، ولم يعد يتخوف من الأخطار التى قد تهدده من هذه الجهات [٢] ، بل انه بتوحيد هذه المناطق فإنه زاد من قوته العسكرية ونجم عن ذلك أن أصبح لديه أكبر حشد عسكرى عرفه الصليبيين خلال تلك الفترة ، وهو ما عبر عنه أحد امرائهم بقوله (.. لقد رأيت عسكر الإسلام قديما وحديثا وما رأيت مثل هذا العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة ..) [٣] .

أما القوى الثانية التى واجهها صلاح الدين فى بلاد الشام فكانت القوى الصليبية التى اربكها وزاد من مخاوفها توسع حدود الدولة الأيوبية ، وامتدادها من مصر لتشمل الحجاز واليمن وبلاد الشام ، ووجدت فى تنامى هذه القوة خطراً حقيقا يتهدد وجودها [٤] . لذلك فقد حاولت أن تمنع فرصة تناميها بمحاولة التحالف مع الزنكيين ضدها ، فعندما قام صلاح الدين فى عام ٥٧٠هـ / ١١٧٤م بمهاجمة حلب بهدف ضمها قام الصليبيون بمهاجمة مدينة حمص [٥] وحاصروها الأمر الذى اضطره إلى الانسحاب والتوجه نحو هذه المدينة لفك الحصار عنها [٦] .

وعلى أية حال فلقد دخل الصليبيون مع صلاح الدين فى مناوشات متلاحقة كما عقدوا معه الهدنة مرات عده قبل أن يحقق الله على يديه الانتصار العظيم فى

---

(١) هاملتون جب ، م . س ، ص ص ١٢٧ ـ ١٤١ .
(٢) هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبى ، ص ص ١٣٢ ، ١٤١ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٩ / ١٧٧ .
(٤) ابن الأثير ، م . س ، ٩ / ١٣٩ .
(٥) بلد مشهور كبير موجود بين دمشق وحلب فى نصف الطريق ، ابن خرداذبة ، المسالك ، ص ٩٨ ، قدامة ، الخراج ، ص ٤٢٧ ، ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٣ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٢/ ٣٠٢ .
(٦) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦١١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/ ٢٨٩ .

حطين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م [١] .

أما الجبهة الثالثة التى دخل معها صلاح الدين فى صراع عسكرى وسياسى فهم الحشاشون الإسماعيلية ، الذين حرصوا على التحالف مع الزنكيين بهدف القضاء على صلاح الدين الأيوبى .

ولقد قام الحشاشون بمحاولتين لقتل صلاح الدين الأيوبى . وحصلت أولاهما خلال محاصرته لمدينة حلب فى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م [٢] وتذكر المصادر بأن هذه المحاولة قد تمت نتيجة اتفاق سرى عقد بينهم وبين الزنكيين فى حلب ، وبذل الزنكيون لهم الأموال لتحقيق هذا الغرض، غير أن المحاولة باءت بالفشل[٣] ، وأما المحاولة الثانية فقد جرت فى السنة التالية ٥٧١هـ / ١١٧٥م أثناء محاصرة صلاح الدين لقلعة اعزاز وكان مصيرها الفشل كسابقتها [٤].

ومن الواضح أن لدى هذه الطائفة الإسماعيلية موقفا حاقدا تجاه صلاح الدين الذى قضى على دولة الشيعة فى مصر وحارب التشيع ومذاهبه فى كل مكان [٥] وأمام هذه المواقف التى تبناها الحشاشون ، فإن صلاح الدين قام بتوجيه ضربة قوية لهم فى عام ٥٧٢هـ / ١١٧٦م ، فهاجم حصونهم وكاد ان يقضى عليهم لولا أنهم استعانوا ببعض أقاربه الذين توسطوا لدى صلاح الدين ليدخل فى صلح معهم [٦] ؛

---

(١) هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبى ، ص ١٤١ ، ١٤٩ .

(٢) وكانت المحاولة تقوم على أساس أن يتسلل بعض الإسماعيلية ويقتلون صلاح الدين فى معسكره ، للمزيد انظر ابن الأثير ، الكامل ، ١٩/ ١٣٢ .

(٣) ابو شامة ، م . س ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٠ ـ ٦١١ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٤٤ ـ ٤٥ .

(٥) لاحظ ما ذكرناه عن موقف صلاح الدين من التشيع والتحول الدينى فى مصر فى الفصل السابق .

(٦) استعان الحشاشون بخال صلاح الدين الأيوبى شهاب الدين محمود الحارمى الذى كان حاكما لمدينة حماه التى تقع بجوار حصونهم وتذكر بعض المصادر أن هؤلاء الإسماعيلية مارسوا مع خال صلاح الدين نوعا من التهديدات حيث هددوه بقتله هو واهله . ابن الأثير : الكامل ، ٩/ ١٣٩ . ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/ ٤٧ ـ ٤٨ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢ / ٢٦٥ .

ولعل صلاح الدين قدر بأن المصلحة تكمن فى مهادنتهم ، وبذلك فقد تمكن الناصر من السيطرة على القوى الأساسية التى واجهته فى المنطقة .

وبشكل عام فإن هذه التطورات علاوة على الإمكانات التى تمتع بها الأقليم المصرى ، أدت إلى تبوأ القاهرة مركز الصدارة كعاصمة لدولة من أكبر دول العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، ومن أهمها على الاطلاق نظرا لما قامت به من دور يهدف إلى توحيد العالم الإسلامى . وطرد الصليبيين من معظم الأراضى التى احتلوها، حيث لم يبق للصليبيين فى عهد صلاح الدين سوى شريط ساحلى ضيق[1] . ومن أبرز الدلائل على ذلك هو أن زعيم هذه الدولة قد حفى بعناية الكثير من مؤرخى السير فى عصر الحروب الصليبية [2] ، الذين أفاضوا بالحديث عن اهدافه السامية وبشخصيته العظيمة وأخلاقه الكريمة . وبطبيعة الحال فإن ذلك سينعكس على وضع القاهرة نفسها ، التى تحولت ابتداء من هذا التاريخ إلى عاصمة الصمود ، ومقر قيادة حركة الجهاد الإسلامى ضد هجمات أعداء هذا الدين وهذه الأمة . ولذلك كان لا بد أن تكتسب السمات العمرانية التى تعبر عن هذا الوضع ، فأخذ صلاح الدين بتحويل القاهرة إلى عاصمة جديرة بدولة عظيمة فقام بتحصينها ، وبنى لها سورا كبيرا يوفر الحماية لمساحة شاسعة من المدينة الكبرى ، علاوة على قلعة حصينة تبنى فى هذه المدينة لأول مرة ، كذلك زودها بمنشآت دينية تعليمية ضخمة فمدرسته الواقعة بجوار قبر الإمام الشافعى ، كانت أشبه ما تكون ببلد مستقل بذاته [3] .

---

(١) لم يبق للصليبيين بعد انتصار صلاح الدين عليهم سوى مدينة صور وطرابلس وأنطاكية وغيرها من المراكز الثانوية . سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٠٧ .

(٢) أحمد بدوى ، الحياة العقلية ، ص ٢٥٣ .

(٣) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب ـ موقف الصليبيين من القاهرة :

تمثل الحروب الصليبية منعطفا خطيرا فى التاريخ الإسلامى ، لما ترتب عنها من نتائج سياسية واجتماعية فى حياة المسلمين ، اذ أن دخول الصليبيين إلى بلاد الشام وانتصارهم على المسلمين وتأسيسهم لمجموعة من الإمارات فيها ، أوجد ردود فعل مختلفة عند المسلمين أخذت فى نهاية الأمر تتطور فى شكل مواجهة للعدوان الصليبى، ترتب عنها تغيرات فى الخارطة السياسية للمنطقة بشكل عام .

وعلى أية حال فإن دراسة موقف الصليبيين من القاهرة يمكن فهمه من الموقف العام لهم تجاه الاقليم المصرى ، حيث أن القاهرة تمثل مركز القيادة الذى يدار منه أمر البلاد وبالتالى فإن الموقف الصليبى العام تجاه مصر يتبلور فيه ذات الموقف تجاه عاصمتها القاهرة . وقد مر الموقف الصليبى تجاه مصر خلال تلك الفترة بثلاث مراحل تاريخية كانت تنصب جميعها فى هدف واحد وهو الاستيلاء على أرض الكنانة . اذ أن الصليبيين ادركوا منذ أن وطئت أقدامهم أرض بلاد الشام أهمية مصر من الناحيتين الجغرافية والاقتصادية ، وان كان هذا الإدراك قد أخذ يتطور بشكل عميق بمرور الأيام ، يدل على ذلك المراحل التاريخية الثلاث التى مر بها الموقف الصليبى تجاه مصر .

وأولى هذه المراحل التاريخية تبدأ بدخول الصليبيين بلاد الشام وتنتهى بدخول القوات الزنكية إلى مصر وتمكنها من بسط الهيمنة الزنكية عليها فى عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٨م ، فلقد تزامن الدخول الصليبى إلى بلاد الشام ، مع سوء الأوضاع الداخلية للدولة الفاطمية ، حيث كانت تعانى من الضعف فى ذلك الوقت [١] ، ولم تكن

---

(١) سعيد عاشور ، مصر والشام ، ص ٩ ، أحمد بيلى ، حياة صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ، ط . الثانية ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م ، ص ٤٢ قدرى قلعجى ، صلاح الدين الأيوبى ، بيروت ص ١٦١ .

قادرة على مواجهة الهجمة الصليبية على بلاد الشام [١] ، مما أدى إلى أن يوصف موقفها تجاهها بالسلبية وعدم المبالاة [٢] .

وما كاد الصليبيون يوطدوا أقدامهم فى بلاد الشام ، حتى بدأت أنظارهم بالتوجه ناحية مصر بهدف الاستيلاء عليها ، فأولى خطط غزو مصر ، أعدت من قبل أول ملوك بيت المقدس ، جودفرى دى بواين ، غير أن تلك الخطة لم يكتب لها النجاح ، لوفاته فى سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م قبل أن يبدأ فى تنفيذها[٣] . ويبدو أن أخاه وخلفه ، بلدوين الأول ، قد عقد العزم على تنفيذ تلك الخطة ، وقام فى سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م بحملة استطلاعية تمكن فيها من الاستيلاء على أيلة[٤] وقطع سيناء متجها نحو الأراضى الواقعة شرق الدلتا [٥] ، ويظهر أن حالته الصحية قد تدهورت فتراجع نحو العريش [٦] ، ووافته منيته ، وهو فى طريق عودته إلى فلسطين ، سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م [٧] . وتوقفت بعد ذلك الحملات الصليبية على مصر لفترة

---

(١) أحمد الصاوى ، المجاعات فى العصر الفاطمى ص ١٨٥ .

(٢) أحمد رمضان ، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ، ص ٩٨ .

(٣) سعيد عاشور ، م . س ، ص ١٠ .

(٤) مدينة مطلة على ساحل البحر الأحمر ، مما يلى بلاد الشام ومصر ، وهى آخر الحجاز ، يجتمع فى هذه المدينة حجاج الشام ومصر والمغرب وبها التجارة الكثيرة وأهلها اخلاط من الناس، البكرى ، أبو عبد الله عبد الله بن عبد العزيز الأندلسى (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، بيروت ١/ ٢١٦ . ياقوت ، معجم البلدان ، ٢/ ٢٩٢ .

(٥) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، ١ / ٣٣٠ .

(٦) مدينة جليلة على طرف الشام بينه وبين مصر ، عنها انظر : الاصطرخى المسالك ، ص ٣٨ ، ياقوت، م . س ، ٤/ ١١٣ ـ ١١٤ .

(٧) ابن ظافر ، جمال الدين بن على ت ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م أخبار الدول المنقطعة تحقيق اندريه فريه ، القاهرة ١٩٧٢ م. ص ٩٠ ، ويذكر سعيد عاشور ان هذا الأمر تم فى سنة (٥١٢ هـ / ١١١٨ م)، سعيد عاشور ، مصر والشام ، ص ١٠ .

ليست بالقصيرة اذ لا تذكر المصادر أى غزوات ضدها حتى منتصف القرن السادس ٦هـ/ ١٢م ، وان كان ذلك لا يعنى بأن الصليبيين قد تخلوا عن فكرة الاستيلاء على مصر ، وإنما اقتضت مصلحتهم تأجيلها لبعض الوقت ، لكى يتفرغوا لمواجهة القوى الإسلامية المتنامية في بلاد الشام ممثلة بالدولة الزنكية [١] خاصة وانهم قد أدركوا بأن الدولة الفاطمية أضحت تتآكل من الداخل [٢] ، وبالتالى فإن تأخير هذا الغزو سيجعل السبيل إليها أمرا ميسورا . وتقدم المصادر بعد ذلك معلومات عن استيفاء الصليبيين فى حدود منتصف القرن السادس ٦هـ/١٢م لجباية سنوية من الدولة الفاطمية ، غير أنها لا تورد أسباب ذلك ولا تقدم تحديدا واضحا للفترة التى بدأ الفاطميون بدفع تلك الأموال ، ومن المرجح أن يكون ذلك قد حصل خلال النصف الأول من القرن الخامس ، كما يشير إلى ذلك ابن القلانسى فى ثنايا حديثه عن حوادث سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م [٣] . ويظهر أن التنافس والصراع بين الوزراء فى أواخر العصر الفاطمى أدى إلى عودة اهتمام الصليبيين مرة أخرى بمصر ، لذلك استأنفوا محاولاتهم للتدخل فى شؤونها مدفوعين بعاملين رئيسيين : أولهما الأزمة التى حصلت بين الوزير الفاطمى ضرغام[٤] وملك بيت المقدس ، حول الجزية التى كان على مصر أن تدفعها إليه سنويا، وقد كان من نتائج تلك الأزمة أن سار الملك بلدوين فى اوائل سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م إلى مصر ليفرض على الوزير الفاطمى إعادة دفع الجزية مرة أخرى [٥] ، وقد تصدى الجيش المصرى بقيادة ضرغام للجيش الصليبى ،

---

(١) على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية ص ٧١ .

(٢) سعيد عاشور ، م . س ، ص ١١ .

(٣) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣١ .

(٤) هو الملك المنصور أبو الأشبال ضرغام بن سوار اللخمى (٥٥٨ هـ / ٥٥٩هـ) وزير الخليفة العاضد الفاطمى عنه انظر : ابن خلكان وفيات الأعيان ، ٢/ ٤٤٢ .

(٥) حسن إبراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب ، القاهرة ط . الرابعة ١٩٨١ م ص ١٩٠ ، ويذكر سعيد عاشور أن هذا الأمر تم فى سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م ، سعيد عاشور ، مصر والشام ص ١٢ .

غير أنه عجز عن ايقاف زحفهم ، وازاء ذلك تراجع الوزير بجيشه وأمر بفتح سدود النيل الذى كان فى وقت فيضانه ، فأغرق البلاد مما عرقل إمكانية التقدم الصليبى ودفع الملك بلدوين إلى الانسحاب نحو فلسطين [١] ، وقد قام الوزير الفاطمى بعد هذه التجربة المريرة بمهادنة الصليبيين بل ووافق على استئناف دفع الجزية السنوية وعلى زيادة مقدارها ، [٢] مما يسر له تحقيق أغراضه فى عقد تحالف عسكرى أمنى مع الملك الصليبى ، بسبب ما عمله من أن منافسة الوزير السابق شاور [٣] ، والذى هرب منه إلى الشام ، قد أخذ يستحث نور الدين فى الدخول إلى مصر وأن الأخير قد وافقه على ذلك [٤] . أما العامل الثانى الذى دفع الصليبيين نحو التوجه مرة أخرى إلى مصر بعد استقرار الأمر فيها لصالح حليفهم ، فهو توجه نور الدين زنكى نحو مصر وخطورة ذلك على مصالحهم وأمنهم [٥] .

ولقد بدأت عوامل الجذب تؤثر فى موقف نور الدين زنكى تجاه مصر منذ أوائل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) من خلال الاتصالات التى كان يجريها الوزير الفاطمى على بن السلار [٦] معه ، والتى بدأت منذ أن كان الأخير واليا على الإسكندرية [٧] ، ثم تطورت بعد أن ولى الوزارة فى عام (٥٤٤هـ/ ١١٥٠م ، اذ سعى خلال تلك الفترة ــ وقد ادرك اطماع الصليبيين فى مصر ــ إلى إقامة نوع من

---

(١) حسن إبراهيم ن . م . س .

(٢) ن . م . س .

(٣) أبو شجاع شاور بن جبر بن فؤاد السعدى ، وزير للخليفة العاضد وقد كان عامله على الصعيد الأعلى ت ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م. ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٢/ ٤٣٩ ــ ٤٤٨ .

(٤) حسن إبراهيم حسن ، م. س. ص ١٩٠ .

(٥) سعيد عاشور ، مصر والشام ، ص ١٢ .

(٦) هو أبو الحسن على بن السلار ، المنعوت بالملك العادل (٥٤٤ ــ ٥٤٨ هـ / ١١٤٩ ــ ١١٥٣ م) وزر للخليفة الظاهر العبيدى (٥٤٤ ــ ٥٤٩ هـ/ ١١٤٩ ــ ١١٥٤ م) عنه انظر : ابن خلكان وفيات الأعيان ٤١٦/٢ ــ ٤١٩ .

(٧) حسن إبراهيم حسن ، م . س ، ص ١٨٤ .

التحالف فيما بينه وبين نور الدين من أجل توجيه ضربات عسكرية إلى الصليبيين ، لمنعهم من غزو مصر ، فأوفد أسامة بن منقذ [١] إلى الملك العادل نور الدين ، طالباً منه القيام بمهاجمة طبرية [٢] من جهته ، ليقوم الوزير بالمسير فى نفس الوقت إلى غزه[٣] وعسقلان [٤] . الا أن نور الدين تمنع عن القيام بمثل ذلك العمل [٥] ، حيث ان أقدامه فى الشام لم تتوطد بعد بالشكل الكافى فى تلك الفترة ، ولم يتمكن من ضم دمشق إلى حوزته الا فى عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م. [٦] . وإن كان قد عملت تلك الاتصالات على أن يكون أكثر ادراكا لما وصلت إليه أحوال الدولة الفاطمية من ضعف، والانتباه إلى مدى ما بلغته الاطماع الصليبية تجاه هذه البلاد [٧] .

وبتزايد الانقسامات الداخلية فى الدولة الفاطمية ، مع ازدياد الضعف فيها [٨] ، بدأت بعض الزعامات فى الساحة المصرية بالالحاح فى طلب المساعدة من نور الدين

---

(١) أسامة بن منقذ بن على بن مقلد الكنانى ت ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م ، من أكابر بنى منقذ أصحاب حصن شيزر ، وكان عالما شاعرا ذا حظوة عند الأمراء والملوك ، عنه انظر : ابن خلكان ، م . س ١/ ١٩٥ ـ ١٩٩ .

(٢) بليدة على البحيرة المعروفة بطبرية وهى فى طرف جبل ، وجبل الطور مطل عليها ، فتحها شرحبيل ابن حسنة رضى الله عنه سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م عنها انظر : ابن خرداذبة ، المسالك ص ٧٨ ، قدامة، الخراج ، ص ٤٦٢ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٤/ ١٧ ، طلال رفاعى ، البريد ، ٢/ ٦٢٩.

(٣) تقع هذه المدينة فى أقصى الشام ناحية مصر وعلى جادتها وفى طرف البادية قرب البحر ، عنها انظر: ابن خرداذبة ، م . س ، ص ٨٠ ، المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٧٧ ياقوت ، م . س ٢/ ٢٠٢ .

(٤) تقع هذه المدينة بالشام فى أعمال فلسطين على ساحل البحر بالقرب من غزة ، وبيت جبرين ، وكان يقال لها عروس الشام ، عنها انظر ، ياقوت ، م . س ، ٢/ ١٢٢ .

(٥) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٧ .

(٦) حسن إبراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٨٣ ، وعن ضم نور الدين لدمشق انظر : ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٦ ـ ١٠٨ .

(٧) حسن إبراهيم حسن ، م . س ، ص ١٨٢ .

(٨) محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية ص ١٢٧ .

الذى يظهر فى أوضاعه العامة فى بلاد الشام قد استقرت مما دفعه إلى الاستجابة لتلك النداءات ، ويدلنا على ذلك أن الخليفة المقتفى بأمر الله [(١)] العباسى قد فوضه فى السنة التى ضم فيها دمشق ٥٤٩هـ/١١٥٤م ، حكم الساحل ومصر معا [(٢)] .

ولقد كانت أولى المحاولات التى قام بها نور الدين للتدخل فى شؤون مصر ، عندما قدم إليه الوزير الفاطمى شاور ، فهذا الوزير الذى تمكن من الوصول إلى سدة الوزارة بالقوة فى عام ٥٥٨هـ/١١٦٣م لم يلبث أن خلع عنها فى نفس السنة من قبل ضرغام الذى كان أحد القادة العسكريين فى القاهرة ، [(٣)] ، وقد هرب شاور بعد ذلك إلى الشام ، مستنجدا بنور الدين زنكى ، الذى استجاب لدعوته [(٤)] ، ولعله رغب فى أن يكون أكثر الماما بالاوضاع فى مصر ، وقد وجه نور الدين زنكى حملة إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه يصاحبه الوزير السابق شاور فى اوائل عام ٥٥٩هـ/ ١٠٦٤م[(٥)] حيث اصطدمت بالقوات المصرية عند يلبيس [(٦)] ، وألحقت بها الهزيمة . غير أنها سرعان ما تجمعت مرة أخرى تحت أسوار القاهرة [(٧)] لتدور فيما بينها وبين القوات الزنكية معارك استمرت عدة أيام وقد تمكن شاور خلال ذلك من

---

(١) هو ابو عبد الله محمد بن المستظهر بالله أحمد ٥٥٣ ـ ٥٥٥ هـ / ١١٥٨ ـ ١١٦٠ م ، كان قوى البأس أعاد للخلافة العباسية شيئا من هيبتها عنه انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ١٣١ ـ ١٣٣ . ابن أيبك ، كنز الدرر ، ٧/ ١١٠ ابن دقماق ، الجوهر الثمين ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .

(٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفاء ، ٣/ ٢٢٣ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٢ / ٤٤٤ ، جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية ص ١٢٧ ، على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٩٩ .

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٣٦ ، ابن خلكان ، ن. م . س ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ١٣٨ ، على بيومى ، ن . م . س ، اسمت غنيم ، الدولة الأيوبية ص ١٦ .

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢/ ٢٤٨ .

(٦) مدينة تقع شمالى القاهرة على مسافة عشر فراسخ ، ومنها يكون الطريق إلى بلاد الشام ، فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ أو ١٩ هـ. عنها انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ١/ ٤٧٩ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٩ / ٨٥ .

الاستيلاء على الفسطاط [١] ولينتهي الأمر بقتل الوزير المتغلب ضرغام بعد أن تفرقت عنه الانصار [٢] ، ويظهر انه كان سيء السيرة كما يذكر عمارة اليمني [٣] وبذلك تمكن شاور من العودة إلى منصب الوزارة مرة أخرى ، في حين أن أسد الدين شيركوه قد عسكر بالقوات الزنكية خارج القاهرة في انتظار أن يفي شاور بوعوده إلى نور الدين بعد ان ساعده في استعادة الوزارة ، وكان قد وعد بتقديم جزية سنوية مع التكفل بجميع نفقات الحملة [٤] ، بيد أنه لم يلتزم بما وعد ولم يرسل سوى مبلغ بسيط[٥] ، وقد أدى ذلك إلى تأزم الأمور بين الوزير وأسد الدين ، وسرعان ما تطورت إلى ما ينذر بالخطر ، فقد صمم أسد الدين على استيفاء الجزية حتى لو اضطر إلى استعمال القوة ، وخطط لتحقيق ذلك بأن يتراجع عن أسوار القاهرة وأن يستقر في بلبيس ليستجمع قواته وليتهيأ لما يستجد من الظروف [٦] . وفي سبيل توفير الأموال اللازمة له ومن أجل الضغط على شاور فإنه وضع يده على أقليم الشرقية من بلاد مصر[٧] ، وبعد أن اطمأن إلى سلامة وضعه ، باغت القاهرة بسلسلة من الهجمات المتتالية في محاولة منه للضغط على الوزير شاور ودفعه للألتزام بتعداته [٨] . غير أن شاور على ما يظهر صمم على الاستعداد لتحمل حصار طويل [٩] ، كما أنه أخذ في الوقت نفسه يراسل الفرنجة ويقدم لهم الوعود ، ويخوفهم من نتائج استيلاء الزنكيين

---

(١) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٩٠ .

(٢) ابن الأثير ، ن . م . س ، أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٣ ابن كثير ، ن . م . س.

(٣) عمارة اليمني ، أبو محمد محمد نجم الدين عمارة الحكمي ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م. النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية ، تحقيق هرتويغ در كبرغ ، شالون ١٨٩٧ م ص ٧٤.

(٤) ابن الأثير والكامل ، ٨٥/٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٤٧/١١٢ ـ ٢٤٩ ، على بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ص ١٠٥ .

(٥) على بيومي ، م . س . ص ١٠٩ .

(٦) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٢٣٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ١/ ١٣٩ .

(٧) ن . م . س .

(٨) على بيومي ، م . س ، ص ١١٠ .

(٩) ن . م . س .

على مصر وأخطار ذلك عليهم [١] ، وقد استجاب ملك بيت المقدس عمورى ، بإعداد حملة عسكرية أرسلها إلى مصر على عجل [٢] ، حيث تحالفت هذه القوات مع القوات المصرية بقيادة شاور ضد قوات الزنكيين ، وحاصرتهم فى بلبيس لمدة ثلاثة أشهر ، ودارت بين الطرفين معارك عديدة انتهت بالاتفاق على عودة الجيش الزنكى والصليبيين إلى بلادهم [٤] . وهذا ماكان يرجوه شاور خاصة وأن نور الدين انتهز فرصة رحيل عمورى بجيشه عن فلسطين ، فأخذ فى مهاجمة الصليبيين فى بلادهم واسترد عدة مواقع منهم [٥] . مما اضطر عمورى إلى الموافقة على الانسحاب من البلاد مقابل انسحاب القوات الزنكية [٦] .

وقد ترتب على هذه الحملة أن أصبحت القوات الزنكية أكثر الماما بأحوال مصر وأكثر شغفا فى الاستيلاء عليها ، لما تعنيه من أهمية اقتصادية وعسكرية ، ووضح هذا الاهتمام بشكل جلى عند أسد الدين شيركوه قائد هذه القوات ، الذى أصبح راغبا فى امتلاك مصر [٧] ، وهكذا بدأت الاستعدادت الزنكية لضمها ، والتى ما ان علم شاور بها حتى بادر بإعادة الاتصال بالصليبيين ليضمن مساعدتهم له[٨] . ولقد توجهت الحملة الزنكية الثانية صوب مصر ، فى أوائل عام ٥٦٢هـ/١١٦٧ ، ودخلت مصر هى والقوات الصليبية التى أرسلت إلى شاور فى

---

(١) ابن الأثير ، م . س ، ٨٥/٩ ، أبو شامة ، م . س ، جـ ١ ، ق ٢ ص ٢٣٥ ابن واصل ، م . س ، ١/ ١٣٩ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢ / ٢٤٨ .

(٣) أبو شامة ، ن . م . س ، ويذكر ابن كثير بأن الحصار دام ثمانية أشهر ، ابن كثير ، ن . م . س .

(٤) على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية ص ١١ .

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ١٤٠ ، الحنبلى ، أحمد بن إبراهيم ت ٨٧٦ هـ / شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، تحقيق ناظم رشيد ، بغداد ١٩٨٧ م ، ص ٢٧ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ٩ / ٨٥ ، على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية ص ١١١ .

(٧) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٧ ، أبو شامة ، الروضتين جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٣ ، حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٩١ .

(٨) حسن إبراهيم حسن ، ن . م . س .

وقت واحد تقريبا [١] ، لتدور بين الطرفين معارك عنيفة كان من أبرزها معركة البابين[٢] فى الصعيد ، حيث تمكنت القوات الزنكية من ايقاع هزيمة نكراء بالقوات الصليبية والمصرية ، رغم تفوق الأخيرة عليها فى العدد والعدة [٣] . بيد أن هذا الانتصار لم يكن كافيا بالقدر الذى يمكن القوات الزنكية من التوجه نحو القاهرة ، ذلك أنها لم تكن تملك القوات الكافية لتحقيق هذا الغرض [٤] ، وعوضا عن ذلك فإن أسد الدين شيركوه بادر بالتوجه على رأس جيشه نحو الإسكندرية [٥] عبر الطريق الصحراوى ، وقد تمكن من السيطرة عليها دون مقاومة تذكر ، ولما اطمأن إلى استقرار أوضاعه فيها سلم مسؤولية حكم المدينة والدفاع عنها إلى ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى ، تاركا معه بعض قواته ، فى حين أنه عاد إلى الصعيد لجباية الخراج[٦] .

ولم تكن مهمة صلاح الدين فى الإسكندرية سهلة اذ أنه ما أن ابتعدت قوات عمه أسد الدين فى وجهتها نحو الصعيد ، حتى بادرت القوات المصرية الصليبية المشتركة إلى التوجه صوب الإسكندرية بهدف القضاء على صلاح الدين ومن معه من القوات الزنكية برا وبحرا فقد تولت القوات المصرية الصليبية حصارها من البر [٧] فى حين قام الاسطول الصليبى بمحاصرتها من جهة البحر [٨] . وواجه صلاح الدين الأيوبى ومن معه من الحصار مشقة بالغة ، وما إن علم أسد الدين شيركوه بأخبار الحصار حتى بادر بالاسراع لنجدة ابن أخيه وتخفيف الحصار عنه [٩] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٩ / ٩٥ ، على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية ص ١١٦ .

(٢) البابين قرية تقع جنوب المينا . ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ١٥٠ هامش (١).

(٣) ابن واصل ، م . س . ١/ ١٥٠ ـ ١٥١ .

(٤) حسن إبراهيم حسن ، م . س ، ص ١٩٢ .

(٥) مدينة مشهورة على البحر وهى ثغر من ثغور الإسلام وميناء تجارى هام ، اهتم الخلفاء والأمراء بتحصينها . عنها انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ١/ ١٨٢ ـ ١٨٨ ، المقريزى ، الخطط ، ١/ ١٤٤ ـ ١٧٢ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ٩/ ٩٥ ، أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ ، حسن إبراهيم حسن ، ن . م . ص .

(٧) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ١٥١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

(٨) على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٩) أبو شامة : م . س ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٦ .

وقد وجد أسد الدين شيركوه أن قواته قد وهنت ومزقها القتال وأنه لا بد من العودة إلى الشام للراحة والاستعداد [١] ، فوافق على اقتراح الوزير الفاطمى بالصلح ومقابل أن يعود إلى الشام فإن شاور سيدفع له خمسين ألف دينار [٢] . أما الصليبيون فلقد استقر الأمر بينهم وبين المصريين على عقد اتفاق محالفة وحماية يتم بمقتضاه أن تدفع الدولة الفاطمية لملك بيت المقدس الصليبى جزية سنوية مقدارها (١٠٠) مائة ألف دينار ، [٣] مع الابقاء على حامية عسكرية تمنع عودة القوات الزنكية إلى مصر مرة أخرى [٤] . ويتضح من هذا الاتفاق ، أن مصر اضحت تحت حماية الصليبيين وهى أقرب إلى قبضتهم من ذى قبل . اذ أن وجود حامية لهم فى هذه البلاد يعنى أن الصليبيين أصبح لهم تأثير مباشر على شئون مصر . خاصة وأن هذه الحامية قد اخذت فى جمع المعلومات عنها ، فكتبوا أسماء القرى جميعها وعرفوا مقدار غلتها [٥] و (.. اطلعوا على العورات ، وكشفوا المستورات ..)[٦] الأمر الذى زاد من مطامع الصليبيين واصرارهم على احتلال مصر ، وقام امراءهم بممارسة الضغوط على ملك بيت المقدس عمورى ، من اجل القيام بعمل عسكرى لغرض احتلال مصر [٧] .

خاصة وأنه كان بين المصريين من يستحثهم على هذا العمل عداوة للوزير شاور [٨] . غير أن عمورى تحفظ على ذلك الرأى وخالفه ، وكان يرى بأنه من الأفضل الاكتفاء بابقاء الوضع على ما هو عليه فى تلك الفترة على الأقل ، اذ كان

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٨ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ٩/٩٦ ، على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ١٢٣ .

(٣) ابن الأثير ، ن . م . س ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/ ٢٥٣ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ١٥٢ . على بيومى ، م. س ، ص ١٢٤ .

(٥) ابو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٠ . الحنبلى ، ترويح القلوب ، ص ٣٢ .

(٦) أبو شامة ، ن . م . س .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٩/ ٩٩.

(٨) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٨٩ ، الحنبلى ، ترويح القلوب ، ص ٣٢.

يخشى من أنه فى حالة قيام الصليبيين بمهاجمة مصر أن يؤدى ذلك إلى تدخل نور الدين زنكى ووقوع البلاد فى يده ، الأمر الذى قد يترتب عنه نتائج خطيرة بالنسبة للوجود الصليبى فى بلاد الشام [١] ، لأن إتحاد الجبهة المصرية والشامية سينتج عنه زوال الوجود الصليبى . بيد أن هذا الرأى لم يجد اذنا صاغية لدى الأمراء الصليبيين الذين أصروا على رأيهم فما كان من الملك إلا أن اذعن لهم[٢] وبدأ فى التخطيط والاعداد للحملة ، [٣] واتصل بصهره الأمبراطور البيزنطى مانويل كومنين ، بهدف عقد حلف فيما بينهما لغرض الأستيلاء على مصر، وتحديد ما يمكن أن تقدمه بيزنطة من مساعدات فى هذا المجال .

ويبدو أن الأمبراطور قد وافق على الموضوع [٤] غير أن هذه المساعدات الموعدة لم تصل [٥] ، فما كان من عمورى الا أن جمع فى أوائل عام ٥٦٤ هـ (جمعا عظيما من أجناس الفرنج واقطعهم مصر وسار يريد أخذ مصر ..)[٦] دون أن يظهر ذلك حتى تأخذ حملته وقع المفاجأة على المصريين ، ولعله أراد أن يأمن من ردود الفعل الزنكية أيضا .

الا أن الوزير شاور أدرك خطورة الوضع ، وأخذ فى اعداد العدة وترتيب الأمور لتحمل ويلات الهجوم وما قد يترتب عليه من حصار [٧] ، وفعلا استطاعت القاهرة أن تقاوم الصليبيين بفضل تحصينها الجيد ، وبسبب ارتفاع الروح المعنوية لدى المدافعين الذين خشوا أن يفعل الصليبيون بهم كما فعلوا بأهل بلبيس ، قبل مقدمهم

---

(١) ابن الأثير ، ن . م . س .

(٢) ن . م . س

(٣) ن . م . س ، أبو شامة ، م . س ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٨٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢ / ٢٥٥ .

(٤) على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ١٢٩ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ١/ ٣٣٨ .

(٦) ابن الأثير ، ن . م . س ، أبو شامة ، م . س جـ ١ ، ق ٢ ص ٣٩٠ .

(٧) على بيومى ، م . س ، ص ١٣١ .

إلى القاهرة ، حيث ارتكبوا فيها مجزرة بشعة ، وتذكر المصادر أنه لولا ذلك لتمكن الصليبيون من حكم مصر (١) ، وقد قام الصليبيون كذلك باستخدام أسطولهم بهدف الاستيلاء على الساحل ودعم هجومهم البرى (٢) .

بيد أن هذا الغزو الصليبى قد حقق النتائج العكسية التى تخوف منها عمورى ، حيث ترتب عن المحاولة الصليبية نتائج أثرت على أوضاع المنطقة بأسرها ، فكان من نتائجها المباشرة أنها أدت إلى بسط النفوذ الزنكى على مصر ، ومن ثم فإنها أدت بشكل غير مباشر إلى قيام الدولة الأيوبية . ذلك أن الخليفة الفاطمي العاضد(٣) بعث إلى نور الدين زنكى برسالة مؤثرة بطيها خصلات من شعور نساء القصر وهو يستغيث فيها طالبا منه المبادرة إلى انقاذ مصر من براثن الصليبيين (٤) ، وان لم يكن نور الدين بحاجة إلى وصول هذه الرسالة لكى يبادر إلى التدخل (٥) ، إذ أنه لم يكن يوافق من حيث المبدأ على فكرة خضوع مصر للحكم الصليبى ، فبادر بإرسال حملة قوية لمساعدة المصريين ، وحماية مصر من خطر الاحتلال ويذكر ابن دقماق بأن تعداد أفرادها بلغ عشرة آلاف فارس وخمسين ألف راجل (٦) . وقد انتهى الأمر بانسحاب الملك عمورى وجنده إلى فلسطين المحتلة ، بعد أن وجدوا أنفسهم غير قادرين على مواجهة القوات الإسلامية (٧) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٩ / ٩٩ أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ص ٣٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ١٥٧ /١ ١٥٧ ، الحنبلى ، ترويح القلوب ، ص ، ص ٣٣ ، حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٩٤ .

(٢) على بيومى ، م . س ، ص ١٣٦ .

(٣) سبق ذكر ترجمته .

(٤) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩١ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢ / ٢٥٥ . ويذكر ابن واصل ان الذى أرسل هذه الرسالة الوزير شاور ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ١٥٨ . ، والراجح أن كل من الخليفة والوزير قد بادرا بإرسال الرسائل إلى نور الدين ، انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ٥ / ٣٥٠ .

(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٨ ، ولاحظ ما يذكره أبو المحاسن من أن نور الدين أرسل قواته إلى مصر قبل أن تصله رسائل الاستغاثة منها ، ابن تغرى بردى ، ن . م . س .

(٦) ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ص ٢١٨ .

(٧) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٩٥ ـ ١٩٦ . سعيد عاشور ، مصر والشام ، ص١٨ .

وبمقتل شاور على يد بعض قادة الجيش الزنكي ، بتدبير اشترك فيه القائد صلاح الدين الأيوبي [١] ، وتولى أسد الدين شيركوه الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد[٢] ، وبذلك انتهت المرحلة الأولى من مراحل الموقف الصليبي تجاه القاهرة .

أما المرحلة الثانية من الموقف الصليبي تجاه القاهرة ، فإنها تبدأ بنهاية المرحلة الأولى، وتتميز بأنها أشد خطورة من الأولى ، نظرا لما ترتب عنها من تطور في موقف الصليبيين تجاه مصر ، تحت وطأة تغيير الأوضاع فيها . فبعدما كانت مصر لعبة في يد الصليبيين ، يفرضون عليها الجزية ويشنون عليها الحملات بهدف الاستيلاء عليها وهم أكثر اطمئنانا بقدرتهم في تحقيق هذا الغرض ، فإن بسط النفوذ الزنكي على هذه البلاد ، قد أربك الصليبيين في الشام ، وخافوا وأيقنوا بأن في ذلك هلاكهم [٣]، مما دفعهم إلى طلب العون من أوربا فبعثوا (.. جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة ..) [٤] لنجدة اخوانهم الصليبيين في المشرق مستغلين المشاعر الدينية لتهييج مشاعر الناس بالتباكي على مصير بيت المقدس ، الذي أصبح قاب قوسين من أن يؤول إلى أيدي أصحابه المسلمين [٥] . وهذا التحول يعني أن الموقف الصليبي تحول من طمع ورغبة في الاستيلاء على مصر ، إلى خوف من التطورات التي حدثت فيها لما يترتب عنها من نتائج تهدد مستقبل وجودهم . ولقد ترتب على التحرك الصليبي في أوربا أن وصلت المساعدات الضخمة (..بالمال والرجال والسلاح ..) [٦] ؛ خلافا لما ذكره الدكتور سعيد عاشور من أن عموري ملك بيت المقدس قد فشل في الحصول على المساعدات [٧] ، الا أنه يبدو أنها لم تكن كافية .

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٧/ ١٥٠ ، ابن تغري بردي ، م . س ، ٥ / ٣٥١ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤٠٠ ، ابن خلكان ، م . س ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢ / ٣٥٦ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٩ / ١٠٥ ، ابن خلكان ، م . س ، ٧ / ١٥٢ .

(٤) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٦ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ٩ / ١٠٥ .

(٦) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٦ .

(٧) سعيد عاشور ، مصر والشام ص ٢١ .

لذا فقد اتجه عمورى صوب البيزنطيين ليتحالف معهم لغزو مصر ، ويظهر أنه نجح فى هدفه هذا حيث أعد الامبراطور البيزنطى مانويل أسطولا ضخما توجه إلى عكا للاتفاق مع الصليبيين على الخطة التى ينبغى تنفيذها ، وتم بعد ذلك عقد التحالف واتفق الطرفان على بدء هجومهم علـى مصر فى أوائل عام ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م[١] . وكانـت خطة الهجـوم ترتكز على محورين أساسيين ، يعتمد أولها على مهاجمة دمياط [٢] برا وبحرا من قبل قوات الفرنجة ، لكى يجعلوها نقطة ارتكاز ينطلقون منها للاستيلاء على بقية البلاد [٣]. وهو ما أشار إليه ابن الأثير ، حيث ذكر أن الغرض من مهاجمة هذه المدينة ، أن تكون (.. ظهر يملكون به الديار المصرية ..) [٤]. وأما المحور الثانى من الخطة ، فقد قام على أساس أن صلاح الدين سيضطر إلى توجيه جهوده العسكرية للدفاع عن دمياط ، مما سيتيح الفرصة لاتباع الفاطميين للقيام بانقلاب عليه ومهاجمة جيوشه من الخلف [٥] .

غير أنه أدرك أبعاد هذه المؤامرة حسبما يذكر المقريزى عند حديثه عن غزو الفرنجة لدمياط ، حيـث يقول أنه (.. اتهم فى هذه النوبة عده من أعيان المصريين بممالأة الفرنج ومكاتبتهـم وقبـض علهم الملك الناصر وقتلهم ..)[٦] بالإضافة إلى أن المصادر تورد بأنه عندما كتب إلى نور الدين يطلبه المدد لصد الهجوم الصليبى على دمياط ، فإنه تخوف من احتمال قيام أتباع الفاطميين بالغدر ومهاجمته من الخلف ،

---

(١) ن . م . س .

(٢) مدينة قديمة ، تقع على الفرع الشرقى من دلتا النيل بالإضافة إلى البحر ، وهى من ثغور الإسلام ، حظيت بالاهتمام والتحصين ، وتشتهر بصناعة الحرير ، عنها انظر : ياقوت ، معجم البلدان ٢ / ٤٧٢ ـ ٤٧٥ .

(٣) نظير حسـان سعـداوى ، التاريـخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ص ١٧ ـ ١٨ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٩ / ١٠٥ .

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب . ١/ ١٨١ .

(٦) المقريزى ، الخطط ١/ ٢٥١ ، ويذكر حسان سعداوى أن مؤامـرة ثورة العبيـد كانـت مرتبطة بالهجـوم على دمياط ، انظر حسان نظير سعداوى ، م . س ، ص ١٧ .

فيما لو توجه بنفسه وكامل قوته للدفاع عن هذه المدينة [١] . ولقد كان مصير هذه الحملة الفشل [٢] ، كما أن اضرارها على الصليبيين فى الشام كانت كبيرة جدا ، إذ استغل نور الدين توجههم نحو مصر، فهاجمهم من الشرق وأمعن تقتيلا وتخريبا فى المناطق التى يحتلونها مضيفا إلى خسارتهم فى دمياط خسائر أخرى [٣] . وهذه هى المرحلة الثانية من الموقف الصليبى ازاء القاهرة .

أما المرحلة الثالثة والأخيرة فإنها تبدأ بعد نهاية المرحلة الثانية ، وفيها أصبحت الهجمات ضد مصر تأتى من أوربا مباشرة ، مما يعكس مدى أهميتها فى خطط الأوربيين ، خاصة بعدما تمكن صلاح الدين الأيوبى من القضاء على الخلافة الفاطمية فى عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ، وبعد أن داوم على مناوشة الصليبيين من الجبهة الجنوبية الغربية فشن عليهم عددا من الحملات المتعاقبة [٤] .

وأدرك الأوربيون مدى خطورة وضع الدولة الأيوبية فى ذلك الوقت على بنى جلدتهم فى الشام . فعمدوا إلى مهاجمتها من أوربا مباشرة ، ففى أوائل عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م قام اسطول صقلى ضخم بمهاجمة ميناء الإسكندرية[٥] فى موعد تواطؤا فيه مع بعض اتباع الفاطميين الذين قاموا فى أواخر عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣ م بثورة فى الصعيد تمكن صلاح الدين من القضاء عليها [٦] . وآل مصير الحملة

---

(١) ابن الأثير ، ن . م . س .

(٢) ابن سعيد ، النجوم الزاهرة ، ص ١٤١ ، سعيد عاشور ، مصر والشام ص ٢٢ ـ ٢٣ . الباز العرينى ، مصر فى عصر الأيوبيين ، ص ٣٦٠ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٩/ ١٠٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١٢/ ١٨١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢ / ٢٦٠ .

(٤) هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبى ، ص ١٢٠ .

(٥) ابن الأثير ، م . س ، ١٢٩/٩ ويذكر ابن واصل ان الهجوم تم فى أواخر العام السابق ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م ، ابن واصل : م . س ، ٢/ ٩ ، ويبدو أن الهجوم بدأ فى أواخر ٥٦٩ هـ واستمر حتى أوائل عام ٥٧٠ هـ .

(٦) انظر ما يلى .

البحرية الصقلية على الإسكندرية إلى الفشل الذريع ، فغنم المسلمون من أعدائهم مغانم كثيرة [١]. واستمرت هذه المرحلة إلى ما بعد عهد صلاح الدين الأيوبى ، اذ شهدت مصر حينئذ اتجاه الحملات الصليبية نحو مصر مباشرة من أوربا ، ويعكس هذا الأمر مدى تطور النظرة الصليبية نحو مصر ، كما أنه يعكس أهمية مصر ، والتى أضحت بفضل الأيوبيين مركز المقاومة الأول ضد الوجود الصليبى فى العالم الإسلامى [٢].

كما نجم عن هذا الموقف آثار عمرانية متعددة الجوانب ، اذ أن الأحداث التى مرت بها هذه المدينة كان لها دور كبير فى التأثير على الوضع العمرانى للقاهرة الكبرى ، حيث تأثرت خريطتها ببعض الأحداث التى ارتبطت بهذا الموقف ، كما حدث للفسطاط التى احرقت فى عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨ م على يد الوزير شاور ، بسبب أنه لم يكن قادرا على الدفاع عنها، حينما حاول الصليبيون الاستيلاء عليها [٣] ، وترتب على هذا الحريق إحدى الظواهر الجغرافية فى المدينة وهم ظاهرة « الأكوام » ، والتى سبق الحديث عنها . كذلك فان وجود الخطر الصليبى فى الشام كان من الدوافع الرئيسية التى جعلت صلاح الدين ينفذ مشروعه التحصينى الكبير لمدينة القاهرة [٤] .

ولا شك بأن هذا الخطر الصليبى كان من العوامل الرئيسية التى دفعت بصلاح الدين نحو تشجيع الهجرة إلى مصر [٥] ، اذ أن زيادة الكثافة السكانية فى هذه البلاد سيساعد إلى حد بعيد على زيادة قدرتها نحو مقاومة الهجمات الصليبية . بطبيعة الحال

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٤٩ . سعيد عاشور ، مصر والشام ص ٣٢ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٩٢٠ ـ ٩٢٣ .

(٣) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٤) أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ٢ / ٧ ـ ٨ ، ٢٢ ، بول كزانوفا ، تاريخ ووصف قلعة القاهرة ص ٣٢ .

(٥) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

فإن مثل هذه الهجرات ستنعكس على المدينة بشكل أو بآخر في ازدياد سكانها ، وبالتالى زيادة فى نشاطهم العمرانى الذى يمكن ملاحظته فى المساحات الخالية من البناء ، التى جرى تعميرها فى القاهرة الكبرى فى تلك الفترة .

جـ - الفتن والحوادث الداخلية :

ومن العوامل التى أثرت على الأوضاع العمرانية للمدينة خلال تلك الفترة ، الفتن والحوادث الداخلية . فقد واجهه صلاح الدين وضعا أمنيا سيئا فى مصر . وكانت البلاد تعانى فى أواخر العصر الفاطمى من انتشار الفوضى والاضطراب [١] حيث شهد أواخر هذا العصر قتالا عنيفا بين الولاة والقادة ، من أجل الوصول إلى سدة الوزارة [٢] ، ونشأ عن هذا الوضع أن البلاد عاشت فى حالة من الفوضى والاضطراب الداخلى الذى أدى إلى التعجيل بنهاية الحكم الفاطمى [٣] كما أدى أيضا إلى جذب الزنكيين والصليبيين للتدخل بشكل مباشر فى شؤون مصر ، حيث لجأ بعض الوزراء إلى الاستعانة بالقوى الخارجية للمحافظة على مناصبهم [٤] ، بل أن طوائف الجند الفاطمى كانوا فى تلك الفترة عناصر تخريب وفوضى ، فطائفة الجند السودان كان خطرهم (.. عظيما لامتداد أيديهم إلى أموال الناس وأهليهم ..) [٥] . وكانت الفتن المسببة فى مقتل وزير واعتلاء آخر ، ذريعة لنهب الدور والأسواق والدكاكين [٦] . وهذه ظاهرة تحولت فى أواخر العصر الفاطمى إلى (.. عادة مستقرة

---

(١) أحمد الصاوى ، المجاعات فى العصر الفاطمى ، ص ١٨٥ .

(٢) على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٥٣٠ .

(٣) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٨٠ .

(٤) جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية ص ١٢٧ ، على بيومى ، م . س . ص ٩٤ ، أسمت غنيم ، الدولة الأيوبية ، ص ١٥ .

(٥) المقريزى : الخطط ، ٢/ ١٩ .

(٦) المقريزى ، اتعاظ الحنفاء ، ٣ / ١٤٣ .

وشيئا معهودا ..) [١] بل ان هذه الاضطرابات أثرت على الأوضاع السكانية فى المدينة ، التى من المؤكد أنها أصيبت بنقص سكانى ذريع ، حيث أودت هذه الحوادث بحياة الكثيرين من القادة والأمراء وذوى الرأى فى البلاد [٢] ، ولا شك والحالة كهذه أن يكون أثرها على السكان كبيرا .

وباعتلاء صلاح الدين الأيوبى كرسى الوزارة ، دخلت البلاد فى مرحلة جديدة من الفتن والحوادث الداخلية ، فعلى الرغم من تمكنه من فرض الأمن فى عموم البلاد ، الا أن أوضاع العصر الفاطمى ما كانت لتنتهى بسهولة ، خاصة وأن الفاطميين لا يمكن أن يقبلوا بالوجود الزنكى لديهم ، حيث أدركوا أن هذا الوجود يمثل تهديدا خطيرا لحكمهم . ويؤكد ذلك ما تذكره الروايات التاريخية عن حادثة احراق جامع عمرو بن العاص، والتى تمت أثناء حريق الفسطاط فى عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م ، فعلى الرغم من أن هذا الحريق كان يهدف إلى منع استيلاء الصليبيين على هذه المدينة ، فإن مؤتمن الخلافة جوهر [٣] برر حرق هذا الجامع بقوله أنه لا يريد أن (.. يخطب فيه لبنى العباس ..) [٤] لذلك فقد كان من الطبيعى أن يلجأ الفاطميون إلى مقاومة الوجود الزنكى فى مصر . فأقدموا على التآمر ضد صلاح الدين الأيوبى عن طريق الاتصال بالصليبيين والتخطيط معهم . وتكاد أن تجمع المصادر

---

(١) ن . م . س .

(٢) المقريزى ، م . س ، ٣/ ١٤٩، ١٥١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، وانظر إلى ما يذكره أبو شامة عن دور الوزير ضرغام فى اضعاف الدولة الفاطمية بقتله الأمراء . أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص٢١٧ .

(٣) لم أعثر على ترجمة له فى المصادر المعتمدة . بيد أنه من الواضح أنه هو الذى قتله صلاح الدين فى نفس العام لاشتراكه فى مؤامرة ضده بالتعاون مع الصليبيين . انظر ، المقريزى : الخطط ، ٢ / ٣٥٢، الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٢ .

(٤) المقريزى م . س ، ٢/ ٣٢٠ .

التاريخية على أن رأس هذه المؤامرة هو مؤتمن الخلافة جوهر (١) ، وان كـان من الواضح أن الخليفة الفاطمى العاضد هو الذى كان يقف وراءها ويوجهها كما يشير إلى ذلك ابن تغـرى بردى ، (٢) وعلى أية حال فإن صـلاح الدين قد تمكن من اكتشاف تلك الاتصالات الحاصلة فيما بين مؤتمن الخلافة والصليبيين(٣) ، فقام بقتل الأخير بعدما تمكن من الامساك به خارج القصر (٤) ، الأمر الذى أشعل شرارة الفتنة فى القـاهرة ، فاجتمع عدد كبير من أفراد الجيش الفـاطمى يقدر عددهم بخمسين الفا من الأمراء وطوائف الجند السودانى وغيرهم ، واتجهوا نحو دار الوزارة يريدون الفتك بصلاح الدين ، ثم التحمت قواتهم مع قوات الناصر فى معارك عنيفة دارت رحاها فى داخل القاهرة ، فى المنطقة الممتدة من ميدان بين القصرين حتى باب زويلة ، حيث حاصرت قوات صلاح الدين المتمردين عند هذا الباب ، بعدما تمكنت من سحق هجماتهم الأولى ، ولينتهى الأمر بأخراجهم إلى خارج المدينة (٥) . ولقد كان لهذا الانتصار أثره الكبير على تقلص النفوذ الفاطمى ممثلا فى الخليفة العاضد ، فى حين أن قوة صلاح الدين تزايدات عن ذى قبل ، فأضحى أكثر نفوذاً وتأثيراً . وبالرغم من ذلك التحول فى النفوذ والقوة فإن محاولات الفاطميين أو أتباعهم للقضاء على صلاح الدين الأيوبى لم تنقطع حتى بعد أن قضى صلاح الدين على خلافتهم فى عام ٥٦٧هـ/١١٧١م، اذ استمرت حركات التمرد والتآمر ضد الدولة الأيوبية

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٩ / ١٠٣ ، أبو شـامة ، الروضـتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٠ ـ الفتح البندارى ، سنا البرق ٤٢ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/ ٢٥٧ ، المقريزى ، م . س ، ٢/ ٢ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ٥ / ٣٥٤ ، وانظر أيضا ، حسان نظير سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٨ .

(٣) أبو شامة ، م . س ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١/ ١٧٥ ، الفتح البندارى ، ن . م . س .

(٤) ابن كثير ، م . س ، ١٢ / ٢٥٨ .

(٥) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ ، المقريزى ، الخطط ٢/ ٣ . الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٢ ، مؤلف مجهول تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٢ .

بعد هذا التاريخ لفترة طويلة ، فى محاولة لإعادة إحياء الدولة الفاطمية . ففى عام ٥٦٩هـ/١١٧١م اكتشف صلاح الدين مؤامرة فاطمية ، كان من أركانها جماعة من أعيان المصريين ومنهم الشاعر عمارة اليمنى[1] ، وقد قاموا هؤلاء بالاتصال ببعض اعداء صلاح الدين فى الخارج ، حيث أجروا اتصالات بالصليبيين فى الشام وصقلية، علاوة على الإسماعيلية الحشاشين ، وقد انتهت المشاورات فيما بينهم على اقامة جبهتين متحدتين ، تقومان بمهاجمة صلاح الدين فى وقت واحد[2] . الا أنه تمكن من اكتشاف بعض خيوط المؤامرة ، عن طريق أحد الأجناد الذين دسه فيما بينهم[3]. ويبدو أنه كان أحد أفراد جهاز الاستخبارات الذى كان يمتلكه صلاح الدين الأيوبى[4]. وكان من نتيجة ذلك أن أقدم الناصر على القضاء على أركان المؤمراة وصلبهم فى ميدان بين القصرين فى القاهرة[5]. وإن كان من المرجح أن ذيول تلك المؤامرة لم تكتشف تماما ، اذ من المؤكد أن ثورة الكنز التى حدثت فى صعيد مصر فى أوائل عام ٥٧٠ هـ/١١٧٤م وكانت تهدف إلى إعادة الدولة

---

(١) هو نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن ديوان الحكمى اليمنى ، شاعر مشهور . ولد باليمن وتعلم بها ، ثم انتقل إلى مكة حاجا ، حيث اتصل بأميرها قاسم بن فليته ، الذى سيره إلى مصر رسولا إلى الخليفة الفائز الفاطمى ٥٤٩ هـ/ ٥٥٥ هـ ـ ١١٥٤/ ١١٦٠ م فمدح الفاطميين ، فقربوه إليهم وبقى عندهم إلى أواخر عهدهم . عنه انظر : عمارة اليمنى ، النكت العصرية ص : ٧ ـ ٤١ ، ابن خلكان وفيات الأعيان ، ٣ / ٤٣١ ـ ٤٣٦ ، شوقى ضيف ، تاريخ الأدب العربى ، القاهرة ص ١٥٤ ـ ١٥٧ .

(٢) سعيد عاشور ، مصر والشام ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣ / ٤٣٥ . ويذكر أبو شامة أن الذى نم عن هؤلاء الثائرين هو الفقيه نجم الدين ابن نجية الواعظ ، انظر : أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، تحقيق ، محمد زاهد ، بيروت ط . الثانية ١٩٧٤ م ص ٣٥ .

(٤) ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى بيروت ٢/ ٦٧١ .

(٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٣/ ٥٢٨ .

الفاطمية ، لم تكن سوى جزءامنها [١] . ومرتبطة بهجوم الاسطول الصقلى على الإسكندرية التى حدثت فى أواخر عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م كما سبق وأن أشرنا .

ولقد كان مصير المؤامرة الفشل حيث تم القضاء على ثورة الكنز سريعا [٢] ، بيد أن بقايا الفاطميين لم تردعهم الهزائم المتلاحقة ، والاجراءات التى اتبعها صلاح الدين ضدهم ، فقاموا بتكرار المحاولة ، وواصلوا العمل من أجل العودة بالحكم الفاطمى إلى الوجود ، ففى عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م حدثت فتنة كبيرة فى مدينة قفط [٣] بسبب ان داعياً من بنى عبد القوى ادعى بأنه أحد أبناء الخليفة العاضد ، فأجتمع حوله عدد من أهل المدينة لإعادة الدولة الفاطمية [٤] فعاجل صلاح الدين هذه الحركة بإرسال حملة قوية بقيادة أخيه الملك العادل [٥] حيث تمكنت من القضاء عليهم [٦] .

وتذكر المصادر كذلك بأنه قد جرت فى عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م محاولة ضعيفة أخرى ، اذ دخل القاهرة اثنا عشر رجلا شاهرين سيوفهم ورافعين شعار الدولة العلوية [٧] صائحين (... يآل على ، يآل على ..) [٨] . ويظهر أنهم قد تصوروا بأن الناس سوف يجتمعون حولهم ، وكانوا يهدفون القيام بثورة ضد صلاح الدين الأيوبى ، الذى كان مشغولا فى ذلك الوقت بمحاربة الصليبيين فى فلسطين [٩] ، الا أنه لم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٩ / ١٣٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ص ٥٧ ، حسان نظير سعداوى التاريخ الحربى المصرى ، ص ٢٧ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ص ٦٠١ .

(٣) مدينة بالصعيد كانت فى عصر الفراعنة عاصمة الأقاليم واشتهرت فى العصر الإسلامى بصناعة السكر وبها معدن الزمرد . المقريزى : الخطط ١/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

(٤) المقريزى ، م . س ، ١/ ٢٣٣ .

(٥) سبق ذكر ترجمته .

(٦) المقريزى ، ٥ . م . س .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٩ ـ ١٩٧ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٣٨ .

(٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٠١ .

(٩) ابن الأثير ، الكامل ، ٩/ ١٩٧ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٣٨ .

يتحقق أى غرض من أغراضهم .

ولقد استمرت محاولة إعادة الدولة الفاطمية حتى أواخر عصر صلاح الدين الأيوبى اذ يشير المقريزى إلى محاولة تم اكتشافها فى سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م حيث قام أحد أحفاد الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله [(١)] بمحاولة الدعوة للدولة الفاطمية، يبدو أنه قد اشترك معه فيها بعض أقرباء الوزير شاور ، فقبض عليهم وأودعو السجن [(٢)].

ولقد ترتب عن هذه الحوادث والفتن مظاهر عمرانية شتى ذات أبعاد انشائية عمرانية أو سكانية ، فثورة العبيد نتج عنها اختفاء بعض الحارات فى المدينة بشكل نهائي بينما كان اختفاء الأخرى رمزيا ، ومن المؤكد أن هذه الثورات قد أسهمت بشكل أساسى فى تبنى صلاح الدين للمشروعات التحصينية فى القاهرة ، اذ لا شك فى أن بناء قلعة القاهرة لكى تكون مقرا للسلطان ، إنما كان يهدف إلى توفير مكان آمن يهدف إلى حماية السلطة فى حال حدوث ثورة من الثورات .

كذلك كان لهذه الحوادث دورا فى احداث التغير السكانى فى القاهرة ، اذ قام صلاح الدين بتهجير الكثير من أتباع الشيعة إلى خارج القاهرة عقب هذه الثورات[(٣)].

---

(١) هو عبد المجيد بن محمد بن المستنصر العبيدى ٥٢٤ ـ ٥٤٤ هـ / عنه ؛ انظر ابن دقماق ؛ الجوهر الثمين ، ص ١١٢ ـ ١١٣ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ٤ / ١٣٨ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١١٠ ـ ١١١ .

(٣) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

الفصل الرابع

العوامل الاقتصادية والادارية

أولا : العوامل الاقتصادية :

تشكل العوامل الاقتصادية دورا هاما فى نشأة المدن وتطورها الحضرى والعمرانى ، لذلك كان لها فى عهد صلاح الدين دورا مؤثرا فى تطور القاهرة ونموها . وبنظرة فاحصة للناحية الاقتصادية فى نهاية العصر الفاطمى نلاحظ أن مصر كانت تعانى من أزمة اقتصادية حادة يدل عليها ما ورد فى سجل تعيين أسد الدين شيركوه كوزير للخليفة الفاطمى العاضد ، حيث جاء فيه (والأموال فهى سلاح العظائم ومواد العزائم وعتاد المكارم وعماد المحارب والمسالم ، وأمير المؤمنين يؤمل أن تعود بنظرك عهود النضارة وان يكون عدلك فى البلاد وكيل العمارة ... ، ... فاعمر اوطانهم التى أخربها الجور والأذى)[١] . ويتفق الباحثون على أن من أسباب الأزمة النقدية التى عانت منها البلاد سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١م هو تدهور الأوضاع الاقتصادية أواخر حكم الفاطميين[٢] .

وعلى أية حال فقد عمل صلاح الدين على التصدى لهذه الأزمة الاقتصادية باتباع سياسة حكيمة فى معالجتها[٣] . فوجه اهتماما كبيرا نحو الشئون الزراعية والتجارية ، مما أدى إلى تحسن كبير فى أوضاع هذه المجالات لتخرج البلاد مما كانت عليه من تدهور اقتصادى ، كما يشير إلى ذلك القاضى الفاضل فى خطاب وجهه إلى صلاح الدين وهو فى الشام عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م جاء فيه أن (... البلاد ليست الآن كعهدها فى انقطاع أسفارها ووقوف معايشها ،وكساد أسواقها وانكسار تجارتها ..)[٤] .

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ١٠ / ٨٩ .

(٢) حسين ربيع ، النظم المالية ص ٩٤ ـ ٩٥ ، عطية القوصى ، تجارة مصر فى البحر الأحمر (منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية) القاهرة ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

(٣) عطية القوصى ، م . س . ص ١٤٤ .

(٤) ابو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٧٧ .

ولكى نبين أثر العوامل الاقتصادية على الأوضاع العمرانية فى القاهرة حينئذ لا بد من التركيز على ابرز جوانب اقتصاديات المدينة ذات الصلة بالنواحى العمرانية وهى كالتالى :

ا ـ زيادة تراكم الثورة :

لقد كان عصر الناصر صلاح الدين مرحلة تحول كبير فى مجال زيادة الثروة والرخاء الاقتصادى بمصر بشكل عام ، حيث تحسنت أوضاع الموارد الاقتصادية المختلفة بصورة أكبر عما كانت عليه فى العصر الفاطمى ، أو على الأقل فى أواخره كما سبق ان أشرنا .

وبطبيعة الحال فإن القاهرة سوف تتأثر كثيرا بمظاهر التحسن الاقتصادى هذه ، بحكم انها عاصمة البلاد ، التى عادة ما تكون ملتقى الأنشطة الاقتصادية فى الدولة[١] . وان كان عصر صلاح الدين قد زاد من مقدار الفرص المتاحة لتراكم الثروة فى القاهرة ، بما أحدثه من تعديلات وتطورات على الأوضاع الزراعية التى تعتبر من أهم الركائز الاقتصادية فى مصر[٢] . عن طريق التوسع فى تطبيق نظام الاقطاع[٣] ،

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ١/ ٣٤٣ ، ٣٦٣ ، ٣٦٩ .

(٢) عبد الفتاح وهبة ، الجغرافيا التاريخية ، ص ٢٨٦ .

(٣) الاقطاع من اقطع قطيعة ، أى قاطعه من الأرض ، تفرد عن بقية الأراضى يطلق عليها « قطعة » ، الزبيدى ، تاج العروس ٥ / ٤٧٤ . مادة (ق . ط . ع) ، والاقطاع على ضربين :

١ ـ اقطاع تمليك بان يقطع الأراض على سبيل الأمتلاك :

٢ واقطاع استغلال ويقوم على استغلال الأرض دون امتلاك رقبتها . انظر ، الماوردى ، م . س . ص ١٩٠ ، الزبيدى ، ن . م . س ، أحمد عبد الله خياط ، الاقطاع فى الدولة الإسلامية حتى نهاية العصر العباسى الأول . رسالة ماجستير فى الحضارة الإسلامية ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ١٤٠٠ هـ / ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ م ص ٥٢ ـ ٦٤ .

ولقد عرف الاقطاع منذ عهد الرسول ﷺ واستمر فى عهد الراشدين والأمويين والعباسيين والفاطمى ، وكانت القطائع تقطع فى مصر ولكن على نطاق ضيق .

المقريزى ، الخطط ، ١/ ٨٥ ، ٩٥ ـ ٩٧ ، إبراهيم على طرخان ، النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، ص ١٠ ـ ١٢ ، حسن ربيع ، م . س . ص ص ١٣ ، ٢٥ ـ ٢٦ ، ولم يتوسع فى تطبيق نظام الاقطاع بمصر إلا فى عصر صلاح الدين الأيوبى ، كما سيتضح مما يلى .

الذى ساهم إلى حد بعيد فى زيادة الثروات المتراكمة لدى رجال الدولة وجندها عما كان عليه الحال فى العصر الفاطمى ، اذ تذكر المصادر التاريخية ، أن الوزير الفاطمى شاور لما أراد فى عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م ان يدفع فدية الصليبيين مقابل عدم استيلائهم على القاهرة ، لم يستطع تجميع المبلغ المطلوب من سكانها لأنهم كانو من الجند ورجال الدولة [١] . فى حين أنه بحلول حكم الأيوبيين ، أصبح الأمراء والأجناد رمزا للغنى والثروة ، فمن أسباب عظمة القاهرة وفخامتها فى ذلك العصر ، كونها مأوى لهذه الفئة من الناس [٢] ، الذين كان لانتقالهم إلى الفسطاط فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب [٣] سببا فى نمو روح الاغتناء وتمركز الثروة فيها [٤] . فالأجناد أصبحوا أداة مهمة من أدوات الاستهلاك تلاحقهم الأسواق أينما حلوا [٥] . والسبب فى ذلك يعود لكون رجال الدولة وعلى الأخص العسكريين منهم أصبحو يتمتعون بمداخل كبيرة جدا ، حيث بلغ مقدار الدخل السنوى فى العصر المملوكى لأكابر امراء الجيش بالديار المصرية مائتى (٢٠٠) ألف دينار جيشية [٦] للواحد منهم ، وربما زاد عن ذلك فى بعض الأحيان [٧] ، الأمر الذى ترتب عنه أن يصبح لدى بعضهم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٩ / ١٠٠ ، المقريزى : اتعاظ الحنفاء ، ٣/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

(٢) ابن سعيد الأندلسى ، الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط ، من كتاب المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق زكى محمد حسن وآخرون ، جـ ١ (من القسم الخاص بمصر) القاهرة ، ١٩٥٣ م ص ١١ ، النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، ص ٢٧ . المقريزى ، الخطط ، ١/ ٣٤٢ .

(٣) سبق ذكر ترجمته .

(٤) ابن سعيد الأندلسى : ن . م . س .

(٥) ن . م . س .

(٦) وهو دينار مسمى فرضى استعمل فى تقدير عبرة الاقطاعات لأفراد الجيش ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٣ / ٤٤٢ ، وتختلف قيمته الحقيقية فى العصر الأيوبى بحسب عناصر الجيش اذ كان يساوى دينارا حقيقيا بالنسبة للأجناد من الاتراك والاكراد والتركمان ، فى حين أنه يساوى نصف دينار لكتائب الكنانية والمساقلة ، وربع دينار لرجال الاسطول ، وثمن دينار للعربان .
ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٦٩ ، وانظر أيضا حسنين ربيع ، النظم المالية ص ٦٤ .

(٧) القلقشندى ، ن . م . س ، ١٤ / ٥٠ ، وهذا الرقم يقل بمقدار (١٠٠) ألف دينار عن مقدار رواتب الجند والموظفين بأجمعهم فى أوائل العصر الفاطمى حيث بلغت (٣٠٠) ألف دينار ، عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ / ١٢٥ ، أحمد السيد الصاوى ، المجاعات فى العصر الفاطمى ، =

ثروات ضخمة جدا ، توازى ما تملكه مدينة صغيرة بأكملها [١] . ومن الو
هذا الدخل كان لا يختلف كثيرا عما كان عليه الحال فى العصر الأيوبى
يعتبر العصر المماليكى امتدادا له فى تنظيماته وحضارته [٢] . والسبب فى زيادة
رجال الدولة من العسكريين على هذا النحو ، التغير الذى حصل فى نظا
نفسها عنه عما كان عليه فى العصر الفاطمى . ذلك أن الدولة الأيوبية دوا
عسكرية ، استمدت أصولها من الدولة الزنكية ومن قبلها دولة آل سلجوق [٣]
الأخيرة كانت السلطة فيها تستمد قوتها من أولئك القادة العسكريين [٤] الذ
يتبعهم عدد كبير من الجند ـ ذوى الولاء الشديد لأمرائهم ـ كل بحسب
ومقدار غناه ، حيث يعمد الواحد منهم إلى شراء عدد كبير من الارقاء
اعدادهم وتدريبهم وفق نظام عسكرى صارم [٥] . وبالتالى كان لزاماً أن يحظ
القادة وجندهم بالكثير من الأموال والثروات لكى ترتبط مصالحهم بالسلطة،
عنها ويحافظوا عليها . فذلك كان حالهم فى عهد الناصر صلاح الدين ا
وكانوا لا يقبلون بأى حال من الأحوال أن تنتقص ايراداتهم الكبيرة أو أن ا
بالشىء الوافر من ثروات البلاد [٦] .

= ص ٢٥٣ ، يبد أن هذه المداخيل تزايدات بعض الشىء فى أواخر العصر الفاطمى بتزايد ذ
الدولة وعلى الأخص العسكريين على حساب نفوذ الخليفة ، وان لا توجد أرقام واضحة ت
هذه الزيادة بشكل عام ، انظر أحمد الصاوى ، م . س . ص ٢٥٣ ـ ٢٦٣ .

(١) ıs - Ram, Muslim Cities in the later middle ages, p. 50 .

(٢) Jane , Conquestand Fasion , p. 101 .

(٣) هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبى ، ص ١٨٥ ـ ١٨٧ ، ولاحظ ما يذكره العبادى عن
العسكرية للدولة السلجوقية على الأيوبيين ، وأن الأولى كانت ومن تفرع عنها من دو
مماليكهم دول حربية الطابع ، أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى فى مصـ
بيروت ١٩٦٩ م ص . ص : ٧٣ ، ٧٦ .

(٤) هاملتون جب ، دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ترجمة إحسان عباس وآخرون بيروت
١٩٧٩ م ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ، ولاحظ ما يذكره العبادى عن نفوذ امراء الاقطاعات ف
السلجوقى وفى العصر الأيوبى أيضا ، العبادى ، م . س ، ص ص ٧٧ ، ٧٨ ـ ٩٣ .

(٥) هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبى ص ١٥٦ .

(٦) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٩ .

ان هذا التحول فى أساسيات قوة السلطة وما يترتب عنه ماليا سيؤدى بطبيعة الحال إلى زيادة الأعباء المالية المترتبة على الدولة ، بما يفوق قدرتها على الصرف على هؤلاء الأمـراء والأجناد ، ولذلك فلقـد قـام الوزير السلجـوقى نظام الملك [١] بإشاعة نظام الاقطاع العسكرى ، بحيث يكون لكل منهم ما مقدار راتبه اقطاعا [٢] ، الأمر الذى يدفعهم نحو السعى لزيادة مداخيلهم ، عن طريق عمارة الأراضى الزراعية والاهتمام بشئونها وتحسين أحوالها [٣] . ونظرا لأن الدولـة الأيوبيـة ، تعـتبـر امتـدادا للدولة الزنكية[٤] ، التى بدورها وريثة لدولة بنى سلجوق فى نظامها وادارتها [٥] ، فلقد قام صلاح الدين الأيوبى بتعميم نظام الاقطاع العكسرى فى مصر ، بحيث أصبح كل أراضيها الزراعية اقطاعا للسلطان وامرائه وجنده [٦] ، فضلا عن اقطاعات العربان [٧] .

---

(١) أبو على الحسن بن على بن إسحاق بن العباس المقلب بنظام الملك ، من أشهر وزراء الإسلام وله الكثير من التنظيمـات والأعـمال منها نشر المدارس وغيرها . ولى الوزارة للسلطان السلجوقى ألب أرسـلان ٤٥٥ ـ ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ ـ ١٠٧٢ م وملك شـاه ٤٦٥ ـ ٥٤٨ هـ / ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م . مات مقتولا فى سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م عنه انظر : العماد الأصفهانى ، تاريخ دول آل سلجوق باختصار الفتح البندارى ، تحقيق لجنة أحياء التراث العربى فى دار الأوقاف الجديدة ، بيروت ط . الثـالثـة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ص ٥٨ ـ ٦٠ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٢/ ١٢٨ـ١٨٦١ ١٢٨ ـ ١٣١ .

(٢) عزام باشا : النظام الادارى فى الدولة العباسية فى العصر السلجوقى ٤٣٢ ـ ٤٨٥ هـ / ١٠٤٠ ـ ١٠٩٢ م ، بحث قدم لنيل درجة الدكتوراه فى الحضـارة الإسلامية فى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ١٤٠٦ هـ ص ص ٣٠١ ، ٣٠٤ .

(٣) العمـاد الأصفهانى ، م . س ، ص ٦٠ ، العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٧٥ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٢٦ .

(٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ٤/٥ ، حسنين ربيع : ن . م . س .

(٥) ابن تغـرى بردى : النجـوم الزاهرة ، ٥ / ٢٧٩ ، إبراهيم طرخـان ، النظم الاقطاعيـة ، ص ٣٠، العبادى ، م . س ، ص ٧٣ .

(٦) المقريزى ، الخطط ، ١/ ٩٧ ، إبراهيم طرخان ، م . س ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٧) حسنين ربيع ، م . س ، ص ٢٧ .

وحتى كبار رجال الدولة حصلوا على اقطاعات كبيرة ، كما يدل على ذلك اقط
البيت الأيوبى نفسه . فوالد صلاح الدين الأيوبى نجم الدين أيوب كان اقطاعه يـ
عدد من أقاليم الديار المصرية [(١)] . فى حين أن اقطاع شمس الدولة توران شاه
يشمل قوص[(٢)] وأسوان وعيذاب [(٣)] .

وهو الاقطاع الذى حظى به بعد انتصار الدولة على ثورة العبيد فى
٥٦٤هـ/١١٦٨م [(٤)] ، بل ان اقطاع شمس الدولة أخذ فى التزايد ، فأضيف
فى عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م عدة أقاليم مصرية أخرى [(٥)] وأقطع أيضا ما يفتح
على يديه من البلاد [(٦)] ، لذلك فإن غالب أراضى اليمن كانت اقطاعات لشـ
الدولة بعد أن فتحها فى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م [(٧)] .

ولقد كان لهذه الاقطاعات إيرادات ضخمة على أصحابها ، يدل على
العبرة المتحصلة عنها للدولة . فضواحى الإسكندرية كانت عبرتها فى
٥٨٥هـ/١١٨٩م ما مقداره (٨٠٠٠٣٨) دينارا [(٨)] ، كذلك كانت عبرة ا

(١) وهى الإسكندرية والبحيرة ودمياط ، إبراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية ص ٣٦ ــ ٣٧ ، حسنين
، النظم المالية ، ص ٢٧ .

(٢) مدينة تقع جنوبى الفسطاط على الشاطئ الشرقى للنيل ، وتبعد عنها مسيرة اثنا عشر يوما وتعد
الصعيد وأهلها على ثراء واسع ، ويشتغلون بالتجارة ، انظر : ياقوت : معجم البلدان ٤ / ٣
المقريزى ، الخطط ، ١/ ٢٣٦ ــ ٢٣٧ .

(٣) إبراهيم طرخان ، م . س ، ص ٣٧ ، حسنين ربيع ن . م . س . وعيذاب بلدة على البحر الأ
تعد ميناءً تجاريا هاما للتجارة القادمة من هذا البحر، انظر ، ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٥ ــ
ياقوت ، ن . م . س ٤ / ١٧١ .

(٤) إبراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية ، ص ٣٧ .

(٥) حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٢٧ .

(٦) ن . م . س

(٧) إبراهيم طرخان ، ن . م . س .

(٨) المقريزى ، الخطط ، ١ / ٨٧ .

وأسوان وعيذاب فى عام ٥٦٥هـ/١١٦٩م ما مقداره (٢٢٦) الف دينار [١] وبلغت غلة اقطاع أخي صلاح الدين الملك العادل[٢] بمصر فقط ما مقداره (٧٠٠) ألف دينار كل سنة [٣]. لقد أدى تطبيق نظام الأقطاع إلى زيادة فى مقدار الجباية الخراجية المتحصلة للدولة بمقدار الضعف تقريبا عنها فى أواخر العصر الفاطمى . فابن ظهيرة القرشي يذكر بأنها استقرت فى عهد صلاح الدين الأيوبى عند (٤٦٥٣٠١٩) دينارا [٤] فى حين آخر احصائية يوردها المقريزى عن مجموع ايرادات الخراج فى أواخر العصر الفاطمى ، قد بلغت (٢٢٠٠٠٠٠) دينارا وذلك فى عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م [٥] ثم تراجع الايراد بعد ذلك عن هذا المبلغ حيث (.. لم يجبها هذه الجباية أحد حتى انقرضت الدولة الفاطمية ..) [٦].

ومن الواضح أن هذا التطور فى مقدار الجباية يعكس أيضاً الزيادة فى المساحة المزروعة فى عهد صلاح الدين الأيوبى اذ نلاحظ أن عدد القرى قد تزايد فى تلك الفترة بمقدار الضعف تقريبا عنها عما كانت عليه فى أواخر العصر الفاطمى ، حالها

---

(١) حسنين ربيع ، ن . م . س .

(٢) هو الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ٥٩٦ ـ ٦١٥ هـ / ١١٩٩ ـ ١٢١٨ م ، ملك مصر بعد وفاة الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ٥٨٩ ـ ٥٩٥ هـ / ١١٩٣ ـ ١١٩٨ م الذى ورثه ابن قاصر ، كان مشهورا بالحكمة والمكر والدهاء ، عنه انظر ، ابن الأثير ، الكامل ، ٩/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧ . الحموى ، ابى الفضائل محمد بن على الحموى (عاش فى القرن ٧ هـ / ١٣ م) التاريخ المنصورى ، تلخيص كشف البيان فى حوادث الزمان ، تحقيق أبو العيد دودو دمشق ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ص ٧٦ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ١٦٠ ـ ١٧٣ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٥/ ٦٤ ـ ٦٥ .

(٣) إبراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية ، ص ٣٩ .

(٤) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٢٦ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ١/ ١٠٠ .

(٦) ن . م . س .

حال الجباية الخراجية ، فتذكر المصادر ان عدد القرى التى احصاها ابن مماتى فى مصر قد بلغت فى ذلك الوقت (٤٠٠٠) قرية [١] ، بينما كانت عددها فى أواخر العصر الفاطمى لايتجاوز الألفى قرية الا بقليل ، حيث كان يتراوح فيما بين (٢١٢٨)[٢] و (٢٠٨٢)[٣] قرية . بل انه من المرجح أنه قد جرى فى عهد صلاح الدين ، استغلال غالبية الأراضى الصالحة للزراعة ان لم تكن جميعها ، لأن مقدار الجباية الخراجية الذى استقر حينئذ عند مبلغ يزيد عن (٤٫٥) مليون دينار يدل على أن المساحة المزروعة قد شملت معظم الأراضى القابلة للزراعة فى مصر الإسلامية [٤]. والحقيقة فإن هذا التطور يعكس مدى العناية بالشؤون الزراعية ، من شق الترع والقنوات المائية وإقامة الجسور وغير ذلك مما تتطلبه الزراعة ، ففى عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) صدرت الأوامر بحفر الترع وإقامة السدود للأراضى الزراعية [٥] ، كما

---

(١) المقريزى ، م . س ، ٢/ ١٦٠ ، الزبيدى ، تاج العروس ، ٣/ ٥٤٣ ، مادة : م . ص . ر .

(٢) محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ق ١ / ١٨ .

(٣) عطية مصطفى مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ م ص ١٨ ، عبد المنعم ماجد ، امرأة مصرية تتزعم مظاهرة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، بحث منشور فى المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٧٧ ، المجلد ٢٤ ص ٣٦ . أحمد الصاوى الجماعات فى العصر الفاطمى، ص ٢٢٢ .

(٤) أن من أبرز الشواهد على أن هذا الرقم يدل على أن غالبية الأراضى أو كلها قد استخدمت فى الزراعة لتحقيقه ، ما حدث فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ١٠٥ ـ ١٢٥هـ / ٧٢٢ ـ ٧٤٤م عندما كان عبد الله بن الحباب واليا على خراج مصر، فلقد قام الأخير بتوجيه الاهتمام والرعاية إلى المشاريع الزراعية وأجرى عمليا مسح للأراضى الزراعية وقام بإجراء الاصلاحات اللازمة لها فكانت النتيجة أن بلغ الخارج فى عام ١٠٧ هـ / ٧٢٦ ما مقداره (٤) ملايين دينار ، المقريزى ، م . س ، ١/ ٩٩ ، مع العلم أن مستوى الفيضان بلغ فى تلك السنة ١٨ ذراعا ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ١/ ٢٦١ ، وهذه هى الحدود القصوى للفيضان فى تلك السنوات والتى يتحقق منها ارواء كامل للأراضى الزراعية فى مصر وهو ما سوف نشير له فيما لى من صفحات .

(٥) جورجى زيدان ، تاريخ مصر ، ١/ ٣٢١ ـ٣٢٣ .

صدرت الأوامر سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م إلى كل من والى الغربية ووالى الشرقية بالاهتمام بأمر الجسور والعناية بها وعمارتها [١] ، كما أن هذا التطور يعكس مدى قدره أهل البلاد على مواجهة إحدى اهم المشكلات الزراعية التى واجهوها فى ذلك الوقت ، التى نتجت عن ارتفاع مستوى الأرض الزراعية عن منسوب الفيضان النهرى ، الذى يعد العماد الأساسى للزراعة فى مصر .

فنظرا لوقوع مصر بين خطى عرض (٢٤ ـ ٣١) فإن هذه المنطقة تتميز بقلة الأمطار وانعدامها فى الغالب [٢] ، الأمر الذى جعل غالبية أراضى مصر صحراء مقفرة باستثناء تلك المنطقة الواقعة على جانبى النهر والتى تعرف بوادى النيل [٣] ، حيث اعتمدت الزراعة على مياه النهر .و تأثرت بأحواله وأوضاعه [٤] وعلى أساسه كانت تتحدد مساحة الأراضى المروية والمزروعة وما يترتب عنه من نتائج اقتصادية على مستوى الدولة والشعب [٥] ، لذلك لجأ المصريون نحو قياس مستوى الفيضان عن طريق مقياس

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ٧٤ ـ ٧٥ .

(٢) ب . س . جيرار ، موسوعة الحياة الاقتصادية ، ضمن كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية ، ترجمة زهير الشايب ط. الأولى القاهرة ١/ ١٣ .

(٣) الأصطخرى ، المسالك والممالك ص ٤٠ ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ٥ / ٣٣٥ ، جيرار : ن . م . س .

(٤) جيرار ، ن . م . س .

(٥) عبد الفتاح وهبة ، الجغرافيا التاريخية ، ص ٢٨٦ ، يبدأ منسوب المياه فى هذا النهر بالارتفاع فى بداية الصيف وتبلغ الزيادة اقصاها مع اعتدال الخريف أى أن مدة الزيادة هى ثلاثة أشهر على وجه التقريب . للمزيد انظر ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٧٤ ، ياقوت الحموى ، م . س ، ٥/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ، المقريزى ، الخطط ، ١ / ٥٥ ، جيرار ، ن . م . س .

النيل، الذى كان الغرض منه تحديد مستوى الفيضان النهرى [(١)] ، كما عرفت مصر أيضا نظام رى الحياض ، حيث قسمت الأراضى الزراعية إلى مجموعة من الحياض تصل مساحة الصغير منها إلى (٢٠٠٠) فدان [(٢)] والكبير إلى (٥٠٠٠٠) فدان[(٣)] ، يتم ارووائها عن طريق التحكم بالفيضان من خلال الخلجان والترع [(٤)] والجسور [(٥)] لذلك فعندما يأتى الفيضان تفتح هذه الخلجان والجسور ، لتبدأ الأراضى

---

(١) عرفت مصر عددا من المقاييس بعضها يعود إلى ما قبل الإسلام يبدو أن أخرها الذى بنته الروم فى قصر الشمع ، وبنى المسلمون عددا آخر من هذه المقاييس ، كان أهمها الذى أمر الخليفة العباسى المتوكل ٢٣٢ ـ ٢٤٠ هـ / ٨٤٦ ـ ٨٢٤ م ببنائه فى عام ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م وجعل أمر الأشراف عليه للمسلمين ، وهو يقع عند أنف الجزيرة الجنوبى ، انظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ٥/ ١٧٨ ، ابن ظهيرة القرشى ، الفضائل الباهرة ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ، محمد بن أبى الفتح الصوفى الشافعى ، الصفوة فى وصف الديار المصرية ونظام الممالك الإسلامية ، مخطوط عن نسخة مصورة بالميكرو فيلم فى مكتبة المتحف البريطانى رقم ٢٢٣٩ ، لوحة (١٠) . ويتكون مقياس جزيرة الروضة من عامود من الرخام مثمن الاضلاع ومثبت فى وسط بركة تقع على شاطئ الجزيرة الجنوبى ، وكان هذا العامود مقسم إلى اثنين وعشرين ذراعا مقسمة إلى أربعة وعشرين قسما تعرف بالاصابع إلا أن الأثنا عشر ذراعا الأولى مقسمة إلى ثمانية وعشرين أصبعا . للمزيد انظر ابن مماتى ، قوانين الدواوين ص ٦٧ ، ابن جبير ،. الرحلة ، ص ٢٩ ، ياقوت الحموى ، ن . م . س . القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٤ / ٢٨٩ .

(٢) الفدان وحدة قياس لمساحة الأراضى الزراعية ، وكان يساوى أبان الفتح الإسلامى ٦٢٠٩ مترا مربعا ثم أصبح فى العصر المماليكى ٦٠٣٤ مترا مربعا أما فى أواخر العصر العثمانى فلقد كانت مساحته ٥٩٢٩ مترا مربعا ، محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ق ١ / ص ١٠.

(٣) عبد الفتاح وهبة ، الجغرافيا التاريخية ص ٢٨٧ .

(٤) تقوم الخلجان والترع بعملية توزيع المياه على مجموع الأراضى الزراعية وكانت الرئيسية منها تمتد إلى عشرات الكيلو مترات ، فقد أشارت المصادر إلى الأكثر أهمية منها مثل خليج الإسكندرية ، والمنيا والقاهرة وغيرها من الخلجان ؛ انظر المقريزى ، الخطط ١/ ٧٠ ـ ٧٢ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٤/ ٢٩٧ ـ ٣٠١ ، جيرار ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٤ ، عبد الفتاح وهبة ، م . س ، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

(٥) تقوم الجسور بمهمة توزيع المياه أيضا والتحكم فى خروجها ودخولها ، علاوة على حفظ الأراضى من أخطار الفيضان وهى على نوعين الجسور الطولية وتقع بمحاذاة النهر وفروعه ، والعرضية وهى التى تمتد فيما بين الأراضى الصحراوية والنهر ، ولقد قسمت هذه الجسور إلى قسمين =

الزراعية بالامتلاء بالمياه ، مكونة سلسلة من البرك التى تتدرج فى الارتفاع بعضها فوق بعض[(١)] ، حتى تبدو جميع الأراضى الزراعية كأنها بحيرة تتخللها القرى والواقعة فوق تلال مرتفعة ، والتى يكون الاتصال فيما بينها متعذرا الا بالقوارب أو من فوق الجسور[(٢)] .

وبالنظر إلى النصوص التاريخية التى توردها المصادر ، عن مدى تأثير مستوى الفيضان على الأراضى الزراعية فى مصر الإسلامية ، يلاحظ بأن تأثير منسوب الفيضان على هذه الأراضى ، قد طرأ عليه عدد من التغيرات فى العصور المختلفة ، بدءا من الفتح الإسلامى حتى أواخر العصر المملوكى ، ذلك أن حد الوفاء[(٣)] النافع ابان الفتح الإسلامى كان (١٦) ذراعا حيث أن النيل اذ بلغ فيضانه هذا المستوى ، فإن ذلك يكفى لزراعة أراضى مصر بطريقة تؤدى إلى أن يفيض من الغلات ما يكفى لمدة عامين[(٤)] . بيد أنه ابتدأ من منتصف القرن الرابع (٤هـ/ ١٠م) تقريبا ، يلاحظ ان هناك اختلافا واضحا فيما ذكر عن حدود الوفاء[(٥)] ، اذ يذكر المسعودى أنه إذا بلغ مستوى الفيضان (١٦) ذراعا ، فإن ذلك يكفى لزراعة ثلاثة أرباع الأراضى الزراعية فى مصر[(٦)] ، وأن (١٧) ذراعا تكون كاملة النفع ، فى حين أنه إذا بلغ الوفاء (١٨) ذراعا فإن هذا يؤدى استبحار بعض الأراضى الزراعية وتلف المراعى[(٧)] ، ويذكر

= جسور سلطانية وهى التى على السلطان الاهتمام بأمرها لعموم نفعها ، وجسور بلدية وهى التى يهتم بها أهل الناحية . للمزيد انظر ، ابن مماتى ، م . س ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ، المقريزى ، م . س ، ١/ ١٠١ ، القلقشندى ، م . س ، ٤/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥ .

(١) عبد الفتاح وهبة ، م . س ، ص ٢٨٩ ، جيرار ، م . س ، ص ١٤ ـ ١٥ .

(٢) المقدسى ، أحسن التقاسيم ص ٣٠٦ ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ٥/ ٣٣٦ . عبد الفتاح وهبة ، م . س ، ص ٢٨٩ ، جيرار ، م . س ، ص ١٥ .

(٣) يقصد بالوفاء هو زيادة النيل ومقدار فيضانه ، القلقشندى ، صبح الأعشى ٤/ ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

(٤) أحمد الصاوى ، المجاعات فى العصر الفاطمى ص ٢٢ .

(٥) ن . م . س .

(٦) نقلا عن ن . م . س .

(٧) نقلا عن المقريزى ، الخطط ١ / ٥٩ . أحمد الصاوى ، ن . م . س .

المقريزى أنه إلى ما بعد سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦م كان الوفاء النافع هو (١٦) ذراعا ، واذا زاد عن ذلك ذراعا واحدا فإن الخراج يزيد مئة (١٠٠) ألف دينار ، واذا بلغ (١٨) ذراعا كان ذلك الغاية القصوى ، فإن زاد بمقدار ذراع اخرى أى (١٩) ذراعا فإنه يؤدى إلى نقص في الخراج بمقدار (١٠٠) ألف دينار [١] ، « ... نظرا لما يستبحر من الأراضى المنخفضة .. » [٢] أما ابن مماتى فإنه عندما يتحدث عن الوفاء يذكر بأنه كان يعتبر قديما فى حدود (١٦) ذراعا ، ويشير إلى أن هذه الزيادة لم تعد بنفس المستوى فى عصره [٣] ، ولكن دون ان يبين مقدار ما حصل من تغير ، واكتفى بالقول بأنه قد (.. تغيرت الأحوال واختلفت أحكام الأعمال ..)[٤] ويلاحظ أن المقريزى عندما تحدث عن مستويات الفيضان فى القرن السادس (٦هـ/١٢م) والتى سبق الإشارة إليها ، فإنه يذكر ما يوازيها من مستويات فى عصره، بحيث ان (١٦) ذراعا فى الماضى أصبحت توازى ثمانية عشر (١٨) ذراعا من ناحية تأثيرها على الأراضى الزراعية[٥] ، وهكذا فقد كانت مستويات الفيضان فى أواخر العصر المملوكى تنقسم إلى ثلاثة أقسام هى : الحد الأدنى ويقع فى حدود (١٦) ذراعا ، والمتوسط وهو فى حدود (١٧) ذراعا ، أما العالى فيتجاوز (١٨) ذراعا ، وربما زاد فى بعض المواسم عن (٢٠) ذراعا [٦] . وهذه المستويات من الفيضان لا تختلف كثيرا عما كان عليه الحال فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، اذ يذكر ابن جبير بأن مستويات الفيضان التى يكون فيها النفع هى : (١٦) ذراعا كحد ادنى حيث لا خراج للسلطان إذا ما نقص الفيضان عن ذلك ، فى حين ان (١٧) ذراعا تعتبر متوسطة ، أما إذا بلغ الماء (١٩) ذراعا (.. فهى الغاية عندهم فى طيب العام .) [٧] واذا زاد عن

---

(١) المقريزى ، الخطط ١ / ٦٠ .

(٢) ن . م . س .

(٣) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ص ٧٦ .

(٤) ن . م . س .

(٥) المقريزى ، م . س ١ / ٦٠ .

(٦) القلقشندى ، صبح الأعشى ٣ / ٢٩٦ .

(٧) ابن جبير ، الرحلة ص ٣٠ .

ذلك فإنه قد يؤدى إلى استبحار الأراضى على ما يبدو . يعنى هذا بأن هناك فرقا فى الحدود القصوى للمستويات النافعة من الفيضان فى عصر صلاح الدين عنه فى أواخر العصر المماليكى بمقدار ذراع كاملة تقريبا ، كذلك يعنى بأن هناك فرقا فى الحدود الدنيا لما كان عليه الحال فى العصر الفاطمى ـ فى أواسط هذا العصر على الأرجح ـ حيث كانت الحدود الدنيا للفيضان والتى لا ينتج عنها القحط خلال تلك الفترة هى (١٥) ذراعا [١] ، بينما نجدها فى عهد الناصر صلاح الدين (١٦) ذراعا ، حيث لا يستحق السلطان الخراج على ما دون ذلك كما سبق أن أشرنا .

واجمالا ، فبالامكان القبول بأن هناك ثلاثة فترات تاريخية تغيرت فيها المقاييس التى يتحدد بموجبها مستوى الفيضان وما يترتب عنه من آثار زراعية وبالتالى اقتصادية ، وهى فترات يمكن تمييزها من خلال الحدود القصوى للمستويات النافعة من الفيضان، فالفترة الأولى تمتد من صدر الإسلام وتنتهى فى أوائل القرن السادس (٦هـ/١٢م) ، وهى التى أشار إليها المقريزى كما سبق أن ذكرنا . وفى هذه الفترة كان الفيضان يعتبر قد وصل إلى أقصى مستوى له اذا بلغ (١٨) ذراعا ، فما دون ذلك يكون وفاء النيل قد نقص عن بلوغ المستوى الأقصى النافع كما يشير إلى ذلك ناصر خسرو [٢] . أما الفترة الثانية وهى التى تبدأ من أوائل القرن السادس (٦هـ/١٢م) ، وامتدت على ما يظهر إلى ما بعد بداية القرن الثامن (٨هـ/١٤م) حيث تغير تحديد مستوى تأثير الفيضان كما يذكر القلقشندى [٣] ، فمن المؤكد أن الحدود القصوى للمستوى النافع من الفيضان فى هذه الفترة هى (١٩) ذراعا ، كما يتضح من خلال حديث ابن جبير الذى سبق الإشارة إليه . وفى حين أن الفترة الثالثة والتى كانت فى أواخر العصر المملوكى ، فإن الحدود القصوى للوفاء النافع الكامل

---

(١) أحمد الصاوى ، المجاعات فى العصر الفاطمى ص ٢٧ .

(٢) ناصر خسرو ، سفر نامة ص ٨٣ .

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ٣ / ٢٩٦ .

هى فى حدود (٢٠) ذراعا .

وتختلف التفسيرات التى تقدمها المصادر حول تحديد أسباب هذه الظاهرة ، فابن مماتى يعتبر أن السبب فى تغير تحديد مستويات الفيضان النافع هو (... بلوغ العمارة إلى حد اعتبر هذا المقدار ..) [١] مما يشير إلى أن الوسائل التى كانت تستخدم فى الرى كانت من الكفاية بحيث اذا بلغ مستوى الفيضان (١٦) ذراعا ، فإن ذلك فيه النفع الكامل . بينما كان نقص الكفاية فى هذه الوسائل ، السبب المباشر فى عدم الوصول إلى النفع الكامل اذا بلغ الوفاء فى حدود الأذرع سالفة الذكر . ولعل ذلك هو ما قصده المقريزى حين ذكر ان فساد أحوال الجسور فى وقته هو السبب المباشر فى أن لا تبلغ مياه الفيضان كافة الأراضى الزراعية ، حتى لو بلغ مستوى الفيضان (٢٠) ذراعا[٢] . إلا أن اختلال مستوى أنظمة الرى لم تكن السبب الوحيد الذى دفع إلى إيجاد هذه الظاهرة فالقلقشندى يضيف سببا آخر لا يقل أهمية عن الأول ، وهو ارتفاع مستوى الأراضى الزراعية عن مستوى الفيضان نتيجة الارساب التى يحملها النهر معه ، عندما يعم هذه الأراضى وقت الفيضان فتأخذ الأراضى بالارتفاع التدريجى سنة بعد أخرى ، فيصبح من العسير وصول الماء إليها إلا بعدما يصل الفيضان إلى مستويات عالية جدا[٣] .

إلا أن هذا الارتفاع يقابله ارتفاع فى منسوب قعر النيل بسبب الارساب أيضا ، حيث لاحظ لكوكس (Wiillcocks) ان مستوى الفيضان كان يرتفع أيضا منذ أن أنشئ مقياس الروضة فى القرن الأول (١هـ/ ٧م) حتى القرن الثالث عشر (١٣هـ/ ٢٠ م) بما مقداره ثلاثة اذرع . فكان يبلغ فى القرن الأول (١هـ / ٧ م) سبعة عشر ذراعا ، ويبلغ فى القرن الثالث عشر (١٣هـ/ ٢٠م)

---

(١) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ص ٧٦ .

(٢) المقريزى ، الخطط ١ / ٦٠ .

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ٣ . ٢٩٦ .

عشرون ذراعا تقريبا [(١)] . إلا أن هذه الزيادة فى مستوى قاع النهر لم تكن لتبلغ مستوى الزيادة نفسها فى الأراضى الزراعية فهى أقل منها دائما [(٢)] أى أنها أدت إلى الابطاء من الاضرار الناجمة عن الزيادة فى ارتفاع مستوى الأراضى الزراعية عن مستوى الفيضان النهرى ، بحيث ان هذه الاضرار لم تظهر إلا بعد مرور فترات تاريخية طويلة جدا ، ربما استغرقت عدة قرون . كما اتضح لنا أثناء الحديث عن الفترات التاريخية الثلاث ، التى ظهر فيها تغير فى مدى تأثير مستوى الفيضان على الأراضى الزراعية .

ونظرا لأن عهد صلاح الدين الأيوبى قد شهد تغيرا فى منسوب المياه التى يتعين بموجبه حد الوفاء النافع فإن هذا يدل على أن ذلك العهد قد شهد ظاهرة ارتفاع الأراضى عن مستوى الفيضان . خاصة اذا ما علمنا أن مستويات الفيضان لم تبلغ خلال معظم فترة حكم صلاح الدين الأيوبى (٥٦٤ ـ ٥٨٩ هـ/ ١١٦٨ـ ١١٩٣م) الحدود القصوى كاملة النفع (١٩) ذراعا ، وبالنظر إلى ما يورده ابن تغرى بردى عن مستويات الفيضان خلال تلك الفترة ، يلاحظ بشكل عام أن معدلات الزيادة فى مناسيب النيل فى موسم الفيضان ، كان يغلب عليها المستوى المتوسط ـ (١٧) ذراعا ـ حيث بلغ مستواه فيما بين (١٧) ذراعا و (١٨) ذراعا فى سنوات متفرقة أو متتالية ما يزيد على العقد من الزمان ، فى حين أنه بلغ مستواه فيما بين (١٦) ذراعا و (١٧) ذراعا ما مقداره سبع مرات ، أما المرات التى بلغ مستواه فيما بين (١٨) ذراعا و (١٩) ذراعا فلقد كان عددها ستة مرات [(٣)] مما يدل على أن هناك مساحات من الأراضى لم يكن يبلغها ماء الفيضان فى كثير من السنين.

---

(١) Willcocks , Eygptian brigaton 19.3 vo. II, p. 294 .

(٢) عبد الفتاح وهبة ، الجغرافيا التاريخية ص ٢٤٩ .

(٣) انظر جدول (١) الذى تم اعتماده نقلا عن ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٥ / ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٦/ ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١١٩ .

جدول (١) يوضح مقدار الزيادة فى فيضان النيل فى عهد صلاح الدين الأيوبى

السنوات (٥٦٤ ـ ٥٨٨)	مقدار الزيادة فى الفيضان	
	أصبع	ذراع
٥٦٤	١٢	١٦
٥٦٥	١٤	١٦
٥٦٦	٢١	١٦
٥٦٧	٢٠	١٧
٥٦٨	٢٨	١٨
٥٦٩	١٠	١٧
٥٧٠	١٩	١٧
٥٧١	١٠	١٦
٥٧٢	٢١	١٦
٥٧٣	٢١	١٧
٥٧٤	١٩	١٦
٥٧٥	٧	١٨
٥٧٦	١٦	١٦
٥٧٧	٥	١٨
٥٧٨	٢	١٧
٥٧٩	٢٣	١٧
٥٨٠	١٣	١٨
٥٨١	١	١٧
٥٨٢	١	١٧
٥٨٣	١٢	١٧
٥٨٤	١٣	١٧
٥٨٥	٢٢	١٧
٥٨٦	٤	١٨
٥٨٧	١٤	١٨
٥٨٨	١١	١٧

المجموع : ١٧ ـ ١٨ ذراع (١٢ مرة) ، ١٦ ـ ١٧ ذراع (٧ مرات) ما فوق ١٨ ذراع (٦ مرات) .

وهى مساحات كبيرة ، ويؤكد ذلك انتشار زراعة قصب السكر فى تلك الفترة[١]، والذى يزرع فى الأراضى التى لا يغمرها الفيضان . وإنما تكون فى تلك التى تعتمد على الارواء الصناعى [٢] . ولا شك بأن هذا يدل دلالة واضحة على أن الزراعة قد انتشرت أيضا فى المناطق التى لم يكن يشملها ماء الفيضان ، والتى يبدو أنها أهملت فى أواخر العصر الفاطمى ، فكانت من الأسباب الرئيسية لتدنى مقدار الجباية الخراجية التى سبق الإشارة إليها ، فى حين أنه فى عصر صلاح الدين الأيوبى ، جرى استغلال هذه الأراضى وزراعتها بالأرواء الصناعى ، نتيجة تطبيق نظام الاقطاع الذى أوجد فئة قادرة ـ المقطعون ـ على الانفاق على الزراعة [٣] ، وبالتالى توسع المساحات المزروعة . وهى ظاهرة سيكون لها تأثيرها على الأوضاع الاقتصادية والثروة كما سبق أن ذكرنا .

ومن الروافد التى أسهمت فى زيادة الثروة وتراكمها فى مصر فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى التجارة التى ازدهرت أوضاعها فى تلك الفترة ، حيث نتج عنها زيادة كبيرة فى مقدار الثروة المتراكمة فى هذه البلاد [٤] . فمن المؤكد أن زيادة التبادل بين مصر ودول أوروبا فى ذلك العصر ، قد أسهم إلى حد بعيد فى زيادة الموارد

---

(١) عبد الفتاح وهبة ، الجغرافيا التاريخية ص ٣٠٠ .

(٢) عبد الفتاح وهبة ، م . س ص ٢٩٥ ، ووسائل الارواء الصناعى مثل الساقية والشادوف والطنبور ، انظر عنها : عبد الفتاح وهبة ، م . س . ص ٢٩١ ، جيرار ، الحياة الاقتصادية ص ١٩ .

(٣) ويلاحظ أن انتشار زراعة قصب السكر التى سبق الإشارة إليها تدل على أن هناك نفقات ضخمة وجهت نحو الزراعة اذ أنه يعد من المحاصيل الصيفية كما ذكرنا ، وهى محاصيل تحتاج إلى نفقات باهظة نتيجة حاجة الأرض فى هذا الحال إلى إعداد خاصة من تسميد وبذار وغيره علاوة على توفير وسائل الارواء الصناعى . انظر عبد الفتاح وهبة ، الجغرافيا التاريخية ص ٢٩٦ .

(٤) نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) ، القاهرة ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م ، ص ٢٩٦ .

النقدية الذهبية التى تتحصل مصر عليها من تلك البلاد [١] ولا يعدوا أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لموارد النقد الذهبى القادم من بلاد السودان وعلى الأخص الجانب الغربى منها [٢] ، التى تزايد التبادل التجارى معها فى تلك الفترة أيضا[٣]. ولا شك بأن زيادة موارد النقد هذه ، هى التى أسهمت بشكل أساسى فى أن تتمكن الدولة الأيوبية من سك عملات ذهبية جديدة رغم نضوب موارد الذهب من منابعه الموجودة فى مصر فى ذلك الوقت [٤]. اذ قام صلاح الدين فى عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م بسك عملة ذهبية جديدة [٥] تفريجا للأزمة النقدية التى واجهتها البلاد فى تلك السنة [٦] واتبع ذلك الاصدار باصدار آخر فى عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م ليتلوه إصدار ثالث عام ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م ، وكان صلاح الدين يتجه فى ذلك نحو أوج قوته السياسية [٧]

ولقد ترتب عن تراكم الثروات فى القاهرة ، اثار عمرانية عدة ، من أهمها أسهام هذه الثروات فى زيادة النشاط العمرانى فى القاهرة اذ أن الوفر المادى يدفع الناس نحو تأثل العقار وامتلاكه [٨] . لذلك فمن المؤكد أنه قد اندفع فى ذلك الوقت العديد من

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٤٣٧ . موريس لومبارد ، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى ص٣٠٤

(٢) موريس لومبارد ، م . س ص ٢٩٥

(٣) انظر ما يلى من هذا الفصل

(٤) يلاحظ أنه منذ أواخر العصر الفاطمى انخفض استغلال الذهب فى مناجم وادى العلاقى بالشرقية وانتهت سيطرة الدولة على هذا الاستغلال . عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٦٤ م ، ص ٧١ والسبب فى ذلك هو نضوب هذه المادة فى هذه المصادر انظر عطية القوصى ، تجارة مصر فى البحر الأحمر ص ١٤٥

(٥) المقريزى ، السلوك جـ ١ ق ١ ص ٤٥ حسنين ربيع ، النظم المالية ص ٩٧

(٦) حسنين ربيع

(٧) ن م س

(٨) ابن خلدون ، المقدمة ١/ ٣٦٨

أفراد المجتمع القاهرى نحو امتلاك وبناء المنشآت والمبانى ، فكان للمماليك الأسدية والصلاحية [١] العديد من المنشآت والمبانى فى القاهرة ظلت تحمل أسمائهم ردحا من الزمن [٢] . خاصة وأن صلاح الدين الأيوبى قد شجع على مثل هذه الاعمال ، فقام ببيع العديد من المنشآت التى ورثتها دولته عن الفاطميين وأتباعهم [٣] ، بالإضافة بيعه لمساحات من الأراضى فى المدينة الكبرى ، اذ أن تقى الدين عمر [٤] اشترى جزيرة الروضة من بيت المال ليوقفها على مدرسته التى بناها فى ذلك الوقت [٥] . كذلك فإن تراكم الثروة ، سيسهم بطبيعة الحال فى ايجاد مظاهرُ الرخاء الاقتصادى الذى تميزت به الحياة الاجتماعية فى مصر فى ذلك الوقت ، الذى ترتب عنه نتائج عمرانية هامة ، سنشير إليها فيما يلى .

ب : انتشار الرخاء الاقتصادى :

تميزت الحياة الاجتماعية فى مصر فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، بانتشار الرخاء والرفاه ، وهذه المظاهر لن تكون موجودة لو لم يصاحبها رخاء فى الأوضاع الاقتصادية ، كانعكاس لتحسن النشاط الاقتصادى وتراكم الثروة ، الذى سبق الإشارة إليه . وبما أن هذا الرخاء والرفاه كان مظهرا اجتماعيا سائدا ، فإن ذلك يدل على أنه لم يكن قاصرا على الأمراء من البيت الأيوبى وكبار رجال الدولة الذين كانوا يعيشون فى هذه الحياة فحسب [٦] ، بل تجاوز ذلك إلى سائر أفراد الشعب، حيث

---

(١) المماليك الأسدية تنسب إلى أسد الدين شيركوه ، أما الصلاحية فينسبون إلى صلاح الدين الأيوبى . العبادى ، قيام دولة المماليك ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٢) العبادى ، م . س ، ص ٩٠ ـ ٩٢ .

(٣) الفتح البندارى ، سنا البرق الشامى ، ص ٦٠ ، المقريزى ، الخطط ١/ ٤٩٦ .

(٤) هو الملك المظفر تقى الدين عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب المشهور بصاحب حماه (ت ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م) ، ابن أخى السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى . وكان ينوب عنه فى مصر أثناء غيابه . وظل كذلك إلى سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م حيث ولاه صلاح الدين مدينة حماه واشتهر بها. عنه انظر ابن خلكان وفيات الأعيان ٣/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧ .

(٥) سيرد ذكر ذلك لاحقاً

(٦) هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبى ، ص ص ١٩٢ ، ٢٠٠ .

أخذت الكثير من الموارد المالية للبلاد بالتحول إلى أيدى هذه الفئة من الناس . فلقد امتاز العصر الأيوبى بكثرة النفقات المالية التى تطال وجوه البر وأعمال الخير المختلفة مما سيساعد بدون أدنى شك فى وصول الكثير من الأموال إلى سائر أفراد الشعب خاصة المحتاجين منهم (١) ، وهذه الظاهرة تزعمها الأيوبيون أنفسهم ، الذين وسمهم القاضى الفاضل بأنهم آفة على الأموال لكثرة ما ينفقون (٢) . فالناصر صلاح الدين اشتهر بالكرم وحبه لأعمال البر والخير (٣) بصورة لم يسبق لها مثيل فى ذلك العصر وكان حريصا على أن تصل عطاياه إلى سائر الناس على اختلاف درجاتهم (٤) .

بل ان رعايته كانت تصل إلى الغرباء الوافدين إلى بلاده من طلاب العلم وصوفية وغيرهم (٥) ، ويهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال (٦) التى لم يكن يحرص على أن يكون فيها احتياطات مالية ، فالأموال التى كانت لدى الخليفة الفاطمى العاضد وتلك التى جمعها عمه أسد الدين شيركوه قام بانفاقها عندما آلت إليه مقاليد الأمور (٧) . بل ان سياسته المالية هذه كانت سببا فى احراج متولى الشؤون المالية فى دولته ، فكان نوابه على المال (.. يخفون عليه شيئا من المال حذرا أن يواجههم بهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه .) (٨) ولم يكن هذا المظهر الانفاقى قاصرا على صلاح الدين ، وإنما تجاوزه إلى رجال الدولة نفسها وأقربائه فأخاه شمس الدولة توران

---

(١) محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ، القاهرة ١٩٦٣ م ص ٦٣.

(٢) جمال الدين بن نباتة (ت ٧٦٢ هـ / ١٣٧٠ م) مختارات من كلام القاضى الفاضل ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٨٨٢ ورقة ١٠ .

(٣) الاسحاقى ، محمد عبد المعطى بن أحمد (ت /) . لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من الدول ، مخطوط بمكتبة أسعد أفندى ، باسطنبول رقم ٢٣٦٧ ورقة ١٦٤ .

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٤٠ ـ ٤١ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٧ / ١٥٢ .

(٥) ن . م . س .

(٦) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٧ .

(٧) أبو شامة ، الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٠٨ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٧ / ١٥٥ .

(٨) ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ١٧٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شاه اشتهر بالكرم وكثرة الانفاق وسعة العطاء ،. بل ان خصاله هذه جعلته يموت وهو مدان بمبالغ كبيرة قضاها عنه صلاح الدين [(١)] . كذلك اشتهر تقى الدين عمر بالسعى وراء أعمال البر والحسنات فكان (.. كثير الإحسان إلى العلماء والفقراء وأرباب الخير) [(٢)] .

إلا أنه من المؤكد أن أبرز الأسباب التى أدت إلى زيادة انتشار الشروة بين أفراد المجتمع القاهرى فى عصر صلاح الدين الأيوبى ، كان نتيجة تحول الدولة ورجالها إلى مستهلكين رئيسيين من أسواق المدينة ، بما أدخله صلاح الدين الأيوبى من تغيرات على أوضاع الحواصل التى كانت موجودة فى عهد الفاطميين .

فلقد كان للدولة الفاطمية العديد من المنشآت والصناعات المختلفة التى تقوم بتوفير الاحتياجات المتنوعة لهم ولعامتهم ورجال دولتهم . وكانت هذه المنشآت تعرف بحواصل الخلافة ، وهى تنقسم إلى خمسة أقسام [(٣)] ، الأولى منها الخزائن ، والتى بلغ عددها ستة عشرة صنفاً ، كما وردت عرضا فى نص للمقريزى عنها [(٤)] . أما القسم الثانى فهو حواصل المواشى ، التى تنقسم إلى قسمين رئيسيين ، أولهما الأسطبلات وما يجرى فى مجراها ، والثانى المناخات [(٥)] ، وكانت تحتوى أعداد

---

(١) المقريزى ، الخطط ٢/ ٣٨ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ورقة ٤٣ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٣/ ٤٥٦ .

(٣) زكى حسن ، الأعمال الكاملة (كنوز الفاطميين) ٤/ ١٦ .

(٤) وهى خزائن : الكتب والبنود ، والسلاح والتجمل ، والورق ، والسروج ، والفرش والأمتعة والكسوات والادم والشراب ، والتوابل والخيم ، والجواهر والطيب والطرائف ، ودار التعبئة ، ودار افتوكين ، ودار العلم ، ودار الفطرة . المقريزى ، الخطط ١/ ٤٠٨ . وكان يشرف على هذه الخزائن كبار الأستاذين المحنكين وكل منهم باسم حامى أو مقدم أو متولى . ويتبعهم جهاز ادارى ضخم من المشرفين والفراشين . انظر عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ٢/ ١٣ .

(٥) وهذا اللفظ مأخوذ من اناخة الابل أى بروكها ، ابن سيدة ، أبو الحسن على بن إسماعيل (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٦٥ م) المخصص ، تحقيق لجنة من أحياء التراث العربى فى دار الافاق الجديدة بيروت جـ ٢ السفر ٧ ص ٩٣ .

كبيرة من الجمال ، يقصر عنها الحد على حد تعبير القلقشندى [(١)] . والقسم الثالث من حواصل الخلافة هو مخازن الغلال وشون الأتبان ، حيث كان للفاطميين عدد كبير من الاهراء لخزن الغلال ، التى كانت تتكدس فيها بكميات كبيرة [(٢)] ، وكانت تتوزع على مواضع عدة فكان بعضها يوجد فى القاهرة وأخرى فى الفسطاط والمقس [(٣)] ، بينما كانت شون الأتبان تقع فيما بين الفسطاط والقاهرة ، وتحتوى على الاتبان الخاصة باحتياجات المواشى الديوانية [(٤)] . والقسم الرابع الخاص بالبضائع ، ويشمل العديد من المواد الخام ، كالأخشاب والحديد والزفت وغيرها [(٥)] ، يوجد بالمناخ المنشآت التى كانت تخزن فيها هذه البضائع [(٦)] ، بينما كان القسم الأخير من هذه الحواصل مختصا بالأطعمة والاسمطة [(٧)] وما يرتبط بها ، وكان يتبعها المطابخ [(٨)] والطواحين [(٩)] ودار الفطرة [(١٠)(١١)] .

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ٣ / ٤٧٥ .

(٢) المقريزى ، الخطط ١ / ٤٦٤ ـ ٤٦٥ .

(٣) القلقشندى ، ن . م . س .

(٤) المقريزى ، م . س ، ٢/ ٤٤٠ ، القلقشندى ، م . س .

(٥) القلقشندى ، ن . م . س . عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ٢/ ٢٧ .

(٦) المقريزى ، م . س ٢/ ٤٤٤ .

(٧) ومفردها سماط وتجمع على سماطات وهى ما يمد من الطعام ، الزبيدى ، تاج العروس ٥/ ١٦٢ وكان للفاطميين اسمطة تمتد فى شهر رمضان والعيدين . انظر القلقشندى ، م . س ٣/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤ .

(٨) كانت هذه المطابخ تقع خارج القصر ، وتتصل به عن طريق ممر تحت الأرض ، وتقوم بتحضير أطعمة الخليفة والموظفين . عبد المنعم ماجد ، ن . م . س .

(٩) وهى تنقسم إلى قسمين ، احداهما لغلال القصر والأخرى للموظفين ، عبد المنعم ماجد ، ن . م . س .

(١٠) القلقشندى ، م . س ٣/ ٤٧٦ .

(١١) كان يعد فى هذه الدار ما يلزم العيد من حلوى وغيرها ، وبها تحفظ المواد الخاصة بذلك . المقريزى ، م . س ١/ ٤٢٥ ـ ٤٢٧ ، القلقشندى م . س ٣/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥ ، عبد المنعم ماجد ، م . س ٢/ ٢٧ ـ ٢٨ .

لقد كان لهذه الحواصل مهمات متعددة الوجوه ، فهى تقوم بتوفير شروط حياة الترف التى كان يعيشها الفاطميون واتباعهم ، علاوة على دورها فى سياسة الانفاق العام التى تتبعها الدولة . فبالنسبة لحياة الترف والرفاه ، فلقد كان من مهامها توفير احتياجات هذه الحياة ، التى بالغ فيها الفاطميون كثيرا ووصلوا بها إلى حد لم تعرفه مصر الإسلامية فى تاريخها ، مع وجود ميل شديد إلى اقتناء التحف وجمع الكنوز(١) ، حيث يؤثر عن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى (٢) بأنه لما دخل إلى مصر قادما من المغرب جلب معه الكثير من الأموال والنفائس (٣) . ولذلك فقد كان للخلفاء الفاطميين خزائن متخصصة لحفظ نفائسهم وتحفهم ، فخزانة الجوهر والطيب والطرائف (٤) يوجد فيها من الجوهر ما لم يكن يعرفه تجار البلاد أنفسهم (٥) . ولكى يكون الترف أكثر امعانا اقتنى الفاطميون الآنية المرصعة بالجواهر (٦) ، فكانت الخزانة سابقة الذكر تحوى على السكاكين الذهبية والفضية والمرصعة بالجواهر (٧) ، فى

---

(١) زكى حسن ، الأعمال الكاملة ٤/ ٦ .

(٢) هو أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم العبيدى ـ (٣٤٢ ـ ٣٦٥ هـ / ٩٥٣ ـ ٩٧٥ م) من خلفاء الفاطميين ضمت مصر إلى حكمهم فى عهده وأسس القاهرة . عنه انظر : ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد ص ٨٣ . ابن سعيد الأندلسى ، النجوم الزاهرة ص ٣٨ ـ ٤٥ ، ابن ميسر ، تاج الدين محمد بن على بن جلب راغب (ت ٦٣٣ هـ / ١٢٧٨ م) أخبار مصر ، (بانتقاء المقريزى) تحقيق ايمن فؤاد سيد ، القاهرة ص ١٥٩ ـ ١٦٨ . وابن دقماق ، الجوهر الثمين ص٢٠٠ ـ ٢٠٢ .

(٣) الأمين عوض الله ، الحياة الاجتماعية ص ١٩ .

(٤) وهى خزانة كبيرة بل عدة خزائن كما يعتبرها البعض ، جعلها الفاطميين لحفظ كنوزهم الثمينة وكان بها الجوهر والالات والأوانى المذهبة وغيرها من نفيس التحف والصناعات المختلفة الأنواع . انظر المقريزى . الخطط ١/ ٤١٤ ـ ٤١٦ ، وزكى حسن ، م . س ٤/ ٤١ ـ ٥١ . عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ٢/ ١٧ ـ ٢٠ .

(٥) زكى حسن ، م . س ٤/ ٤١ ـ ٤٢ .

(٦) ثناء بلال ، الملابس فى العصرين القبطى والإسلامى ص ٣٤٠ .

(٧) المقريزى ، الخطط ١/ ٤١٤ ، زكى حسن ، الأعمال الكاملة ، ٤٤/٤ ، عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ٢/ ١٨ ـ ١٩ .

حين أن خزانة الكسوه [١] ، تحتفظ بأجود الثياب وأفخرها ، القادمة من دور الطراز فى تينيس [٢] ودمياط [٣] والإسكندرية[٣] ، علاوة على ما يرد من أرجاء العالم المختلفة [٤] . بينما كان للفرش الفاخرة التى توضع فى قاعات القصور ، خزانة تعرف بخزانة الفرش والأمتعة ، تحتوى على الفرش والستور التى يزدان بعضها بخيوط الذهب والفضة [٥] . كما أن الفاطميين كانو يوفرون فى خزائنهم مستلزمات الرعاية الطبية ، فخزانة الشراب يوجد بها أصناف مختلفة من المعاجين والادوية [٦] التى تلزم أطباء القصر لصرفها (... للجهات وحواش القصر) [٧] وكان من مهام الخزائن الخاصة بالاطعمة حفظ المواد الغذائية اللازمة للمطابخ [٨] التى تقوم بإعداد اسمطة الخلفاء ، ولقد بلغ بالفاطميين الترف لدرجة أنه كان لهم خزانة تعرف بدار التعبية ، مهمتها

---

(١) هذه الخزانة كانت تحفظ فيها أجود الأقمشة والثياب ، وكانت على قسمين ، قسم خاص بالخليفة وقسم خاص باطلاقاته من الثياب والأقمشة . انظر المقريزى ، م . س ١/ ٤٠٩ ـ ٤١٣ . القلقشندى صبح الأعشى ، ٣/ ٤٧٢ ، زكى حسن ، م . س ٤ / ٣٥ ـ ٣٩، عبد المنعم ماجد ، م . س ٢/ ١٥ ـ ١٧ .

(٢) من أشهر مدن الدلتا فى مصر وتقع فى جزيرة يحيط بها النهر والبحر اللذان يكونان بحيرة حولها وتشتهر هذه المدينة بعمل القماش والاردية الملونة . المقدسى ، أحسن التقاسيم ص ٢٠١ . ياقوت ، معجم البلدان ٢/ ٥١ ـ ٥٤ .

(٣) القلقشندى ، م . س ٣/ ٣٧٧ ، عبد المنعم ماجد ، م . س ٢/ ١٦ .

(٤) زكى حسن ، م . س ٤/ ٣٥ .

(٥) المقريزى ، م . س ١/ ٤١٦ ـ ٤١٧ ، زكى حسن ، م . س ٤/ ٥٢ ـ ٥٣ ، عبد المنعم ماجد ، م . س ٢/ ٢٠ ـ ٢١ .

(٦) علاوة على احتوائها على أنواع مختلفة من الأشربة والمربيات مختلفة الأنواع التى تقدم فى مجالس الخليفة ، المقريزى ، م . س ، ١/ ٤٢٠ ، القلقشندى ، ن . م س ، عبد المنعم ماجد ، م . س ٢/ ٢٣ ـ ٢٤ .

(٧) المقريزى ، ن . م . س .

(٨) وكانت هذه الخزائن تحتوى على العديد من أصناف المواد الغذائية من السكر والعسل والزيوت بأنواع مختلفة ، القلقشندى ، ن . م . س .

توفير الورد والأزهار التى تزين قاعات القصور واجنحتها المختلفة ، علاوة على ما يحتاجه الجهات والمحارم ، والامراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الحاشية والمستخدمين [١].
وكان من مهام هذه الحواصل أيضا توفير المستلزمات الخاصة بالمناسبات المختلفة مثل المواكب الرسمية الخاصة بالاحتفالات علاوة على الكثير من المستلزمات التى يحتاجها رجال الدولة . فخزائن الجوهر والطيب والطرائف (.. كان بها الأعلام والجوهر التى يركب فيها الخليفة فى الأعياد ويستدعى منها عند الحاجة ويعاد إليها عند الغنى ..)[٢] . ومن مهام خزائن الأسلحة وخزائن التجمل التى تتبعها[٣] توفير الرايات والأسلحة التى تستخدم فى المواكب كما يشير إلى ذلك ابن الطوير أثناء حديثه عن موكب أول العام [٤]. وكانت الاسطبلات [٥] توفر الحيوانات الخاصة بركوب الخليفة والأمراء والخاصة ، إضافة إلى تلك الخاصة بالمواكب حيث توزع كعوارى للمشاركين فيها [٦] ، كما كانت تقوم بتهيأة الحيوانات الخاصة بركوب أرباب الرتب العالية والمستخدمين من مدنيين وعسكريين[٧] . فقاضى القضاه كان يقدم

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١/ ٤٢٢ . عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ٢/ ٢٤ ـ ٢٥ .

(٢) المقريزى ، م . س ١/ ٤١٤ .

(٣) عندما يتحدث القلقشندى عن هذه الخزائن يجعل كل واحدة منها خزانة مستقلة بذاتها والراجح أنها صنف واحد ينقسم إلى عدة أقسام بعضها لحفظ الأسلحة المستعملة فى الحروب للقوات البرية والأسطول وأخرى خاصة لحفظ الأسلحة الثمينة وما يستخدم منها فى المواكب والحفلات ، انظر المقريزى : م . س ١/ ٤١٧ ـ ٤١٨ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ٣/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤ . زكى حسن ، الأعمال الكاملة ٤/ ٥٤ ـ ٥٨ ، عبد المنعم ماجد ، م . س ١/ ٢٠ ـ ٢١ .

(٤) نقلا عن المقريزى ، م . س ١/ ٤٤٦ ، ولاحظ ما يذكره القلقشندى عن استيفاء الاستعدادات الخاصة بهذا الموكب من حواصل الخلافة . القلقشندى ، م . س ٣/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠ وانظر أيضا زكى حسن ، م . س ٤/ ٥٧ .

(٥) كان يوجد فى القاهرة عدد من الاصطبلات ، من أهمها اصطبلا الخليفة وهما الطارمه والجميزة حيث كان يوجد بهما ألف رأس من دواب الركوب ، انظر عنهما المقريزى ، م . س ١/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥ .

(٦) المقريزى ، م . س ١/ ٤٤٤ ، القلقشندى ، م . س ٣/ ٤٧٤ ، عبد المنعم ماجد ، م . س ٢٥/٢.

(٧) المقريزى ، م . س ١/ ٤٤٤ .

له من أسطبلات الخليفة بغلة يستخدمها فى تنقلاته [١] ، وفى حين أن كل جندى يعين فى الجيش الفاطمى تثبت له فرس جيدة [٢] بينما كان على خزانة السروج [٣] ، توفير أدوات الركوب الخاصة بكل ذلك [٤] وكان على خزانة الأسلحة، توفير ما يحتاجه الجيش منها ليخوض بها المعارك [٥] ، بل ان الأسلحة الشخصية التى لدى الأمراء ورجال الحاشية كانت توزع عليهم من هذه الخزانة كعوارى ، حيث يعاد إليها ما بحوزة أى منهم من الأسلحة بعد وفاته [٦] . ومن المرجح ان الدولة الفاطمية كان توفيز الأثاث وما يتعلق به لمنازل الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة ، فالمسبحى يذكر أثناء حديثه عن سكنى أحد قادة الجيش الفاطمى فى دار قرب القصر ، بأنه قد حمل إلى داره (.. من بين المال من الفروش والستور والالات كل قطعة طريفة معجزة ..) [٧] وهى مقتنيات لا بد وأن قامت بتوفيرها حواصل الخلافة عن طريق خزائنها ، ولا شك بأن الدار التى كانت مخصصة للوزراء كانت تخضع لنفس الاعتبارات [٨] . ولم يكن انفاق الفاطميين على اتباعهم قاصرا

---

(١) المقريزى ، م . س ١/ ٤٠٣ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ٣/ ٤٨٢ .

(٢) المقريزى ، م . س ، ١ / ٤٠١ .

(٣) كانت هذه الخزائن تحوى من السروج وغيرها من أدوات الركوب ، ما لا تحتوى عليه مثلها مملكة من الممالك على حد تعبير بعض المؤرخين وكانت بعض هذه المقتنيات يمكن اعتباره من النفائس . انظر المقريزى ، م . س ١/ ٤١٨ . القلقشندى ، م . س ٣/ ٤٧٣ ، زكى حسن ، الاعمال الكاملة ٤/ ٥٩ ـ ٦١ .

(٤) المقريزى ، م . س ١/ ٤١٨ ، القلقشندى ، ن . م . س ، زكى حسن ، م . س ٤/ ٥٩ .

(٥) المسبحى ، أخبار مصر ، ص ١٧٩ ، المقريزى ، م . س ١/ ٤١٧ ـ ٤١٨ . عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ٢/ ٢٠ ـ ٢١ .

(٦) زكى حسن م . س ٤/ ٥٨ .

(٧) المسبحى ، م . س ، ص ٢٠٠ .

(٨) كان فى القاهرة دار محددة لسكنى الوزير ، ولقد كانت فى بادئ الأمر فى موضع دار الديباج ثم نقل الوزير الفاطمى أمير الجيوش بدر الجمالى (٤٦٦ ـ ٤٨٧ هـ / ١٠٧٣ ـ ١٠٩٢ م) سكنى الوزراء إلى دار كبيرة بناها فى حارة برجوان ، ليقوم ابنه الوزير الفاطمى الأفضل (٤٨٧ ـ ٥١٥ / ١٠٩٤ ـ ١١٢١ م) ببناء دار جديدة بجوار القصر الشرقى الكبير إلى الشمال منه تجاه رحبه باب العيد عرفت بدار الوزارة الكبرى . واستمرت كذلك حتى أواخر الحكم الفاطمى حيث جعلها صلاح الدين بعد القضاء على دولتهم دارا للسلطنة . انظر المقريزى الخطط ١/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ .

على ما سبق ذكره من جوانب فحسب ، بل ان جزءاً كبيرا من الأغذية كانت الدولة توفرها لموظفيها واتباعهم ، بحيث لا يبقى لهم من الاحتياجات الغذائية اليوميـة سوى (.. اللحم والخضروات ..) [١] كما يذكر ابن الطوير أثناء حديثه عن خزائن دار أفتكين [٢] ، التى كانت تحتوى على الكثير من أنواع المواد الغذائية [٣] . كما كانت « الأهراء » تطلق الأقوات (... لأرباب الرتب والصدقات وأرباب الجوامع والمساجد وجرايات العبيد السودان .. وجرايات رجال الأسطول ..) [٤] بل ان توفير الأغذية من قبل الدولة يتجاوز مرحلة المواد الضرورية إلى مرحلة توفير المواد الغذائية الثانوية من الحلوى وغيرها خاصة فى المناسبات ، فدار الفطرة التى تحوى على المواد الخاصة بصناعة الحلوى [٥] ، وتقوم فى شهر رمضان بتوزيع المواد الخاصة بها ، علاوة على توزيع المصنوعة فيها [٦] . فكانت تتولى تقديمها لأرباب الرسوم من حملة السيوف والأقلام [٧] . فيعم ذلك الكبير والصغير ويصل إلى مختلف طبقات أتباع الفاطميين ولا يفوت أحد منهم شيء من ذلك على الاطلاق [٨] . كما كانت دار الفطرة تقوم بتوزيع الحلوى فى المناسبات المختلفة . كالاحتفالات بالمولد النبوى [٩] وغيره ، فتوزع

---

(١) المقريزى ، م . س ١/ ٤٢٢ .

(٢) هذه الخزائن كانت دارا لأحد قواد الجيش الفاطمى ومن مماليك أمير الجيوش بدر الجمالى ٤٦٦ ـ ٤٨٧ هـ / ١٠٧٣ ـ ١٠٩٤ م قتله الأفضل ابن أمير الجيوش ٤٨٧ ـ ٥١٥ / ١٠٩٤ ـ ١١٢١ م فى عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م بعد ما شق عصا الطاعة عليه ، فجعلت داره من جملة الخزائن وكان بها يحفظ الشمع القادم من الإسكندرية برسم الوقودات بالاضافة إلى العديد من أنواع المواد الغذائية كالاعسال والسكر والقند الشيرج والزيت والفستق وما يجرى فى هذا المجرى . انظر المقريزى، م . س ١/ ٤٢٢ / ٤٢٣ .

(٣) ن . م . س .

(٤) المقريزى ، م . س ١/ ٤٦٥ .

(٥) المقريزى ، م . س ١/ ٤٢٥ .

(٦) المقريزى ، م . س ١/ ٤٢٦ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ٤/ ٥٢٥ ، الأمين عوض الله ، الحياة الاجتماعية ص ٣٢ .

(٧) الأمين عوض الله ، م . س ص ٣٨ .

(٨) المقريزى : ن . م . س .

فيه الحلوى على أرباب الرسوم كقاضى القضاه وداعى الدعاه ، والخطباء والمدرسين بجوامع الفسطاط والقاهرة وغيرهم ممن لهم اسم ثابت فى الديوان (١) .

ولكى يتسنى للفاطميين سهولة توفير هذه الاحتياجات لهم ولأتباعهم عمدوا إلى إيجاد تنظيمات حكومية مناسبة تتولى ذلك ، فالخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، كان يجمع أفضل الصناع ويلحقهم بخدمته فى قصره ليعملوا فى صناعة الدولة (٢) ، وكان يطلب إلى عماله فى الأقاليم أن يرسلوا إليه من يرون فيهم الصلاح للقيام بمثل هذه الأعمال(٣) كما احتوت كل خزانة من خزائن الخلافة على صناع يشتغلون فيها اذا كانت محتوياتها تتطلب ذلك (٤) ، فخزانة الكسوة كان يفصل فيها كسوات الثياب التى توزع على الأتباع أو يختص بها الخليفة(٥) ، فى حين كانت دار الديباج (٦) مخصصة لصناعة الحرير الديباج(٧) بينما كان من مهام خزانة السلاح صناعة الأسلحة كالسيوف والدروع وغيرها (٨) ، وان كان من المؤكد ان الأسلحة الثقيلة مثل المنجنيقات(٩)

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ٣/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩ .

(٢) زكى حسن ، الاعمال الكاملة ٤/ ٧٩ .

(٣) زكى حسن ، ن . م . س .

(٤) زكى حسن ، م . س ٤/ ٢٦ .

(٥) المقريزى ، الخطط ١/ ٤٠٩ ، ٤١٢ ، القلقشندى ، م . س ٣/ ٤٧٢ ، عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ٢/ ١٦ .

(٦) الديباج نوع من القماش ، وأصله فارسى معرب كما ذهب سيبويه وهو على نوعين الرقيق حسن الصنعة ويعرف بالرفرف ، والخشن ويطلق عليه الاستبرق ، ابن سيدة ، المخصص جـ ١ السفر ٤ ص ٧٦ .

(٧) المقريزى ، م . س ١/ ٤٦٤ .

(٨) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ٢/ ٢٢ ـ ٢٣ .

(٩) وهو عبارة عن اله خشبية لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وهو الذى تجعل فيه كفة المنجنيق التى يوضع فيها المقذوفات كالحجارة وزجاجات النفط والزرنيخ وغير ذلك ، ومنه الكبير والصغير وله أنواع أجودها العربى ومنها التركى والأفرنجى ، انظر : الطرسوسى ، تبصرة أرباب الألباب ص ١٦ ـ ١٨ . أحمد محمد عدوان ، العسكرية الإسلامية فى العصر المملوكى ، الرياض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٥ م ص ٦٤ ـ ٦٥ ، حسن إبراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ، القاهرة ، ط . الثالثة ١٩٦٧ م ، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

والدبابات[١] كانت تصنع في المناخ ، الذى كان يحتوى على العديد منها وبه أعداد كبيرة من الصناع ذوى الإختصاصات المختلفة من حدادين ونجارين ودهانين وفعلة وغيرهم ، يرجح بأنهم كانو يختصون بانتاج العديد من الصناعات وعلى الأخص الثقيلة منها [٢] . ومن مهام خزانة السروج ، صناعة أدوات الركوب المختلفة ، وكان بها عدد جم من أهل هذه الصنعة [٣] أما خزائن دار افتكين ، فلقد كان من مهامها صناعة الشمع وتوفيره عند الحاجة في المناسبات وغيرها ، وقد اورد المقريزى انه سبك الشمع بها لاستخدامه أثناء الأحتفال بليالى الوقود الأربع [٤] وكان بخزانة البنود [٥] . عدد كبير من الصناع حيث كان بها ثلاثة آلاف صانع في عهد الخليفة الظاهر [٦] .

ولكى يحافظ الفاطميون على استمرارية الصناعة وتطويرها ، فقد حرصوا على توفير المواد الخام المختلفة الأنواع التى تتطلبها هذه الصناعات فحواصل البضاعة كان بها الأخشاب والحديد والزفت والقنب والكتان وغيرها من المواد [٧] ، وكان موقعها في أواخر العصر الفاطمى بالمناخ ، كما يشير إلى ذلك ابن الطوير [٨] ، بل من الواضح ان الدولة الفاطمية كانت تسيطر إلى حد بعيد على تجارة المواد الخام التى تلزم

---

(١) وهى عبارة عن برج متحرك لها طوابق عدة في بعض الأحيان أولها يصنع من الخشب وثانيها من الرصاص وثالثها من الحديد والرابع يكون من النحاس ، ولها عجلات في أسفل ، ويتجه بها إلى الأسوار لثقبها ويكون في داخلها الجنود . انظر الطرسوسى ، م . س ص ١٨ . أحمد عدوان ، م . س ص ٦٣ ، حسن إبراهيم حسن ، م . س ص ٣٥٨ .

(٢) المقريزى ، م . س ١/ ٤٤٤ .

(٣) المقريزى ، م . س ١/ ٤١٨ ، زكى حسن ، الأعمال الكاملة ٤/ ٥٩ .

(٤) المقريزى ، م . س ١/ ٤٦٧ .

(٥) كلمة فارسية ويقصد بها هنا العلم الكبير وجمعه أعلام . قال الشاعر : * واسيافنا تحت البنود الصواعق * الجوهرى ، إسماعيل بن حماد ت ٣٩٣ هـ ١٠٠٢ م ، تاج اللغة وصحاح العربية تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، القاهرة ١٤٠٢ هـ / ٢ / ٤٥٠ .

(٦) المقريزى ، م . س ١ / ٣٥٥ ، ٤٢٣ .

(٧) المقريزى ، م . س ١/ ٤٤٤ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ٣/ ٤٧٥ عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ٢/ ٢٧ .

(٨) انظر المقريزى ، ن . م . س .

هذه الصناعات اذ انها مارست التجارة في أنواع مختلفة من البضائع لتوفير هذه الاحتياجات ولجنى الأرباح أيضا (١) . وبالتالى فإن وجود الجمال في المناخات لابد وأن من جملة أهدافه خدمة الأغراض التجارية للدولة .

لقد كان عصر صلاح الدين الأيوبى مرحلة تحول جذرى في أوضاع الحواصل التى كانت موجودة في العصر الفاطمى ، فعلى الرغم من بقاء بعض هذه الحواصل كما يشير إلى ذلك النصوص التاريخية، حيث ترد الإشارة إلى المطابخ والأسطبلات السلطانية (٢) ، بيد أن هذا الابقاء لا يعنى أنها ظلت على أوضاعها التى كانت عليه في السابق ، اذ تراجع حجمها عن ذلك كثيرا فالخزانات جرى القضاء على جهازها بشكل كامل تقريبا ، وتم التخلص من محتوياتها بعد القضاء على الدولة الفاطمية ٥٦٩هـ/١١٧٣م فأخذ الناصر صلاح الدين منها ما يحتاجه لنفسه ، وجعل قسما آخر هبات وهدايا نال منه أقربائه ورجال دولته الشيء الكثير ، وما بقى جرى بيعه ، وكان من الكثرة لدرجة ان البيع استمر فيه لمدة عشر سنين (٣) . ولم يبق من هذه الخزانات سوى خزانتين حسبما تذكر المصادر، الأولى عرفت بالخزانة « السعيده » مهمتها توفير ما يحتاجه السلطان من أثاث وغيره(٤) والثانية خزانة الأسلحة (٥) وهى خزانة لا بد وأن تبقى عليها الدولة لدواعى الحرب ، أو تثبيت الأمن اذا ما احتيج إلى السلاح في ملمة من هذه الملمات . ولقد نتج عن اختفاء الخزانات الفاطمية ان اختفى معظم الجهاز الصناعى الكبير الذى كان يتبعها ، حيث اختفت مصانع النسيج التى كانت للدولة الفاطمية ، اذ ان الدولة الأيوبية أصبحت توفر احتياجاتها من الملابس

---

(١) مارست الدولة الفاطمية التجارة بالغلال والصابون ، والخشب والحديد وغير ذلك ، انظر أحمد الصاوى ، المجاعات في العصر الفاطمى ، ص ٩٧ ـ ٩٨ .

(٢) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ص : ٣٥٠ ، ٣٥٤ .

(٣) وكانت هذه المحتويات عبارة عن ذخائر وتحف واثاث ، ولا تذكر المصادر بأن صلاح الدين قد وجد أموال كثيرة ، ابن الأثير ، الكامل ٩ / ١١٢ ، الفتح البندارى . سنا البرق الشامى ص ٥٩ ، أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٧ ، المقريزى ، الخطط ١/ ٤٩٦ ، ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

(٤) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ص ٢٧١ .

(٥) ابن مماتى : م . س ، ص ٣٥٤ .

الخلع والتشاريف ، التى ينعم بها السلطان على رجال دولته عن طريق السوق [١]
كذلك فإن الخزانة المعدة لحياكة ملابس الخليفة فى العصر الفاطمى لم يعد لها وجود
فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، اذ يلاحظ أن شعار دار الطراز [٢] قد اختفى من على
المنسوجات المصنوعة فى مصر فى عهد الأيوبيين[٣] . بل ان تحول دار الديباج إلى
منطقة سكنية فى عصر صلاح الدين الأيوبى[٤] ، يعد دليلا قويا على اختفاء مصانع
الدولة فى هذا المجال . ومن المؤكد أن الصناعات التى كانت فى المناخ قد انتهت فى
تلك المرحلة أيضا ، ولم يعد له وظيفة يقوم بها ، فأضحى خاويا على عروشه [٥] ، الا
ان الغاء مصانع الدولة لم يكن يشمل كل الصناعات ، إنما شمل تلك التى يكون
اختفائها او اضطراب أوضاعها ليس من الأمور المضرة بالدولة ، ولذلك فلقد حرصت
الدولة على أن يكون لها مصانع للأسلحة [٦] نظرا لأهمية هذه الصناعة بالنسبة لها
خاصة فى تلك الفترة ، حيث حملت على عاتقها ازالة الوجود الصليبى من الشام .
وبطبيعة الحال فإن حواصل البضاعة التى كانت تغذى هذه الصناعات قد تقلص
حجمها أيضا ، فابن الطوير عندما يتحدث عن أوضاع المناخ فى عصر صلاح الدين
يذكر بأن الدولة الأيوبية استفادت كثيرا من محتوياته من المواد الخام التى كانت

---

(١) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٢) وهذا اللفظ « طراز » فى الاصل مشتق من كلمة ترازيدن « بمعنى التطريز والنسيج ، وهو يدل على ملابس الخليفة أو الأمير أو رجال الحاشية ، ولا سيما اذا كان فيها شيء من التطريز ، وعليها أشرطة من الكتابة يرد فيها اسم الخليفة وغير ذلك من الكتابات كالادعية وموقع المصنع ، ودار الطراز هى مصانع تبنتها الدولة لصناعة النسيج ، حيث كان منها الخاص بالخليفة ورجاله ومن ينعم عليهم ، والعام الذى يباع منه فى الأسواق ، انظر زكى حسن ، فنون الإسلام ص ٣٤٦ ، سعاد ماهر ، النسيج الإسلامى ١٩٧٧ م القاهرة ص ٢٤ ـ ٢٨ ، نعمت إسماعيل سلام ، فنون الشرق الأوسط فى العصور الإسلامية ، ط الثانية القاهرة ص ٩٥.

(٣) سعاد ماهر ، م . س ، ص ٢٥ .

(٤) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٥) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٥٣ .

(٦) ابن مماتى ، م : س ، ص ٣٥٤ .

موجودة من العصر الفاطمى ، ولكنه لا يشير إلى أنها لجأت إلى المحافظة على وضعه السابق ، أى أنها لا تعوض عما يؤخذ منه من بضائع ببضائع مماثلة [١] ، الأمر الذى افقده وظيفته كما سبق أن ذكرنا .

ان هذا التغير الكبير الذى طرأ على الحواصل يعكس تغيرات فى وظيفتها ، حيث تراجع حجم الدور الذى كانت تقوم به إلى حد بعيد ، نتيجة اختفاء مظاهر الترف لدى السلطة نفسها ، فصلاح الدين الأيوبى كان يميل فى حياته الخاصة والعامة إلى الزهد والبعد عن الترف ، فضلا على أن الدولة نفسها لم تعد تعبر عن حكمها بإظهار الترف ، يدل على ذلك ما طرأ على المواكب من تغيرات فى مستواها ، حيث انخفض مستوى الفخامة كثيرا على ما كانت عليه فى العصر الفاطمى ، كما أن الدولة نفسها لم تعد ملزمة بتقديم التزامات عينية لرجالها وعلى الأخص الجند ، الذين أصبح على امرائهم المقطعيين توفير كامل تجهيزاتهم واحتياجاتهم [٢] . فأصبحت الألتزامات العينية التى تقدمها الدولة محدودة إلى حد بعيد ، فالملابس لم تعد تقدم من قبل الدولة الا كخلع وتشاريف لكبار الموظفين ومن يرى السلطان أنه أهل لانعامه [٣] كما حدث بالنسبة للقاضى الفاضل الذى خلع عليه صلاح الدين عندما ولاه الوزارة[٤] كذلك فإن الدولة لم تعد توفر الأسلحة الشخصية الخاصة بأفراد الجيش من أمراء وجند وغيرهم ، على الرغم من أن لديها خزانة وصناعة للأسلحة ، إذ أن عليهم توفير أسلحتهم بأنفسهم عن طريق شرائها من الأسواق [٥] ، وهو مظهر يمكن مشاهدته فى أوائل عصر المماليك والذى يعتبر امتدادا لحكم الأيوبيين فى تنظيماته وحضارته. ففى عهد الملك الظاهر بيبرس ، صدرت الأوامر سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٧م باعداد العدة

---

(١) انظر المقريزى ، الخطط ١/ ٤٤٤ .

(٢) حسنين ربيع ، النظم المالية ص : ٣٤ .

(٣) ويكون فى كثير من الاحيان على سبيل الهبة والأعطية ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٤/ ٥٢ - ٥٤ .

(٤) ابن اياس ، بدايع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٢٣٨ .

(٥) أحمد عدوان ، العسكرية الإسلامية فى العصر المماليكى ص ٥٣ .

لاجراء تدريبات عسكرية ، فاتجه رجال الجيش إلى سوق السلاح ، حيث كثر الازدحام عليه (... وارتفع سعر الحديد وأجر الحدادين وصناع الات السلاح) [١] . ومن المؤكد أن الدولة لم تعد ملتزمة منذ ذلك العهد بتقديم بهائم الركوب ، للموظفين ورجال الجيش ، اذا لا يخرج من الاسطبلات السلطانية إلا ما هو بحكم العادة على سبيل الهبة والأعطية التي يراها السلطان [٢] .

ان هذا التراجع في وظيفة ودور الحواصل ، جعل الدولة تلجأ إلى الأسواق المحلية في المدينة بشكل متزايد لتوفير العديد من احتياجاتها ، اذ أن سوق الشربشين[٣] الذى ظهر في عهد صلاح الدين الأيوبي [٤] ، كان يباع فيه ملابس الخلع والتشاريف التي ينعم بها السلطان [٥] ، بل ان الخزانة السعيدة كانت توفر احتياجاتها عن طريق السوق أيضا[٦] . كذلك فإن تراجع التزامات الدولة العينية تجاه رجالاتها وعلى الأخص العسكريين منهم ، جعلهم يتجهون نحو الأسواق لتوفير احتياجاتهم المختلفة ويدل على ظهور الأسواق التي تبيع احتياجات الجند من ملابس وزى وسلاح في تلك الأثناء [٧] .

ولقد ترتب على هذه التغيرات تطور في الطبيعة الاستهلاكية في القاهرة ، اذ أن الدولة ورجالها يعدان أداة الاستهلاك مهمة وكبيرة جدا [٨] ، مما يعني أن الكثير من

---

(١) المقريزى ، السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥١٣ .

(٢) القلقشندى ، م . س ، ٤ / ٥٤ .

(٣) الشربوش : هو غطاء الرأس يوضع عليها بغير عمامة ويشبه التاج ويبدو انه مثلث الشكل ، ولقد اختص الأمراء بلبسه ، ماير : الملابس المملوكية ص ٥١ .

(٤) سيرد ذكر ذلك لاحقا .

(٥) المقريزى ، الخطط ٢/ ٩٨ ، الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٧٤ مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ورقة ١١٨ .

(٦) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ص : ٣٣٠ .

(٧) سيرد ذكر ذلك لاحقا .

(٨) ابن خلدون ، المقدمة ١/ ٣٦٩ .

الموارد المالية ستتجه نحو الأسواق ومن يوجد بها من مجموعات بشرية عاملة من تجار وعمال وصناع وغيرهم فأدى ذلك بطبيعة الحال إلى توجيه المزيد من الثروات باتجاه فئات الشعب . الذين يشتغلون فى هذه المجالات وما يرتبط بها من نشاطات اقتصادية. الأمر الذى سيزيد من مقدار توزيع الثروة بين فئات الشعب المختلفة ، فتزايد الانفاق فى القاهرة بشكل عام . ويؤكد ذلك ازدهار الفنون الصناعية خلال ذلك العصر ، فأخذت الأشكال الزخرفية تميل للدقة والرقة فى أساليب الزخرفة والتشكيل كما هو ملاحظ فى الصناعات الخشبية [٢] التى زاد الاقبال عليها فى ذلك العصر ، رغم ندرة هذه المادة فى مصر فى ذلك الوقت [٣] كذلك ازدهرت المنتجات الصناعية الشعبية ، فالخزف المحزوز تحت الطلاء [٤] ، وهو خزف شعبى ظهر بمصر فى أواخر العصر الفاطمى [٥] ، شاع استخدامه فى العصر الأيوبى [٦] ، مما يعكس تطورا فى الاستهلاك الشعبى العام ، اذ ان الصناعات لا تزدهر ولا تتطور الا بزيادة الطلب عليها[٧] . بل ان مما أسهم فى زيادة الرفاه ونمو الاستهلاك فى ذلك العصر هو ما قام به صلاح الدين الأيوبى من الغاء المكوس، حيث قام أولا بإسقاط متأخرات سابقة حتى عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م بلغت قيمتها مليون دينار ومليونى أردب . غلة ،وأبطل هذه الضرائب من الدواوين [٨] ، ثم اتبع ذلك باسقاط ما كان يتأدى من

---

(١) ن . م . س .

(٢) م . س ، ديماند ، الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد عيسى ، مراجعة أحمد فكرى ، ط الثانية ١٩٥٨ م القاهرة ص ١٢٢ . أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ٢/ ١٦ .

(٣) محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ص ٢٩ .

(٤) هذا النوع من الفخار ذو زخارف محفورة فى طينة الاناء تحت طلاء له لون واحد . انظر زكى حسن، الأعمال الكاملة ، ٤/ ١٧٤ .

(٥) أحمد الصاوى ، المجاعات فى العصر الفاطمى ، ص ٤٠٣ .

(٦) زكى حسن ، ن . م . س .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ١/ ٢ ، ٣٦٠ ـ ٣٦١ ، ٣٦٩ .

(٨) لاحظ ما ينقله أبو شامة عن ابن أبى طي فى هذا الصدد ، أبو شامة الروضتين ، جـ١ ق ٢ ص ٤٤٣ ، وانظر أيضا المقريزى ، الخطط ١/ ١٠٥ .

الحجاج بالحجاز من المكوس أيضا [١] . كذلك أبطل سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ما كان يستأدى فى مصر والقاهرة على السلع والمنتجات المختلفة وكان جملة ذلك كل سنة مائة (١٠٠) ألف دينار [٢] ، بالإضافة إلى ما يستخرج بالاعمال القبلية والبحرية وهو بنفس المقدار أيضا [٣] ، الأمر الذى سينعكس بزيادة الاستهلاك ونموه نتيجة اتجاه الأسعار نحو الانخفاض [٤] ، حيث ان فرض المكوس يدفع التجار إلى رفع قيمة السلع المباعة بمقدار ما يؤخذ منهم ، وهو ما أشار إليه القاضى الفاضل الذى ذكر بأن فرض المكوس سيجعل (... المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون فى أسعار مأكولات العامة بمقدار ما يؤخذ منهم) [٥] .

ان انتشار الرخاء الاقتصادى بين فئات الشعب في قاهرة صلاح الدين انعكس على النواحي العمرانية فيها فنمت وازدهرت ، حسبما يقرره ابن خلدون الذى يعتبر أن الرخاء الاقتصادى عامل هام فى استبحار العمران فى المدينة [٦] .

---

(١) ن . م . س ويذكر ابن جبير أن مقدار الضريبة على الحاج الواحد كانت ٧٫٥ دينارا مصرية . ابن جبير ، الرحلة ص ٣٠ .

(٢) أبو شامة ، م . س ، جـ ١ ق ٢ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣ . ويذكر ابن جبير بانها كانت مفروضة على كل ما يباع ويشترى حتى أن شرب الماء كان المكس يؤدى عليه ، فى حين أن القلقشندى يذكر بأنها كانت مفروضة على ٧٢ جهة إلا أنه بالنظر إلى أنواع المنتجات والسلع كما وردت عند المقريزى يدل على أنها كانت تزيد على ٨٠ جهة . انظر ، ابن جبير ، م . س ، ص ٣١ . المقريزى، الخطط ، جـ ١ / ١٠٤ ـ ١٠٥ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ٣/ ٤٦٦ .

(٣) أبو شامة ، م . س ، جـ١ ق ٢ ص ٤٤٣ ، أحمد الصاوى ، المجاعات فى العصر الفاطمى ص٢٤٨ .

(٤) عبد الله عبد الغنى غانم ، النظرية فى علم الإنسان الاقتصادى دراسات للاتجاهات النظرية فى الانثروبولوجيا الاقتصادية ، الإسكندرية ١٩٨٤ م ص ١٢٥ ، وانظر أيضا : التسعير والصرف مقال فى مجلة The Tasrif and Tasir Caluclations Cir Mesiaral mes oporomi-an Fiscal operation, JES HO, 1, 1964, pp. 46 - 56

(٥) انظر المقريزى ، الخطط ١/ ١٠٥ .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ١/ ٣٦١ ، ٣٦٩ .

بيد أن أبرز المؤثرات لهذه الظاهرة تتجلى فى الأسواق التى ازدهرت أوضاعها بشكل عام فضلا عن ظهور العديد من الأسواق الجديدة عامة ومتخصصة [(١)].

جـ - ازدهار التجارة :

اكتسبت مصر بحكم موقعها خصائص جعلتها تتمتع بسمات تجارية ، حيث تمتلك المنافذ المفتوحة على العالم فى ذلك الوقت [(٢)] ، مما جعل أراضيها ترتبط بمسالك الشرق والغرب[(٣)] .

وبحلول عصر صلاح الدين الأيوبى شهدت التجارة فى مصر نشاطا ملحوظا وقويا، كما تشير بذلك النصوص التاريخية ، فلقد ازدهرت التجارة فى كافة المدن والأقاليم المصرية . فمدينة القاهرة كانت التجارة بها مفعمة بالحركة والنشاط وعندما يتحدث القاضى الفاضل عن حوادث عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ، يذكر بأن سواحل المدينة كانت تزخر بالسفن الحاملة للبضائع ، حيث كان هناك أعداد كبيرة منها تقف على ساحل المقس علاوة على تلك التى عند باب القنطرة [(٣)] . كذلك كان الحال بالنسبة للموانى ، فميناء الإسكندرية [(٤)] كان يغص بالنشاط التجارى ، فتزاحمت السفن على أرصفة مينائه . ففى شتاء عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م كان يوجد فى هذا الميناء سبع وثلاثون سفينة قادمة من أوربا ، وهو عدد لن تكون له أهمية كبيرة اذا ما قورن بعدد السفن التى كانت تصل إلى هذا الميناء فى فصلى الصيف والخريف [(٥)] . وكذلك حال ميناء عيذاب ومدينة قوص ، اللتان كان النشاط التجارى بهما مزدهرا

---

(١) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٢) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ص ١٠١ .

(٣) محمد فاتح عقيل ، أهمية الموقع الجغرافى لسواحل مصر ، بحث منشور ضمن كتاب البحرية المصرية القاهرة ص ١٥ ، حسنين ربيع ، النظم المالية ص ٢٤ .

(٤) المقريزى ، الخطط ٢/ ٢٤ ، الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٢٩ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٢٨ .

(٥) الباز العرينى ، مصر فى عصر الأيوبيين ص٢٠٣ ، حسنين ربيع النظم المالية ص ٥١ ـ ٥٢ ، عطية القوصى ، تجارة مصر ص ١٤٨ .

كما يؤكد ابن جبير ، حيث يذكر عندما يتحدث عن قوص بأنها ذات أسواق متسعة، بها كثير من الخلق بسبب اتساع حال التجارة فيها [١] ، أما ميناء عيذاب فلقد قال عنه بأنه من احفل مراسى الدنيا ، لأن المراكب الحاملة لسلع الهند ،واليمن تحط رحالها فيه ، علاوة على تلك التى تحمل ركب الحجيج [٢] .

ويعكس هذا الازدهار التجارى نمو المبادلات فى مصر على الصعيدين الداخلى والخارجى . فعلى الصعيد الداخلى ازدهرت التجارة بين اطراف الدولة الصلاحية نفسها، فالسفن الكثيرة التى كانت عند ساحل القاهرة فى عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م ، كانت تحمل الكثير من منتجات الريف المصرى من أغذية وغيرها [٣] . ومن المؤكد ان توسع الدولة الصلاحية وضمها لبلاد الشام والحجاز وغيرها من الأقاليم، وقد أسهم إلى حد بعيد فى زيادة التبادل التجارى بين هذه الأقاليم ، حيث يذكر ابن جبير أثناء حديثه عن مدينة قوص بأن بها عدداً من تجار اليمن [٤] ، ومن المؤكد أنه فى تلك الفترة كان يصدر من القاهرة العديد من المنتجات المصنعة التى تشتهر بها ، فكان يصدر إلى الشام الانطاع المستحسنة [٥] علاوة على الكمرنات [٦] المختلفة الأنواع وحقائب الجلد وغيرها من المصنوعات [٧] ولا شك بأن الازدهار الزراعى الذى شهدته مصر حينئذ ، قد أوجد الكثير من الفوائض الغذائية التى ستجد طريقها إلى الحجاز والشام[٨] ، وغيرها من أقاليم الدولة ، فصلاح الدين فرض للحجاز ميرة مجزية (.. من

---

(١) ابن جبير ، الرحلة ص ٤٠ .

(٢) ابن جبير ، م . س ص ٤٥ .

(٣) المقريزى ، الخطط ٢/ ٢٤ ، الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٢٩ .

(٤) اب جبير ، الرحلة ص ٤٠ .

(٥) الانطاع جمع نطع وهو البساط من الجلد ، ابن سعيد الأندلسى ، النجوم الزاهرة ص ٢٩ هامش (١) .

(٦) الكمر والكمران ، حزام يلبسه السلاطين والأمراء والجنود فوق اقبيتهم ن . م . س ، هامش (٢).

(٧) ابن سعيد الأندلسى ، م . س ، ص ٢٩ .

(٨) عبد الفتاح وهبة ، الجغرافية التاريخية ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ ، .

العين والغلة أشياء يطول شرحها) [١] ، وكان لازدهار زراعة قصب السكر فى ذلك الوقت دورا كبيرا فى أن يكون من أهم الصادرات الزراعية المصرية [٢] .

أما بالنسبة للصعيد الخارجى ، فمن الواضح أن البلاد قد شهدت نموا فى العلاقات التجارية الخارجية فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، تحت تأثير بوادر الازدهار التجارى الكبير الذى شهدته التجارة العالمية فى القرن السادس (٦هـ/١٢م)[٣] . فنمت العلاقات التجارية بين الدولةِ الأيوبية ، ومدن تجارية أوربية كبرى هى البندقية وجنوا وبيزا [٤] كما تذكر المصادر أنه بعد أن انتهت حالة الحرب بين المسلمين والصليبيين بعقد الصلح المشهور « بصلح الرملة » [٥] ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢م، فإن ذلك أدى إلى ازدهار التبادل التجارى بينهم ، فحمل كل منهم بضائعه ومتاجره لبيعها فى بلاد الطرف الآخر [٦] ويعد وجود تجار من بلاد الهند والحبشة فى مصر حينئذ [٧] ،

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ ق ٢ ص ٤٤٣ ، وانظر أيضا ابن جبير ، الرحلة ص ٣١ .

(٢) سعيد عاشور ، مصر والشام ص.١٢٩ .

(٣) نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ص ٢٩٦ ، ويلاحظ لوفران أن هذا الازدهار تزامن مع استقرار الأوضاع داخل أوربا نفسها ، نتيجة قيام سلطات مركزية أكثر قوة وتماسكا وازدهار حركة الاتصالات ، انظر جورج لوفرن ، تاريخ التجارة ، ترجمة هاشم الحسينى ، بيروت ص ٣٩ .

(٤) عطية القوصى ، تجارة مصر ، ص ١٤٧ .

(٥) هذا الصلح الذى عقده الناصر صلاح الدين مع ريتشارد قلب الأسد ملك الإنكليز وهو ينص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وارسوف . وتكون اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين وتبقى عسقلان بيد المسلمين ، ودخل فى هذا الصلح الإسماعيلية (الحشاشون) وصاحب انطاكية وطرابلس . عنه انظر ابن واصل مفرج الكروب ، ٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٢/ ٨٦٢ ـ ٨٦٣ ، بسام العسلى ، صلاح الدين ص ١٧٥ .

(٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٦/ ٤٧ ـ ٤٨ .

(٧) ابن جبير ، الرحلة ص ٤٠ .

دليلا واضحا على وجود نشاط قوى فى العلاقات التجارية بينها وبين هذه البلاد والمناطق المحيطة بها ، والحقيقة فإن نمو العلاقات التجارية تظهر أكثر ما تظهر فى ازدهار تجارة النقل عبر مصر خاصة تجارة البهار حيث أصبح البحر الأحمر عصبا لها خلال تلك الفترة إذ أدى دخول الصليبيين إلى بلاد الشام إلى حدوث تغيير على الطرق التجارية القادمة عبرها من العراق ، فأخذت هذه التجارة بالاتجاه نحو البحر الأحمر [١]. فعمل الصليبيون في بادئ الأمر على السيطرة عليها ، بإستيلائهم على ميناء أيلة سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م [٢] ، حيث كان من موانى تجارة العبور بين الشرق والغرب قبيل دخول الصليبيين إلى بلاد الشام [٣] ، فأدى هذا التحرك إلى قيام مدن التجارة الأوربية بمقاطعة تجارة العبور القادمة عبر مصر فى أواخر العصر الفاطمى ، واتجهوا ـ دعما لبنى عقيدتهم ـ نحو الحصول على امتيازات تجارية لدى الدويلات الصليبية فى الشام [٤] ، بيد أن هذا الوضع لم يستمر طويلا اذ سرعان ما عادت هذه التجارة إلى الاعتماد مرة أخرى على الطرق التجارية العابرة لمصر [٥] ، فسعت مدن التجارة الاوربية نحو عقد معاهدات تجارية مع صلاح الدين الأيوبى كما سبق أن ذكرنا، لأنها وجدت نفسها قد خسرت كثيرا بسبب حركة المقاطعة هذه [٦] . علاوة على قيام صلاح الدين الأيوبى بالسيطرة على المنافذ التجارية المطلة على البحر

---

(١) هاملتون جيب ، صلاح الدين الأيوبى ، ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٢) سبق الأشارة إلى ذلك .

(٣) أحمد رمضان شبه جزيرة سيناء ، ص ١٨ ـ ١٩ .

(٤) عن ذلك انظر عطية القوصى ، تجارة مصر ، ص ١٣٧ ـ ١٤٢ ، ومن الواضح أن هذه المقاطعة ادت إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية فى أواخر هذا العصر لأن هذه التجارة كانت عصب قوة الاقتصاد المصرى . انظر جوستاف فون جرو نمباوم ، انجازات العصر الفاطمى ، ضمن ابحاث الندوة الدولية ١/ ٣٦٣ .

(٥) كان هذا الطريق يمر من خلال عدد من المحطات تبدأ من عدن مرورا بعيذاب ، ثم تحمل القوافل البضائع إلى قوص ثم تحمل عبر النيل إلى البحر الأبيض المتوسط . انظر نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ، ص ص ١٢٧ ـ ١٣٧ .

(٦) عطية القوصى ، تجارة مصر ص ١٤٠ .

الأحمر، فقام فى عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م باستعادة أيلة [(١)] ، ليتلوه بعد ذلك فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٧ م بضم بلاد اليمن[(٢)] وصولا إلى ميناء عدن [(٣)] الذى يعد نقطة الوصل الرئيسية بتجارة الشرق فى ذلك الوقت [(٤)]. وبذلك يكون صلاح الدين قد أحكم قبضته على أحد أهم طرق التجارة العالمية فى عصره . فأخذت تجارة العبور تزدهر عبر بلاده بشكل فاق ما كان عليه الحال فى عهد الفاطميين [(٥)] . وعلى الأخص تجارة البهار ، الذى يذكر ابن جبير بأن القوافل القادمة من عيذاب كانت تحمل كميات كبيرة منه حتى ليخيل لمن رآه بأنه (.. يوازى التراب قيمة) [(٦)] . ان هذا الازدهار التجارى ، أدى بطبيعة الحال إلى زيادة المبادلات فى السلع ، خاصة مع أوربا ، التى أصبح أهلها فى تلك الفترة مقبلين على المنتجات الصناعية المختلفة للعالم الإسلامى ، بعد أن زادت معرفتهم بها نتيجة احتكاكهم المباشر بالحضارة الإسلامية فى فترة الحروب الصليبية[(٧)] . لذلك فإن القاهرة أضحت فى تلك الفترة

---

(١) ابن الأثير ، ٩/ ١١٠ ، أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٦ ، محمد بهادر المؤمنى ، مختصر تاريخ العينى المسمى فتح النصر فى تاريخ ملوك مصر ، مخطوطة فى مكتبة ايا صوفيا باسطنبول رقم ٣٣٤٤ ورقة ٧ .

(٢) ويعتبر القوصى ان من جملة الأهداف التى دفعت صلاح الدين لضم اليمن هو الأهمية التجارية . انظر عطية القوصى ، تجارة مصر ص ١٥٨ .

(٣) تقع هذه المدنية على ساحل بحر العرب وهى مرفأ الشرق بشكل عام ومن أقدم أسواق جزيرة العرب ، عنها انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٤/ ٨٩ ، إبراهيم المحققى ، معجم المدن والقبائل اليمنية ، صنعاء ١٩٨٥ م ص ٢٧٩ .

(٤) نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ص ١٣٦ ــ ١٣٧ .

(٦) عطية القوصى ، م . س ، ص ١٧١ .

(٧) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٣ .

(٨) سعيد عاشور ، مصر والشام ، ص ١٣٠ ، أ. هـ . كريستس ، الفنون الإسلامية الفرعية وتأثيرها فى الفنون الأوروبية ، بحث منشور ضمن كتاب تراث الإسلام ، ترجمة زكى حسن ١٩٣٦م القاهرة ، ص ص ١٩ ، ٩٨ .

ملتقى للبضائع المختلفة ، التى تجلب إليها مـن شرق العـالم وغـربه وشماله وجنوبه وبكميات هائلة [١].

ولقد كان لازدهار التجارة دورا عمرانيا كبيرا فى القاهرة ، اذ أنها أدت إلى ظهور العديد من المنشآت التى تخدم هذه التجارة ، حيث ظهرت الفنادق المختصة بنـزول التجار [٢] ، نظراً لأن نمو المبادلات التـجارية سيتـرتب عنهـا كـثرة فى الداخلين والخارجين من وإلى مدن مصر .

كذلك ساهم النمـو التجارى فـى ازدهار أسواق المدينـة ، وكـانت المنتجـات الريفيـة تنصب بكميات هائلة فى أسواق القاهـرة ، وتعرض للبيـع على الارصفة حتى أن الماشى يلقى صعوبة فى السير فى الطرقات [٣]، علاوة على ما يوجد فى أسواق القاهرة (.. من الأخبـاز واللحوم والألبـان والفواكـه ما قـد ملاها ..) [٤] فى منظر بهيج للعين وما رؤى قبله مثلـه على حـد تعبيـر القاضى الفاضل [٥] . ومن المؤكد ان هذه الأسواق قد ازدهرت فيها المعروضـات القادمة من بلاد الفرنجة من الجلود والفراء والجوخ وغيرهـا [٦] ، بعدما سمـح صـلاح الديـن لبعـض هؤلاء بالسكنى فى اطراف القاهـرة ، فعمدوا إلى جلـب منتجـات بلادهم [٧] ، حتى ان بعضهم كان يمارس البيع فى شوارع القاهرة ، كما يشير إلى ذلك الشيزرى [٨] . وقد أدى هذا الأزدهـار أدى إلى ظهور العديد من المنشآت التجارية فى مدينة القاهرة ، اذ

---

(١) ابن سعيد الأندلسى ، النجوم الزاهرة ص ٢٩ .

(٢) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٣) المقريزى ، م . س ، ٢ / ٢٤ .

(٤) ن . م . س .

(٥) ن . م . س .

(٦) مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ١٢٤ .

(٧) جورجى زيدان ، تاريخ مصر ، ١ / ٢٢٤ .

(٨) الشيزرى ، نهاية الرتبة ، ص ٥٥ .

يشير ابن مماتى إلى القياسر كمثال للمنشآت التى تقام على الساحات التى تؤجرها الدولة داخل المدينة فإنه يضرب المثال بالقياسر[١] ، مما يعنى ان هناك الكثير منها التى تبنى فى مثل هذه الأماكن .

ثانيا : العوامل الادارية :

نظرا لما للادارة من دور مهم فى ظهور المدن وتطورها ، فلقد كان لبعض التغيرات الادارية فى عهد صلاح الدين الأيوبى دورا عمرانيا مؤثرا .

والحقيقة فلقد كان لظهور الدولة الأيوبية أثراً كبيراً فى احداث تطورات ادراية رئيسية ، تخالف تقاليد الجهاز الادارى الفاطمى ، فيذكر القلقشندى ، بأن الدولة الأيوبية عندما ورثت حكم الفاطميين (.. خالفتها فى كثير من ترتيب المملكة وغيرت غالب معالمها) [٢] ، اذا أن قدوم الأيوبيين من مشرق العالم الإسلامى حمل معه روحا جديدة فى الادارة كان مصدرها الخلافة العباسية [٣] . ولقد تعددت أوجه التغيير التى أدخلوها فى الادارة ، من ابرزها ، ظهور مناصب ادارية جديدة مثل منصب نائب السلطنة [٤] ، الذى يعكس ظهور ضرورة خروج السلطان من البلاد نتيجة الحروب الصليبية ، فكانت الحاجة إلى وجود من ينوب السلطان أثناء غيابه [٥] ،

---

(١) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٥٧ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٤ / ٥٠ .

(٣) حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٧٨م ص ٧٧ .

(٤) وهو بمثابة السلطان فى حكمه ما دام السلطان غائبا ، ولذلك يطلق عليه السلطان الثانى كما يحلو لبعض المؤرخين ، انظر ابن فضل الله العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ١٣١٢هـ ص ٦٥ ـ ٦٦ القلقشندى ، م . س ، ٣ / ١٦ ـ ١٧ ، على إبراهيم حسن ، المماليك البحرية ص ٢٧٥ ـ ٢٨٧ .

(٥) عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر ، ص ٤٨ . على إبراهيم حسن ، م . س ، ص ٢٧٥ .

كذلك تراجع فى هذا العصر حجم الجهاز الادارى ونفوذه . حيث تراجع نفوذ الوزراء عنه عما كان عليه الحال فى أواخر العصر الفاطمى فأصبح الوزراء وزراء تنفيذ [(١)] ، علاوة على ان بعض المؤسسات الإدارية أخذت بالاختفاء مثل ديوان التحقيق[(٢)] الذى اختفى فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى [(٣)] ، بيد أن مثل هذه التغيرات الادارية لا تعنى كثيرا بالنسبة للبحث ، اذ لا يمكن تلمس مجالات تأثير عمرانى واضحة تعكس هذا التطور ، لكن هذا لم يلغى دور العامل الادارى فى أحداث تطورات عمرانية على القاهرة الصلاحية ، خاصة فى مجالات بعينها من أبرزها :

أ ـ التخطيط والتنظيم :

على الرغم من أن هناك من لا يستطيع أن يعتبر التطورات العمرانية الكبرى التى أحدثها الناصر صلاح الدين الأيوبى على القاهرة ، هى من وحى

---

(١) عبد اللطيف حمزة ، م . س ، ص ٤٧ ، ولقد تزايد نفوذ الوزراء فى أواخر العصر الفاطمى ، واصبحو وزارء تفويض يتصرفون بشئون الدولة دون الرجوع للخليفة ، على إبراهيم حسن ، حسن إبراهيم حسن ، النظم الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٣٤ .

وتنقسم الوزراة فى النظم الإسلامية إلى نوعين :وزارة تنفيذ ووزارة تفويض ، حيث يكون حكمهم فى الأولى الوساطة بين الإمام والناس ، ولا يستند برأيه فى تصريف الأمور وإنما يعرضها على الإمام ويتلقى أوامره ، أما الثانية فهى أن يعهد الإمام للوزير النظرفى أمورالدولة دون الرجوع إليه ولا يبقى للخليفة بعد ذلك الا ولاية العهد ، وعزل من يوليهم الوزير . انظر ، الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٢٢ ـ ٢٩ ، على إبراهيم حسن ، حسن إبرهيم حسن ، م. س ، ص ١٢١ ، عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم ، ١ / ٨١ ـ ٨٥ .

(٢) وموضوع هذا الديوان مراجعة عمل الدواوين ، وهو يتبع « نظار الدواوين » ويلتحق بها . انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٣ / ٤٨٩ . عبد المنعم ماجد ، م . س ، ١ / ١١٢ .

(٣) ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص ٧٧ .

التخطيط والتنظيم . نظرا لعدم وجود نصوص تاريخية تشير إلى ذلك بشكل مباشر [١] ، فإن هذا الاعتبار لا شك بأنه غير صحيح ، اذ من المؤكد أن هذه التطورات قد استمدت بعض جوانب وجودها من رؤيا تخطيطية ، فالمسلمون كان لديهم تصورات واضحة المعالم تجاه إنشاء المدن وتخطيطها وإضفاء الصفة التنظيمية لمرافقها المختلفة كما سبق أن أشرنا .

وبالتالى لا بد وأن تجسدت هذه التصورات على مظاهر التطور العمرانى الذى شهدته القاهرة فى عهد الناصر صلاح الدين ، حيث من المؤكد أنه كان راغبا فى إحداث تغيرات عملية على المدينة . يدل على ذلك التطورات العمرانية المقصودة التى جرى القيام بها خلال تلك الفترة مثل المشروعات التحصينية ـ السور والقلعة وتأثيرها على توزيع النشاط العمرانى فى المدينة الكبرى بشكل عام . كذلك يلاحظ بأنها كانت حريصة على أن يشغل العمران المنطقة الواقعة فيما بين الفسطاط والقاهرة، بحيث تكون الأجزاء الغربية منها مشغولة بالمتنزهات والبساتين، بينما خصصت الشرقية للأحياء السكنية . ومن الواضح أن صلاح الدين الأيوبى كان يهدف إلى إدخال القاهرة فى طور عمرانى جديد ، بإباحتها لسكنى جميع طوائف الشعب ، وبما أحدثه من تغيرات عمرانية على منشآتها حيث جرى تحويل العديد منها إلى أحياء سكنية [٢] ، وذلك بهدف طمس معالم الفاطميين ، اذ أن الدولة الجديدة تحب أن تخفى معالم الدولة السابقة لها .

ومن التنظيمات العمرانية التى أدخلها صلاح الدين على القاهرة فى تلك الفترة التخصص فى الأسواق ، بحيث يكون لأهل كل سلعة من السلع سوق

---

(١) Janet Abu - Lughod , Cairo, p. 27 .

(٢) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

متخصصة بها، فالتخصص فى الأسواق لم يكن معروفا بشكل واضح فى مصر قبل عصر صلاح الدين الأيوبى ، وإنما كان قاصرا على مدن الشرق الإسلامى دون مغربه [١] . فى حين أنه منذ عهد صلاح الدين أصبحت ظاهرة التخصص معروفة فى أسواق القاهرة ، يدل على ذلك الأسواق التى ظهرت فى تلك الفترة حيث كان غالبها من هذا النوع[٢] ، ويعد هذا الاتجاه استجابة للدعوة التى أطلقها الشيزرى بالتخصص فى أسواق السلع ، والبضائع المختلفة ، حيث يذكر بأن على المحتسب أن (.. يجعل لأهل كل صنعة منهم سوقا يختص بهم ، وتصرف صناعتهم فيه ، فإن ذلك لقصادهم أرفق، ولصناعتهم أنطق [٣]...) . وهذه الدعوة لا بد وأن الشيزرى قد أتى بها من مشرق العالم الإسلامى ، حيث قضى شطرا من حياته فى بلاد الشام [٤] .

ب ـ انتقال مركز الحكم والإدارة :

ومن العوامل الإدارية التى ترتب عنها مظاهر عمرانية جديدة إنتقال موضع مركز لحكم والإدارة ، ففى عصر صلاح الدين الأيوبى أصبح مركز الحكم والإدارة فى دار الوزارة الكبرى والتى تحول اسمها منذ ذلك العصر إلى دار السلطنة ، بعد أن اتخذها صلاح الدين مقرا لسكناه [٥] . فأدى ذلك للتأثير على وضع القصر الشرقى الكبير لذى كان مقرا للخليفة ولدواوين الدولة [٦] حيث تحول إلى منطقة سكنية ـ خطط

---

١) بدروشالتما : الاسواق ، ضمن كتاب المدينة الإسلامية ص ١٠٩ .

٢) سيرد ذكرذلك لاحقاً .

٣) الشيزرى ، نهاية الرتبة ، ص ١١ .

٤) الشيزرى ، م . س

٥) المقريزى : الخطط ، ١ / ٤٣٠ .

٦) المقريزى ، م . س . ١ / ٣٨٣ ، ٣٩٧ .

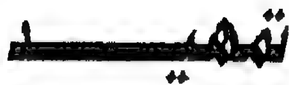
وأحياء ـ بعد أن أجريت عليه التعديلات المناسبة . كذلك تأثرت الساحات والشوارع المحيطة به ، فجرى البناء على أجزاء منها بعد أن فقدت أهميتها بفقدان القصر لأهميته ، كما يشير إلى ذلك المقريزى أثناء حديثه عن ميدان بين القصرين اذ يذكر بأن هذا الميدان لم يبتذل ويبنى عليه إلا بعدما تغيرت معالم القصور الفاطمية بتغير ساكنيها[1] .

---

(١) المقريزى ، م . س ، ٢ / ٢٨ .

الباب الثاني

مظاهر التطور العمراني


تمهيد

في ضوء العوامل التى سبق ذكرها فى الباب الأول ، يتضح أن القاهرة قد شهدت فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى متغيرات حضارية عميقة المدى ، الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى أن تشهد المدينة فى تلك الأثناء ازدهارا عمرانيا واسع النطاق ، حيث لم يعد هناك فيها موضع قابل للاستغلال إلا ويجرى استغلاله ، كما يشير بذلك عبد اللطيف البغدادى [1] .

ومن الواضح أن هذا الازدهار قد أدى إلى وقف حالة التدهور العمرانى التى شهدته المدينة فى أواخر العصر الفاطمى . اذ من المؤكد أن تدهور الأوضاع الأمنية وانتشار الفوضى والاضطراب علاوة على تردى النشاط الاقتصادى ، والتناقص السكانى فيها . قد أدت إلى تراجع مستوى العمران فى القاهرة، فأخذت بعض الأحياء السكنية الواقعة خارجها بالاختفاء ، فمن المرجح أن ما يذكره ابن عبد الظاهر عن حارة الحسينية[2] من أنها كانت موجودة فى العصر الفاطمى ، كمساكن لبعض الأجناد ، ثم يذكر تارة أخرى أنها تنسب إلى جماعة من الأشراف الحسينيين قدموا من الحجاز فى عهد الملك الكامل الأيوبى وسكنوا بها ، ليس تناقضا كما يعتبره المقريزى [3] وإنما كان بسبب اختفاء العمران فيها فى أواخر العصر الفاطمى ، وعودته إليها فى عهد الكامل . بل أن هذا الاختفاء بلغ ذروته بحريق الفسطاط عام (٥٦٤ هـ / ١١٦٧م) حيث اختفت أجزاء كبيرة منها وتحولت إلى أكوام .

وبالإضافة إلى وقف التدهور العمرانى ، فلقد أدى ازدهار النشاط العمرانى فى عهد الناصر صلاح الدين إلى أن تتخذ المدينة أوضاع عمرانية جديدة تختلف عما كانت عليه فى السابق ، كما سيتضح لنا فيما يلى من فصول هذا الباب .

---

(١) عبد اللطيف البغدادى ، الإفادة والأعتبار ، ص ٢٥ .

(٢) عرفت هذه الحارة بطائفة من الجند الفاطمى يطلق عليهم الحسينية ، المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٢٠ ولا تزال حتى الوقت الحاضر مشهورة بمكانتها .

(٣) المقريزى ، م .س ، جـ ٢ / ٢١ .

الفصل الأول

التخطيط المادى

يعبر التخطيط العام للمدينة عن طبيعة تكوينها الحضارى والمادى معا ، فأهمية الجامع عند المسلمين ، هى التى جعلتهم يتجهون فى تخطيطهم للمدن نحو جعله النقطة المركزية الوسيطة . لذلك فلقد أدت التحولات الحضارية والعمرانية التى شهدتها القاهرة فى عهد الناصر صلاح الدين ، لأن تتجه المدينة نحو اتخاذ نمط من التخطيط يختلف عما كانت عليه فى السابق [١] وقد سارت تطوراتها العمرانية على هداه فيما تلى من عصور ولمدة تصل إلى سبعة قرون تقريبا [٢] . ومن أبرز مظاهر التطور التى أثرت على تخطيط القاهرة فى تلك الأثناء هى :

أ ـ توسع القاهرة :

شهدت القاهرة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، توسعا عمرانيا هائلا ، شمل مجالاتها الإنسانية ، والمادية ويتمثل ذلك فى أن وظيفتها أخذت فى تلك الأثناء بالاتجاه نحو مزيد من التعقيد ، بتوسع مجالات النشاط الإنسانى فيها . فمن الناحية السكانية توسع محتواها البشرى كيفا وكما . فمن الناحية الأولى ، تخلصت القاهرة من محتواها السكانى الطبقى ، وأبيحت لسكنى كافة أفراد الشعب . أما بالنسبة للثانية فلقد صارت القاهرة مركز التكتل للكثافة السكانية فى المدينة الكبرى بعد أن كانت الفسطاط تمثل ذلك . كما أنها توسعت اقتصاديا اذ بدأ العديد من أوجه النشاط الاقتصادى بالظهور فيها ، فى شكل أسواق وصناعات جديدة مستحدثة فى حين انتقل إليها أيضا أسواق وصناعات من الفسطاط كى تلبى احتياجات لم تكن المدينة تعرفها فى السابق [٣] .

وبطبيعة الحال فإن مثل هذه التغيرات الوظيفية قد دفعت المدينة نحو تكيفات يظهر

---

(١) عبد الفتاح وهبة : جغرافية العمران ، ص ، ص : ٢٦٥ ، ٢٦٧ .

(٢) أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ، جـ ٢٧ / ٧ .

(٣) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

مداها فى مزيد من النمو العمرانى والحضرى [١] . يتمثل فى متغيرات أصابت بنيتها، وأقسامها ومرافقها ، والتى بدأت تظهر فيها جميعا مظاهر تطور عمرانى كبيرة جدا[٢] . بل إن هذه التغيرات هى التى أدت بالبعض أن يعتبر القاهرة لم تتحول إلى مدينة بالمعنى الحقيقى ، إلا فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى [٣] فى حين أنهـا لم تكن فى العصر الفاطمى سوى حصن [٤] ، يقطنه الخليفة وجنده وحرمه ، ويحتمى به من الملمات والنوائب [٥] .

وبالإضافة إلى التوسع الوظيفى ، فلقد أخذت حدود المدينة بالتوسع أيضا ، والمقصود بالحدود هنا هو الحدود الإدارية للمدينة أو النطاق الإدارى لولايتها[٦] . وعلى الرغم من أن المقريزى يقدم أوصاف مفصلة عن حدود المدينة ، إلا أنه من الواضح أن هذه الأوصاف توضح النطاق الإدارى لها فى عصره وما يمثله من تطورات عمرانية خلال العقود المختلفة [٧] ، حيث تميزت حدود القاهرة بعدم الاستقرار والثبات عند منطقة بعينها ، ففى بعض المراحل تكون عرضة للزيادة ، بينما تكون فى أخرى عرضة للنقصان . فعندما يتحدث ابن عبد الظاهر عن الحدود الفاصلة فيما بين الفسطاط والقاهرة ، يشير إلى حدوث تعديلات فيها . حيث يذكر أن حالها استقر فى عصره ـ على أن تكون فى خط تصورى ـ ممتدة فيما بين السبع سقايات [٨] إلى

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ ١ / ٢٧٩ ، ٣٦٠ ـ ٣٦١ .

(٢) انظر الحديث عن البنية فى هذا الفصل ، وانظر الفصل الثانى والثالث من هذا الباب .

(٣) حسن الباشا وآخرون ، القاهرة ، ص ٢٩ ، عبد الفتاح وهبة ، جغرافية العمران ، ص ٢٦٥ .

(٤) فريد شافعى ، العمارة العربية الإسلامية ، ص :١٠٨ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٣٦٤ .

(٦) لاحظ ما يذكره ابن دقماق أثناء حديثه عن الحمراء القصوى بأنها الحد الفاصل بين ولايتى مصر والقاهرة . ابن دقماق ، الانتصار ، ق ١ / ٩١ .

(٧) تحدث المقريزى عن حدود القاهرة فى أكثر من موضوع حيث أشار إليها صراحة وأثناء حديثه عن ظواهر هذه المدينة ، وقدم تفصيلا دقيقا لها أثناء حديثه مكونات المدينة الكبرى فى عصره ، انظر : المقريزى ،جـ ١ / ٣٦٠ ـ ٣٦١ ، ٣٦٣ ـ ٣٦٤ ، جـ ٢ / ١٠٨ ـ ١١١ .

(٨) السبع سقايات هى خط السبع سقايات ، ويقع بالحمراء القصوى شرقى الخليج المصرى ، ويقع فى المنطقة التى تحد فى الوقت الحاضر ، من الشرق بشارع السد الجوانى عند جامع السيدة زينب ، ومن الشمال والغرب شارع الخليج المصرى . ومن الجنوب جنينة قامش . للمزيد انظر : المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٣٤٣ ، جـ ٢ / ١٣٥ ،عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ، ص١٠٠.

مسجد السيدة زينب عرضا [١] ، فى حين أنها كانت قبل ذلك تمتد من المجنونة [٢] إلى المسجد المذكور[٣] وهذا يشير إلى حدوث تعديلات فى الحدود بين المدينتين ، وإلى أنها توسعت فى إحداها على حساب الأخرى ، إذ أن انتقال الحدود من المجنونة إلى السبع سقايات ، يشير إلى أن حدود القاهرة فى هذه الجهة توسعت نحو الجنوب ، وكان هذا التوسع بطبيعة الحال على حساب حدود الفسطاط. ومن الواضح أن هذا التغير فى حدود المدينة يخضع لاعتبارات عمرانية فعندما يتزايد النشاط العمرانى فيها ، فإن حدودها تنمو وتتسع تبعا لذلك . فجزيرة الفيل لم تكن فى العصر الأيوبى تتبع القاهرة ، وإنما كانت منفصلة عنها ، كما يشير إلى ذلك ابن مماتى [٤] . فى حين أنها دخلت فى العصر المملوكى ضمن حدود المدينة ، حيث جعلها المقريزى من أقسام المدينة الكبرى ، وذلك أثناء حديثه عن هذه الأقسام فى عصره [٥] .

ولا شك أن هذا التحول يعكس التوسع العمرانى للقاهرة فى تلك الفترة ، حيث تحولت الجزيرة إلى منطقة عمرانية ، تتصل المنشآت والمبانى فيما بينها وبين القاهرة[٦] .

وبالنظر إلى الاعتبار السابق ، فإنه من المؤكد أن حدود القاهرة فى العهد الفاطمى كانت قريبة جدا من أسوارها . وإن كانت المصادر لا تقدم معلومات واضحة فى هذا

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٣٤٤ .

(٢) المجنونة قنطرة يدخل الماء من تحتها من الخليج إلى بركة الفيل وسميت بالمجنونة نسبة إلى الأمير المملوكى المعروف بالطبيرسى كان قد عمرها وكان يعتريه شىء من الجنون فنسبت إليه .
المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ١٦٢ . ويدل على موضعها فى العصر الحديث المنطقة الواقعة بجوار جامع ذى الفقار بك الشهير بجامع فيطاس ، للمزيد انظر : على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ /١٠٣ ، عبد الرحمن زكى ، موسوعة مدينة القاهرة ، ص : ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

(٣) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٦٠ .

(٤) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ١٢٦ .

(٥) المقريزى ، الخطط ،جـ ١ / ٣٦١ .

(٦) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ١٨٥ ـ ١٨٦ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ، ورقة : ٢١٧ .

المجال (١) . أما فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، فلا شك أن التوسع الوظيفى الذى سبقت الإشارة إليه ، علاوة على التوسع المادى، قد دفع حدود المدينة للتوسع بشكل كبير جدا ، إذ أن الحد الغربى لها ، قد أخذ بالتمدد وصولا إلى شاطئ النيل ، مشتملا بذلك المنطقة الواقعة غربى الخليج (٢) ، ففى تلك الأثناء تزايدت الروابط بين القاهرة وهذه المنطقة حيث شملها سور القاهرة ، الذى أمر الناصر صلاح الدين ببنائه فى عـــام (٥٧٢ هـــ / ١١٧٦ م)(٣)، علاوة على تمدد المبانى والمنشآت فيها وصولا إلى الساحل (٤) . كذلك فإن الحدود الشمالية للمدينة أخذت بالتوسع أيضا ، وامتدت حتى بركة الجب (٥) . فعندما يتحدث ابن مماتى عن هذه البركة يذكر أنها تعتبر فى وقته من جملة ضواحى القاهرة (٦) ، مما يشير إلى أن حدود المدينة قد وصلت إلى هذه البركة منذ تلك الفترة نتيجة تطور العلاقة العمرانية فيما بينها وبين القاهرة حينئذ ، ففى عهد الناصر صلاح الدين أضحت هذه البركة من أفضل متنزهاته (٧) ، علاوة على كونها مركزا لتجمع الجيوش وعرضها اذا ما خرجت من

---

(١) لا تقدم المصادر معلومات عن حدود القاهرة فى العصر الفاطمى . وإن كان بالامكان القول بأنها كانت محدودة جدا ، فمن الملاحظ أنها فى اوائل العصر الفاطمى لم تكن تصل فى الناحية الشمالية إلى الخندق ، اذ أنه لما أسكن المعز لدين الله العبيدى (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ/٩٥٢ ـ ٩٧١م) بعض أتباعه فى هذه القرية ، جعل عليهم واليا وقاضيا مما يشير إلى أنها لم تكن تتبع إدارة المدينة فى تلك الفترة وأن كان يبدو أن الحدود شهدت بعض التوسعات المحدودة ففى عهد الآمر بأحكام الله (٤١٤ ـ ٥٢٤هـ/١١٠٢ ـ ١١٣٠م) عندما عمر ابن أبى التبان غربى الخليج كان والى القاهرة ينيب فيه عنه نائبا ، أى أنه أصبح ضمن حدود المدينة ، وبالتالى فإن ذلك يشير إلى توسع المدينة من الناحية الغربية . انظر : المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ١١٤ ـ ١١٥ ، ١٣٨ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ١٠٩ .

(٣) سيرد ذكر السور لاحقاً .

(٤) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٥) المقريزى ، ن . م . س ، ولقد سبق الإشارة إلى هذه البركة . ويدل عليها فى الوقت الحاضر ناحية البركة بمركز شبين القناطر ، محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ق ٢ / جـ ١ / ٣١ .

(٦) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص : ١٦٠ .

(٧) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

المدينة برسم الجهاد [١] ، ومن المؤكد أيضا أن الحدود الجنوبية للمدينة قد شهدت فى تلك الأثناء توسعات شبيهة بتلك التى حدثت لحدودها الغربية والشمالية ، فهذه الناحية طرأت على حدودها تغيرات ذكرها ابن عبد الظاهر وسبق الإشارة إليها . من المؤكد أن بدايتها كانت فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى حيث أن القاهرة أخذت تنمو فى تلك الأثناء ـ من الناحية السكانية وبالتالى العمرانية ـ على حساب مدينة الفسطاط ، الأمر الذى لا بد وأنه سينعكس على حدودها من حيث الزيادة والنقصان بشكل متبادل ، وإن كانت المصادر لا تقدم نصوص يمكن من خلالها التعرف على مدى التطورات التى شهدتها حدود المدينة فى هذا الجانب خلال ذلك العصر . أما بالنسبة للحدود الشرقية للقاهرة ، فإنه ليس بالإمكان تلمس تطورات بارزة طرأت عليها فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، حيث يبدو أن وجود جبل المقطم فى هذه الناحية [٢] ، قد حد بشكل كبير من حدوث تطورات ملموسة فى هذا المجال فى تلك الأثناء .

وإذا كنا قد تعرضنا لحدود القاهرة ، فإنه يكون من الأجدى أيضا التطرق إلى حدود الفسطاط ، نظرا لكونها جزءاً رئيساً من المدينة الكبرى . فعلى الرغم من قلة المعلومات التى تقدمها المصادر عنها [٣] ، فإنه بالإمكان تلمس بعض المتغيرات التى طرأت على حدودها فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى . حيث أخذت هذه الحدود بالتراجع والانكماش . كما يدل على ذلك انفصال بعض الأقسام التى كانت فى العصر الفاطمى تعد جزءا منها ، فالجيزة التى تقع على الضفة الغربية للنيل ، كانت فى العصر الفاطمى تتبع الفسطاط ، وتعد من جملتها ، كما يذكر ناصر خسرو [٤] ، الطبيب الحسن بن رضوان (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٦١م) . الذى ذكر

---

(١) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٢) فتحى الحديدى ، القاهرة ، ص ٧٠ .

(٣) كل ما يرد فى المصادر من معلومات عن حدود الفسطاط هى تلك التى ذكرها المقريزى عن حدود المدينة فى عصره وهى حدود من المرجح أنها تقل عما كان عليه الفسطاط فى عهودها الأولى . انظر عبد الفتاح وهبه ، الجغرافيا التاريخية ، ص ٤٠٥ .

(٤) ناصر خسرو ، سفر نامة ، ص : ١٠٤ .

الجيزة كقسم من أقسام المدينة الكبرى [١] . بينما يلاحظ أنها فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى لم تعد هذه المنطقة تتبع الفسطاط ، أو تعد جزءا منها ، فابن جبير عندما يتحدث عنها يصفها بأنها قرية ، ولا يذكر بأنها تتبع الفسطاط [٢] الأمر الذى لا شك بأنه يعبر عن انفصال هذا القسم عن المدينة ، حيث أصبح فى العصر الأيوبى كوره إدارية منفصلة بذاتها [٣] . ومن الواضح أن هذا الانفصال قد أدى لأن تتراجع حدود المدينة من الناحية الغربية ، وتصبح نهايتها عند الشاطئ الشرقى لنهر النيل [٤] . ويبدو أن هذا الانكماش قد تكرر أيضا فى الناحية الجنوبية الشرقية من المدينة ، حيث أن المناطق العمرانية التى تقع فى هذه الناحية أخذت بالتحول إلى مقبرة عرفت بالقرافة الكبرى[٥] ، فكان أن اعتبرت القرافة الكبرى الحد الشرقى للمدينة منذ تلك الفترة على ما يبدو [٦] . والراجح أن مثل هذه التغيرات تنطبق على بقية حدود الفسطاط . إذ أن تمدد حدود القاهرة الجنوبية قد أدى بدوره لتراجع الحدود الشمالية للفسطاط ، نظرا لاشتراك حدود المدينتين فى هذه الجهة .

ومن الواضح أن التراجع فى حدود الفسطاط ، يعكس حالة الانكماش العمرانى الذي أصيبت به المدينة بعد حريق شاور عام (٥٦٤ هـ / ١١٦٨م) حيث هجرها الكثير من سكانها باتجاه القاهرة ، وتحولت أجزاء كبيرة منها إلى أكوام وقد سبق أن وضحنا ذلك .

ولم يكن توسع القاهرة قاصرا على النواحى سابقة الذكر ، بل أخذت رقعتها المادية بالتوسع من خلال السور الذى أمر الناصر صلاح الدين ببنائه فى عام (٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م) حيث أمتدت المدينة ناحية الغرب وصولا إلى

---

(١) نقلا عن المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ص ٣٣٩ .

(٢) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٩ .

(٣) عبد العال الشامى ، مدن مصر وقراها عند ياقوت ، ص ٤٥ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٣٤٣ ، عبد الفتاح وهبه ، الجغرافيا التاريخية ، ص ٤٠٦ .

(٥) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٦) المقريزى ، ن . م . س ، عبد الفتاح وهبة ، ن . م . س .

ساحل النيل ، واتجهت شرقا إلى برج الظفر ، ثم امتدت جنوبا حتى قلعة الجبل. وليتوغل السور بعد ذلك ليضم عواصم مصر الإسلامية القديمة ، وهى الفسطاط ، والعسكر ، والقطائع [١] ، بحيث يدار (... عليهـا سورا واحـدا من الشاطىء إلى الشاطىء) [٢].

وتشير مظاهر التوسع هذه على أن حركة النشاط والنمو العمرانى قد أضحت ترتكز فى القـاهرة ، وأن هذا الارتكاز كان على حسـاب الفسطاط ، أى أن هذه الحركة أصبحت تتجه من الأولى إلى الثانية ـ من القاهرة إلى الفسطاط ـ مما يعد انقلابا لما كانت عليه الحال فى العصر الفاطمى اذ كانت هذه الحركة تتجه من الفسطاط إلى القاهرة ، حيث أن الثانية كانت تعتبر من جملة الأولى ، فعندما يتحدث المقدسى عن الفسطاط حينئذ [٣] يذكر بأنها عاصمة مصر ، ومقر الخلافة ، وادارة الدولة الفاطمية [٤] ، رغم أنه يشير فى ذات الوقت إلى نفس الخصائص أثناء حديثه عن القاهرة [٥] ، وهذا يدل بلا شك على أن القاهرة ، كانت تعتبر فى أوائل العصر الفاطمى جزءا من الفسطاط [٦] ، ومن الواضح أن هذا الاتجاه قد قاومه الفاطميون خشية أن تذوب عاصمتهم بالانضمام إلى الفسطاط ، وتختفى دلالتها الرمزية . لذلك

---

(١) أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ، جـ ٢ / ٩ ـ ١٠ ، انظر خريطة رقم ١ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ / ق ٢ / ٦٨٧ ، الفتح البندارى ، سنا البرق الشامى ، ص ١١٩ .

(٣) زار المقـدسى ، مصـر فى عـهـد العزيز بالله العبيـدى (٣٦٥ هـ / ـ ٣٨٦ / ٩٧٦ ـ ٩٩٦م) المقدسى، أحسن التقاسيم ، ص ٨ ـ ٩ . طلال رفاعى ، البريد ، جـ ١ / ٤٤٧ ، كراتشوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى ، جـ ١ / ١٠٩ .

(٤) المقدسى : م . س ، ص : ١٩٧ .

(٥) المقدسى : م . س . ص : ٢٠٠ .

(٦) يلاحظ بأن الفسطاط كانت تلتهم العواصم التى اقيمت بجوارها وهى العسكر والقطائع ، نتيجة اتجاهها نحو التوسع شمـالا . القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٣٣٢ . عبد الرحمن زكى، الفسطاط ، وضـاحيتاها العسكر والقطائع ، ص : ٨٣ ، شحاته إبراهيم ، القاهرة ، ص ٤٠ ، عبد الفتاح وهبة ، الجغرافيا التاريخية ، ص ٤١٢ .

فلقد عمدت دولتهم منذ عهد الخليفة الحاكم بأمر الله على منع الاتصال العمراني فيما بين المدينتين ، وذلك بجعل حدود لمجال النمو العمراني للفسطاط باتجاه القاهرة، فبنى في تلك الأثناء بناءا يحدد هذا المجال ، أطلقت عليه المصادر مسمى « الباب الجديد »[١] والذى كان يقع بالقرب من الجامع الطولوني إلى الشمال منه [٢]. فأصبحت إمكانية البناء في هذه المنطقة متاحة من حد هذا الباب و المواضع التي تقع إلى الجنوب منه ، حيث أخذت الأحياء الجديدة التي بنيت حينئذ بالظهور في هذه المنطقة كما يذكر المقريزى بقوله (... اتصلت العمائر من الباب الجديد إلى الفضاء الذى هو الآن خارج المشهد النفيس ...)[٣] ، ولتحقيق تنفيذ هذه السياسة التي تبناها هذا الخليفة ، فلقد جرى في تلك الفترة أيضا إزالة الأحياء السكنية التي تقع فيما بين هذا الباب وسور القاهرة الجنوبى ، أى الأحياء التي تقع شمالى الباب المذكور ، فمن المؤكد أن حارة الروم [٤] التي جرى إزالتها في عام (٣٩٩ هـ / ١٠٠٨م)[٥] إنما هي حارة الروم البرانية التي كانت تقع في هذه المنطقة في تلك الأثناء [٦].

ومن الواضح أن هذه السياسة العمرانية ، ظل معمولا بها لفترة يصعب تحديد

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٣٦٣ ـ ٣٦٤ ، جـ ٢ / ١٠٠ ، ١٠٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى، جـ ٣ / ٣٥٠ . على باشا مبارك الخطة التوفيقية ، جـ ٢ / ١٥٣ . من المؤكد أن هذا الباب هو الذى وصفه ابن جبير ، ويذكر بأنه عبارة عن برجين يعلوهما تمثالين أحدهما يتجه للشرق والآخر للغرب . ابن جبير الرحلة ، ص ٥٦ .

(٢) يدل على موقع هذا الباب المنطقة الواقعة فيما بين حارة الدالى حسن وحارة درب الأغوات على باشا مبارك ، ن . م . س .

(٣) المقريزى : م . س ، جـ ٢ / ١٠٠ .

(٤) تنسب هذه الحارة إلى طبقة من الجند القادمين مع جوهر الصقلى ، ولقد بنت الروم حارتين أحدهما داخل القاهرة وأخرى خارجها ، انظر: المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٨ . فتحى الحديدى ، القاهرة ص : ٢١ .

(٥) المقريزى ، ن . م . س .

(٦) وذلك قبل أن تضاف إلى توسعة القاهرة التي حدثت في أواخر القرن الخامس (٥هـ / ١١م) على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ٢٠٣ .

نهايتها على وجه الدقة ، وأن كان من المؤكد أنها استمرت إلى أوائل القرن السادس (٦ هـ / ١٢ م) . فالأحياء التى أنشئت فيها فى عهد الخليفة [١] ، كانت تقع بجوار الباب المذكور وتمتد منه جنوبا إلى الفسطاط ، ولم يحدث أن ظهرت أحياء جديدة فيما بين الباب وسور القاهرة الجنوبى ، إلا قبيل سقوط الفاطميين بقليل . كما سيتضح أثناء حديثنا عن بنية المدينة .

ب : البنية :

تعرضت بنية المدينة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى لمتغيرات أساسية ، وكانت مظاهر التغير تختلف من منطقة لأخرى وبالتالى فإن متابعتها تستوجب أن يتم تناولها على أساس كل منطقة على حدة ، ويمكن من خلال دراسة تأثيراتها الأساسية تقسيم المدينة الكبرى إلى أربعة أقسام رئيسية يتبين من خلالها أوجه التغير التى طرأت على بنيتها ، وذلك على النحو التالى :ـ

أولاً : الفسطاط :ـ

على الرغم أن أجزاء كبيرة من هذه المدينة قد تعرض للتلف والتخريب أثناء الشدة المستنصرية [٢] ، فإن استباب الأمن على يد الوزير بدر الجمالى [٣] قد أعاد للمدينة

---

(١) هو الآمر بأحكام الله أبو على منصور بن المستعلى بن المستنصر العبيدى (٤٩٥ ـ ٥٢٤هـ / ١١٠٢ ـ ١١٣٠م) ولى الحكم وهو ابن خمس سنوات وقتلته احدى فرق الباطنية التى ظهرت فى عهده وهم النزارية ، كان سىء السيرة ظلوما . عنه انظر : أبى سعيد : النجوم الزاهرة ، ص ١٣ ـ ١٥ . ابن ميسر أخبار مصر : ١١٠ ـ ١١١ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٣٣٥ ـ ٣٣٧ . عبد الرحمن زكى ، الفسطاط ، ٢٣ .

(٣) هو أمير الجيوش أبو النجم بدر الجمالى (٤٦٦ ـ ٤٨٧هـ / ١٠٧٣ ـ ١٠٩٤م) ، مملوك أرمنى الأصل ترقى فى الخدمة العسكرية وتقلب فى الولايات كان آخرها نيابة عكا قبل أن يلى الوزارة للمستنصر العبيدى (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠١٤م) فأنقذ البلاد مما كانت فيه من فوضى واضطراب صاحبت الشدة المستنصرية . للمزيد انظر : المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٨١ ـ ٣٨٢ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ٥ / ١٤١ .

الشيء الكثير من حيويتها وعمرانها [١] ، ولم تفقد سوى بعض الأجزاء الشرقية منها والتى تحولت إلى أكوام منذ تلك الفترة [٢] . ويمكن القول بأن هذا المظهر قد استمرت عليه حتى أواخر العصر الفاطمى ، وإن كان يبدو أنها واجهت بعض مظاهر التدهور العمرانى ، مع تردى الأوضاع الأمنية والاقتصادية فى تلك الفترة والتى عادة ما يؤثر وجودها على النشاط العمرانى بشكل عام . وبالنظر إلى ما توفره المصادر من نصوص عن هذه المدينة فى تلك الأثناء يمكن التعرف على بنيتها من خلال تقسيمها إلى قسمين رئيسيين ، أولها ، وهو الذى يحيط بالجامع العتيق [٣] ، وهذا القسم كان الوزير الفاطمى شاور قد شرع فى بناء سور حوله ، قبل أن يلتهمه الحريق فى عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م اذ ذكر المقريزى هذا السور قائلا (وكان شاور قد شرع فى بناء سور على مدينة مصر واستعمل فيه الناس فلم يبق أحد من المصريين إلا وعمل فيه . وحفر من ورائه خندقا فلم يكمل من ناحية النيل ، وعمل فى السور ثمانية أبواب أحدها بدار النحاس [٤] على ساحل البحر هدم فى سنة (...) [٥] وخمسين وستمائة وآخر بجانب كوم البواص [٦] وثالث على سكة سوق وردان [٧]

---

(١) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٣٧ .

(٢) ن . م . س ، وانظر خريطة رقم ٣ .

(٣) انظر خريطة رقم ٣ .

(٤) هذه الدار بناها وردان الرومى مولى عمر بن العاص رضى الله عنه وحولت فى عهد معاوية رضى الله عنه مقرا للديوان . ابن دقماق الانتصار ، ق ١ / ٦ ، وهى تقع غربى الجامع العتيق ناحية الساحل القديم .
Casanova , Paul, de Reconstitution, p. 43 plan 1 .

(٥) سقط بمقدار كلمة لم يتمكن المحقق من تحديدها . المقريزى ، اتعاظ الحنفاء ، جـ ٣ / ١٩٦ ، هامش (١) .

(٦) لم أعثر على إشارة تدل على موقع هذا الكوم فيما اطلعت عليه من مصادر ومراجع .

(٧) ينسب هذا السوق إلى وردان الرومى مولى عمرو بن العاص رضى الله عنه . ابن دقماق ، م . س ، ق ١ / ٣٢ . ويقع إلى الشمال من جامع عمر بن العاص .

Casanova , Paul, de Reconstitution, p. 43, plan 1 .

سقـط سنة احدى وستين وستمـائة ، وباب فى طريق زين العابـدين [١] ، وبـاب عرف بباب الصفا[٢] ، وباب بحرى مصلى[٣] الأموات سقط قبيل سنة خمسين وستمائة ، وباب عـند اقمـنه الجير [٤] مما يلى درب السـرية [٥] ، وباب لقنطرة بنى وائل [٦] وتحته قنطرة بنى وائل التـى تصـب فـى بركة الشعيبـة ...) [٧][٨]

أما القسم الثانى فهـو الـذى سمـاه ابن دقمـاق بمدينـة باب ليون وقد ذكر أنها كانت كبيرة جدا ويوجد بها أربعمائة حمام [٩] . ومن الواضح أن هذا القسم يقع جنوبى الأول ويمتد حتى يشمل الرصد [١٠] فاسم المدينة ينسب إلى حصن باب

---

(١) من الواضح أن هذا الطريق يقع بالقرب من مسجد زين العابدين الذى يقع فيما بين جامع ابن طولون والفسطاط . المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٤٣٦ . عبد الرحمن زكى ، موسوعة مدينة القاهرة ص ٣٤٣ ، ويجعل كزانوفا هذا الباب هو باب الصفا الذى سنشير إليه لاحقا ، وهذا مخالف لما أورده المقريزى .

انظر : Casanova, Op. Cit.,

(٢) يضع كزانوفا هذا الباب فى موضع خاطئ كـما سبق أن أشرنا أن باب زين العابدين غير باب الصفا كـما هو واضح من النص . ويبدو أن هذا الباب يقع إلى الشمـال الشرقى من باب زين العابدين على شارع القصبة « الطريق العظمى » حيث كان يوجد مدخل الفسطاط الرئيسى . ابن دقماق ، م . س ، ق ١ / ٢٨ ، المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٤٧ .

(٣) لم أجد تحديدا لهذا المصلى ، لعله يقع بالقرب من الدرب الذى عرف بدرب المعاصر ، وبدرب الوداع أيضاً ، حيث كانت تخرج منه الجنائز لدفنها بالقرافة ، وبالتالى يكون موقع هذا الباب إلى الشمـال الشرقى من جامع عمرو بن العاص . انظر ابن دقماق ، الانتصار ، ق ١ / ٢٨ ،

Casanova , Paul , de Reconsitution, p.42 . plan 1 .

(٤) لم أجد إشارة تدل على هذا الموضع ، قد يكون ناحية الساحل حيث أن صناعة الجير تحتاج إلى الماء كما هو معروف .

(٥) لم أجد فيما اطلعت عليه من مصادر إشارة لهذا الدرب .

(٦) سبق الإشارة إلى هذه القنطرة ، وهى تقع جنوبى الفسطاط ناحية الساحل ،

انظر : Casanova, Op. Cit.

(٧) سبق الحديث عن هذه البركة وموقعها .

(٨) المقريزى ، اتعاظ الحنفاء جـ ٣ / ٢٦٩ .

(٩) ابن دقماق . الجوهر الثمين ، ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

(١٠) انظر خريطة رقم (٣) ولقد سبق الإشارة إلى هذا الرصد .

ليون [١] الذى يقع على هذا الرصد ، فى الطرف الجنوبى منه[٢] ولقد تعرضت الفسطاط قبل سقوط الدولة الفاطمية لحريق هائل عام (٥٦٤ هـ / ١١٦٨م) ترتب عنه أن أصيبت بأضرار بليغة . وكان ذلك بسبب قصد الصليبيين مصر للأستيلاء عليها ، وعدم قدرة شاور على الدفاع عنها [٣] ، فإنه أمر سكانها باخلائها وأضرم فيها النار [٤] واستخدم فيها عشرين ألف قارورة نفط واستمر الحريق مشتعلا فى منشآتها ما يزيد عن خمسين يوما [٥] .

وتختلف المصادر فى تحديدها للآثار الناجمة عن هذا الحريق ، فابن دقماق يشير إلى أن الجزء الذى أحرق وأندثر تماماً هو مدينة باب ليون سابقة الذكر [٦] أى أنه بذلك يستثنى القسم المحيط بالجامع العتيق، وهذا مخالف لما ذكره المقريزى ، من أن غالب منشآت المدينة قد دمر نتيجة الحريق [٧] ويفهم أيضا مما ذكره ابن جبير فى حديثه عن هذه المدينة أثناء زيارته لها حيث ذكر أن غالب مبانيها ومنشآتها قد أعيدت عمارته ، بعدما كان قد تعرض للتلف نتيجة هذا الجريق [٨] . ويبدو أن ابن دقماق أراد بإشارته عن مدينة باب ليون أن يشير إلى أكثر الأجزاء تضررا فى المدينة ، حيث أن

---

(١) هذا الحصن بناء يعود إلى ما قبل الإسلام ، وتذكر بعض الروايات أنه هو قصر الشمع ، والأرجح أنه بناء غير القصر المذكور ، ويقع على الرصد . انظر المقريزى ، الخطط جـ ١ / ٢٧٨ ـ ٢٨٨ ، جـ ٢ / ٤٥٢ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٣١٩ ـ ٣٢٠ ، فؤاد فرج ، المدن المصرية ، جـ ٤ / ٢٩٠ .

(٢) Casanova, Paul, de Reconstitution, plan 1 .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ / ٩٩ ، صفى الدين عبد المؤمن ، مراصد الاطلاع جـ ٣ / ١٠٣٦ ، عبد الرحمن زكى ، القاهرة ، ص ٤

(٤) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ / ق ٢ / ٤٣٢ . المقريزى ، م . س . جـ ١ / ٢٨٦ .

(٥) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٣٩ .

(٦) ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ٢١٧ ـ ٢١٨

(٧) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٢٨٦

(٨) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٩

هذا القسم هو الذى أخذ بالتحول إلى أكوام منذ تلك الفترة . ويقع خارج السور الذى أحاط به الناصر صلاح الدين المدينة ، كما سيتضح لنا لاحقا .

وعلى أى حال فمن المؤكد أن هذا الحريق كاد أن يأتى على الفسطاط نهائيا ، لولا أن تداركتها عناية بنى أيوب . فمنذ أن ولى أسد الدين شيركوه الوزارة أظهر الحرص على إعادة عمارتها ، فاجتمع بأعيانها الذين كانوا قد انتقلوا إلى القاهرة ابان الحريق ، وطلب إليهم العودة إلى مدينتهم [(١)] ، إلا أنهم اعتذروا إليه بعدم قدرتهم حيث أن هذا الحريق قد أودى بأموالهم مما اضطره إلى وعدهم بتقديم المساعدة ، وتوفير أسباب العون لهم ، من أجل إعادة عمارة مدينتهم ، كما يتضح من حديثه لهم حيث قال (... لا تقولوا هذا ، وعلى باذن الله حراستكم ، واعادتها إليكم بما كانت عليه وأحسن ، فاستدعوا منى كل مالكم فى راحة ، فهى بلادى ، وربما أسكن فيها بينكم ...) [(٢)] . إلا أن الأمر لم يطل بأسد الدين شيركوه الذى توفى بعد توليه الوزارة ببضع أسابيع [(٣)] ، فواصل المهمة من بعده ابن أخيه صلاح الدين الذى وجه اهتماما كبيرا نحو الفسطاط[(٤)] ، فقام باصلاح جوامعها ومنشآتها الرئيسية ، وبنى بها المدارس [(٥)] وتوج أعماله هذه بضمها مع القاهرة فى سور واحد ، يضمن من خلاله توفير الحماية لهما[(٦)] . فترتب على هذا الاهتمام أن أخذ العمران يعود إلى المدينة بشكل تدريجى [(٧)]. ولكن إعادة التعمير هذه لم يشمل المدينة بأكملها ، حيث أن أجزاء كبيرة من المدينة لم تعد العمارة إليها ، كما يشير إلى ذلك ابن جبير أثناء حديثه

---

(١) ابن الأثير ، الكامل جـ٩/٩٩ ، أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ / ق ٢ / ٤٣٢ ، المقريزى ، الخطط جـ١ / ٢٨٦ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفاء ، جـ ٣ / ٣٠٣ .

(٣) سبق الأشارة إلى ذلك .

(٤) عبد الرحمن زكى ، الفسطاط وضاحيتاها ، ص ٣٤ .

(٥) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٦) الفتح البندارى ، سنا البرق ، ص ١١٩ .

(٧) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ص ٣٣٩

عنها حيث يقول (... وبمدينة مصر آثار من الخراب الذى أحدثه الاحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين وذلك سنة أربع وستين وخمسمائة، وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل ، وهى مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها ، وعلى مقربة منها ظاهره تدل على عظمة اختطاطها فيما سلف ...)[١] . كذلك فإن المصادر تذكر أن هذا الحريق أدى إلى اختفاء العديد من منشآتها ، مما يشير إلى عدم إعادة تعميرها ، فهناك العديد من المساجد التى اختفت ودرست ولم يعد يوجد لها أثر على الاطلاق [٢] علاوة على بعض منشآت المرافق التى تعرضت لنفس المصير أيضا مثل أوقاف الأزهر وقد أشار إلى ذلك ابن عبد الظاهر أثناء حديثه عن أوقاف الجامع الأزهر فى الفسطاط التى اختفت وجهلت موقعها نتيجة هذا الحريق[٣] .

إن التدبر فى النصوص السابقة ، يشير إلى أن المدينة قد طرأ عليها تعديل فى بنيتها حيث أن السور الصلاحى لم يضم أجزائها كاملة ، وإنما ضم الأجزاء الغربية الشمالية منها ، والتى يقع فيها الجامع العتيق [٤] . فى حين أن الأجزاء الجنوبية الشرقية منها أضحت خارج السور [٥] ، اذ أن مدينة باب ليون التى كانت تمثل معظم هذه المنطقة أضحت خارج هذا السور[٦] ، وبالتالى فمن المؤكد أن غالبية الأجزاء التى لم تعمر من الفسطاط حينئذ ، كانت تقع فى هذه المنطقة ، فأخذت خرائبها وأطلالها تتحول إلى أكوام من جهة [٧] ، ولتضاف إلى مقبرة المدينة من جهة أخرى [٨] ، بينما

---

(١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٩ .

(٢) السخاوى ، تحفة الاحباب ، ص : ٢٩٩ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(٤) عبد الرحمن زكى : الفسطاط وضاحيتاها ، ص ٣٨.

(٥) انظر خريطة رقم ١ .

(٦) ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ٢١٧ ـ ٢١٨ .

(٧) ن . م . س وانظر أيضا فيما يذكره المقريزى من أن أكوام الفسطاط تمتد إلى الرصد وبركة الحبش. المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٣٤٣ .

(٨) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

أخذت المواضع الواقعة داخل السور بالتحول إلى محور النشاط العمراني للمدينة ، وكانت بدايات تعميرها في المنطقة المحيطة بالجامع العتيق [(١)] ، ثم أخذت بالتوسع نحو المواضع القديمة الواقعة داخل السور ، حيث عمرت الأحياء القديمة الواقعة شمالى الجامع المذكور ، وعندما يتحدث المنذرى عن الشيخ الفقيه إبراهيم بن إسماعيل الهاشمي ، المتوفى بالفسطاط سنة (٥٨٩ هـ/ ١١٩٣م) يذكر بأنه (.. أم بالناس في الصلوات المدة الطويلة بمسجد الزبير بن العوام [(٢)] ، بمصر حتى صار يعرف بالمسجد المذكور ..) [(٣)] الأمر الذى يدل على عودة النشاط العمراني في المنطقة التي يقع فيها المسجد ، إذ أنها تعمر بعمارة ما حولها[(٤)] ، علاوة على أنه يشير إلى عودة العمران في المناطق الواقعة شمالى الجامع العتيق ، فخط مسجد ابن الزبير الذى ينسب إلى المسجد المذكور ، يقع في هذه المنطقة ، بالقرب من سوق وردان [(٥)] . ومن المؤكد أن المواضع الواقعة شرقى الجامع العتيق فيما بينه وبين السور قد عمرت في تلك الأثناء ، اذ أنها لم تتحول إلى أكوام الا في أوائل العصر المملوكي ، حيث هجرها سكانها في ذلك العصر [(٦)] .

ولم يكن تأثير السور قاصرا على تحديد المواضع التي أعيد تعميرها ، وإنما تحكم أيضا في توجيه مسارات النمو والتوسع في المدينة ، إذ أنه قد حد من إمكانيات التوسع في الأجزاء الجنوبية والجنوبية الشرقية من المدينة ، فأخذت إمكانيات النمو والتوسع

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ / ٣٣٩ .

(٢) لم اعثر فيما اطلعت عليه من مصادر ومراجع على اشارة عن هذا المسجد وتاريخ نشأته . قد يكون نسبة إلى الصحابي الجليل الزبير بن العوام رضى الله عنه فهو ممن شهدوا فتح مصر وكانت له دار بالفسطاط ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٣٢٩ .

(٣) المنذرى : أبو محمد زكي الدين عبد العظيم (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) التكملة لوفيات النقله ، تحقيق بشار عواد معروف ، الطبعة الثانية ، ١٤٠١هـ / ١٩٧١م ، بيروت ، جـ ١ / ١٨٥ .

(٤) المقريزى : م . س ، جـ٢ / ٣١٢ .

(٥) ابن دقماق ، الانتصار ق ٢ / ٤١ ، ولقد سبق الإشارة إلى هذا السوق وموقعه .

(٦) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٣٣٤ .

تبحث عن جهات أخرى ، فاتجهت نحو الغرب حيث ساحل النيل . خاصة وأن فرصة البناء عليه أصبحت مواتية منذ عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى [١] ، فجرى إنشاء المبانى والأسواق والمصانع فى هذه المنطقة ، حتى وصل الأمر إلى البناء على الجزر المتكونة من الطرح النهرى ، علاوة على عودة السكنى فى جزيرة الروضة [٢] التى فقدت أهميتها كمنطقة سكنية خلال العصر الفاطمى [٣] . فأدى ذلك إلى أن يتحول محور الارتكاز للنشاط العمرانى من شرقى المدينة إلى غربيها ، ويدل ذلك انتقال شارعها الرئيسى من الجهة الأولى إلى الثانية [٤] ، علاوة على أن الأجزاء الشرقية منها استمرت فيما تلى من عهود عرضه للخراب لمصلحة الغربية منها ، فكانت هناك حركة انتقال عمرانى شبه دائمة هى الأجزاء المعمورة فعلا من الفسطاط فى أواخر العصر المملوكى [٥] وما تلاه من عهود [٦] .

وبالإضافة إلى التوسع ناحية الغرب ، فلقد أصبح بإمكان الفسطاط الاتجاه نحو منطقة التوسع الطبيعى لها ، وهى الناحية الشمالية [٧] ، فأخذت المبانى تتجه ناحية القاهرة ، وصولا إلى القلعة ، والخليج ، والجامع الطولونى ، اذ أن الدور التى بنيت فى

---

(١) سبق الأشارة إلى ذلك .

(٢) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقا .

(٣) من الواضح أن اتخاذ الفاطميين للجزيرة كموضوع نزهة خاصة بهم ، قد حد من سكناها من قبل عامة الناس ، لذلك يلاحظ المقدسى قلة سكانها ، فى حين أن ناصر خسرو يشير إلى خلوها من السكان وأن بقايا النشاط السكنى فيها لا تزال ماثلة حتى وقته انظر : المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٠ ، ناصر خسرو ، سفر نامة ، ص : ١٠٤ .

(٤) سيرد ذكر ذلك لاحقا .

(٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ / ٣٣٩ . القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٣٣٤ .

(٦) ن . م . س .

(٧) لا يزال الخراب ماثلا فى الفسطاط شرقى الجامع العتيق حتى الوقت الحاضر .

(٨) سبق الإشارة إلى أن المناطق السهلية شمالى الفسطاط أعطيت المدينة فرصة التوسع الطبيعى فيها .

هذه المواضع سنة (٥٨١ هـ / ١١٨٥ م) [١] ، تعد دليلا قويا على أنها قد اتجهت نحو تحقيق هذا الغرض .

ثانيا : المنطقة الواقعة فيما بين الفسطاط والقاهرة :

ويمكن تقسيم هذه المنطقة إلى قسمين رئيسيين ، أولهما يقع فيما بين الفسطاط والباب الجديد [٢] ، ويشغل معظم أجزائه العسكر والقطائع ، [٣] ولقد تعرض هذا القسم فى العصر الفاطمى لتحولات واسعة النطاق ، إذ أن العسكر والقطائع تعرضتا للتلف والتخريب الشديدين أثناء الشدة المستنصرية ، مما نتج عنه أن تحولتا إلى أطلال وأكوام، [٤] يعتقد بعض الباحثين أنه مظهر استمر فيهما عقودا عديدة تجاوزت العصر الفاطمى [٥] . وهو ما تنفيه الشواهد التاريخية ، اذ من الواضح أن أجزاء كبيرة قد أعيد عمارتها مرة أخرى فى أواخر العصر الفاطمى ، حيث يقول المقريزى فى هذا الشأن أنه (.. لما كانت الشدة العظمى فى خلافة المستنصر ، وخربت القطائع والعسكر صارت مواضعها خرابا إلى خلافة الآمر بأحكام الله فعمر الناس حتى صارت مصر والقاهرة لا يتخللها خراب وبنى للناس فى الشارع [٦] من الباب الجديد إلى

---

(١) سبق ذكر ذلك لاحقاً .

(٢) انظر خريطة رقم (٣) .

(٣) تقع العسكر شمالى الفسطاط وهى تمتد من الكوم الجارح جنوبا ـ وأن كان السخاوى يعد الكوم من جملتها ـ إلى قناطر السباع ـ ميدان السيدة زينب حاليا ـ ومن قنطرة السد غربا ـ شارع السد والدبوره حديثا ـ إلى تلال المقطم شرقا . أما القطائع فتقع إلى الشمال من العسكر فيما بين الجبل الذى عليه قلعة الجبل وجامع ابن طولون وهذا طولها من الشرق إلى الغرب ، أما عرضها فيمتد من الأرض الصفراء ـ جنوبى جامع ابن طولون ـ إلى ميدان الرميله ـ المنشية فى شارع العطارين . انظر : المقريزى، الخطط ، جـ ١ / ص ص ٣٠٥ ، ٣١٣ ، السخاوى : تحفة الاحباب ، ص ١٢٨ ، حسن الباشا وآخرون ، القاهرة ص ١٨ ، ٢٠ ، عبد الرحمن زكى ، القاهرة ص ٥ ـ ٦ .

(٤) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٣٧ .

(٥) عبد الرحمن زكى ، الفسطاط وضاحيتاها ، ص ٣٣. حسن الباشا وآخرون ، القاهرة ، ص ٥٥ . عبد الفتاح وهبة ، الجغرافيا التاريخية ، ص ٤٢١ .

(٦) الشارع : المقصود به الطريق العظمى عنه انظر الشوارع فى الفصل الثانى من هذا الباب .

الجبل عرضا حيث قلعة الجبل الآن وبنى حائط يستر خراب القطائع والعسكر فعمر من الباب طولا إلى باب الصفا بمدينة مصر حتى صار المتعيشون والمستخدمون يصلون العشاء الآخرة بالقاهرة ويتوجهون إلى سكنهم فى مصر ولا يزالون فى ضوء وسرج وسوق موقوده من الباب الجديد خارج باب زويلة إلى باب الصفا .. » [١] ، وبالنظر إلى النص السابق يتضح أن هناك عملية بناء واسعة النطاق قد جرت فى المنطقة فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله ، وأنها شملت القطائع والعسكر ، حيث لم يعد هناك خراب بين الفسطاط والقاهرة ، إضافة إلى أن المبانى اتجهت ناحية الجبل وهى منطقة تعد من جملة القطائع، [٢] بيد أن هذا البناء لم يشمل المنطقة كلها حيث بقى منها أجزاء لم يجرى عمارتها مرة أخرى ، فسترت بحائط . ويبدو أن هذه الأجزاء هى الواقعة إلى الجنوب الشرقى من المنطقة ، فهى تبعد عن الفسطاط والقاهرة ، فى حين أن البناء كان يرتكز فى المواضع القريبة منهما .

وعلى الرغم من أن المصادر لا تقدم نصوصاً يمكن من خلالها معرفة ما إذا استمر وضع المنطقة على ما هو عليه حتى نهاية حكم الفاطميين ، أم أنها تعرضت لتطورات أخرى ، حيث لا تتجاوز فى حديثها عهد الآمر بأحكام الله . فإنه من الراجح أن الوضع العمرانى هذا لم يستمر فيها . إذ أخذ سكانها بالانتقال إلى القسم الثانى من المنطقة ، والذى يقع فيما بين الباب الجديد وسور القاهرة الجنوبى . والذى ظل خاليا من البناء منذ عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، واستمر كذلك إلى ما بعد عهد خلفه الآمر بأحكام الله ، حيث أن المصادر تشير إلى أن البناء فى هذه المنطقة لم يكن يتجاوز فى ذلك الأثناء شمالى الباب الجديد [٣] ، وكذلك فإن المستخدمون الذين يعملون فى القاهرة كانوا لا يسيرون فى سوق وسرج موقوده الا من الباب الجديد وما فى جنوبه وصولا إلى باب الصفا بمصر [٤] ، أى أن المواضع الواقعة شمالى هذا الباب

---

(١) المقريزى ، الخطط ،جـ ٣ / ١٠٠ .

(٢) المقريزى : م . س ، جـ ١ / ٣١٣ .

(٣) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٢٠ ، ١٠٠ ، الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة : ٨٨ .

(٤) المقريزى ، م . س . جـ ٢ / ١٠٠ .

لم يكن فيها ما يدل على وجود العمران على الاطلاق حتى عهد الآمر بأحكام الله ، فى حين يلاحظ أن حارة المنصورية [١] التى أحرقها الناصر صلاح الدين سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٨م) [٢] كانت تقع بجوار سور القاهرة الجنوبى وشمالى الباب الجديد [٣] ، الأمر الذى يدل على أن هذه المنطقة قد عمرت فى أواخر العصر الفاطمى ، ومن الواضح أن هذه الأحياء التى نشأت هنا إنما كانت بديلة لتلك التى تقع خلف منطقة الباب المذكور ، يدل على ذلك انتقال أسماء مواضع بعض الحارات من المنطقة الواقعة بجواره إلى منطقة قريبة من سور القاهرة الجنوبى ، فحارة اليانسية [٤] عندما خططت فى بادئ الأمر كانت تقع بالقرب من ذلك الباب وقباله بركة الفيل [٥] . بينما يلاحظ أن على باشا مبارك عندما يحدد موقع هذه الحارة فى عصره بناءا على إشارة من المقريزى فإنه يجعلها قريبة جدا من سور القاهرة الجنوبى وتبعد كثيرا عن الباب والبركة [٦] . وهذا يدل بدون ريب على أن سكان الحارة قد انتقلوا من موقعهم القديم إلى موقع جديد بالقرب من سور المدينة ، مما يشير إلى حدوث عملية انتقال شاملة فى تلك الأثناء من جنوب الباب إلى شماله . ويعد هذا أمراً طبيعيا لا سيما اذا علمنا ما كان يهدد المنطقة من أخطار فى أواخر العصر الفاطمى ، لذلك عمد السكان القاطنين خارج المدينة إلى الاقتراب من أسوارها ، طلبا للحماية ، وسرعة اللجوء إلى داخلها ، أمام أى نوع من التهديدات .

---

(١) هذه الحارة تنسب إلى بعض طوائف الجند من العبيد السودان . المقريزى : م . س ، جـ ٢ / ١٩
مؤلف مجهول ، تاريخ المصر ، القاهرة ، ورقة : ٢٢ .

(٢) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٣) يدل على ذلك موقع الحارة الحالى ، وهو حارة الغربية ، على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

(٤) تنسب هذه الحارة لطائفة من الجند الفاطمى يعرفوا باليانسية ، المقريزى ، م . س ، جـ ٣ / ١٦ .

(٥) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ١٠٠ .

(٦) بناءا على تحديد على باشا يكون موقع الحارة ناحية الدرب الأحمر أى بالقرب من الضلع الجنوبى الشرقى لسور القاهرة الفاطمية . انظر على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٢ / ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

ان العرض السابق يقودنا إلى تصور واضح عما كانت عليه بنية المنطقة الواقعة فيما بين الفسطاط والقاهرة فى أواخر العصر الفاطمى ، بحيث يمكن القول بأن العمران كان يرتكز فى المناطق الملاصقة لسور القاهرة الجنوبى .

ويعتبر عهد الناصر صلاح الدين مرحلة تغير حقيقى وملموس فى بنية هذه المنطقة ، لرغبته الأكيدة فى ملئها بالعمران حتى يتصل ما بينها وبين الفسطاط وهى رغبة أسهم فى تحقيقها بناء تحصينات القاهرة . إذ أن هذه المنطقة أصبحت داخل السور وأقرب أجزاء المدينة الكبرى من القلعة (١) . وذلك يعد من عوامل الجذب العمرانى ، فآلاف المنازل بنيت فيها عندما تقرر البدء ببناء سور الفسطاط عام (٥٨١هـ/ ١١٨٥م). كذلك فإن بناء القلعة أسهم فى امتصاص المبانى والمنشآت إلى ناحيتها . وأخذت المنطقة تتشكل بطريقة أخرى تختلف عما كانت عليه فى السابق ، وأخذت بالانقسام إلى قسمين رئيسيين أيضا . أولهما الواقع غربى الشارع الأعظم(٢)، أى على يمين الخارج من باب زويلة بامتداد يصل إلى الفسطاط ، فهذه المنطقة تحولت إلى موضع نزهة تطغى عليها البساتين ، التى أخذت بالتمدد غربى هذا الشارع، والتفت حول البرك الواقعة فيها ، كما حدث لبركة الفيل ان هذا التحول ترتب عنه احداث تغير فى التكوين العمرانى للمنطقة . فبعض البساتين والمتنزهات نشأت على أنقاض حارات الجند الفاطمى التى كانت تقع فيها (٣) ، أما القسم الثانى فيقع بمحاذاة الأول من الناحية الشرقية للشارع الأعظم ، على يسار الخارج من باب زويلة . ولقد استحوذت مواضعه على النشاط السكنى الذى قام فى هذه المنطقة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى، فقربها من قلعة الجبل جعلها مرغوبة للسكنى ،

---

(١) خريطة رقم ١ .

(٢) خريطة رقم ١ ، ٢ .

(٣) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

فأخذت المنشآت والدور القادمة من الفسطاط والقاهرة بالاتجاه نحوها [١] ، ومن المؤكد أن النشاط السكنى فى الشارع الأعظم ، قد كان يميل نحو هذه المنطقة ، حيث أن الجانب الأيمن من هذا الشارع كانت تقع عليه البساتين كما سبق أن ذكرنا . ولقد ترتب عن هذه التطورات اجراء بعض التعديلات العمرانية فى بعض أجزاء هذا القسم ، فالمقابر الفاطمية الواقعة فيها توقف عن استخدامها للدفن منذ ذلك الحين، وبدئ فى تحويلها إلى مناطق سكنية.[٢] .

ثالثا : ـ القاهرة الفاطمية :

كان التكوين العمرانى لهذه المنطقة فى العصر الفاطمى يتميز بالبساطة ويخلو من التعقيد [٣] ، وكان تخطيطها عبارة عن شارع رئيسى يخترقها من الشمال إلى الجنوب، وفى وسطها كان يوجد أهم منشآت المدينة . وهما القصران الشرقى الكبير[٤] ، والغربى الصغير [٥] ، ويحيط بهما بعض منشآت المرافق والخدمات، ثم تتوزع أحياء المدينة التى يسكنها الجند فى بقية أجزاء المدينة [٦] . وكان يتخلل هذه

(١) انظر خريطة رقم ٢ .

(٢) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٣) انظر خريطة رافيس التى توضح بساطة تخطيط المدينة فى تلك الأثناء ،

P. Ravisse Essai Sur Chistoire et sutla topographie du Caire d' apres Makrizi (polois des Khaliges Fatimites) . Meinobres . pubries par les membresde la mission archesioglque Franceişe alse au Caire Paris 1887 , plan, 2 .

(٤) بنى هذا القصر عشية تأسيس القاهرة ليكون مقرا للخلفاء الفاطميين وكان يحتل مساحة واسعة من المدينة ، ويقع فى وسطها مع ميل إلى الناحية الشرقية منها ، للمزيد انظر : المقريزى ، الخطط ، جـ ١/ ٣٨٤ . حسن الباشا وآخرون ، القاهرة ، ص ٣٣ ـ ٣٥ .

Ravisse op. cit., p. 479 - 480 plan 2 .

(٥) بنى هذا القصر فى عهد العزيز بالله العبيدى (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٦م) ليكون مقرا لابنته ست الملك. وكان يقع قباله القصر الشرقى من الناحية الغربية . المقريزى : م . س ، جـ ١ / ٤٥٧ . عبد الرحمن زكى ، موسوعة مدينة القاهرة ، ص ٢٠٧ .

(٦) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٦١ .

المنشآت والمباني مساحات خالية من البناء ، كانت تحتل مساحات كبيرة من المدينة، إذ أن الفاطميين كانوا حريصين على أن يكون جزءاً كبيراً من مدينتهم عبارة عن ساحات خالية من البناء[١] . وعلى الرغم من أن هذه المساحات قد جرى البناء على بعضها في أواخر العصر الفاطمي ، بيد أن هذه الظاهرة لا يمكن احتسابها كمرحلة تطور عمراني شهدتها المدينة في تلك الفترة ، حيث أن عملية البناء هذه كانت شاذة ومحدودة ، نظرا لأن استغلال هذه الساحات بالبناء عليها ، لم يظهر بشكل ملموس الا بعد العصر الفاطمي . كما سيتضح لاحقاً .

لقد تعرضت القاهرة في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي لتعديلات تكاد تكون جذرية أثرت على بنيتها ، وجعلت خطتها تتخذ شكلا جديدا يختلف عما كانت عليه في السابق . ففي تلك الأثناء أخذت قوى التطور والنمو العمراني والمتمثلة أساسا في النشاط السكاني والاقتصادي . بالارتكاز في القاهرة ، كما يشير إلى ذلك التوسع الوظيفي الذي طرأ على المدينة حينئذ . فهذا التوسع سيترتب عنه نشوء احتياجات عمرانية جديدة أخذت تتمثل بشكل أساسي في ظهور أحياء وأسواق جديدة [٢] وقد تزامن مع ذلك ظهور حركة لإعادة توزيع مراكز الثقل في المدينة حيث شهدت منشآت الحكم والإدارة والخدمات والمرافق ، حركة تبديل لمواقعها . فمركز الحكم والإدارة انتقل من موضع إلى آخر . فبعدما قضى الناصر صلاح الدين على الخلافة الفاطمية عام (٥٦٩ هـ / ١١٧٣م) ، لم يتخذ قصر الخلافة الفاطمي مقرا له [٣] ، وإنما جعل مقره في « دار الوزارة الكبرى » التي عرفت منذ ذلك الحين بـ « دار السلطنة»[٤] . وهذا يعني بدوره أن مقر الحكم انتقل من وسط المدينة حيث يقع قصر

---

(١) عن هذه الساحات وأنواعها انظر الفصل التالي .

(٢) انظر الفصل التالي .

(٣) المقريزي ، الخطط ، جـ ١ / ٣٨٤ .

(٤) المقريزي ، م . س ، جـ ١ / ٤٣٨ .

الخليفة . إلى الشمال الشرقى من المدينة حيث تقع « دار الوزارة الكبرى » [١] كذلك كان الحال بالنسبة لمنشآت الخدمات والمرافق فالمارستان انتقل موقعة إلى الشمال من موقعه السابق ، حيث أسس الناصر صلاح الدين مارستانا جديدا على أجزاء من القصر الشرقى الكبير ، بدلا من الفاطمى القديم الذى كان يقع جنوبى القصر الكبير. كذلك كان الحال بالنسبة لمؤسسات التعليم والثقافة ، التى شهدت عملية تغير لبعض مواقعها ، رغم محافظة بعضها لدوره التعليمى . فدار العلم [٢] ومكتبة القصر [٣] جرى الغاء دورهما الوظيفى ، حيث تحولت الدار إلى حى سكنى ، بينما جرى بيع مقتنيات المكتبة من الكتب [٤] لتضاف قاعاتها للمارستان الصلاحى ولتظهر المدارس كبديلة لهما ، فأنشأت الدولة الصلاحية فى القاهرة العديد منها ، والتى انتشرت فى سائر أرجاء المدينة [٥] . ومن منشآت المرافق التى تشير المصادر إلى تبديل مواقعها الاصطبلات ، حيث يدل اختفاء الاصطبلات الفاطمية الرئيسية ، وظهور اصطبلات جديدة بدلا منها ، على حدوث تغير فى مواقع هذه المنشآت ، ففى العصر الفاطمى كانت هذه الاصطبلات تقترب من وسط القاهرة . كما يدل على ذلك

---

(١) ويدل على موقع هذه الدار الآن حارة المبيضة : على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٢ / ٢٠٧ .

(٢) وهذه الدار هى الجديدة أنشأها المأمون البطائحى وزير الآمر بأحكام الله العبيدى فى حين أن القديمة أسست منذ عهد الحاكم بأمر الله ، وأغلقت فى وزارة الأفضل بن بدر امير الجيوش . وكانت هذه الدار تعنى بالمسائل الفلسفية ظاهرا بينما كان غرضها الحقيقى نشر التشيع والدعوة له . للمزيد انظر المقريزى ، الخطط جـ ١ / ٤٤٥ .

(٣) كان يوجد بالقصر مكتبة كبيرة تحتوى على الكتب بمختلف أنواعها يقال بأن عددها يتجاوز المليون كتاب . المقريزى : م . س ، جـ ١ / ٤٠٨ ـ ٤٠٩ ، زكى حسن ، الأعمال الكاملة ، جـ ٤ / ٢٧ ـ ٣٢ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ / ١١٢ ، أبو شامة الروضتين ، جـ ١ / ٢٧ .

(٥) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

مواقعها ، فى حين أن الاصطبلات الجديدة أخذ موقعها يتجه نحو أطراف القاهرة، إذ أن بعضها أنشئ فى مواضع مخازن الغلال الفاطمية [١] ، التى كانت تقع بالقرب من أسوار القاهرة ، كما يشير إلى ذلك المقريزى أثناء وصفه لأجزاء المدينة فى تلك الفترة اذ أشار إلى وجودها بالقرب من سور القاهرة الجنوبى ، فى المنطقة الواقعة فيما بين بابى زويلة و سعادة[٢] .

ولقد ترتب عن المتغيرات السابقة أن آخذت بنية القاهرة بالتغير والتطور لتتخذ بنية جديدة تختلف عما كانت عليه فى السابق . فأخذت معالمها القديمة بالاختفاء التدريجى ، نتيجة تحول ساحاتها الواسعة ومنشآتها الرحيبة إلى أسواق وأحياء سكنية والذى يدل فى نفس الوقت على أن المدينة بدأت تتجه نحو التكدس بالمبانى وتراجع قيمة الفراغ فيها ، فترتب عن ذلك أن اضطربت خطتها القديمة وبدأت بالتغير ، حيث تغير النطاق العمرانى لأحيائها القديمة وأخذ بعضها بالتوسع فى المناطق السكنية الجديدة ، فى حين أن البعض الآخر تراجع نطاقه العمرانى ، كذلك فإن إعادة توزيع مراكز الثقل فيها وظهور الأحياء الجديدة ، أثر على خطة شوارعها ، فتغير مواقع المنشآت تطلب ظهور شوارع جديدة تؤدى إليها إضافة إلى أن ظهور الأحياء الجديدة قد تطلب وجود شوارع جديدة أيضا [٣] ، فإذا أضيف مجموع ذلك إلى الشوارع القديمة . دل على أن شوارع القاهرة أخذت تتجه نحو مزيد من التشعب والتعقيد .

رابعا : المنطقة الواقعة غربى الخليج :

فى الحقيقة لم تشهد هذه المنطقة تطورا عمرانيا حقيقيا إلا ابتداءا من عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، حيث لم تكن إمكانياتها فى العصر الفاطمى متاحة للاستغلال العمرانى الكامل نظرا لوجود الخطر النهرى المتمثل فى الفيضان الذى كان يشمل

---

(١) انظر الفصل التالى .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ / ٣٦٣ .

(٣) انظر الفصل التالى .

المنطقة فى تلك الأثناء ، لذلك فإن جهودهم قد انصبت فى بادئ الأمر على قرية المقسى فأنشأوا بها دارا لصناعة السفن (١) ، وجامعا(٢) ، وبستانا يعرف بالدكة(٣) ، فهذه القرية (٤) كانت بمنأى عن خطر الفيضان ، حيث جرت العادة أن تبنى القرى المصرية على تلال مرتفعة تقيها هذا الخطر ، وفى أواخر العصر الفاطمى ، أصبحت الإمكانيات فى استغلال أجزاء من هذه المنطقة أكثر توفرا ، فبدئ منذ عهد الآمر بأحكام الله بالبناء على الأجزاء الشرقية منها ، والمطلة على ساحل الخليج الشرقى ، فبنى على المنطقة التى عرفت بير ابن التبان (٥) ، منشآت النزهة والبساتين والدكاكين وظهرت فيها الشوارع(٦) . ومن الواضح أن توفر الإمكانات هذه إنما يعكس تباعد خطر الفيضان عنها ، نتيجة تباعد الشقة بين شاطئ الخليج وساحل النهر، الذى كان ينحرف باتجاه الغرب نتيجة الطرح النهرى المتوالى سنة بعد أخرى مما أدى إلى تخفيف تأثير الفيضان وخطره عن الأجزاء الشرقية منها . أما فى عصر صلاح الدين فإن تأثير الفيضان على المنطقة أضحى معدوما (٧) ، ولذلك أصبحت امكانيات الاستغلال للمنطقة متوفرة ، إضافة إلى أن تباعد الساحل كان له أكبر الأثر على قيمة

---

(١) أسس هذه الدار فى أوائل العصر الفاطمى وأن كان قد اختلفت الروايات التاريخية فيما إذا كان تأسيسها فى عهد المعز لدين الله أو ابنه العزيز بالله . ويبدو أن هذه الدار لم يستمر وضعها طويلا، حيث تختفى أخبارها منذ عهد الحكام بأمر الله ، المقريزى الخطط ، جـ ٢ / ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٢) سبق الأشارة إلى هذا الجامع .

(٣) لم تشر المصادر إلى تاريخ تأسيس هذا البستان وبه منظره وكان الخلفاء يدخلون إليه بعض الأحيان اذ أنتهوا من مراسيم فتح الخليج . المقريزى : م . س ، جـ ١ / ٤٧٩ ـ ٤٨٠ .

(٤) ظل المقس طوال العصر الفاطمى عبارة عن قرية ، ولم يتحول إلى جزء من القاهرة الا بعد هذا العصر. انظر : محمد رمزى : التعليقات فى النجوم ، جـ ٤ / ص ٥٣هامش (١) .

(٥) ينسب هذا المكان إلى رئيس المراكب المصرية فى عهد الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١هـ / ٩٩٦ ـ ١٠٢٠م) كان أول من عمر فى هذا المكان . المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ١١٤ ويدل على موقعة فى الوقت الحاضر المبانى على بر الخليج الغربى قبالة ميدان باب الخرق . على باشا ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ / ١٠٦ .

(٦) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ١١٤ ـ ١١٥ .

(٧) سبق الأشارة إلى ذلك .

موقع القاهرة ، ولذلك كان عليها أن تتكيف مع هذه التغيرات الموضوعية ، فلجأت المدينة نحو إقامة روابط بينها وبين هذه المنطقة ، تمثلت بشكل أساسى فى مد سور يربط بينها وبين الساحل إضافة إلى شوارع تصل فيما بينها مما هيأ بشكل فعال فى توسيع النشاط العمرانى فى هذه المنطقة ، فاتصل العمران فيما بين المقسى والقاهرة ، وأخذت منشآت النزهة والبساتين والدور والأسواق والشوارع تتوزع فيها ، بشكل يغطى جميع أجزائها تقريبا حتى امتدت المبانى والمنشآت لتشمل أراضى ساحل النيل (١) .

و يتضح من خلال العرض السابق بأن تخطيط المدينة قد مر بتعديلات أساسية جعلته يتخذ خطوطا جديدة ، تقترب فى مضمونها بما عليه المنطقة فى الوقت الحاضر وهو ما يعتقده بعض الباحثين (٢).

---

(١) سيرد تفصيل ذلك فى الفصل الثانى والثالث من هذا الباب .

(٢) حسن الباشا وآخرون ، القاهرة ، ص ٥٧ .

الفصل الثاني

أقسام المدينة

تتكون المدينة من مجموعة من الوحدات العمرانية ، التى تقسم إلى عدة أقسام أهمها الخطط والأحياء ، والشوارع ، والأسواق ، والمتنزهات ، والبساتين ، وأخيرا المقابر

ولقد أخذت المتغيرات الحضارية العميقة ، التى شهدتها القاهرة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، تعمل أثرها على هذه الأقسام ، فبدأت أوضاعها بالتطور والتغير عما كانت عليه فى العهد السابق . وسوف نقوم بمتابعة هذه التطورات من خلال تناولها كل قسم على حدة .

أ ـ الخطط والأحياء :

الأحياء السكنية جزء مهم من مظاهر التخطيط العام للمدينة . بل هى القسم الأهم من أقسام المدينة على الاطلاق . لأنها تعبر من خلال دورها ومنشآتها عن النشاط السكنى للبشر القاطنين بها [1] ،كانعكاس لمجمل مظاهر التطور الحضارى العمرانى للقاهرة الصلاحية ، ولقد شهد النشاط السكنى فى هذه المدينة العديد من المتغيرات الهامة ، كان لها آثارها العميقة على خططها وأحيائها . بيد أنه وقبل الخوض فى تفاصيل أبرز هذه التطورات وأهمها ، ينبغى التعرف على أنواع الأحياء السكنية كوحدة تقسيم اصطلاحية ، استخدمت فى توزيع النشاط السكنى فى داخل المدينة فى تلك الأثناء . وبالنظر لما تورده المصادر عن الأحياء السكنية يلاحظ بأنها تتحدث عن عدد من الأنواع يمكن تصنيفها إلى أربعة أنواع رئيسية ، هى : الحارات ، والاخطاط، والدروب ، والأزقة [2] وعند تدقيق الاصول اللغوية لهذه الكلمات ، يلاحظ أن هناك قاسما لغويا مشتركا فيما بينها ، وهى كلمة الخط (مفرد خطط) التى تدل على اتخاذ موضع من الأراضى للبناء عليه [3] ومنها جاءت خطة البصرة والكوفة للدلالة

---

(١) عبد المنعم شوقى ، مجتمع المدينة ، ص ١٣٣ .

(٢) انظر : المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٢٠ ـ ٤٤ ، الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة : ٢١ ـ ٥٩، البكرى ، قطف الأزهار ، لوحة ١٠٧ ـ ١١٨ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقم ٢٠ ـ ٥٢

(٣) الزبيدى ، تاج العروس ، جـ ٥ / ١٣٠

على بناء أحيائها [١] . فالخط (بالكسر) هو موضع كل حى من الأحيا
السكنية[٢] ، وقد أشار إلى ذلك المقريزى عند حديثه عن أخطاط القاهرة بعد أن ذكر
حاراتها وقال (قد تقدم ذكر ما يطلق عليه حارة من الأخطاط ونريد أن نذكر م
الخطط ما لا يطلق عليه اسم حارة ولا درب ..)[٣] . إلا أن وجود هذا القاسم اللغو
المشترك ، لا يعنى بأن المدينة الإسلامية لم تعرف التنوع فى تكوين أحيائها السكنية
فوجود الألفاظ المختلفة ـ حارة ، خط ، درب ، زقاق ـ إنما يعكس وجود هذا التنو
والتشعب إضافة إلى ما يدل عليه من وجود فروق معينة فيما بينها .

وعند تدقيق المعانى اللغوية والرجوع إلى أصول ألفاظ المسميات المذكورة ، و
تقدمه المصادر التاريخية من معلومات ونصوص عن أحياء القاهرة الكبرى ، يمك
القول بأن هناك بشكل عام نوعان من الأحياء ، أولهما وهو ما يميل إلى الخصوص
فى تكوينه ، ويتخذ شكلا أكثر تماسكا وتقاربا فيما بين أجزائه المختلفة . ويندرج ف
إطار هذا النوع ، الأحياء التى تعرف بالحارات ، فالحارات فى تكوينها العمرانى ح
سكنى تميل عناصره إلى التقارب فيما بين بعضها البعض ، حيث اشتق اسمها م
لفظ المحلة ، وهى المكان الذى يتخذه قوم من الأقوام منزلاً لهم بمعنى أنه أصب
موضعا لسكناهم [٤] غير أن شكل السكنى الذى لا بد من توفره فى الحارة ،
تقارب الدور من بعضها البعض ، وهكذا فالحارة هى (.. كل محلة دنت منازلهم فه
أهل حارة ..)[٥] ومن الواضح أن التماسك الواقع فى الشكل قد أدى إلى أن تمي
الحارات إلى الخصوصية فى تكوينها البشرى فى تلك العهود ، فجعل توزيع السكنى ف
القاهرة المعزية يقوم على أساس الانتماء القبلى ، ذلك أن حارتها قد اختطت لك
يكون كل منها خاص بقبيلة معينة [٦] . وقد أدى وجود التقارب فى بناء الد

---

(١) الزبيدى ، ن . م . س .
(٢) ن . م . س .
(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٢٣ .
(٤) الزبيدى ، م س ، جـ ٧ / ٢٨٣ .
(٥) الزبيدى ، م . س . جـ ٠٣ / ١٦٦ .
(٦) المقريزى ، م س ، جـ ١ / ٣٦١ .

والخصوصية فى التكوين البشرى ، إلى جعل العناصر العمرانية للحارة تميل إلى الخصوصية فى أغراضها ، فالشوارع الموزعة فى الحارات كانت مخصوصة بها ، لذلك فإن مصطلح « الحارة » فى ذلك العصر لا يطلق على الطرقات التى يجتازها الناس من منطقة إلى أخرى [١] . وقد انعكست تلك الخصوصية على شكل الحارة ، التى اتخذت شكلا أشبه بالاطار الذى يلتف حول نقطة مركزية ، اذ يقرر الزبيدى بأن لفظ الحارة يطلق على المستدار من الفضاء [٢] بل ان هذا الانطباع هو الذى توحى به أوصاف بعض حارات القاهرة فى أواخر العصر العثمانى ، التى يبدو أنها حافظت على الكثير من مظاهر تكوينها الأولى ، كحارة الجودرية [٣] ، إذ كانت حارة واسعة تتكون من أربعة فروع غير نافذة وزقاق رئيسى ، وبابان يصلانها بالمناطق المحيطة بها [٤] . وهكذا فقد كان تخطيطها يميل إلى التماسك فى تكوينه ، والالتفاف حول نفسها من حيث الشكل [٥] ، وبالإضافة إلى أن الحارة كنوع من الأحياء يميل إلى التماسك والخصوصية فى التكوين . نجد أن الخطط ، والتى يعرف مفردها بالخطة ، لم تكن تختلف فى تكوينها العمرانى عن الحارة ، كما يشير إلى ذلك المقريزى الذى يذكر بأن « .. الخطط التى كانت بمدينة الفسطاط بمنزلة الحارات التى هى اليوم بالقاهرة فقيل لتلك فى مصر خطة قيل لها فى القاهرة حارة .. » [٦] لذلك كان تكوينها البشرى هى الأخرى يقوم على أساس الانتماء القبلى، فخطط الفسطاط [٧] تميل إلى هذا التكوين ، حيث كانت (.. خطة كل قبيلة قائم على انفرادها منعزلة عن

---

(١) محمد رمزى ، التعليقات فى النجوم الزاهرة ، جـ ٤ / ٤٢ ، هامش (٢) عبد الرحمن زكى ، موسوعة مدينة القاهرة ، ص ٨٢ .

(٢) الزبيدى ، تاج العروس ، جـ ٣ / ١٦٦ .

(٣) تنسب هذه الحارة إلى طائفة من طوائف العسكر الفاطمى تعرف بالجودرية ، انظر المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٥ . الخاصكى ، التحفة القاهرة ، لوحة ٥ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ورقة ٥ .

(٤) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ / ١٧٨ .

(٥) انظر تخطيط الحارة كما رسمت فى عهد الحملة الفرنسية ،
A. Raymond E. T. G. Wit, Les Marcecs de Caire plan 3.

(٦) المقريزى : م . س ، جـ ١ / ٢٩٦ _ ٢٩٧ .

(٧) عن هذه الخطط انظر ، المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٩٧ _ ٢٩٩ ، فؤاد فرج ، المدن المصرية ، جـ ٤ / ٣١٩ _ ٣٢١ .

غيرها ..) [١] .

أما النوع الثاني من الأحياء ، فهو الذي لا يميل إلى الخصوصية في تكوينه أو التماسك في شكله ، ويشمل هذا النوع عددا من الأحياء ، تتمثل في الخط (جمعها خطوط أو اخطاط) ، والدروب ، والأزقة ، وتتميز هذه الأحياء بأنها تتكون من شارع رئيسى يخترقها ، ففى الأصول اللغوية لهذه المسميات يلاحظ أن لها علاقة بالشارع ، اذ أن الخط (بالفتح) هو الطريق الشارع [٢] . فى حين أن الدروب تدل على مداخل الأشياء والطرق المؤدية إلى المواضع ، حيث يطلق الدرب على باب السكة الواسعة . كما أن مداخل الأصقاع المختلفة مثل مداخل بلاد الروم هى دروب تؤدى إليها [٣] . أما الزقاق فيعرّف بوضوح بأنه طريق [٤] . من الواضح أن شوارع هذه الأحياء تستخدم للأنتقال من منطقة إلى أخرى ، فدرب كوكب [٥]كان الطريق الذى يسلك فيه من حارة زويلة[٦] إلى درب الصقالبة[٧][٨] كذلك فإن درب شعلة [٩] كان (... الشارع المسلوك فيه من باب درب ملوخيا[١٠] إلى خط الفهادين [١١]

---

(١) فؤاد فرج ، م . س . جـ ٤ / ٣٢١ .

(٢) الزبيدى ، تاج العروس ، جـ ٥ / ١٢٩ .

(٣) الزبيدى ، م . س ، جـ ١ / ٢٤٥ .

(٤) الزبيدى ، م . س ، جـ ٦ / ٣٧١ .

(٥) يعرف بكوكب الدولة بن الحناكى ، وكان يعرف قبل ذلك بالقائد الاعز مسعود المستنصر . المقريزى، الخطط ، جـ ٢ / ٤٢ .

(٦) نسبت هذه الحارة إلى طائفة من طوائف الجند الفاطمى الذين ينتمون إلى إحدى القبائل البربرية ، المقريزى ، م . س . جـ ٢ / ٤ ، الخاصكى . التحفة الفاخرة ، لوحة ٤ ـ ٥ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٤ ـ ٥ .

(٧) عرف هذا الدرب بطائفة من الجيش الفاطمى عرفوا بالصقالبة ، المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٤٢ .

(٨) ن . م . س .

(٩) لا تقدم المصادر تحديدا لأصل مسماه ، المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٤٣ ، الخاصكى ، م . س ، لوحة ٥٥ .

(١٠) هذا الدرب كان يعرف بحارة قائد القواد ثم عرف بعد ذلك بدرب ملوخيا الفراش صاحب ركاب الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١هـ / ٩٩٦ ـ ١٠٢٠م) ، المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣٨ ، مؤلف مجهول ، م . س ، ورقة ٤٤ .

(١١) لا تقدم المصادر تحديد لأصل مسماه ، المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣٦مؤلف مجهول ، م. س ، ورقة ٤٢ .

والعطوفية [١] ...)[٢] ، بل أن بعضها كان فى وقت من الأوقات يعد شارعا رئيسا أو جزء من شبكة الشوارع الرئيسية فى المدينة . فخط سويقة أمير الجيوش [٣] كان طريقا يسلك فيه من شارع القصبة إلى باب القنطرة [٤] . فى حين أن الشارع الذى يمتد من المطابخ [٥] إلى العداسين [٦] فى الفسطاط ، كان يخترق عددا من هذه الأحياء الواقعة على امتداداته فهو يتكون من دروب وأزقة علاوة على الاخطاط [٧] . ولقد أدت هذه الوظيفة إلى جعل هذا النوع من الأحياء يتكون من شارع رئيسى تحيط به مجموعة من الشوارع الجانبية المتفرعة عنه والنافذة إليه ، ففى خط سويقة أمير الجيوش يوجد عدد من الطرقات الجانبية تتفرع من الشارع الذى تطل عليه السويقة وهو الشارع الرئيسى فيها بطبيعة الحال [٨] .

ومن الواضح أن هذه الخصيصة فى التكوين العمرانى قد أثرت على الشكل العام الذى تتخذه هذه الأحياء ، إذ كانت تميل فى ذلك إلى الاستطالة نظرا لوجود الشارع ، ولذلك فإن من التعريفات اللغوية للخط « هو المستطيل فى الشىء » [٩] أما عن الفروق بين هذه الأحياء المتنوعة ، أى الفرق فيما بين الخط والدرب والزقاق فإنه يكمن فى مواصفات الوحدة الأساسية المتمثلة فى الشارع . فبمقدار عرض الشارع

---

(١) العطوفة حارة تنسب إلى طائفة من طوائف الجيش الفاطمى ، يبدو أنها تنسب إلى عطوف أحد خدام الفاطميين ، المقريزى ، الخطط جـ ٢ / ١٣ ، الخاصكى ، م . س ، لوحة ١٥ ـ ١٦ ، مؤلف مجهول ، م . س ، ورقة ١٥ ـ ١٦ .

(٢) المقريزى ، م . س ، جـ ٤٣ .

(٣) ظهر هذا الخط على أحد القصور الفاطمية التى تنسب إلى الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى (٤٦٦ ـ ٤٨٧هـ / ١٠٧٣ ـ ١٠٩٤م) انظر الفصل التالى .

(٤) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٧٥ .

(٥) هذا الخط يعرف بالمطابخ السلطانية يبدو أنه قد كان به مطابخ السكر السلطانية ، وهو يمتد من حمام السلطان إلى سوق الصيادين ، ابن دقماق ، الانتصار ، ق ٢ / ٣٨ .

(٦) لم أعثر على إشارة واضحة تحدد ماهية هذا الموضع فيما اطلعت عليه من مصادر ومراجع .

(٧) ابن دقماق ، م . س ، ق ١ / ص ٨٥ .

(٨) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٧٥ .

(٩) الزبيدى ، تاج العروس ، جـ ٥ / ١٢٩ .

تتحدد هوية كل قسم من أقسام هذا النوع من الأحياء ، ومن الواضح أن شارع الخط كان أعرضها ، حيث يرد في اللغة أن الخط هو (.. الطريق الخفيف في السهل)[١] ، في حين أن الدرب يكون عرض شارعه أقل مَن الخط ، اذ أن الدرب يطلق على باب السكة الواسعة [٢] ، والسكة هي الطريق الضيق [٣] . بل ان أصل لفظ الدرب مرتبط باطلاقه على المضايق في الجبال [٤] . أما الزقاق فإنه أقلها عرضا ، لأنه يطلق على الطريق الضيق ، كما أنه قد يطلق على السكة في بعض الأحيان ، [٥] وتقدم المصادر نصوصا يمكن من خلالها تقديم مقترح عام لسعة تلك الشوارع في المدينة الإسلامية، وإن كان من المؤكد أن معدلات عرضها بشكل عام لم تكن تزيد على العشرين ذراعا[٦] ، فحسبما يرد عن التخطيط العمري [٧] يلاحظ أن الطرقات التي يطلق عليها لفظ « شارع » كانت تقف عند العشرين ذراعا كحد أدنى في عرضها [٨]، حيث ان الطرقات التي يكون عرضها دون ذلك يطلق عليها لفظ غير الشارع . فكانت هناك الأزقة التي عرضها يتراوح فيما بين السبعة [٩] والتسعة أذرع [١٠] وهو أقل شوارع الأحياء عرضا ، أما الدرب فقد كان عرضه في حدود الستة عشر ذراعا ، كما يشير إلى ذلك اليعقوبي أثناء حديثه عن بعض دروب بغداد [١١] وهكذا يمكن

---

(١) الزبيدي ، تاج العروس ، جـ ٥ / ١٢٩ .

(٢) الزبيدي ، م . س ، جـ ١ / ٢٤٥ .

(٣) الزبيدي ، م . س ،جـ ٧ / ١٤٣ .

(٤) الزبيدي ، م . س ، جـ ١ / ٢٤٥ .

(٥) الزبيدي ، م . س ، جـ ٦٠/ ٣٧١ ، الا أن السكة تتميز بأن لها نهاية مسدودة في كثير من الأحيان ، الزبيدي ، م . س ، جـ ٧ / ١٤٣ .

(٦) والمقصود هنا الذراع الهامشين وهي قسمان كبرى يبلغ طولها ٥ر٦٦ سم ، والصغرى وطولها ٠٥ر٦ سم ، طلال رفاعي ، البريد ، جـ ١ / ٨٠ .

(٧) نسبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي وضع نظاما يتم بموجبة تخطيط مدن الفتح الإسلامي مثل الكوفة والبصرة . انظر : الكتاني ، التراتيب الإدارية ، جـ ١ / ٢٨٢ .

(٨) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ ، الكتاني ، ن . م . س .

(٩) الماوردي ، م . س ، ص ١٨٠ .

(١٠) الكتاني ، م . س ، جـ ١ / ٢٨٢ .

(١١) نقلا عن صالح العلي ، بغداد ، ص ١٥٨ .

الاستدلال على أن عرض الخط هو فى حدود ما بين الستة عشر والعشرين ذراعا .

ويتضح مما سبق بأن الفروق النوعية بين الأحياء بأنواعها المختلفة فى القاهرة الكبرى ترتبط بالوظيفة التى يقوم بها كل منها ، فالنوع الأول كانت مهمته أن يكون وعاءا بشريا مخصوصا فى وظيفته ، أى خاص بالإسكان ، بينما يكون الثانى ذو خدمات عمرانية تتصل بالمدينة وهو الشارع ، وبالأمكان استخدام بعض عناصره العمرانية للأنتقال من منطقة إلى أخرى .

وقد أدى ذلك إلى عدم ارتباط الفروق بينها بالنواحي الكميـة ، فالحى من هذه الأحياء يمكن أن يحتوى على العدد الكبير من المنشآت وبالتالى من العناصر العمرانية، مثل حارة العطوف التى كانت تحتوى على (.. الدور العظيمة والحمامات والأسواق والمساجد مالا يدخل تحت حصر ..)[١] . ومثل خط اصطبل الطارمه [٢] الذى يحتوى على العديد من المساكن والمساجد علاوة على سوق وحمام [٣] . ومن الممكن أيضا أن يحتوى الحى على عدد قليل من المنشآت وبالتالى العناصر العمرانية ، كحارة برجوان [٤] التى لم تكن فى العصر الفاطمى تتكون سوى من دارين ورحبة [٥] .

و لذلك أمكن أن تستوعب هذه الأحياء بعضها بعضا . فالحارات كانت تتداخل مع بعضها البعض، كحارتى الدميرى والشاميين[٦] اللتان تعتبران من جملة العطوفية[٧] ، وكذلك كانت الحارات تحوى على الخطوط ، كخط قصر بنى عمار [٨] الذى يقع فى حارة كتامة [٩][١٠] علاوة على أن المصادر تذكر العديد من الدروب والأزقة التى

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ١٣ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ورقة : ١٦ .

(٢) ظهور هذا الخط على موضع اصطبل فاطمى حمل ذات الاسم ، انظر الفصل التالى .

(٣) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣٥ ، مؤلف مجهول ، م . س ، ورقة : ١٤ .

(٤) تنسب هذه الحارة إلى الاستاذ أبى الفتوح برجوان أحد الوزراء الفاطميين (٣٨٧ ـ ٣٩٠هـ /٦ ٩٩٧ ـ ٩٩٩م) ، انظر : المقريزى ، الخطط جـ ٢ / ٣ ـ ٤ ، الخاصكى التحفة الاخرة ، لوحة ٣ ـ ٤ .

(٥) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٦٣ .

(٦) لم تذكر المصادر اصل تسميتها ، انظر : المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ١٦ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ١٨ .

(٧) ن . م . س .

(٨) هذا الخط ظهر على أحد القصور الفاطمية فى عصر صلاح الدين الأيوبى، للمزيد انظر الفصل التالى.

(٩) كتامة هى طائفة من طوائف الجيش الفاطمى المغاربة اختطوا هذه الحارة فعرفت بهم ، المقريزى م . س، جـ ٢ / ١٠ ، الخاصكى م . س ، لوحة ١٢ .

(١٠) ن . م . س .

كانت فى داخل الحارات [١] . ولم يكن وجود الأحياء داخل بعضها البعض قاصراً على أن يكون النوع الثانى منها ـ خط ، درب ، زقاق ـ فى داخل الأول ـ حارة ـ خطه ، بل قد يحدث العكس أيضا ، فقد ذكر المقريزى خلال حديثه عن حارة فرج[٢] بأنها تقع فى عصره فى أحد الدروب ، حيث يقول (... وهى الآن داخلة فى درب الطفل [٣] ..) [٤] ، مما يشير إلى أن الأحياء بشكل عام تقع فى داخل بعضها البعض .

وهذا فيما يتعلق بأنواع الأحياء فى القاهرة فى تلك العصور . أما بالنسبة لما ظهر عليها من تطورات فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى فيمكن حصرها فى المجالات التالية :

أ ـ الخطط والأحياء الجديدة : ظهر فى عهد الناصر صلاح الدين العديد من الأحياء الجديدة فى المدينة الكبرى . ومن أبرز المواضع التى ظهرت عليها هذه الأحياء، المبانى السكنية والمنشآت بأنواعها المختلفة ، والتى كان يوجد العديد منها وبأحجام كبيرة فى تلك الأثناء . أبرزها القصور والدور الفاطمية . فبعد ما قضى الناصر صلاح الدين على الحكم الفاطمى عام (٥٦٩هـ / ١١٧٣م) واجه تركة ضخمة من الدور السكنية التى تعود ملكيتها للفاطميين وأتباعهم ، فقام باخلائها من ساكنيها وأغلق أبوابها حيث أنه (ضرب الألواح على ماكان للخلفاء وأتباعهم من الدور والرباع ..)[٥] ثم قام بعد ذلك بتمليكها لأقربائه ورجال دولته [٦]بطرق وأساليب شتى على سبيل الهبات والاقطاعات أو عن طريق البيع [٧] . بل أن الأمر تجاوز ذلك ، عندما أقدم بعض أتباع الناصر صلاح الدين بوضع أيديهم على العديد من الدور

---

(١) انظر : المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣٨ ـ ٤٠ ، الخاصكى ، م . س ، لوحة ٤٧ ـ ٥٩ ، مؤلف مجهول ، م . س ، ورقة : ٤٣ ـ ٥٢ .

(٢) عرفت هذه الحارة بالأمير جمال الدين فرج من أمراء بنى أيوب، المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ١٤ . الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة : ١٦ .

(٣) لم أعثر فيما اطلعت عليه من مصادر على معلومات واضحة عن هذا الدرب .

(٤) ن . م . س .

(٥)المقريزى : الخطط ، جـ ١ / ٤٩٦ .

(٦) ن . م . س ، عبد الرحمن زكى ، القاهرة ، ص ٢٩ .

(٧) ابو شامة ، الروضتين ، جـ ١ / ق ٢ / ٥٠٧ ـ ٥٠٨ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ص ٦٠ ، عبد الرحمن زكى ، ن . م . س .

الخاصة بأتباع الفاطميين ، فكان كل من استحسن منهم داراً ، بادر باخلاء سكانيها منها ووضع يده عليها [(١)] . وقد يظهر الأمر لأول وهلة أن هذه الاجراءات ليست سوى عملية استبدال العناصر السكانية بغيرها ، بينما الواقع لم يكن كذلك فى جميع الحالات . فهناك الكثير من الشواهد التى تشير إلى أن عملية التغيير السكانى المذكورة كانت فى حقيقتها عملية تغيير عمرانى كبيرة طرأت على مواضع تلك الدور ، فتحولت إلى أحياء سكنية .

فمن المؤكد أن كثيرا من الدور المشار إليها آنفا كانت ذات مساحة كبيرة جدا ، فالقصر الشرقى الكبير ، كان يشغل خمس مساحة القاهرة المعزية[(٢)] ، وتدل التوقيعات التى أجريت لتحديد موقع القصر الغربى الصغير على أنه يشغل مساحة كبيرة أيضا [(٣)] . ولا بد وأن الأمر كان كذلك بالنسبة للدور والقصور الأخرى التى كانت مخصصة للوزراء والأمراء والقادة وغيرهم من كبار رجال الدولة ، فدار الوزير الفاطمى يعقوب بنى كلس[(٤)] ، كانت كبيرة جدا كما يظهر من أوصافها [(٥)] . فقد كان بها مسجدا، ومجموعة من البيوت كانت « ... تختص بمن يدخل داره فى الغرباء ..»[(٦)] ، وكان يجلس بها عدد من المشتغلين بأمور العلم ، فكان فيها قوم

---

(١) ابو شامة ، م . س ، جـ ١ / ق ١ / ٥٠٧ ، المقريزى ، ن . م . س .

(٢) عبد الرحمن زكى ، موسوعة مدينة القاهرة ، ص ٢١ .

(٣). Ravaisse, Essai sur chistoire et sur la topographie du Caore, plan 2

(٤) هو أبو الفــرج يعـقـوب بن يوسف بن إبراهيم (٣٦٧ ـ ٣٧٣هـ / ٩٧٧ ـ ٩٨٣م) أول وزراء الفاطميين فى الديار المصرية كان يهوديا ثم اعتنق الإسلام على المذهب الإسماعيلى ، للمزيد انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٧ / ٢١ ـ ٣٤ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ورقة : ٥ ـ ٦ .

(٥) هذه الدار عرفت بعد ذلك بدار الديباج وكانت تحتل مساحة كبيرة كما يذكر على باشا مبارك ويدل على ذلك تحديد موقعها فى العصر الحديث حيث كانت تحتل المنطقة فيما بين أول درب سعادة من جهة جامع جقمق إلى عطفة الصابونجية ، ومن شارع المنجلة من أول هذه العطفة ، إلى شارع الحطاب بطوله وجميع شارع اللبودية ، انظر على باشا مبارك ، الخطط ـ التوفيقية ، جـ ٣ / ١٩٩.

(٦) ابن خلكان ، م . س ، جـ ٧ / ٢٩ .

ينسخون القرآن ، وآخرون لتدوين الحديث والفقه والأدب والطب[١] ، وهؤلاء لا بد وأن يكون لهم في دار الوزير أماكن مخصصة لهم ولأنشطتهم .

وبالإضافة لكبر مساحة هذه الدور ، فلقد احتوت على العديد من العناصر المعمارية ، فمن الواضح أنها كانت تتكون من أكثر من وحدة من وحدات عمارة المنزل الإسلامي ، والتي كانت عبارة عن فناء مكشوف تحيط به الأواوين [٢] من جهاته الأربع في غالب الأحوال ، كما تشير بذلك التقارير المنشورة عن الحفائر التي أجريت في مدينة الفسطاط [٣] ، ولذلك فإن هناك من يعتبر بأن القصور الاثنا عشر التي أشارت المصادر إلى أن القصر الشرقي يتكون منها ، لم تكن سوى اثنى عشر وحدة من الوحدات سابقة الذكر [٤] ، ويذكر المقريزي أن دار الوزارة الكُبرى كان يوجد بها العديد من القاعات [٥] ، والراجح أن المراد بها تلك الوحدات سالفة الذكر . وكان يوجد بهذه الدور أيضا المناظر[٦] ، حيث احتوى القصر الشرقي الكبير على عدد منها[٧] ، إضافة إلى البساتين، التي احتواها القصر المذكور كما يشير بذلك ناصر خسروا [٨] ، وكذلك كان الحال في دار الوزارة الكبرى [٩] . وبالإضافة إلى كل

---

(١) ن . م . س .

(٢) الأيوان لفظ فارسي الأصل يطلق على قاعة الاستقبال ، صالح لمعي مصطفى ، التراث المعماري الإسلامي في مصر ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ٩٨ .

(٣) حسن محمد الهواري ، الرحلات العلمية (الفسطاط) ، القاهرة ١٩٢٧م . ص ٩ ، ١٦ ، توفيق عبد الجواد ، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، جـ ٣ / ١٨٧ .

(٤) فريد شافعي ، العمارة العربية الإسلامية ، ص ٦٤ .

(٥) المقريزي ، الخطط جـ ١ / ٤٣٩ .

(٦) مفردها منظره ويدل اصلها اللغوى على المبنى المرتفع ، انظر الزبيدى ، تاج العروس ، جـ ٣ / ٥٧٥، ويذكر صالح لمعي بأن المنظره عبارة عن قاعة استقبال تقع بالطابق الأرضي من المنزل ، صالح لمعي مصطفى ، التراث المعمري الإسلامي في مصر ، ص ٩٨ . ويبدو أن ذلك حالها في العصر المملوكي ، في حين أنها في العصر الفاطمي تدل على البناء المرتفع كما يشير بذلك اوصاف مناظر الفاطميين ، انظر المقريزي ، م . س ، جـ ١ / ٤٦٥ ـ ٤٨٦ ، البكرى ، قطف الأزهار ، لوحة ١٠٤ ـ ١٠٧ .

(٧) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٢ / ٩٨ .

(٨) ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩١ .

(٩) المقريزي ، م . س ، جـ ١ / ٤٣٩ .

ذلك ، فأنها قد احتوت على عدد من المخازن ، كما هو الحال فى القصر والدار المذكورتين[١] .

ومن الواضح أن كبر أحجام هذه المنشآت ، وتعدد عناصرها المعمارية هى التى أدت إلى أن يقوم الناصر صلاح الدين بتقسيمها بين أتباعه ورجال دولته ، الأمر الذى ترتب عنه أن تحولت إلى خطط وأحياء سكنية .

ولم يكن تحول المنشآت والمبانى إلى أحياء سكنية قاصرا على الدور والقصور ، وإنما تجاوز ذلك إلى منشآت الخدمات والمرافق ، التى بدأ غالبيتها يفقد وظيفته فى تلك الأثناء . فدور الضيافة الفاطمية أضحت دار واحدة كما يشير بذلك ابن الطوير[٢] ، وكذلك الحال بالنسبة لدار الديباج التى كانت مخصصة لصناعة الحرير الديباج [٣] ، فمن الواضح أن هذه الدار فقدت وظيفتها فى عهد الناصر صلاح الدين، حيث لجأت دولته إلى توفير احتياجاتها من المنسوجات وغير ذلك عن طريق السوق[٤] . ومن المنشآت الفاطمية التى فقدت وظيفتها أيضا ، دار العلم [٥] التى حل محلها بطبيعة الحال المدارس التى أسست فى تلك الأثناء [٦] ، والمارستان الفاطمى[٧]

---

(١) ن . م . س ، على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ١٠٠ ـ ١٠٢ .

(٢) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٦١ .

(٣) هذه الدار كانت دارا للوزير الفاطمى يعقوب بن كلس ، وبقيت من بعده سكنا للوزراء الفاطميين حتى عهد الوزير الفاطمى أمير الجيوش بدر الجمالى ، الذى بنى دارا أخرى للوزارة فى حارة براجوان، فجعلت هذه الدار مصنعا لصناعة الحرير والديباج ، المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٦٤ .

(٤) سبق الأشارة إلى ذلك .

(٥) سبق الحديث عنها ، ويدل على موقعها فى العصر الحديث المبانى الواقعة خلف وكالة رحنا من الناحية الشرقية وما بجوارها من دور وحوانيت تقع ضمن خان الخليلى ، أو أزيلت بتأسيس شارع السكة الجديدة (جوهر) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٢ / ٨٧ .

(٦) عن هذه المدارس انظر الفصل التالى .

(٧) لا تقدم المصادر معلومات عن تاريخ نشأة هذا المارستان وكان يقع جنوبى القصر الكبير ، إلى الجنوب من خزانة الدرق ، على يسار الداخل فى سوق الخراطين (شارع الصنادقة حاليا) المقريزى، م . س، جـ ١ / ٤٤٥ ، على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ٢٤٤ .

الذى أسس بدلا منه مارستان جديدا بنى على اجزاء من القصر الشرقى الكبير [١] ، ودار الضرب [٢] التى حل محلها دار جديدة أسست على أجزاء من القصر الشرقى أيضا [٣] . وكذلك كان الحال بالنسبة لمنشآت النزهة العديدة التى كانت للخلفاء الفاطميين ، والتى فقدت وظيفتها نتيجة لعدم استخدام صلاح الدين لها فى تلك الأثناء [٤] . وبالإضافة إلى كل ذلك ، فلقد فقدت خزائن الفاطميين [٥] وظيفتها أيضا ، بعد أن عمل الناصر صلاح الدين على تفريغ محتوياتها عن طريق الهبة ، والبيع ، الذى استمر عشر سنين . وعلى نفس الوتيرة سار الأمر بالنسبة للاصطبلات الفاطمية [٦] ، التى أنشىء بدلا منها اصطبلات أخرى فى مواضع مخازن الغلال كما يذكر ابن الطوير [٧] ، وعلاوة على تلك التى أنشئت على ميدان القصر الغربى [٨] .

لقد ترتب عن هذه التحولات ، أن جرى استغلال هذه المنشآت بطريقة أخرى حيث جرى استغلال أجزاء من بعضها لتقوم عليها منشآت الخدمات إضافة إلى أحياء جديدة ، فأنشىء على بعضها المدارس . فالمدرسة السيوفية [٩] مثلا أقيمت على أجزاء

---

(١) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٢) أسست هذه الدار عام (٥١٦هـ / ١١٢٢م) بأمر من الوزير الفاطمى المأمون بن البطائحى (٥١٥ ـ ٥١٩هـ / ١١٢١ ـ ١١٢٥ م) وهى تقع قبالة المارستان إلى الجنوب منه على يمين الداخل من الخراطين (الصنادقية) ، المقريزى ، ن . م . س ، على باشا مبارك ، ن . م .. س .

(٣) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٤) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٥) ويشير المقريزى إلى أن غالبية هذه المخازن كانت تقع جنوبى القصر الشرقى فيما بينه وبين حارة الباطنية ، وحارة الروم ، وحارة الديلم والاتراك ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٣٦٣ .

(٦) كان للفاطميين عدد من الأصطبلات الرئيسية أهمها : اصطبل الجميزة ، والطارمة ، واصطبل الحجرية ، المقريزى ، م . س ، جـ١ / ٤٤٤ . ٤٦١ ، ٤٦٤ .

(٧) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٦٤ ـ ٤٦٥ .

(٨) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٩) عن هذه المدرسة انظر الفصل التالى .

من الدار المأمونية (١). أما المدرسة السيفية (٢) والمدرسة القبطية (٣) ، فقد اقيمتا على مواضع من دار الديباج (٤) ، كـذلك فلقد استغلـت أجـزاء من القـصر الشرقى الكبير ليقام عليها المارستان ودار الضرب الجديديـن كمـا سبـق أن ذكرنا . هذا علاوة على اسغلال هذه المنشآت كمواضع للسكنى ، حيـث قام الناصـر صلاح الدين بتقسيمها بين أقربائه ورجـال دولته (٥) ، فالقصر الشـرقى الكبير ، قسم إلى أجزاء عديدة بين أمـراء الدولـة (٦) ، كمـا يشيـر العمـاد الأصفهـانى إلى ذلك بقوله (.. وتقاسم الخواص بدور القصر وقصوره ..)(٧) ، وكـذلك كـان الأمـر بالنسبة للقصر الغربى الذى نزله بعض الأمراء الأتراك (٨) ، وهذا علاوة على منشآت النزهة تعرض غالبها للتقسيم أيضا ، فمنظرة اللؤلؤ (٩) ، سكنهـا والد صلاح الدين

---

(١) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣٦٥ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة : ٤٤٥ . على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية جـ ٢ / ١٠٩ ،هذه الدار تنسب للوزير المأمون ابن البطائحى لأنه سكنها وكانت قديما تعرف بقوام الدولة حبوب ، المقريزى م . س ، جـ ١ / ٤٦٢ ، ويدل عليها الآن موقع المدرسة التى بنيت عليها .

(٢) عن هذه المدرسة انظر الفصل التالى .

(٣) عن هذه المدرسة انظر الفصل التالى .

(٤) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣٦٥ ، مؤلف مجهول ، م . س ، ورقة ٤٤٥ .

(٥) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٩٦ .

(٦) المقريزى ، م . س ،جـ ١ / ٣٨٤ ، الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٢٤ .

(٧) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ / ق ٢ / ٥٠٨ .

(٨) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٢٣٣ .

(٩) منظره اللؤلؤ أحد قصور النزهة الفاطمية ، كان كبيرا جدا ، وعلى مستوى رفيع من الفخامة كما تشير بذلك أوصافه ، أمر ببنائه العزيز بالله العبيدى ، (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ / ٩٧٦ ـ ٩٩٦م) ، انظر : المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٦٧ ـ ٤٦٩ ، البكرى ، قطف الأزهار ، لوحة : ١٠٤ ـ ١٠٥ ، ويذكر عبد الرحمن زكى بأنها كانت تحتل مساحة تبلغ مائة متر فى مثلها ، فى المنطقة الممتدة بموازاة شارعى الشعرانى البرانى ، والخرنفش ، بيد أن من الواضح أن هذا التقدير مبالغ فيه ، إذ لا تقدم المصادر بما يفيد بذلك ، علاوة على أن عبد الرحمن زكى لا يقدم أيضا ما يثبت هذا التقدير . انظر عبد الرحمن زكى ، موسوعة مدينة القاهرة ، ص ٣٧١ .

الأيوبى ، وأخوه الملك العادل[١] ونفس الأمر حدث لدار الملك[٢] ، التى قسمت إلى أجزاء عدة ، فالقاضى ضياء الدين الشهرزوري[٣] كان له بالفسطاط منزلا أصله (... قطعة من دار الذهب بدار الملك ..)[٤] ، كان صلاح الدين قد وهبه أياه[٥] . ويبدو ان ابن أخى صلاح الدين تقى الدين عمر ، لم يقطن منازل العز[٦] بمفرده . كما تشير بذلك المصادر[٧] ، اذ لابد وأن يكون قد شاركه فيها عدد من الأفراد ، من أمراء ، ورجال دولة وغيرهم ، كما حدث لبقية القصور كما سبق وان

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ / ق ٢ / ٥٠٧ .

(٢) كان هذا القصر بالفسطاط ويقع ناحية ساحلها بناه الوزير الفاطمى الأفضل بن أمير الجيوش (٤٨٧ ـ ٥١٥هـ / ١٠٩٤ ـ ١١٢١م) عام ٥٠١هـ / ١١٠٧م) واتخذها مقرا له ونقل إليها الدواوين، فلما قتل اتخذها الفاطميون متنزها لهم . المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٨٧ ـ ٤٨٤ . البكرى ، قطف الأزهار ، لوحة ١٠٦ وموضعها اليوم مجموعة المبانى المجاورة لجامع عابدى بك الشهير بمسجد الشيخ درويش فى آخر شارع مصر القديمة من الجهة الجنوبية المطلة على النيل ، عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة ، ص ١٠٩ .

(٣) هو أبو الفضائل ضياء الدين القاسم بن القاضى تاج الدين أبى ظاهر ، سمع عن الحافظ السلفى بالاسكندرية ، هاجر إلى مصر فى أوائل عهد الناصر صلاح الدين ، وولى قضاء دمشق مدة يسيرة وتقلب فى المناصب خصوصا بعد وفاة صلاح الدين ، توفى سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م) ودفن بدمشق . عنه انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٤ / ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ، البندارى ، سنا البرق ، ص ١٠٨ .

(٤) البندارى ، م . س ، ص ١١٧ .

(٥) البندارى ، م . س ، ص ١٠٨ .

(٦) يقع هذا القصر على ساحل النيل بالفسطاط ، بنته السيدة تغريد أم العزيز بالله العبيدى (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ / ٩٧٦ ـ ٩٦٦) ، المقريزى و الخطط ، جـ ١ / ٤٨٤ ـ ٤٨٥ . ويدل على موضعها فى الوقت الحاضر ، مجموعة المبانى التى فيما بين شارع مصر العتيقة غربا ، ومدخل شارع المرحومى ، وحارة الشراقوه ، وعطفة زاهر جنوبا . وجنينة الجمجى ، وعطفة الاصرلى جنوبا ، وشارع القبو شمالا . عبد الرحمن زكى ، موسوعة مدينة القاهرة ، ص ٣٧٠ .

(٧) ابن دقماق ، الانتصار ق ١ / ٩٣ . المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣٦٤ . مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٤٤٤ .

أشرنا ، وعلى نفس الوتيرة سار الأمر بالنسبة لمنشآت الخدمات والمرافق ، فدار العلم أضحت منطقة سكنية [(١)] وكذلك الحال بالنسبة لدار الديباج التى يتى بها الناس عددا من الدور [(٢)] وكذلك كان الأمر بالنسبة للمخازن . فخزائن دار أفتكين ، أضحى عليها دور وزير صلاح الدين القاضى الفاضل [(٣)] ، هذا علاوة على تقسيم الاصطبلات الفاطمية ، كما يشير إلى ذلك ابن عبد الظاهر أثناء حديثه عن اصطبل الطارمة [(٤)] حيث يقول بأنه (... كان اصطبلا للخليفة فلما زالت تلك الأيام اختط وبنى آدرا .) [(٥)] وكذلك كان الأمر بالنسبة لاصطبل الجميزة [(٦)] ، الذى اختط وتحول إلى منطقة سكنية منذ تلك الفترة [(٧)] .

---

(١) الخاصكى ، التحفة الفاخرة لوحة : ٥١ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٤٧ .

(٢) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٦٤ .

(٣) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٦٤ .

(٤) ينقل المقريزى عن ابن سيده بأن الطارمة لفظ يطلق على البيت من الخشب وهو دخيل . ويقع هذا الاصطبل إلى الجنوب الشرقى من القصر الكبير تجاه باب الديلم شرقى الجامع الأزهر فيما بين رحبتى قصر الشوك والجامع الأزهر . المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٤٤ ، جـ ٢ / ٤٧ . السخاوى، تحفة الأحباب ، ص : ٩٠ ، ويذكر محمد رمزى بأنه يدل على موقع هذا الاصطبل فى وقته ، المنطقة التى تحد من الشمال بشارع فريد وامتداده إلى الشرق ومن الغرب بالميدان القبلى لجامع الحسين ومن الجنوب بشارع الشنوانى ومن الشرق بشارع الكفر . محمد رمزى ، التعليقات فى النجوم جـ ٤ / ٤٩ هامش (٤) .

(٥) المقريزى ، م . س جـ ١ / ٤٤٥ .

(٦) سمى بالجميزة لأنه كان فى وسطه شجرة جميز كبيرة وكان يقع إلى الجنوب الغربى من القصر الصغير ، كما تدل على ذلك التوقيعات حيث أنه كان يشغل المنطقة الممتدة الآن من عطفة المارستان إلى آخر شارع سوق السمك القديم ، شاملا شارع البندقانيني ، على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ / ١٣٩ ـ ١٤٠ ، ١٥٠ / ١٥٩ ـ ١٦١ .

(٧) الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٣٩ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٣٦ .

إن هذه التغيرات التى تعرضت لها المنشآت الفاطمية قد تطلبت احداث تعديلات عليها تتلاءم مع أوضاعها الجديدة ، ارتبطت بأعمال هدم وتغير لأوضاع المنشآت وما شابه ذلك [١] فالأمراء الذين توزعوا القصر الشرقى ، شرعوا فى احداث التعديلات التى رأوها ضرورية وتنسجم مع أساليب سكناهم . وهو ما قصده العماد الأصفهانى بقوله (... وشرع كل من سكن فى تخريب معموره ...) [٢] ، فأخذت معالمه بالاختفاء منذ ذلك التاريخ [٣] .

بل أن هذه التعديلات تعنى تحويل هذه المنشآت إلى أحياء سكنية ، فعندما سكن الأمير شمس الدولة توران شاه فى حارة الأمراء[٤] عمر بها دربا[٥] على إحدى هذه الدور الكبيرة ، عرف باسم منشئه . ولا يعدو أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لغالبية المنشآت التى بدأت بالتحول إلى حارات ودروب وأزقة[٦] ، أشارت المصادر إلى بعضها .

فظهر فى موضع القصر الشرقى الكبير عدة أحياء سكنية ، ورد ذكر أسمائها فى وثيقة تنازل بقايا الأسرة الفاطمية عن أملاكهم فى القاهرة للسلطان الملك الظاهر بيبرس عام (٦٦٠هـ/ ١١٦٤م) [٧] حيث ورد فيها الإشارة إلى خط خزائن السلاح على اعتبار أنها منطقة سكنية ، فقد جاء فيها ما نصه : (.. وجميع الموضع

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٣٦٤ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ / ق ٢ / ٥٠٨ .

(٣) أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ ٢ / ١٥ .

(٤) هذه الحارة سميت بحارة الأمراء الأشراف الأقارب ، من الواضح أنها كانت خاصة بأقارب الفاطميين ، وكبار رجال الدولة . مؤلف مجهول تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ١٨ .

(٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٣٥٢ ـ ٣٥٣ .

(٦) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٣٦٤ .

(٧) نشر المقريزى هذه الوثيقة فى موضعين من كتابة الخطط ، فيهما بعض الاختلافات . المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٣٨٤ ـ ٣٨٥ ، ٤٩٧ .

المعروف بخزائن السلاح السلطانية وما هو بخطه ..)[١] ، وكذلك وردت الإشارة إلى خط المشهد الحسينى[٢] نسبة إلى المشهد الذى يقع داحل القصر الكبير [٣] ، وكما سبق الإشارة فإن شمس الدولة عمر دربا وكان على إحدى الدور ، هى دار عباس[٤] . فالمقريزى عندما يتحدث عن حمام الكويك[٥] يذكر بأنها أنشئت لخدمة هذه الدار (.. التى موضعها الآن درب شمس الدولة ..) [٦] ، ويبدو أن خط قصر ابن عمر[٧] ، كانت موضعه فى العصر الفاطمى قصرا للوزير الحسن بن عمار [٨][٩] ،

---

(١) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٨٤ ، ويصعب تحديد موضع هذا الحى فى الوقت الحاضر على وجه الدقة وأن كان من الواضح أنه يحتل الجزء الواقع فى منتصف القصر الشرقى تقريبا حيث كانت تقع هذه الخزائن .

(٢) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٨٥ .

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٣٤٧ .

(٤) عرفت هذه الدار بالوزير الفاطمى عباس بن يحيى بن باديس (٥٤٨ ـ ٥٤٩ هـ / ١١٥٣ ـ ١١٥٣م) ، المقريزى ، الخطط جـ ٢ / ٥٥ ـ ٥٦ ، القلقشندى ، م . س ، جـ ٣ / ٣٥٢ .

(٥) نسبت هذه الحمام إلى تاجر فى العصر المملوكى يعرف بنور الدين على بن محمد الكويك كان قد جددها فى عام (٧٤٩هـ / ١٣٢٨م) .
مؤلف مجهول ، تاريخ المصر ، ورقة : ١٠٠ .

(٦) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٨٤ ، ويدل على موضع هذا الدرب فى الوقت الحاضر حارة درب شمس الدولة ، على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية جـ ٣ / ١٥٦ .

(٧) من خلال تحديد على باشا لموقع درب القماحين وهو الاسم الذى اطلق على الخط المذكور فى العصر المملوكى يتضح أن هذا الخط يقع فى شمالى حارة كتامة فى المنطقة الواقعة الآن فيما بين حارة الدويدارى وبين شارع الدراسة ، على باشا مبارك الخطط التوفيقية ، جـ ٢ / ٢٦٢ .

(٨) عندما يتحدث على باشا عن هذا القصر وموقعه يعتبره جزءا من الخط نسب إليه دون أن يقدم مستندا يثبت ذلك ، على باشا مبارك ، ن . م . س ، والأصح أن الخط بأكملة كانت الدار فى موضعه فالمصادر التى تحدثت عن هذا الخط لا تذكر بأن القصر كان من جملته وإنما تتحدث مباشرة عن الوزير الذى نسب إليه وهو الحسن بن عمار . المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣٦ ـ ٣٧ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٤٢ ـ ٤٣ .

(٩) هوأبو الحسن بن عمار بن على (٣٨٦ ـ ٣٨٧ هـ / ٩٩٦ ـ ٩٨٧م) ، أحد أمراء صقلية ومن شيوخ كتامة ولى الوزارة للحاكم العبيدى (٣٨٦ ـ ٤١١هـ / ٩٩٦ ـ ١٠٢٠ م) وقرب المغاربة الأمر الذى أدى إلى قتلة على يد الاتراك . عنه انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٥ / ٣٧٤، المقريزى ، ن . م . س ، على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

جرى تحويله إلى حي سكنى فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى كما حدث لغيره من القصور .

ومثلما تحولت القصور والدور السكنية إلى أحياء وخطط ، فإن منشآت للنزهة بدأت تشهد مثل هذه التغريات العمرانية آيضا ، فدار الملك التى قسمت بين بعض الأفراد فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى كما سبق أن ذكرنا ، تحولت إلى حى سكنى عرف بخط دار الملك [١]، أشار إليه ابن دقماق أثناء حديثه عن مطابخ السكر السلطانية التى تقع فى الفسطاط [٢] . كما أن بعض بساتين النزهة الفاطمية تحولت إلى مناطق سكنية فى تلك الفترة أيضا ، فبستان الدكة ، الذى لا شك بأنه قد فقد وظيفته فى تلك الأثناء كغيره من منشآت النزهة ، تحول إلى خطة كبيرة تحمل اسم البستان [٣] تشغلها (.. أدر وحارات شهرتها تغنى عن وصفها..)[٤]، ومثلما تعرضت القصور والدور السكنية والمتنزهات للتطور العمرانى ، وأخذت بالتحول إلى أحياء سكنية ، فإن منشآت الخدمات والمرافق تعرضت لهذا التطور أيضا ، فدار الديباج ، بدئ فى تحويلها إلى منطقة سكنية فى تلك الأثناء كما سبق أن وضحنا، الأمر الذى ترتب عنه أن ظهر فى موضعها أحياء سكنية مثل درب ابن قطز[٥] ودرب

---

(١) ويدل على موضع هذا الحى موضع الدار الذى سبق الإشارة إليه .

(٢) ابن دقماق الانتصار ، ق ١ / ٤١ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٤٧٩ ـ ٤٨٠ .

(٤) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٨٠ ، ويدل على موضعها فى العصر الحديث شارع قنطرة الدكة ، على باشا مبارك ؛ الخطط التوفيقية ، جـ ٣ / ٣٦١ .

(٥) نسب هذا الدرب إلى أحد أمراء المماليك وهو ناصر الدين ابن بلقاف سيف الدين قطز المنصورى توفى بعد عام (٦٩٨هـ / ١٢٩٨م) . المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٤٢ ـ ٤٣ ، ويبدو أن هذا الدرب يدل عليه فى الوقت الحاضر عطفة الست بيرم حيث أنها هى وعطفة الصاوى (درب الحريرى سابقا) تشغل موضع هذه الدار كما يشير بذلك تحديد على باشا لموقعها فى عصره ، على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ / ١٦٦ ، ١٩٥ .

الحريرى [١] وكذلك كان الأمر مع دار العلم ، ودار الضرب ، والمارستان الفاطمية ، ظهر فى مواضعها أحياء سكنية فظهر فى موضع دار العلم ، درب ابن عبد الظاهر [٢] ، فى حين أن موضع المارستان عرف بدرب خرابة صالح [٣] ، بينما ظهر فى محل دار الضرب درب الشمسى [٤] . ومن الواضح أن دور الضيافة التى فقدت وظيفتها فى تلك الأثناء ، قد أخذت بالتحول إلى أحياء سكنية أيضا ، فمن المؤكد أن خط سويقة أمير الجيوش [٥] قد ظهر على أجزاء من دار الضيافة التى كانت تعرف أيضا

---

(١) الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٥٤ ، مؤلف كجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٤٩ وينسب هذا الدرب إلى القاضى نجم الدين محمد بن القاضى فتح الدين عمر المعروف بابن الحريرى فلقد كان يقطن فيه . المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٤٢ ، الخاصكى ، ن . م . س ، مؤلف مجهول ، ن . م . س ، ويدل على موضعه فى الوقت الحاضر عطفة الصاوى المعروفة أيضا بعطفة الفرن بشارع درب سعاده ، على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٣ / ١٩٥ .

(٢) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٤٠ ، الخاصكى ، م . س ، لوحة ٥١ ، وينسب إلى القاضى محى الدين بن عبد الظاهر الذى سكن فيه . المقريزى ، م . س ، مؤلف مجهول ، م . س ، ورقة ٤٧ ؛ ويدل على موضع هذا الدرب الآن الزقاق الواقع خلف عطفة المدق على يسار السالك إلى الجامع الحسينى من الصنادقة ، أو ما هو قريب منه . على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ٨٧ .

(٣) المقريزى ، ن . م . س ، الخاصكى ، ن . م . س ، مؤلف مجهول م . س ، ورقة ٤١ ولا تذكر المصادر سبب تسميته . ويدل عليه فى الوقت الحاضر عطفة المدق بشارع الصنادقية ، على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ٢٤٥ .

(٤) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٤٥ ، جـ ٢ / ٣٨ ، ويذكر على باشا بأنه يدل على موضع هذا الدرب فى عصره زقاق بشارع الغورية يقع بجوار خان الهجينى ، على باشا مبارك ، م . س . جـ ٢ / ١١٦ ، وانظر أيضاً : A. Reymond , E Wiet, Les Marcees , Plan 3.

(٥) ويدل على موقع هذا الخط فى الوقت الحاضر شارع مرجيوشى ، على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٣ / ١٢٦ ـ ١٢٨ ، وسيتضح فيما يلى اصل تسمية هذا الحى .

(١) هذه الدار بناها أمير الجيوش بدر الجمالى لتكون دارا للوزارة فلما بنى ابنه الأفضل دار القباب سكن

بدار المظفر [١] ، فهذه الدار التى تقع فى حارة برجوان [٢] كانت تمتد فى العصر الفاطمى إلى اصطبل الصبيان الحجرية [٣] كما يشير إلى ذلك المقريزى إبان حديثه عن موضع هذا الاصطبل فى العصر الفاطمى حيث يقول : (.. وبجوار دار الضيافة اصطبل الصبيان الحجرية ..) [٤] ، فى حين أن من الملاحظ أن خط سويقة أمير الجيوش أصبح يفصل فيما بين الحارة والاصطبل المذكورين ، حيث تشير المصادر أثناء

بها أخوه المظفر أبو محمد جعفر وصارت من بعده للضيافة . المقريزى ، م . س ، ١ / ٤٣٨ ، ٤٦١ جـ ٢ / ٥٢ . مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٦٢ . ويذكر على باشا مبارك أثناء تحديده لموقع هذه الدار بأنها المنطقة الواقعة أمام جامع السلحدار والممتدة يمينا وشمالا إلى داخل الحارة وصولا إلى الجامع الذى فى داخلها (مدرسة أبو بكر مزهر) على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٣ / ١٣٣ ، بيد أنه يلاحظ أن على باشا قد خلط أثناء حديثه عن هذه الدار فيما بينها وبين دار براجون ، على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٣ / ١٣٢ وهو بذلك يناقض المقريزى الذى يذكر بأن أمير الجيوش بنى دارا فى هذه الحارة ، كانت هى ودار براجون جزءا من الحارة اللتان تقعان فيها . المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٦٣ ، ٤٦١ . لذلك فمن المرجح أن تكون هذه الدار كانت تحتل المنطقة الواقعة على يمين الداخل إلى الحارة كما يدل على ذلك موقع زاوية جعفر (المظفر) التى تدل على قبر جعفر المشار إليه آنفا والذى يعد جزءا من الدار . على باشا المبارك ، م . س ، وانظر أيضاً فتحى الحديدى ، القاهرة ، ص ص ٢٠ ، ١١٢ الخريطة ، كما أن هذه الدار كانت تمتد إلى اصطبل الصبيان الحجرية كما سيتضح فيما يلى .

(٢) مؤلف مجهول ، ن . م . س .

(٣) الصبيان الحجرية هى طائفة من الجيش الفاطمى كانوا يختارون من أولاد الاجناد ، ويتم تدريبهم وفق نظام تربوى خاص ، ويعيشون فى ثكنات خاصة بهم تعرف بالحجر . العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى : ٧٠ ـ ٧١ . وكان هذا الاصطبل مخصصا لخيولهم المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٦١ ويدل على موضع هذا الاصطبل الخط الذى ظهر عليه .

(٤) المقريزى ، ن . م . س ، وانظر أيضا فيما يذكره المقريزى من أن حارة برجوان كانت تجاور الاصطبل المذكور وذلك أثناء وصفه للقاهرة فى العصر الفاطمى ، المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٦٣ .

وصفها لوضع هـذا الخط فى العصر المملوكى إلـى أنه يقـع فيما بين خط خان الوراقة [١] ، وحارة برجوان [٢] مما يشير بدون شك إلى أن هذا الخط قد اقتطع من هذه الدار ، خاصة اذا ما علمنا بأنه يقـع فيه مدرسـتان أيوبيتان [٣] ، حيث جرت العادة فى تلك الأثنـاء على أن تنشأ المدارس على مثـل هذه المنشآت كما سبق أن ذكرنا .

ولقد كان ظهور هذا الخط فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، يدل على ذلك المدرستان الأيوبيتان اللتان بنيتا فيه ، علاوة على أن المصادر تذكر بأن من أوقاف المدرسة السيوفيـة التى بنيت فى تلك الأثناء [٤] ، دكاكين فى خط سويقة أمير الجيوش [٥] ، هذا بالإضـافـة إلى أن اسـم الخط يدل على الدار . التى بناها أمـير الجيوش بدر الجمالى [٦] ، وعندما تحولت إلى حى سكنى نسب إلى مؤسسها على ما يبدو [٧] . وعلى الرغم من أن المقريزى يذكـر أن هذه الدار قد جعلت سجنا لأبناء

---

(١) وخط خان الورقة هو الاسم الذى اطلق على موضع الاصطبل المذكور بعد أن اختط وتحول إلى منطقة سكنية ، وسيرد ذكر ذلك فيما يلى من صفحات .

(٢) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣٦ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ورقة : ٤٢ .

(٣) وهاتان المدرستان اللتان تقعان فى رأس السويقة من جهة شارع القصبة هما المدرسة البازكوجية ، التى بنيت فى عام (٥٩٢هـ / ١١٩٥م) ، والمدرسة القطبية التى لا يباعد تاريخ تأسيسها تاريخ الأولى على ما يبدو ، على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية جـ ٣ / ١٢٩ .

(٤) انظر الفصل التالى .

(٥) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٣٦٦ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٤٤١ .

(٦) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٦١ ، جـ ٢ / ٥٢ ، مؤلف مجهول ، م . س ، ورقة ٦٢ .

(٧) من الواضح أن هذا يفسر إلى حد بعيد اسباب اختفاء اسم سوق أمير الجيوش من المنطقة التى يقع فيها سوق حارة براجوان بعد العصر الفاطمى حيث كان يطلق عليه فى تلك الأثناء وانتقاله إلى موضع الخط واطلاق العامة عليه اسم سويقة أمير الجيوش دون أن يكون لهم فى ذلك مستندا كما يذكر المقـريزى . انظر : المقـريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٩٥ ، ١٠١ ، وانظر أيضـا ، الخـاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٦٩ ، ٧٠ ، على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ٨٣ .

الأسرة الفاطمية من الذكور ، بعد أن قضى صلاح الدين على دولتهم [١] ، مما يشير إلى أنه لم يجر استغلالها عمرانيا فى تلك الأثناء ، الا ما ذهب إليه المقريزى ليس بالأمر الثابت ، اذ ذكر أبو شامة أن سجن الفاطميينَ كان قد اقتصر على دار برجوان [٢] . الأمر الذى يدل بدوره على أن الدار الأولى لم تكن حبسا لأبناء هذه الأسرة فى تلك الأثناء . بالإضافة إلى أن سجنهم فيها لا يتطلب بالضرورة استغلال الدار بأكملها ، خاصة وأنها كانت كبيرة جدا [٣] . مما يتيح إمكانية استغلالها لأكثر من غرض فى أن واحد .

ولقد ترتب عن اختطاط الاصطبلات الفاطمية ، ان ظهر فى مواضعها أحياء سكنية ، فاصطبل الطارمة ، ظهر فى موضعه حى سكنى عرف باسم خط اصطبل الطارمة [٤] ، يصفه المقريزى بأنه : (حارة كبيرة فيها عدة من المساكن وبه سوق وحمام ومساجد ...) [٥] ، وعلى نفس الوتيرة سار الأمر مع اصطبل الصبيان الحجرية الذى اختط فى تلك الأثناء كما تشير بذلك المصادر ، اذ جاء فى طى ذكر الموضع أنه لما (.. زالت الدولة الفاطمية اختط مواضع للسكنى ..) [٦] ليحل فى موضعه حى سكنى عرف بخط خان الوراقة [٧] . أما بالنسبة لاصطبل الجميزة ، فإنه بعدما جرى

---

(١) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٩٧ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ / ق ٢ / ٤٩٤ ـ ٤٩٥ ، وهذه الدار كانت للوزير الفاطمى أبو الفتوح برجوان (٣٨٧ ـ ٣٩٠هـ / ١١٩١ ـ ١١٩٣م) وكانت كبيرة وتقع فى هذه الحارة ، فتحى الحديدى ، القاهرة ، ص : ٢٠ .

(٣) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٦١ .

(٤) الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٤٥ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٤١ ، ويدل على موضع الحى الآن موضع الاصطبل الذى سبقت الإشارة إليه .

(٥) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣٥ .

(٦) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٢٣ .

(٧) الخاصكى ، م . س ، لوحة ٢٩ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٢٧ ، ومن الواضح أن سبب تسميته هو وجود خان للوراقة يقع فى المنطقة نفسها وأن كانت المصادر لا تقدم معلومات عن تاريخ ظهوره . انظر : المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٦١ ، ويدل على موقعه فى الوقت الحاضر درب يعرف بدرب الوراقة . على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ،جـ ٢ / ٨٤ . وانظر أيضاً . A. Raymond E Wiet, Les Marcees , plan 3

اختطاطه فى تلك الأثناء ، ضمت معظم أراضيه إلى حارة زويلة [١] . ولم يكن التطور العمرانى الذى طرأ على المنشآت المذكورة آنفا قاصرا على تحويل مواضعها إلى أحياء سكنية بعد إزالتها ، بل أن بعضها قد أضحى بذاته جزءا من أحياء سكنية ، ومن أبرز الشواهد على ذلك ما حدث فى خط بين السورين [٢] ، فهذا الخط اضحى فى العصر المملوكى يتألف من صفين من الأملاك ، أحدها يقع ناحية القاهرة والآخر مطل على الخليج [٣] . ولقد كان يوجد فيه فى العصر الفاطمى مجموعة من قصور لنزهة مثل منظرة اللؤلؤة[٤] ، والغزالة [٥] ، وغير ذلك من القصور [٦] . من الواضح

---

(١) ص : ٤٠٣ ، وحارة زويلة نسبة إلى أحدى القبائل البربرية التى دخلت إلى مصر ضمن الجيش الفاطمى عندما استولى عليها اختطت هذه الحارة فعرفت بها ، المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٤ ، فتحى الحديدى ، القاهرة ، ص ٢٠ .

(٢) اختلف فى سبب تسمية هذا الخط من كونه جاء نتيجة سور بناه بدر الجمالى (٤٦٦ ـ ٤٨٧هـ / ١٠٧٣ ـ ١٠٩٤م) ، فى هذه الناحية عندما قام بتوسعة أسوار القاهرة ، الأمر الذى ترتب عنه وقوع المنطقة فيما بين سور المدينة القديم والسور الجديد أم أن الأمركان نتيجة سور صلاح الدين الذى بناه فى هذه المنطقة ، وهو الأرجح ، انظر :

K. A. C. Creswell, The Muslim Architecture of Egypt, Ikhsids and Fatmids, A. D 939 - 1171, New York 1978 , Volume I, p. 24 . Ravisse Essai Essai sur chistoire sur la topographie du Caire , p. 421 , plan 2 .

ولا يزال حتى الوقت الحاضر يوجد فى المنطقة نفسها شارع يعرف بشارع بين السورين يدل على الخط ، على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٣ / ٦٥ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٢٤ . الخاصكى ، والتحفة الفاخرة ، لوحة ٢٩ ـ ٣٠ .

(٤) سبق تعريفها .

(٥) هذه المنظرة تقع بجوار منظرة اللؤلؤة إلى الجنوب منها ، ولا تذكر المصادر تاريخ انشائها . المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٦٩ ـ ٤٧٠ البكرى ، قطف الأزهار ، لوحة ١٠٥ ، ويدل على موضعها فى العصر الحديث الابنية الواقعة تجاه جامع ابن المغربى بشارع بين السورين ، على باشا مبارك ، م . س التوفيقية ، جـ ٣ / ٧٢ .

(٦) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٢٤ . الخاصكى ، م . س ، لوحة ٢٩ . مؤلف مجهول تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٢٨ على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٣ / ٦٩ .

أنها كانت تشغل الصف المطل على القاهرة[١] ، وقد جرى تقسيمها وتحويلها
سكنى في عهد الناصر صلاح الدين ، ويدل على ذلك تقسيم منظرة الل
سبق أن ذكرنا ، مما يشير إلى أن الصف الذى يقع ناحية القاهرة قد بدأ با
تلك الاثناء .

وهذا فيما يتعلق بالنشاط العمرانى الذى ظهر على المنشآت فى ع
صلاح الدين الأيوبى ، بيد أن ظهور الأحياء الجديدة لم يكن قاصرا حينئذ
الجانب فحسب ، بل امتد ليشمل أيضا المواضع الخالية من البناء فى القاهر
وكان أول ما اصابه التغيير فى المجال الساحات الخالية من البناء التى كانت
القاهرة الفاطمية ، فالفاطميون كانوا حريصين على أن تكون عاصم
مساحات واسعة خالية من البناء . حيث يذكر ابن حوقل بأنها (. . قد أحد
منيع رفيع يزيد على ثلاثة اضعاف ما بنى بها ، وهى خالية كأنها ترك
للسائمة عند حصول خوف) [٢] . وقد تعددت الساحات وانواعها فى
فمنها ما يفصل بين اسوار المنازل ، بحيث لا تتصل الأشجار التى تقع
أسوارها ، بأشجار المنازل المجاورة لها [٣] . كما أحتوت القاهرة على رحا
شملت مواقع مختلفة منها ، فقد كان يحيط بالقصور الرئيسية ساحات
البناء، بحيث لا تتصل بالمبانى المجاورة لها ، وحينما يتحدث ناصر خسرو
الخليفة ـ ويقصد بذلك القصر الشرقى الكبير ـ فأنه يذكر بأنه طلق
الجزيات [٤] . اذ كان يحيط به الشوارع الفسيحة بالاضافة الى الرحاب
كما تشير بذلك المصادر التاريخية ، والتوقيعات على الخرائط التى تم ر

---

(١) ن . م . س .

(٢) ابن حوقل ، ابن القاسم النصيبى (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) ، صورة الأرض ، ط بيروت
ص : ١٣٧ وانظر أيضا جاستون فيت ، القاهرة ، ص ١٣٧ .

(٣) ناصر خسروا ، سفر نامه ، ص ٩١ .

(٤) ناصر خسرو ، م . س ، ص ٨٩ .

المدينة فى ذلك العصر [١] . فإلى الغرب من قصر الخليفة كان يقع ميدان بين القصرين [٢] ، والذى عرف بذلك لأنه يقع فيما بين القصر الشرقى الكبير والقصر الغربى الصغير [٣] ، وكان ميدانا كبيرا يستوعب أكثر من عشرة آلاف من رجال الجيش يكون فيه عرضهم [٤] . ويذكر على باشا مبارك بأن عرض الميدان المذكور كان يصل إلى مائة متر على أقل تقدير [٥] . وإلى الشمال من القصر الشرقى الكبير كانت تقع ساحة عرفت بالمنحر [٦] ، اتخذها الخلفاء الفاطميين لنحر الأضاحى فى الأعياد والمناسبات كعيد الأضحى ، واحتفالهم بغدير خم [٧] . وبالقرب من المنحر كانت تقع رحبة باب العيد[٨] وهى رحبة عظيمة فى غاية الاتساع ، كان ينتظم فى

---

(١) Ravaisse Essai sur chistoire et sur la topographie , du Caire, plan 3 .

(٢) RavaisseEssai sur chistoire et sur la topographie du Caire, plan 2 .

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٢٨ ، الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة : ٢٤ . البكرى ، قطف الأزهار ، لوحة : ١١١ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٣٢ . ويدل على موضعه فى الوقت الحاضر المنطقة التى يشغلها شارع النحاسين وما يحيط به من منشآت ومبانى ، على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٢ / ٨٩ ، ٩٣ .

(٤) ن . م . س .

(٥) على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ٩٣ .

(٦) يدل على موضع هذه الساحة فى الوقت الحاضر المبانى الواقعة غربى جامع سعيد السعداء فى شارع الدرب الأصفر التمبكشية بقسم الجمالية ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٥١١ . هامش (١) . وعن موقعه بالنسبة للقصر الشرقى الكبير انظر :

Ravaisse , op. cit.,

(٧) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٣٦ ،جـ ٢ / ٤٤ . .

(٨) باب العيد هو أحد أبواب القصر الشرقى الكبير كان يطل على هذه الرحبة وكان الخليفة يخرج منه لأداء صلاة العيدين . انظر : المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٣٥ . ويدل على موقع هذه الرحبة فى الوقت الحاضر المنطقة التى تحد غربا بشارع حبس الرحبة وبيت المال وجنوبا يحدها شارع قصر الشوك وشرقا حارة قصر الشوك ومن الشمال حارتى الزاوية والميضة . عبد الرحمن زكى ، موسوعة مدينة القاهرة ، ١١٦ ، وعن موقعها بالنسبة للقصر الشرقى الكبير انظر :

Ravaisse Essai sur chistoire et sur la topographie du Caire, plan 2 .

الوقوف بها عدد كبير من الجند ما بين فارس وراجل فى انتظار خروج الخليفة الفاطمى لأداء صلاة العيدين فى مصلى العيد خارج القاهرة [١] ، وكان يقع إلى الجنوب الشرقى من قصر الخليفة كذلك رحبة واسعة كبيرة هى رحبة قصر الشوك[٢].

وكان يفصل فيما بين هذه الرحبة ورحبة باب العيد خزانة البنود [٣] . أى أن هذه الخزانة كانت تحدها من الجهة الشمالية [٤] ، فى حين أن اصطبل اطارمه كان يحدها من الجهة الجنوبية ، لأنه كان يفصل فيما بينها وبين رحبة الجامع الأزهر[٥] . بينما كان يحدها شرقا المناخ [٦] وخزائن دار افتكين [٧] ، فالذى

---

(١) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٦٢ ، جـ ٢ / ٤٧ ، الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٦٣ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٥٥ .

(٢) سميت بذلك لأن قصر الشوك كان يطل عليها ، المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٦٢ ، ولقد سماها السخاوى برحبة خزانة البنود لأنها كانت تجاه خزانة البنود التى تحدها شمالا ، السخاوى ، تحفة الأحباب ، ص ٩٠ ، وقصر الشوك هو أحد قصور القصر الشرقى الكبير . للمزيد انظر : المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٠٤ .

(٣) خزانة البنودهى الخزانة التى كان يصنع فيها الاعلام والرايات ولقد اتخذت فى أواخر العصر الفاطمى سجنا واستمرت كذلك إلى عهد بنى أيوب ، المقريزى ، م . س ، جـ١ / ٤٢٣ ـ ٤٢٥ ويذكر على باشا بأن موقعها يدل عليه فى عصره احدى الدور السكنية فى شارع درب المقدم ، على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٢ / ٢٢٤ . وعن موقعها انظر أيضا :

A. Raymond E Wiet, Les Marcees de Caore, plan 2 .

(٤)انظر الهامش السابق .

(٥) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٤٧ ، الخاصكى ، ن . م . س . مؤلف مجهول ، ن . م . س ، على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ٢٥٥ ، وعن رحبة الجامع الأزهر انظر ما يلى .

(٦) المناخ هو الموضع المخصص للجمال، وكان به خزائن للمواد الخام علاوة على مصانع للصناعات الثقيلة ، وقد سبق ذكره وكان هذا المناخ يمتد إلى المنطقة الواقعة خلف دار الوزارة الكبرى انظر على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ص ٢٠٨ .

(٨) كانت هذه الخزائن تحوى على اصناف عدة من المواد الغذائية بالاضافة إلى احتوائها على بعض الصناعات وقد سبق ذكرها .

يخترق هذه الرحبة من جنوبها إلى شمالها يكون (.. سور القصر على يساره والمناخ ودار افتكين على يمينه ..) [١] وكان بالقرب من رحبة قصر الشوك وإلى الجنوب منها « رحبة المشهد » [٢] التي كانت تقع فيما بين باب الديلم [٣] وبين اصطبل الطارمة[٤] ، ومن المؤكد أن رحبة الجامع الأزهر كانت تقع جنوبي سور القصر الشرقي الكبير [٥] ، فهذه الرحبة كان يخرج إليها الخليفة من خلال الخوخ السبع [٦] التي كانت تقع في مواجهة باب الديلم[٧] . وهي رحبة كبيرة جدا . كانت العساكر تصطف بها انتظارا لخروج الخليفة للصلاة بالناس في الجامع الأزهر [٨] ويذكر المقريزي بأنها كانت تحتل المنطقة الواقعة فيها بين خط إصطبل الطارمة ، والموضع الذي فيه الاكفانيين [٩] ، من باب الجامع الأزهر الشمالي

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٤٧ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٥٦ ..

(٢) سميت بذلك لأنها تقع أمام المشهد الحسيني ، المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٤٨ .

(٣) هذا الباب هو أحد أبواب القصر الشرقي الكبير ويقع في محلة باب الجامع الحسيني المعروف بالباب الأخضر ، على باشا مبارك ؛ الخطط التوفيقية ،جـ ٢ / ٩٤ .

(٤) المقريزى ، ن . م . س ، الخاصكي ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٦٤ . مؤلف مجهول ، ن . م . س .

(٥) Ravaisse Essai sur chistoire et sur la topographie du Caire, plan 2 .

(٦) الخوخة هي باب صغير ضمن بوابة كبيرة ، تستخدم للاستعمال اليومي في حال عدم الحاجة إلى فتح الأبواب الكبيرة . ويطلق لفظ الخوخة أيضاً على الأبواب الصغيرة ، عبد الرحمن زكي ، موسوعة مدينة القاهرة ، ص ١٠٢ ، أما هذه الخوخ التي تذكرها المصادر فإنها لا تذكر تعريفا محددا لها وأن كانت تذكر بأنها تستخدم مجازا يعبره الخليفة إلى الجامع الأزهر ، المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٤٥ ، الخاصكي ، م . س ، لوحة ٥٩ . مؤلف مجهول ، م . س ، ٥٢ ـ ٥٣ ، ويبدو أنها كانت عبارة عن سبع عقود صغيرة مغطاة بنوع ما من التغطية تسد بابين صغيرين من طرفيها .

(٧) المقريزى ، م . م . س ، الخاصكي ، ن . م . س ، مؤلف مجهول ، ن . م . س .

(٨) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٦٢ ، جـ ٢ / ٤٧ ، الخاصكي ، م . س ، لوحة ٦٣ ، على باشا مبارك ، جـ ٢ / ٢٥٥ .

(٩) الاكفانيين ، أحد أسواق القاهرة المملوكية وكانت به سوق الفراء في ذلك العصر ، ويدل على موضعه في العصر الحديث، شارع التبليطة . انظر : على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية جـ ٢ / ٢٥١ ـ ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، وانظر أيضاً عن موقع هذا السوق :

=

إلى الخراطين [١] . وهناك ميدان آخر عرفته المصادر باسم « ميدان القصر » ، كان يقع بجوار القصر الغربى الصغير [٢] ، رجح عبد الرحمن زكى بأنه كان يقع إلى الشمال منه [٣] بيد أن من الواضح بأنه كان يمتد إلى الغرب منه كذلك ، اذ أن المصادر حينما تتحدث عن بعض أدر القاهرة المملوكية مثل دار نائب الترك [٤] ودار ابن صغير [٥] فإنها تذكر بأن تلك الدور قد أقيمت على مواضع من أرض الميدان المذكور ، رغم أنها تقع ضمن خط باب المارستان[٦] الذى يقع غربى القصر الغربى كما يشير بذلك تحديد موقعه فى الوقت الحاضر [٧] ، لذلك من المؤكد أن أراضى هذا الميدان كانت

= A. Raymond E Wiet , Les Marcees de Caire, olan 3 .

وبذلك يتضح بأن رحبة هذا الجامع كانت تمتد بمحاذاة الجانب الغربى للجامع الأزهر .

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٤٧ ، والخراطين هو سوق من أسواق القاهرة المملوكية ويباع فيه اسرة المهد للأطفال علاوة على احتوائه على الحوانيت التى كان بها صناع الدوى والسكاكين وكان يعرف قبل ذلك بعقبة الصباغين ثم عرف بالقشاشين ، المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ١٠٣ وموضعه الآن ضمن شارع الصنادقية على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، وانظر أيضاً فى موقع هذا السوق : Raymond , op. cit .

(٢) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٥٧ ، جـ ٢ / ١٩٧ ومن الواضح أن هذا الميدان كان جزءا من ميدان الاخشيد الذى كان موضعه فى المنطقة قبل تأسيس القاهرة ، انظر : المقريزى ، ن . م . س .

(٣) عبد الرحمن ، موسوعة مدينة القاهرة ، ص ٢٠٧ .

(٤) هذه الدار تنسب لأحد الأمراء المماليك يدعى باقوش الأشرفى . انظر : المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٥٥ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة : ٦٥ .

(٥) تنسب هذه الدار إلى رئيس الأطباء علاء الدين بن نجم الدين عبد الواحد توفى سنة (٧٨٦هـ / ١٣٦٧م) ن . م . س .

(٦) ينسب هذا الخط إلى باب سر المارستان المنصورى الذى كان يقع فى مواجهته ، وهذا الباب هو أحد أبواب القصر الغربى الصغير ، كان يعرف بباب الساباط ، جعل بابا للمارستان المنصورى ، المقريزى ، الخطط جـ ٢ / ٢٨ .

(٧) يدل على خط باب سر المارستان فى الوقت الحاضر عطفة المارستان ، على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ / ١٣٩ .

تختلط بأراضى اصطبل الجميزة ، حيث أن خط باب سر المارستان كانت جل أراضيه من ضمن مساحة الاصطبل المذكور [١] . ولا شك بأن هذا الميدان كان يمتد إلى غربى حارة برجوان ليفصل فيما بينها وبين البستان الكافورى [٢] ، فعندما تتحدث المصادر عن موقع الخط الذى ظهر على أراضيه ـ خط الخرنشف [٣] ـ تشير إلى أنه يقع فيما بين هذه الحارة والبستان [٥] .

ولم يكن وجود الساحات فى القاهرة الفاطمية قاصرا على المناطق المحيطة بالقصر، بل ان المدينة تميزت باحتوائها على مساحات من أنواع أخرى حيث كان يوجد بجوار أبوابها الرئيسية ساحات أيضا ، مثل رحبة الجامع الحاكمى التى كانت كبيرة جدا ، وتقع بجوار باب النصر (... فيما بين

---

(١) الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٣٤ .

(٢) هذا البستان من حقوق القصر الغربى الصغير ، أنشأه الأمير أبو بكر محمد الاخشيدى (٣٢٣ ـ ٣٣٤ هـ / ٩٣٤ ـ ٩٤٦ م) ، أمير مصر ، وكان متنزها له ولأبنائه من بعده فلما ولى أمر مصر الأمير أبو الملك كافور (٣٤٩ ـ ٣٥٥هـ / ٩٦٦ ـ ٩٦٨ م) اعتنى به وجعله متنزها له فلما أسست القاهرة على يد جوهر القائد ضم هذا البستان إليها ، وجعله الفاطميون متنزها لهم ، المقريزى، م . س ، جـ ١ / ٤٥٧ ، ويدل على موقع البستان فى الوقت الحاضر المنطقة التى تحد من الشرق بحارة برجوان ، ومن الشمال بشارع أمير الجيوش ، ومن الغرب بشارع الشعرانى البرانى ، ومن الجنوب بشارع الخرنفش ، فتحى الحديدى ، القاهرة ، ٢٢ .

(٣) كانت بداية ظهور هذا الحى فى عهد الناصر صلاح الدين كما سيتضح لاحقا ، والخرنشف هى تحريف عامى لكلمة الخرنفش ، وهى مادة الاصروميل المتخلفة من حرق القمامة التى تسخن بها مياه الحمامات العامة . عبد الرحمن زكى ، موسوعة مدينة القاهرة ، ص ١٠٠ ، فتحى الحديدى ، القاهرة ، ص ١١٢ . ولا يزال يوجد فى الوقت الحاضر شارع يحمل نفس الاسم يدل على منطقة الحى تقريبا ، انظر : على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٣ / ١٣١ ، تعليقات محمد رمزى فى النجوم الزاهرة ، جـ ٤ / ٤٧ ، هامش (٥) ، عبد الرحمن زكى ، ن . م . س .

(٥) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٢٧ ، الخاصكى ، م . س ، لوحة ٣٣ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٣٢ .

الحجر [١] والجامع الحاكمي وفيما بين باب النصر القديم وباب النصر الموجود الآن [٢] ..)[٣] ، ومثل ذلك يقال عن الساحة الواسعة الممتدة فيما بين باب سعادة[٤] وحارة الوزيرية [٥] ، والتى ذكرها المقريزى أثناء وصفه للقاهرة فى العصر الفاطمى[٦] . ومن المؤكد أن المساجد الجامعة الرئيسية فى المدينة مثل جامع الأزهر وجامع الحاكم بأمر الله ، كانت تجاورها الساحات أيضا ، يدل على ذلك رحبتى

---

(١) وهذه الحجر كانت مخصصة للصبيان الحجرية الذين سبق الإشارة إليهم وهى تقع بجوار دار الوزارة الكبرى وحارة الجوانية ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٤٤٣ . ويدل على موقعها فى الوقت الحاضر المنطقة الممتدة فيما بين بوابةالجوانية إلى باب النصر ، على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٢ / ٨٤ . ويذكر محمد رمزى ، بأنها تقع فى مكان الخانكاة الركنية بيبرس الجاشنكير ، محمد رمزى ، التعليقات فى النجوم ، جـ ٤ / ٥١ هامش (١) فى حين أن هذه الخنكاه بنيت على اجزاء من دار الوزارة الكبرى كما يذكر المقريزى ، المقريزى ، م . س ، جـ١ / ٤٣٨ ـ ٤٣٩ . ولذلك فإن تحديد على باشا هو الأثبت والأرجح .

(٢) بنى للقاهرة بابان عرفا بالنصر احداهما كان بناؤه عشية تأسيس المدينة عام (٣٥٧هـ / ١٩٦٨م) بينما بنى الآخر فى توسعة بدر الجمالى لسور القاهرة ، المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٨١ ، ولا يزال الأخير موجودا حتى الآن ، وعليه كتابة تذكارية تحدد تاريخ البدء فى بنائه عام (٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) ، انظر : أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ ١ / ٢٥ .

(٣) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٥٠ ، الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٦٧ .

(٤) عرف هذا الباب بسعادة بن حيان غلام المعز لدين الله العبيدى (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ / ٩٥٢ ـ ٩٧٥م) كان عندما قدم من المغرب عام (٣٦٠هـ / ٩٧٠م) نزل بالجيزة فدخل من هذا الباب فعرف به ، المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٨٣ ، ويدل على موقعه فى العصر الحديث المدخل المؤدى إلى شارع درب سعادة من ناحية شارع الخليج والواقع بالقرب من القبر المشهور بقبر الست سعاده بجوار قصر الأمير منصور باشا . انظر على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٧ / ١٩٩ .

(٥) تنسب هذه الحارة للوزير الفاطمى يعقوب بن كلس (٣٦٧ ـ ٣٧٣هـ / ٩٧٧ ـ ٩٨٣م) ، فلقد كانت داره فيها ، علاوة على سكناها من قبل طائفة من الجند كانت تنسب إليه ، المقريزى ، م . س ، جـ٢ / ٥ .

(٦) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٦٣ .

هذين الجامعين اللتان سبقت الإشارة إليهما ، ومن الواضح أنه قد كان فى كل حى من أحياء القاهرة فى ذلك الوقت مساحات واسعة من الأراضى خالية من البناء ، تستخدم كمرابض للخيل أو مقابر للموتى . فمثل هذا النظام ، كان متبعا فى تخطيط الأمصار الإسلامية الأولى ، فعندما خططت البصرةعلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، جعلوا فى وسط كل خطة من خططها رحبة فسيحة كمرابض الخيل وقبور للموتى [(١)].

ويبدو أن الفاطميين جعلوا هذه الساحات على قسمين : يشكل أولهما الفواصل بين الحارات ، فحارة الريحانية والوزيرية [(٢)] ، كان موضعها يعرف قبل المباشرة بتخطيطها « بين الحارتين » [(٣)] ولعل هذه الساحات قد جعلت فى تلك الأثناء كمرابض واصطبلات لبهائم الركوب . أما القسم الثانى من هذه الساحات، فهى التى تقع داخل الحارات نفسها لأغراض الترويح وضمان التهوية الصحية المناسبة ، وخير مثال لذلك رحبة البانياسى [(٤)] التى كانت تقع فى حارة الأتراك [(٥)] ، ورحبة خوند[(٦)] التى تقع فى حارة زويلة ، والتى عرفت فى العصر الفاطمى برحبة

---

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

(٢) تنسب هذه الحارة إلى طائفتين من طوائف الجيش الفاطمى ، عرفتا بالريحانية والوزيرية ، وقيل العزيزية بدلا من الوزيرية كما يذكر القلقشندى . انظر : المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٢ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٣٥٢ .

(٣) القلقشندى ، ن . م . س ، الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٢ .

(٤) تنسب هذه الرحبة إلى الأمير نجم الدين محمود بن موسى البانياسى (ت بعد ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) لأن مسجده ومنزله كانا يطلان عليها . المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٤٧ .

(٥) هذه الحارة تنسب إلى طائفة من الأتراك قدموا مع طفتكين الشرابى أحد قواد بنى بويه ، عام (٣٦٨هـ/٩٧٨م) وكانت حارتهم وحارة الديلم تعتبران حارة واحدة ، المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٨ ـ ١٠ .

(٦) نسبة إلى الست خوند زوج الملك الأشراف خليل بن قلاوون (٦٨٩ ـ ٦٩٣هـ / ١٢٩٠ ـ١٢٩٣م) ومن بعده الملك الناصر محمد (٦٩٣ ـ ٧٤١هـ / ١٢٩٣ ـ ١٣٤١م) ماتت عام (٧٢٤هـ / ١٣٢٣م) ، المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٥١ .

ياقوت [(١)] .

وبالإضافة إلى الساحات الواسعة التى تقع داخل المدينة الفاطمية ، فقد كان يوجد فى خارجها وبجوار أسوارها ساحات أيضا ، من أبرزها الميدان الواقع أمام باب الفتوح [(٢)] والذى كان يمتد حتى يصل إلى البساتين الجيوشية وكان مخصصا فى تلك الأثناء لعرض الأجناد أمام الخليفة قبل توجهها لخوض المعارك [(٣)] .

ولم يكن اتساع القاهرة فى العصر الفاطمى مقتصرا على وجود الساحات العديدة الواسعة فحسب . بل تجاوز ذلك إلى أن شوارعها قد تميزت بالاتساع أيضا [(٤)] ، وخاصة الرئيسية منها ، اذ أن مظاهر الفخامة التي ميزت مواكب العصر الفاطمى ، تتطلب شوارع فسيحة للسير فيها [(٥)] . بل ان من المؤكد أن الشوارع التى كانت تتوزع عليها حارات القاهرة حينئذ كانت تتميز بالاتساع أيضا ، حيث يلاحظ بأن توزيع السكنى فيهاعشية تأسيسها كان يقوم على أساس الحارات [(٦)] ، وهو تخطيط حافظ عليه الفاطميون طوال عهودهم ، فقد أشار ناصر خسرو أثناء زيارته للمدينة فى عهد الحاكم بأمر الله ، إلى أن السكنى فيها كان يعتمد هذا النظام ، وأن أحيائها فى ذلك

---

(١) نسبة للأمير ناصر الدولة ياقوت ، توفى معتقلا عام (٥٥٣هـ / ١١٥٨م) المقريزى ، م . س ، جـ٢ / ٥٠ .

(٢) هذا الباب بناه الوزير الفاطمى بدر الجمالى (٤٤٦ ـ ٤٨٧هـ / ١٠٥٤ ـ ١٠٩٤م) بدلا من القديم وذلك فى مشروع توسعة أسوار المدينة ، والمقريزى : م . س ، جـ ١ / ٣٨١ ، وكان بناؤه فى عام (٤٨٠هـ /١٠٨٧م) عنه وعن موقعه انظر : أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ ٢ / ٢٣ ، ٢٦ ـ ٢٧ .

(٣) المقريزى م . س ، جـ ١ / ٤٨١ ، ويدل على هذا الميدان فى الوقت الحالى ميدان أمام باب الفتوح يمكن اعتباره جزءاً من ذلك القديم ، فتحى الحديدى ، القاهرة ، ص ٨٠ .

(٤) فتحى الحديدى ، م . س ، ص ١٣ .

(٥) سبق ذكر هذه المواكب .

(٦) ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ص ٢٠٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٤ / ٤٢ .

الوقت تعرف « بالحارات » (١) كذلك فإن المقريزى عندما يصف تخطيط فى تلك الأثناء يشير إلى أن غالبية أحيائها كانت « حارات » (٢) . مما يدل بدوره على أن القاهرة لم تكن قد عرفت نظام السكنى الذى يقوم على أساس الأحياء السكنية المعروفة بالخط والدرب والزقاق كأحياء مستقلة بذاتها ، وأن نظام السكنى السائد فيها فى تلك الأثناء كان عبارة عن حارات وشوارع تصل فيما بينها وبين أجزاء المدينة ، ويؤكد ذلك ما يذكره ابن ميسر من أنه لما صدرت الأوامر عام (٥١٨ هـ / ١١٢٤م) لتدوين أسماء سكان القاهرة ، فإنها كانت تنص على تدوين جميع القاطنين بها (.. شارعاً شارعاً وحارة حارة ..) (٣) . وفى ضوء هذا الاعتبار فمن الواضح أن هذه الشوارع كانت تتميز بالاتساع ، وان عرضها لم يكن يقل عن العشرين ذراعا ، اذ أن لفظ « الشارع » لا يطلق فى المدينة الإسلامية إلا على الطرقات التى يبلغ أدنى عرض لها فى حدود الأذرع سابقة الذكر . أما ما دون ذلك فإنه يطلق عليها خط ، أو درب ، زو زقاق ، بحسب اتساعها ، بحيث يكون الخط أكبرها ، فى حين أن الزقاق أقلها من حيث العرض كما سبق أن وضحنا .

وبحلول عصر الأيوبيين فإن القاهرة قد تحولت صورتها العامة تدريجاً ، فلم تعد تتميز بتلك الساحات الكبيرة والشوارع الفسيحة كما كان عليه الحال أبان الحكم الفاطمى . فعندما زار ابن سعيد الأندلسى المدينة أواخر العصر الأيوبى تحدث عن ضيق شوارعها وساحاتها ولا يستثنى من ذلك سوى ميدان بين القصرين ، حيث يقول بأن (أكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة .. لم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ حالا منها فى تلك . ولقد كنت اذا مشيت فيها يضيق صدرى وتدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين) (٤) .

ومن الواضح أن هذا الضيق فى المبانى يعكس مدى التحول الذى تعرضت له تلك

---

(١) ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٣٦٠ ـ ٣٦٤ .

(٣) ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص ٩٨ .

(٤) ابن سعيد الأندلسى ، النجوم الزاهرة ، ص ٢٤٥ .

الساحات والشوارع والتى جرى تحويل الكثير منها إلى مواضع تغص بالمبانى والمنـ
المختلفة الأنواع منذ عهد صلاح الدين الأيوبى ، حيث أخذت المبانى من أدر ومنش
المختلفة تظهر على حساب الساحات واطراف الشوارع الفسيحة ، لتأخذ المدينة بال
وتتصف بالأزدحام ، فقد أخذت العمائر تحيط بمنطقة القصر الشرقى الكبير ،
القضاء على الدولة الفاطمية ، كما حدث لميدان بين القصرين والذى بدء يا
عليه منذ ذلك الفترة وأخذت المبانى تظهر على أراضيه كما يشير إلى ذلك ابن الـ
أثناء حديثه عن موسم أول العام ، الذى كانت بعض مراسيم استقباله تجرى فى
الميدان فى العصر الفاطمى ، فيذكر بأن هذا الميدان (.. كان براحا واسعا خالياً
البناء الذى فيه اليوم ...) [1] .

كما أنه يؤكد الشيء نفسه أثناء حديثه عن بعض المراسيم التى كانت تتـ
«المنحر» مما يدل على أن البناء عليه قد ظهر منذ تلك الفترة [2] ، وكذلك كان ا
بالنسبة لرحبة قصر الشوك التى ظلت : (... باقية إلى أن خرب القصر بفناء
فاختط الناس فيها شيئا بعد شيء ..) [3] ورحبة الجامع الأزهر فإنها ظلت باقيا
عصر الدولة الأيوبية فأخذ الناس فى العمارة بها [4] ، فبنوا عليها العديد من المـ
والمبانى [5] .

ولم يشمل البناء جميع الساحات المحيطة بالقصر الشرقى الكبير فلقد
لرحبة باب العيد أن تنجو من ذلك وتظل خالية من البناء إلى ما بعد نهاية ا

---

(١) نقلاً عن المقريزى ؛ الخطط ، جـ١ / ٤٤٨ .

(٢) المقريزى ؛ م . س ، جـ١ / ٤٣٧ .

(٣) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٤٧ .

(٤) المقريزى : ن . م . س . على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ٢ / ٢٥٥ .
عبد الرحمن زكى ؛ الأزهر ، ص : ٩٩ .

(٥) عبد الرحمن زكى ، ن . م . س .

السادس[١] (٦هـ / ١٢ م) ومن الواضح أن السبب فى ذلك يعود إلى مجاورتها لدار الوزارة الكبرى [٢] ، التى تحولت إلى دار للسلطنة فى عصر صلاح الدين الأيوبى، فأدى ذلك إلى منع الاعتداء عليها .

ومثلما احاطت المبانى بالقصر الكبير وتقدمت نحوه فإنها أخذت تحيط بالقصر الغربى الصغير ، فأنشىء على ميدانه فى عام « ٥٦٧هـ/ ١١٧١م » إصطبلات [٣] ودويرات بالخرشتف [٤] .

وعلى الرغم من أن القلقشندى يذكر بأن البناء على هذا الميدان قد تم بعد سنة (٦٠٠هـ/ ١٢٠٣ م).[٥] ، فإن من المؤكد أن ما حدث بعد تلك السنة هو بناء الأدر والطواحين فى موضع الاصطبلات ، كما يشير إلى ذلك ابن عبد الظاهر [٦] .

ولا شك فى أن بقية الساحات التى كانت فى المدينة قد تعرضت بشكل أو بآخر للاستغلال الإنشائى فى تلك الفترة، مثل الساحات الواقعة بالقرب من الأبواب ، والتى شغلت مواقعها فى عصر صلاح الدين بمنشآت تجارية ، كسوق بهاء الدين والذى يقع بقرب باب الفتوح [٧][٨] ، مما يدل على أنه أنشىء على الساحة التى كانت هناك .

و قيسارية القاضى الفاضل[٩] . التى بنيت على ساحة تقع بالقرب من باب

---

(١) الخاصكى ، التحفة الفاخرة ؛ لوحة ٦٣ .

(٢) المقريزى ؛ الخطط ، جـ١ / ٣٦٣ .

(٣) أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ، جـ ٢ / ص ١٥ .

(٤) المقريزى ؛ م . س ، جـ٢ / ٢٨ .

(٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٣٥٢ .

(٦) نقلا عن المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٢٧ ـ ٢٨ .

(٧) هذا الباب هو الذى بناه بدر الجمالى (٤٤٦ ـ ٤٤٧ هـ / ١٠٧٧ ـ ١٠٩٤م) عام (٤٨٠هـ/ ١٠٩٠م) بدلا من القديم فى مشروع توسعة القاهرة ، ولا يزال موجودا حتى الآن ، انظر: المقريزى، الخطط جـ ١ / ٣٨٠ ، على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية . جـ٢ / ١٣٠ ، أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ١ / ٢٣ ، ٢٧ .

(٨) سيرد ذكر هذا السوق لاحقاً .

(٩) سيرد ذكر هذه القيساريه لاحقاً .

زويلة ، حيث كانت تقع على يمين الداخل من هذا الباب [(١)] . ولا شك فى أن مثل هذه التغيرات العمرانية قد شغلت بقية الساحات الواقعة بالقرب من الأبواب باستثناء رحبة الجامع الحاكمى التى تقع بالقرب من باب النصر ، والتى يبدو أن البناء عليها قد تأخر إلى ما بعد القرن السادس (٦هـ/ ١٢م)[(٢)] ، بسبب قربها من دار السلطنة[(٣)] .

ولقد إمتد البناء على الساحات خارج أسوار القاهرة أيضا . مثل ميدان باب الفتوح . والذى ظهر على أراضيه فى ذلك العصر خط خان السبيل [(٤)] حيث يقع هذا الخط بالقرب من الباب الذى يقع الميدان أمامه إذ يشير السخاوى إلى قربه من خط بستان ابن صيرم [(٥)(٦)] . المجاور لباب الفتوح على يمين الخارج منه [(٧)] .

وكما كان لاستغلال الساحات وإقامة المبانى والمنشآت عليها دورا فى ضيق القاهرة ، فإن من الواضح أن المبانى قد أخذت تتقدم على حساب الشوارع ، لتسهم فى هذه الظاهرة أيضا، لم يسلم من ذلك شارع القصبة رغم أهميته [(٨)] . حيث أخذت الحوانيت والأسواق تتقدم على أراضيه إذ حدث ، فى اوائل عام (٥٩٠هـ / ١١٩٣م) أن ركب السلطان العزيز عثمان بن صلاح الدين[(٩)] للصيد بالجيزة (..

---

(١) المقريزى : م . س ، جـ٢ / ٨٩ ، على باشا مبارك ، م . س ، جـ٢ / ١٣١ .

(٢) المقريزى : م . س ، جـ٢ / ٥٠ .

(٣) خريطة رقم (٣) .

(٤) السخاوى ، تحفة الأحباب ص ٢٢ وهذا مخالف لما يذكره على باشا الذى يجعل موقع هذا الخط هو المبانى والبساتين الواقعة على الطريق المؤدية للدمرداش . على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية جـ ٢/ ٦٥ . وما ذكره السخاوى هو الاثبت لأنه أقدم تاريخيا .

(٥) كان موقع هذا الخط بستانا لأحد قادة الفاطميين ثم استولى عليه أحد أمراء الملك الكامل الأيوبى ، يدعى جمال الدين بن صيرم فعرف بعد أن اختط بالمبانى ، وانظر المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣٦ .

(٦) هو الملك العزيز عثمان بن الناصر صلاح الدين (٥٨٩ ـ ٥٩٦هـ / ١١٩٣ ـ ١١٩٩م) ملك مصر بعد أبيه وهو ثانى سلاطين بنى أيوب فى مصر توفى وهو يتصيد بالفيوم . عنه انظر : أبو شامة الذيل على الروضتين ، ص ١٦ . ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

ومر بباب زويلة . فأنكر بروز مصاطب الحوانيت فى الأسواق ورسم بهدمها) [١].

ولقد أسهمت مشروعات صلاح الدين العمرانية ، سواء ما كان منها بغرض الدفاع عن المدينة كإنشاء السور والقلعة ، أو إقامة المنشآت الأخرى كالمدارس . فى اتاحة المزيد من الفرص لأن يلج النشاط العمرانى إلى مواضع لم تكن تعرف هذا النشاط من قبل . إذ ينقل المقريزى عن العماد الاصفهانى عن حوادث سنة (٥٩٦هـ / ١١٩٩م) ما يفيد بأن إمتداد السور إلى الساحل قد أدى إلى اتصال العمران فيما بين المقس والقاهرة ، حيث يقول : (وجلس الملك الكامل محمد بن السلطان العادل ابى بكر ابن أيوب فى البرج الذى بجوار جامع المقس فى السابع والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة .. وهو المكان الذى قسمت فيه الغنائم عند استيلاء الصحابة رضى الله عنهم على مصر فلما أمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بادارة السور على مصر والقاهرة تولى ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش [٢] وجعل نهايته التى تلى القاهرة . عند المقسم ، وبنى فيه برجا مشرفا على النيل وبنى مسجدا جامعا واتصلت العمارة منه إلى البلد وجامعة تقام فيه الجمع والجماعات ...)[٣] ومن الواضح أن اتصال العمارة هذا قد تم عن طريق البناء على أجزاء من بركة بطن المقبرة التى كانت تفصل فيما بين المقس والقاهرة فى العصر الفاطمى . كذلك أخذت العمارة تنتشر على ساحل النيل المحاذى للمدينة الكبرى .

فقد بنى صلاح الدين للفسطاط بابا جديدا ـ باب مصر ـ على بعض الأراضى التى تكونت من الطرح النهرى [٤] . كذلك فإن مشروع القاضى الفاضل المعروف

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ / ق ١ / ص ١٣٠ .

(٢) هو بهاء الدين قراقوش الأسدى (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) أحد كبار رجال الدولة الأيوبية ، كان متوليا لمشروع بناء سور القاهرة الصلاحى ، عنه انظر أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص ١٩ . المقريزى، الخطط ، جـ ٢ / ٩٣ .

(٣) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ١٢٣ .

(٤) المقريزى ، م . س ، جـ١ / ص ٣٤٧ .

بدار التمر أنشيء على أراضى متكونة من هذا الطرح [(١)] . ومن الواضح أن العديد من الدور قد بنيت على هذا الساحل من جهة الفسطاط فى تلك الفترة ، ففى أوائل عام (٥٩٠هـ/ ١١٩٣م) ، مَر الملك العزيز باللهَ عثمان ابن صلاح الدين ، بصناعة العمائر [(٢)] ، فأمر بسد طاقات الدور المجاورة للنيل فسدت) [(٣)] وكذلك كان الحال بالنسبة لشاطئ المدينة الواقع غربى الخليج ، حيث استغلت الأراضى المتكونة من الطرح النهرى ، وجرى البناء عليها، إذا أنشأ فيها القاضى الفاضل ، جامعاً ومبانٍ عرفت باسم منشئها [(٤)] .

ويشير العماد الأصفهانى ، إلى دور مشرفة على النيل جعلها أصحابها برسم من نزل بضيافتهم ، ولتنزهاتهم [(٥)] .

ولقد أدت رغبة صلاح الدين فى عمارة الأراضى الواقعة فيما بين الفسطاط والقاهرة . إلى إنتشار العمران فيها ، فأخذت العمائر تظهر شيئاً فشيئاً فى المنطقة الواقعة فيما بين القاهرة وقلعة الجبل على يسار الخارج من باب زويلة ، وما أن شرع فى بناء السور من جهة الفسطاط فى عام ٥٨١هـ / ١١٨٥م ، حتى اندفع الناس ، خاصة الفقراء منهم إلى البنـاء فى هذه المنطقة اذ (.. لم يبق فقير ولا ضعيف إلا خط فيه ساحة من درب الصفا [(٦)] . إلى المشهد النفيسى [(٨)] . واتصلت العمارة من خط

---

(١) المقريزى : م . س ، جـ٢ / ص ٧٨ ـ ٧٩ .

(٢) صناعة العمائر هى الدار المخصصة لصناعة السفن وكانت تقع فى الفسطاط ناحية الساحل ، انظر المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ١٩٧ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ / ق ١ / ص ١٢٠ .

(٤) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٥) ابن دقماق ، الانتصار ، ق ١ / ص ١١٩ ، المقريزى : م . س ، جـ ١ / ٣٤٥ ، جـ٢ / ص ١٠٩ ، ٢٩٨ .

(٦) أبو شامة : الروضتين ، ق ٢ / ٦٨٦ . البندارى ، سنا البرق ، ص ١٢١ .

(٧) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ١٣٦ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة : ١٦٥ .

(٨) درب الصفا ، أو خط الصفا يذكر المقريزى بأنه قد دثر فى عهده وكان باب الفسطاط الرئيسى يقع على هذا الدرب ، المقريزى ، م . س جـ ١ / ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، وعن هذا الدرب انظر Cassanova , Pul , de Constitution, plan 1 .

(٨) هذا المشهد مشهور فى مكانه فى شارع السيدة نفيسة ، ينسب إلى نفيسة بنت الحسين رضى الله عنهما . انظر على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٢ / ١٩٠ ـ ١٩١ .

الخليج [(١)] إلى درب ملوخيا [(٢)] بمصر حتى بى الكومين [(٣)] . وبجوار جامع ابن طولون والكبش[(٤)] . فعمر أكثر من خمسة آلاف موضع بشقاف القنز[(٥)] والخرشنف[(٦)] وتراب الأرض . وتحول الناس لجهة جامع طولون والبركة [(٧)] وجانب القلعة [(٨)]...) ، وأخذت جزيرة الروضة بالتحول إلى منطقة سكنية بعدما كانت موضع نزهة مخصص للخلفاء الفاطميين ووزرائهم. حيث جعلها صلاح الدين الأيوبى مقرا لإحدى أكبر فرق الجيش الأيوبى [(٩)] ، علاوة على سكنى عامة الناس فيها كما يشير بذلك ابن جبير [(١٠)] .

وبالإضافة إلى المواضع سابقة الذكر ، فلقد أخذ العمران بالتزايد فى مواضع أخرى من القاهرة الكبرى . فقد تزايد العمران بالقرافة ، إذ تذكر المصادر بأنه عندما عمر الناصر صلاح الدين مدرسته المجاورة لقبر الإمام الشافعى رضى الله عنه ، تزايد سكنى الناس بالقرافة [(١١)] ، فأضحت مأوى للغرباء والعلماء والمتصوفة . الذين يحفون برعايته واهتمامه[(١٢)] ، علاوة على تحولها إلى موضع نزهة، يحوى العديد من القصور

---

(١) هذا الخط من جملة اخطاط الحمراء القصوى ، ويقع على خليج القاهرة ، ابن دقماق ، الانتصار ، ق ٢ / ص ٤١ ، ويبدو أن شارع السيدة زينب الذى ذكره على باشا فى خططه من جملة هذا الخط . انظر على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٣ / ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٢) لم تورد المصادر التى تيسر لى الاطلاع عليها ذكرا أو تحديدا لهذا الدرب .

(٣) لم يحدد أى الكومين يقصد والأكوام فى الفسطاط كثيره ، انظر ابن دقماق ، م . س ، ق ١ / ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(٤) الكبش هو جبل بجوار يشكر فيما بين القاهرة والفسطاط . وكان من جملة الحمراء القصوى . المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ١٢٥ .

(٥) القنز : هو الخزف ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ / ق ١ / ص ٩١ هامش (١) .

(٦) هو مادة الاصروميل المتخلفة من حرق الازبال فى مواقد الحمامات وقد سبق ذكرها .

(٧) لم يحدد أى بركة وكان يوجد بين الفسطاط والقاهرة بركتان هما بركة قارون والفيل . لعله يقصد بركة قارون لأنها أقرب للفسطاط انظر خريطة رقم (٢) .

(٨) المقريزى م . س ، جـ ١ / ١٨٥ / ٩٠ ـ ٩١ .

(٩) Janet Abu Loghd, Cairo, p. 30 .

(١٠) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٩ .

(١١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ / ٢٩٦ .

(١٢) ابن جبير ، م . س ، ص ٢٤ .

والمناظر التى ابتناها أعيان الفسطاط والقاهرة [١].

لقد أدى هذا النشاط العمرانى إلى ظهور العديد من الأحياء الجديدة التى أشارت المصادر إلى بعضها وأفاضت بالحديث عنها ، وعلى الأخص تلك التى تقع فى القاهرة. فعلى ميدان بين القصرين ظهر خط يحمل نفس الاسم ، حيث عرف بخط بين القصرين [٢]. أما المنحر ، فلقد قام على أرضه الحى السكنى الذى عرف بالدرب الأصفر [٣] فى حين أن أراضى ميدان باب الفتوح قد أقيم عليها خط خان السبيل ، الذى ظهر فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، إذ تربط المصادر بين هذا الخط وخان السبيل [٤] الذى بنى فى تلك الأثناء [٥] . وقد أدى البناء على أطراف الشوارع الفسيحة ، إلى ظهور العديد من الأحياء ـ كالخطط ـ نوع الخط ـ والدروب ، والأزقة [٦] فإذ أن البناء بجانب أسوار القصر الشرقى الكبير ، قد ترتب عنه ظهور عدد من الأحياء فى الشوارع التى تحيط به . مثل خط باب الزهومه [٧] حيث يقع فى

---

(١) سبق ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٢٨ ، الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة : ٣٤ . ويعرف موقع هذا الحى الآن بالنحاسين . على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية جـ ٢ / ٩١ . فتحى الحديدى ، القاهرة، ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٣) المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٣٦ ، جـ ٢ / ٤٤ ، الخاصكى ، م . س ، لوحة ٥٣ . مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٥١ . ولا يزال يعرف بهذا الاسم حتى الوقت الحاضر . على باشا مبارك م . س ، جـ ٢ / ٢١٥ .

(٤) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣٦ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٣٥٦ مؤلف مجهول ، م . س ، ورقة ٤٢ ، وبما أن خان السبيل يدل عليه جامع البيومى ، فمن الواضح أن هذا الخط كان يشمل فى تلك الفترة مجموعة الشوارع الممتدة من هذا الجامع إلى باب الفتوح ، وهى تشمل شارع البيومى ، شارع الخواص ، شارع أبى قشة .
انظر : على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ٧٠ ـ ٧٥ .

(٥) انظر ما يلى .

(٦) لاحظ ما سبق أن ذكرناه من أن الخط والدرب والزقاق تدل على طرقات عرضها أقل من الشارع .

(٧) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٣٥ ، باب الزهومة هو أحد أبواب القصر الشرقى الكبير كانت تدخل منه موائد الطعام من مطبخ القصر فسمى بالزهومة نسبة للزفر . المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٣٥ . ويدل على موقع هذا الباب الآن الحوانيت الواقعة فى أول شارع خان الخليلى على يسار الداخل إلى هذا الشارع من جهة شارع القمصانجية من شارع بين القصرين . أى أن مدخل شارع خان الخليلى من هذه الجهة يدل على هذا الخط . انظر : محمد رمزى ، التعليقات فى النجوم الزاهرة ، جـ ٤ / ص ٣٦ ، هامش (٢) ، عبد الرحمن زكى ، القاهرة ، ص ١٨ . هامش (١) .

الشارع الذى يفصل سور القصر والمخازن الواقعة إلى الجنوب منه ، كما يشير بذلك وصف موقعه .[(١)] كما أن هذا التوجه فى البناء قد أدى إلى ظهور درب المقدم ، الذى يقع فى الطريق الفاصل بين خزانة البنود وسور القصر أيضاً [(٢)] . أما بالنسبة للمناطق الأخرى فلا شك فى أن اتصال المقس بالقاهرة ، فى تلك الفترة ، قد أدى إلى تحوله إلى خطه تتبع القاهرة الكبرى[(٣)] . وتشير المصادر إلى عدد من الأحياء التى ظهرت على أراضى شاطئ النيل الشرقـى فهناك خط الساحل القديم [(٤)] الذى يقع على مدخله الشمالى باب مصر[(٥)] ، الذى بناه صلاح الدين الأيوبى كما أن البناء فيما بين مصر والقاهرة، قد أدى إلى ظهور العديد من الأحياء الجديدة مثل خط الكبش [(٦)] وخط الجامع الطولونى [(٧)] ، وخط المشهد النفيس [(٨)]، وغيرها من الخطط والأحياء[(٩)] .

---

(١) انظر الهامش السابق .

(٢) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٢ / ٢٢٤ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ١٢٤ . مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ١٤١ . ومن الواضح أن المقس لم يكن فى عهد الناصر صلاح الدين يختلف كثيرا عن وضعه فى العصر المملوكى أى أنه يشغل المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بشارع الطبلة والتمبكى والطواشى وبين الحارات ، ومن المشرق شارع الخليج المصرى ومن الجنوب شارع قنطرة الدكة وشارع القبيلة ودرب القطة وشارع الفوطيه وشارع سوق الزلط وشارع الخراطين ومن الغرب شارع الملكة نازلى وميدان باب الحديد وشارع عماد الدين . انظر : محمد رمزى ، م . س ، جـ ٤ / ٥٣ ـ ٥٤ ، هامش (٧) .

(٤) عن موقع الساحل القديم انظر:

Casanova, Paul, de Consitution , plan 1 .

(٥) ابن دقماق ، الانتصار ، ق ٢ / ص : ٤٠ .

(٦) سبق الإشارة إلى جبل الكبش . ويدل عليه شارع قلعة الكبش . انظر على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٢ / ٣١٦ .

(٧) يدل على هذا الخط شارع طولون الذى يقع فيه جامع ابن طولون المشهور ، انظر : على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

(٨) يدل عليه شارع السيدة نفيسة وحارتها ، انظر ، على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ١٨٩ ـ ١٩٢.

(٩) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ١١١ .

ثانياً : إعادة عمارة الأحياء المندثرة :

لم يكن أثر النشاط العمراني في عهد الناصر صلاح الدين على المدينة الكبرى ، مقتصراً على ظهور أحياء جديدة ، بل تجاوز ذلك فأخذ أثره يظهر في إعادة عمارة بعض الأحياء التي كادت أن تندثر في أواخر العصر الفاطمي . ففي الفسطاط التي خربت غالب مبانيها وتعرض للتلف والأندثار ، أخذت العمارة تظهر بها من جديد ، حيث عمد أهلها على اصلاح اجزائها القديمة(١) . فأعيدت عمارة المناطق المحيطة بالجامع(٢) ، إذ يذكر ابن جبير بأنه عندما قدم إلى الفسطاط نزل بفندق في زقاق القناديل (٣) ، وهو حي من أحياء الفسطاط القديمة أشاد به المقدسي (٤) ، وذكره المسبحي (٥) . ومن المرجح أن تكون قد أعيدت عمارة المحلات التي تعرضت للتلف أثناء ثورة العبيد (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م) (٦) .و التي دارت رحاها في داخل القاهرة فيما بين قوات صلاح الدين الأيوبي وطوائف العبيد السودان في المنطقة الواقعة فيما بين القصرين وصولاً إلى باب زويلة (٧) ذلك انه كلما تراجع العبيد إلى محلة من المحلات كان يجرى احراقها عليهم (٨) . مما يشير إلى تعرض العديد من الأماكن إلى التلف والتخريب . وكذلك أعيدت عمارة بعض الأحياء الواقعة جنوبي باب زويلة ، التي كانت تقع على جانبي الطريق المؤدى إلى الفسطاط . يدل على ذلك ما يذكره المنذرى أثناء حديثه عن تراجم بعض المحدثين الذين كانو يقطنون في هذه المنطقة . فهو

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق ٢ / ٤٣٥ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ / ص ٣٣٩ .

(٣) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٩ . وهذا الزقاق يقع إلى مواجهة الضلع الشمالي الشرقي لجامع عمرو بن العاص : Casanova, Paul, de Reconstitution , p. 2

(٤) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٩ .

(٥) المسبحي ، أخبار مصر ، ص ١٩٩ .

(٦) وقد سبق الأشارة إلى هذه الثورة أثناء الحديث عن العوامل السياسية .

(٧) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٢ _ ٣ .

(٨) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ / ق ٢ / ص ٤٥١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ / ص ١٧٦ . البندارى ، سنا البرق ، ص ٤٤ .

أثناء حديثه عن أبى محمد عبد الملك بن سعيد النابلسى المتوفى عام (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) وعن أبى المرجى سالم بن مسمار البلبيسى والمتوفى فى نفس العام وعن أبى القاسم خلف بن رافع المسكى المتوفى عام (٥٨٦هـ/ ١١٩٨م) يذكر بأنهم ينسبون إلى الشارع الواقع فى ظاهر القاهرة الجنوبى ، وعرفوا « بالشارعى » نظرا لسكانهم فيه [١] ، وهو أمر يدل على عودة النشاط السكنى إلى هذه المنطقة وهو ما يؤكده ياقوت الحموى فى أثناء حديثه عن حارة حلب التى يذكر بأنها محلة تقع فيما بين الفسطاط والقاهرة شاهدها أكثر من مرة [٢] . هى من حارات الجند الفاطمى التى كانت موجودة فى ظاهر القاهرة الجنوبى [٣] لذلك فمن المؤكد أن بعض أحياء الأجناد التى كانت تقع فى هذه المنطقة [٤] قد أعيدت عمارتها فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى . بعدما تعرضت للحرق والتلف فى ثورة العبيد (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م) . وما تذكره المصادر عن حارة المنصورية التى جرى إحراقها من قبل قوات صلاح الدين الأيوبى [٥] . إنما يقصد به جميع المنطقة السكنية وليس مجرد تلك المنشآت التى تقع على يمين الخارج من باب زويلة كما يذكر المقريزى [٦] . فعلى

---

(١) عن ذلك وعن تراجم هؤلاء انظر المنذرى ، التكملة جـ ١ / ٧٣ ، ٧٧ ، ١٣٠ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ١ / ٢٩٠ . وانظر أيضا : عبد العال الشامى ، مدن مصر وقراها ، ص ٣٦ . ويذكر على باشا : أن موضع هذه الحارة يدل عليه فى عصره عطفة مراد بك . انظر على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٢ / ١٤٧ .

(٣) المقريزى ، الخطط جـ ٢ / ٢٣ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ،جـ ٣ / ٣٥٩ . على باشا مبارك ، ن . م . س .

(٤) تذكر المصادر بإنه كان يوجد فى العصر الفاطمى عدد من حارات الاجناد جنوبى باب زويلة منها اليانسية والمصامدة والحبانية وغيرها من الحارات . انظر : المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٢١ ، ٢٤ ـ ٢٥ ، القلقشندى ، ن . م . س ، مؤلف ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٢٣ .

(٥) لقد تم هذا الإجراء من قبل قوات صلاح الدين لتثبيط عزائم الثوار ، حيث كانت المنصورية مساكنهم وفيها الحرم والولد . انظر فى ذلك ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ / ١٠٣ . أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ / ق ٢ / ٤٥٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ / ١٧٦ .

(٦) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ١٩ ، وبناء على هذا التحديد فإن على باشا يضع هذه الحارة ، فى موضع حارة القربية فى شارع القربية . على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ / ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

الرغم من أن هناك حارة تعرف بالمنصورية كانت تقع فى هذه المنطقة ، إلا أنها من الواضح أن المنصورية ، لفظ كان يطلق على جميع الحارات الواقعة فى ظاهر القاهرة الجنوبى فى تلك الأثناء حيث جرت العادة فى العصر الفاطمى على أن يطلق على جميع الأحياء الواقعة فى ظاهر القاهرة اسم علم واحد . فالحسينية الواقعة فى الظاهر الشمالى للقاهرة، كانت عبارة عن مجموعة من الحارات كما يذكر ابن عبد الظاهر(١) . لذلك فمن المرجح أن يكون السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى سمح بتحويل بعض المواضع السكنية التى جرى إحراقها فى هذه المنطقة إلى بساتين (٢) قد سمح أيضا بإعادة عمارة مواضع أخرى منها ليعود إليها النشاط السكنى .

ثالثا : اختفاء بعض الأحياء :

ومن المظاهر العمرانية التى تعرضت لها أحياء القاهرة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى اختفاء بعض الأحياء السكنية ، لتأخذ وجها عمرانيا آخر يختلف عما كانت عليه فى السابق . فرغبة السلطان الناصر صلاح الدين فى تحويل المناطق الواقعة فيما بين الفسطاط والقاهرة والواقعة على يمين الخارج من باب زويلة (الناحية الغربية للشارع الأعظم) إلى بساتين (٣) . قد أدى إلى تحويل حارات الاجناد الفاطميين الموجودة فى هذه المنطقة إلى بساتين ، كما تشير إلى ذلك المصادر أثناء حديثها عن حارة المنصورية الواقعة فى هذه المنطقة . حيث هدمت أنقاضها وحرثت أراضيها ، واتخذ فيها بعض امراء الدولة الصلاحية بساتين لهم (٤) . ومن المؤكد أن ما حدث لحارة المنصورية، قد حدث لحارة الحبانية أيضا التى كانت من حارات الأجناد

---

(١) نقلا عن القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٣٥٥ . ولا تزال هذه الحارة معروفة حتى الآن بشارع الحسينة . عنها انظر : على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢/ ٦١ ـ ٦٧ .

(٢) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٣) انظر خريطة رقم (١) .

(٤) أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ / ق ٢ / ٤٥٢ . ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ / ١٦٨ . وينقل المقريزى عن ابن عبد الظاهر أن الذى حولها إلى بستان هو الأمير صارم الدين قطلبا . المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ١٩ ، والراجح أن ابن عبد الظاهر يقصد بذلك موضع الحارة المنصورية ، بينما يرد عند ابو شامة وابن واصل إشارة إلى مجموعة الحارات التى تقع فى هذه المنطقة وتحمل نفس الاسم كما سبق أن ذكرنا .

الفاطميين [١] . والتى تقع فى هذه المنطقة على شاطئ بركة الفيل . إلى الغرب من المنصورية [٢] . فمما لا شك فيه ان بستان الحبانية [٣] الذى أوقفه صلاح الدين على خنكاه سعيد السعداء [٤] ، قد انشئ على انقاض هذه الحارة أو على أجزاء منها على أقل تقدير[٥] ولم يكن اختفاء الحارات يجرى بشكل كامل على الدوام فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى . فقد اختفت بعض الأحياء فى تلك الفترة احتفاء رمزيا نتيجة اختفاء مسمياتها ، فحارة الريحانية والوزيرية [٦] ، أصبحت منذ عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى تعرف بحارة بهاء الدين نسبة إلى بهاء الدين قراقوش الذى سكنها فنسبت إليه [٧]. كذلك اختفت فى تلك الفترة أيضا حارة الأمراء الأشراف الأقارب [٨] ، حيث أصبحت ضمن النطاق العمرانى لدرب شمس

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٣٥٩ .

(٢) يدل على ذلك موقع الحارة حديثا شارعا الحمزيه والحبانية على ما يظهر . انظر: على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ،جـ ٣ / ٢٣٧ ، ٢٤٥ .

(٣) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٤) عن هذا الوقف وهذه الخنكاه انظر الفصل التالى .

(٥) يبدو أن حارة الحمزيين التى انشئت بعد سنة (٦٠٠هـ / ١٢٠٣م) قد أخذت جزءا من هذه الحارة . المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ١٦ . فى حين أن البستان اسس على أجزاء أخرى حيث ظلت بقايا موضعه أراضى حتى عهد على باشا . انظر على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٣ / ٢٤٥ .

(٦) وهذه الحارة من حارات الاجناد الفاطميين وقد سبق ذكرها .

(٧) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ٢ ، الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٢ البكرى ، قطف الأزهار ، لوحة ١٠٧ ، مؤلف مجهول ، تاريخ المصر القاهرة ، ورقة : ٢ ، وهذه الحارة تقع الآن فى المنطقة الممتدة فيما بين شارع بين السيارج وسور القاهرة الشمالى فتشمل بذلك حارة المغاربة . انظر على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ / ١٢١ ـ ١٢٢ .

(٨) لم تقدم المصادر معلومات واضحة عنها وإنما يدل اسمها على أنها كانت سكنا لأقارب الفاطميين ، المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ١٦ ، الخاصكى ، التحفة القاهرة ، لوحة : ١٧ ، ويذكر المقريزى أن موضعها فى عصره يدل عليه سوق الزجاجين والحريرين الشرابشيين . المقريزى ، الخطط ، م . س ، جـ ١ / ٣٦٣ ، والذى تشير التوقيعات الخرائطية على أنه هو شارع الوراقين إلى الجنوب من حارة درب شمس الدولة الحالية ، انظر :

A . Raymond E Wiet, Les Marcees de Caire, plan 3 .

وهو ما لم يشر إليه على باشا اثناء حديثه عن هذا الشارع حيث يجعل سوق الحريريين فى شارع الأشرفية ، على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ١٠٥ ، جـ ٣ / ١٥٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدولة [١] ، ومن المؤكد أن هذا الاختفاء الرمزى يعكس التغير السكانى الذى أحدثه الناصر صلاح الدين فى القاهرة[٢] اذ أن الحارات المذكورة قد أجلى عنها سكانها فى تلك الأثناء ، فقد كان سكان محلة الريحانية والوزرية من جملة طوائف عبيد الشراء[٣] . وهذه الطوائف من الجند قد جرى اخراجهم من القاهرة بعد انكسارهم فى ثورتهم المشهورة فى عام (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م)[٤] . أما حارة الأمراء الأشراف الأقارب فمن المؤكد أن سكانها الذين كانوا من أقارب الفاطميين ، قد جرى الاحتزاز عليهم وسجنهم مع بقية أفراد الأسرة الفاطمية [٥] . فأدى ذلك إلى خلو هذه الحارات من ساكنيها ، ليحل غيرهم محلهم كما يشير إلى ذلك سكنى بهاء الدين قراقوش فى الحارة التى نسبت إليه . وان كان ينبغى الإشارة هنا إلى أن التغير السكانى الذى قام به صلاح الدين الأيوبى فى القاهرة لم يكن شاملا اذ أبقى على بعض سكان القاهرة الفاطمية ولم يخرجهم من محلاتهم ، فحال ذلك دون اختفائها الرمزى، فحارة الروم الجوانية [٦] ظلت عناصرها السكانية تستوطن بها حتى العصور الحديثة، فيذكر على باشا مبارك بأن أغلب سكانها فى عصره (.. من نصارى الشام والأروام) [٧] . كذلك

---

(١) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٢) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٣) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣ ، مؤلف مجهول ، ن . م . س .

(٤) سبق الأشارة إلى هذه الثورة .

(٥) قام صلاح الدين بحبس كافة أفراد الأسرة الفاطمية وفرق بينهم فجعل رجالهم فى موضع ونساءهم فى موضع آخر لكل لا يتناسلوا ويكون ذلك مدعاة لانقراضهم . المقريزى ، الخطط ، جـ ٤٩٦/١ .

(٦) كانت هذه الحارة احدى حارتين اختطها الروم عشية تأسيس القاهرة احداهما عرفت بالبرانية لأنها كانت خارج سور القاهرة فى ذلك الوقت بينما عرفت الثانية بالجوانية وهى المقصودة هنا ولا تزال تعرف بهذا الاسم حتى الوقت الحاضر . انظر المقريزى م . س ، جـ ٢ / ٨ ، ١٤ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ / ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٤ / ٤٢ . وهامش (٤) من نفس الصفحة ، على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية جـ ٢ / ٢٠٣ . فتحى الحديدى ، القاهرة ، ص ٢١ .

(٧) على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ٢٠٦ .

كان الحال بالنسبة لحارة زويلة التى سكنها اليهود منذ عهد الحاكم بأمر الله [١] ، وظلوا يسكنون بها حتى العصور الحديثة كما يشير إلى ذلك على باشا مبارك [٢] ، الأمر الذى جعلها تحتفظ باسمها إلى ما بعد عصر المقريزى على أقل تقدير [٣].

رابعا ـ تغير النطاق العمرانى للأحياء :

ومن المظاهر العمرانية التى تعرضت لها الأحياء فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى تغير النطاق العمرانى للأحياء . كإنعكاس لما شهدته القاهرة فى تلك الفترات من تعديلات عمرانية أساسية ، تمثلت فى تحويل العديد من منشآتها وساحاتها إلى أحياء سكنية . فإن ذلك أدى إلى اضطراب فى خطة المدينة ، ظهر اثره على النطاق العمرانى للأحياء ، حيث أخذ بعضها بالاتساع والنمو تبعا للتعديلات الجديدة هذه . فأخذ بعضها بالتوسع على حساب المنشآت التى تحولت إلى أحياء سكنية فقد كان تحول اصطبل الجميزة إلى منطقة سكنية سبباً فى أن تضم اجزاء كبيرة إلى حارة زويلة. حيث يذكر ابن الطوير أثناء حديثه عن هذا الاصطبل أنه يقع فى عصره فى حارة زويلة [٤] . وكذلك فإن على باشا مبارك عندما يتحدث عن البئر التى كانت مرسومة لهذا الاصطبل فى العصر الفاطمى ، فإنه يرجح بأن تكون هى عين البئر الموجودة فى حمام حارة اليهود القرايين [٥] ، وهى حارة تعتبر فى الأصل جزءا من حارة زويلة[٦] ، مما يدل على أن النطاق العمرانى لهذه الحارة قد توسع على حساب هذا الاصطبل ، بعدما كانت تقع إلى الغرب منه ، حيث كان الاصطبل يفصل بينها وبين القصر الغربى الصغير فى العصر الفاطمى [٧] . كذلك فإن هناك من الأحياء السكنية التى

---

(١) القلقشندى ، م . س ، جـ ٣ / ٣٥٣ .

(٢) على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٣ / ص ٧٣ .

(٣) على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٣ / ص ٧٢ .

(٤) نقلا عن المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ص٤٤٤ .

(٥) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ / ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

(٦) على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٣ / ص٧٣ .

(٧) المقريزى ، م . س جـ ١ / ٣٦٣ .

أخذت بالتوسع على حساب الساحات والمنشآت فى آن واحد ، فمن الواضح أن حارة قائد القواد أو ما عرفت بدرب ملوخيا [١] فى وقت لاحق قد أخذ نطاقها العمرانى بالتوسع على حساب خزائن دار افتكين ورحبة قصر الشوك . فعندما تتحدث المصادر عن هذه الخزائن تذكر بأنه قد أصبح فى موضعها مدرسة القاضى الفاضل وآدره بدرب ملوخيا [٢]. مما يدل على أن هذه الخزائن قد ضمت إلى هذا الحى بعد أن تمت إعادة تخطيطها فى حين أنها لم تكن من جملته على الأرجح فى العصر الفاطمى ، اذ أن كل ما يرد عنها فى تلك الفترة هو أنها كانت تحد رحبة قصر الشوك من جهاتها الشرقية [٣] . بل من الواضح أن هذا الحى قد أخذ نطاقه العمرانى.بالتوسع على حساب رحبة قصر الشوك ، التى تحولت إلى منطقة سكنية فى تلك الفترة . إذ أن باب قصر الشوك[٤] ، الذى كان يطل على هذه

---

(١) هذه الحارة عرفت بقائد القواد حسين بن جوهر الصقلى (ت ٤٠١ هـ / ١٠١٠م) . ولى الوزارة للخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١هـ / ٩٩٦ ـ ١٠٢٠م) لمدة ثمان سنوات تقريبا (٣٩٠ ـ ٣٩٨هـ / ٩٩٩ ـ ١٠٠٧م) كان يسكن هذه الحارة فعرفت به ثم عرفت بملوخيا على ما يبدو قبل أن تعرف بدرب يحمل نفس الاسم ، وملوخيا هو ملوخيا صاحب ركاب الحكام بأمر الله قتله الحاكم وباشر ذلك بنفسه . ولا تذكر المصادر تاريخ القتل هذا . انظر : المقريزى ، م . س جـ ٢ / ١٤ ـ ١٦ ، ٣٨ . ويذكر بعض الباحثين بأن موقع هذه الحارة يدل عليه فى الوقت الحاضر حارة قصر الشوك . عبد الرحمن زكى ، موسوعة مدينة القاهرة ، ص ١١٦ ، محمد رمزى ، التعليقات فى النجوم الزاهرة ،جـ ٤ / ٤٩ ، هامش (٦) . فتحى الحديدى ، القاهرة ، ص ٢٢ . والصحيح أن الذى يدل على هذه الحارة فى الوقت الحاضر هو شارع درب القزازين كما يشير إلى ذلك وثائق الملكية انظر على باشا مبارك ، م . س ، جـ ٢ / ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ، السخاوى تحفة الأحباب ، ص ٩٢ وتكملة هامش (٢) فى ص ٩١ من نفس المصدر .

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ / ٤٢٣ .

(٣) الخاصكى ، التحفة الفاخرة ، لوحة ٦٣ .

(٤) هذا الباب هو أحد أبواب القصر الشرقى الكبير ، وكان يتوصل منه إلى إحدى قاعات هذا القصر وهى قصر الشوك فنسبت إليه ، المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٤٣٥ .

الرحبة [١] ، أصبح بابا لدرب ملوخيا . وقد أشار إلى ذلك على باشا مبارك أثناء تحديده لموقع هذا الباب فى عصره حيث يذكر بأن موضعه الآن (.. باب حارة درب القزازين الصغير ..)[٢] . ودرب القزازين هذا هو درب ملوخيا قديما . ومن الواضح أن ذلك يعكس تداخل الأحياء كما سبق أن ذكرنا وإنضمام بعضها إلى بعض ، فيستوعب أحداها الآخر ضمن نطاقه العمرانى . ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما تذكره النصوص التاريخية عن حارة الأمراء ، حيث تشير إلى أن هذه الحارة يدل عليها بعد العصر الفاطمى درب شمس الدولة [٣] . رغم أن هذا الدرب كان أصله حيا نشأ على أنقاض أحد القصور كما تشير إلى ذلك نصوص تاريخية أخرى ، سبق الإشارة إليها. مما قد يوحى بأن هناك تناقضا فى الروايات التاريخية . بيد أنه من المرجح أن السبب فى ذلك يعود إلى أن هذا الدرب قد توسع نطاقه العمرانى فأصبح يشمل الحارة بأكملها فى تلك الأثناء [٥] . ومثل ذلك يمكن أن يقال بالنسبة لخط سويقة أمير الجيوش الذى كانت بداية نشأته على أنقاض أحد القصور الفاطمية كما سبق أن وضحنا ، وهو ما يتناقض مع ما تذكره المصادر التاريخية عن هذا الخط ، حيث تذكر بأن موضعه كان يعرف فى العصر الفاطمى بحارة الفرحيه [٦] .

---

(١) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣٦٢ .

(٢) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية جـ ٢ / ٩٤ .

(٣) على باشا مبارك، م . س . جـ٢ / ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ / ١٦ ، ٣٧ ، الخاصكى ، التحفة الفاخرة لوحة ٤٧ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ٤٣ .

(٥) من الواضح أن النطاق العمرانى لهذا الدرب قد تراجع وتقلص فى عصر المقريزى اذ يذكر أنه اصبح فى موضع حارة الأمراء فى عصره ، سوقى الحريرين والشرابيين والزجاجيين اللذان كانا فى تلك الفترة يقعان بجوار درب شمس الدولة حيث يسلك منهما إلى هذا الدرب ، انظر المقريزى ، م . س ، جـ ١ / ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

(٦) الفرحية : هى طائفة من طوائف عبيد الشراء فى الجيش الفاطمى : المقريزى ، الخطط جـ ٢ / ١٤ ، ٣٦ .

إلا أنه بالنظر إلى ما يذكره المقريزى عن هذا الخط فى عصره يلاحظ بأنه ينقسم إلى قسمين رئيسيين الأول هو السويقة التى تعرف بسويقة أمير الجيوش ، والتى كانت تقع فى رأس الخط من جهة شارع القصبة [١] أما الثانى فهو درب الفرحية والذى كان يمتد فيما بين السويقة وباب القنطرة [٢] . وعليه فإن المرجح أن يكون خط سويقة أمير الجيوش قد قام فى بداية ظهوره على أنقاض القصر الفاطمى الذى كان يقع بعضه فى موضع السويقة . ومن ثم توسع نطاقه العمرانى ليشمل حارة الفرحية التى كانت تشغل المنطقة الممتدة فيما بين السويقة وباب القنطرة .

ولم يقتصر تغير النطاق العمرانى للأحياء على مجرد التوسع ، إذ يلاحظ أنه قد جرى فى تلك الفترة تقلص النطاق العمرانى لبعض الأحياء ، فحارة الوزيرية قد تقلص نطاقها العمرانى فى العهد الأيوبى عما كانت عليه فى العصر الفاطمى . حيث انفصلت عنها بعض المواضع التى كانت تتبعها [٣] . اذ أن المقريزى عندما يتحدث عن خط دار الديباج [٤] . يذكر بأنه كان فى عصره ، يقع فيما بين خط البندقانين[٥] والوزيرية [٦] على الرغم من أن هذا الخط كان فى العصر الفاطمى من جملة هذه الحارة كما يذكر السخاوى [٧] مما يشير إلى تراجع النطاق العمرانى لهذه الحارة بحيث

---

(١) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ / ١٢٨ .

(٢) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ١٤ .

(٣) محمد رمزى التعليقات فى النجوم الزاهرة ، جـ ٤ /٥١ هامش (٢) .

(٤) ويدل على هذا الخط فى العصر الحديث شارع اللبودية ، على باشا مبارك الخطط التوفيقية ، جـ ٣/ ١٦٥ ـ ١٦٧ .

(٥) خط البندقانين نسبة إلى صناع قسى البندق الذى نزلوا فى هذا الخط وكان لهم حوانيت فى سوقه فنسب إليهم . المقريزى ، الخطط جـ ٢ / ٣١ ، ويدل على هذا الخط فى العصر الحديث خط شارع البندقانيين ، الا أن نطاقه العمرانى تراجع عما كان عليه فى السابق . حيث كان يشمل مواضع أخرى مثل حارة السبع قاعات وما جاورها وشارع سوق السمك القديم وغير ذلك . على باشا مبارك، م . س ، جـ ٣ / ١٥٩ ـ ١٦١ .

(٦) المقريزى ، م . س ، جـ ٢ / ٣٢ .

(٧) السخاوى ، تحفة الأحباب ، ص ٨٤ .

أصبحت تشمل المنطقة الواقعة فيما بين الخط المذكور وسور القاهرة الغربى [١] .

(ب) الشوارع الرئيسية :

يدل الأصل اللغوى للفظ « شارع » على معنيين عمرانيين ، فهو الطريق الذى يشرع فيه الناس عامة [٢] ، ويستخدم كأداة اتصال من منطقة إلى أخرى يبلغ به سالكه مقصده الذى أراد [٣] . وهو وسيلة لتوزيع المنشآت والمبانى داخل المدينة ، ويقال: « دور شارعه إذا كانت أبوابها شارعة فى الطريق » [٤] .

وتتميز المدينة الإسلامية بأنها تتكون من شبكة من الشوارع تؤول فى النهاية إلى شارع رئيسى [٥] عرف بالشارع الأعظم أو « القصبة » ، فعلى ذلك جرى تخطيط أمصار الفتح فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه [٦] .

لقد شهدت شوارع القاهرة الكبرى فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى العديد من التطورات التى تجسد وجهاً من أوجه التحولات العمرانية الكبرى التى شهدتها المدينة فى تلك الأثناء . فالدولة الأيوبية كان لديها وضوح فى التصور تجاه أهمية الطرق وحركة النقل . يدل على ذلك الطريق والقناطر التى أمر الناصر صلاح الدين الأيوبى ببنائها فى الجيزة ، فلقد عمر بهاء الدين قراقوش عام (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) قناطر تجاوز عددها الأربعين كانت تقع على إحدى الخلجان فى المنطقة ووصل هذه القناطر بطريق مرصوفة بالحجارة ابتدأ من حيز النيل بازاء الفسطاط [٧] . ولذلك فإن من

---

(١) اصبحت حارة الوزيرية قاصرة فى العصر الأيوبى والمملوكى على المنطقة الصغيرة التى تحد من الناحية الشمالية بعطفة الصاوى ومن الغرب بشارع درب سعادة وجنوبا بالجانب الغربى لسكة النبوية وشرقا بالجانب الغربى لحارة الجودرية ، محمد رمزى ، ن . م . س .

(٢) الزبيدى : تاج العروس ٥ / ٣٩٧ .

(٣) الزبيدى : م . س ٥ / ٣٩٦ .

(٤) الزبيدى : م . س ٥ / ٣٩٥ .

(٥) نيكيتا اليسييف : التخطيط المادى ، ضمن كتاب المدينة الإسلامية ، ص ٩٨ .

(٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ الكتانى : التراتيب الإدارية ١ / ٢٨٢ .

(٧) ابن جبير : الرحلة ص ٢٧ ، ابن دقماق : الانتصار ١ / ١٢٦ ـ ١٢٧ المقريزى : الخطط ٢ / ١٥١ . عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ٢١٨ . جرجى زيدان : تاريخ مصر ١ / ٣٢٢ .

المؤكد أن تكون الدولة الصلاحية قد عمدت إلى انشاء العديد من الشوارع فى القاهرة الكبرى بما يتناسب مع التطورات العمرانية فيها والاحتياجات الجديدة التى تتطلبها حركة النقل المرتبطة بتلك التطورات . وهكذا ظهر العديد من الشوارع الجديدة فى مواضع المنشآت التي تحولت إلى أحياء سكنية فى تلك الأثناء ، فتحول القصور وغيرها من المنشآت الآخرى إلى أحياء سكنية ، وبناء منشآت للخدمات على مواضع منها يقتضى ظهور العديد من الشوارع فى هذه المواضع كمرافق ، فعندما تتحدث المصادر عن بعض تلك المنشآت تشير إلى ظهور عدد من الشوارع فيها . فالقصر الشرقى الكبير ظهر فيه عدد من الشوارع ، كانت أبوابه [١] مداخل لها ، اذ أن باب العيد [٢] كان يسلك فيه إلى المارستان الصلاحى [٣] الذى أسس على أجزاء من هذا القصر [٤] .

(١) تذكر المصادر التاريخية عددا من الأبواب للقصر الشرقى الكبير فناصر خسرو يذكر بأن للقصرعشرة أبواب شارعة على المناطق المحيطة به ، بالإضافة إلى تلك المؤدية إلى سراديب تحت الأرض . وللأبواب العلوية هى : باب الذهب ، باب البحر ، باب الريح ، باب الزهومة ، باب السلام ، باب الزمر د. باب العيد ، باب الفتوح باب الزلاقة ، باب السرية . ناصر خسرو : سفر نامه ص ٨٩ ـ ٩٠ . أما الأبواب التى أوردتها بقية المصادر فهى تسعة أبواب هى : باب الذهب ، باب البحر ، باب الريح ، باب الزمرد، باب العيد ، باب قصر الشوك ، باب الديلم ، باب تربة الزعفران ، باب الزهومة . انظر المقريزى : الخطط ١ / ٤٣٢ ـ ٤٣٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٣ / ٣٤٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤ / ٣٥ ـ ٣٦ .

وللتعرف على مواقع هذه الأبواب فى العصر الحديث انظر على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢ / ٩٣ ـ ٩٥ ، وانظر أيضاً محمد رمزى التعليقات فى النجوم الزاهرة ٤ / ٣٥ هامش ٤ ، ٥ ، ٦ ، ص ٣٦ ، هامش ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ .

(٢) سمى بذلك لأن الخليفة الفاطمى كان يخرج منه نحو مصلى العيد لأداء صلاة العيدين . المقريزى : م . س ١ / ٤٣٥ ، القلقشندى : ن . م . س ويذكر على باشا مبارك بأن موضع هذا الباب يدل عليه فى عصره مسجد الشيخ موسى بدرب الشيخ موسى . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢ / ٩٤ ، فى حين أن محمد رمزى يحدده بحوش الوكالة وقف السيدة نفيسة الشهيرة بوكالة عبده الحاملة رقم (٢٠) بشارع قصر الشوك محمد رمزى : م . س ٤ / ٣٥ هامش ٤ .

(٣) المقريزى : م . س ١ / ٣٧٦ ، القلقشندى : ن . م ، س .

(٤) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

كذلك كان الحال بالنسبة لباب قصر الشوك [١] ، الذى كان من المداخل المؤدية إلى هذا المارستان [٢] ، فى حين أن بابى البحر [٣] والريح [٤] كان يسلك منها إلى بعض المواضع السكنية التى توجد فى داخل هذا القصر [٥] ، والتى بدأت بالتحول إلى أحياء سكنية فى تلك الفترة . كذلك كان الأمر بالنسبة لأبواب القصر الغربى الصغير [٦] حيث أضحت تلك الأبواب مداخل للمناطق السكنية الجديدة . فباب التبانين [٧] قد أضحى مدخلا للمبانى والمنشآت التى ظهرت على ميدان القصر الغربى حيث يوجد خط الخرنشف [٨] . ويشير ابن دقماق أثناء حديثه عن قبو دار الملك إلى أن هذا القبو كان يسلك إليه عن طريق أحد أبواب هذه الدار [٩] مما يفيد بوجود شوارع فى داخلها

---

(١) سمى بذلك لأنه يسلك منه إلى قصر الشوك إحدى قاعات القصر الشرقى الكبير . المقريزى : م . س/١ ٤٣٥ ، ويدل عليه حديثا باب حارة درب القزازين الصغير : على باشا مبارك : ن . م . س ، محمد رمزى م . س ٤/ ٣٦ هامش (٣).

(٢) المقريزى : ن . م . س .

(٣) سمى بذلك لأن الخليفة كان يخرج منه إذا ما توجه إلى شاطئ النيل ولعل تسميته أتت من كونه يتجه نحو الغرب حيث يوجد النيل وموضعه اليوم مدخل بيت القاضى تجاه المدرسة الكاملية بشارع بين القصرين . انظر محمد رمزى : م . س / ٤/ ٣٥ هامش (٦).

(٤) لعله سمى بذلك لأنه يقع فى مواجهة الريح الشمالية جيدة الهواء ويذكر على باشا بأن موضعه فى وقته يدل عليه الزقاق الذى بين جامع جمال الدين ، ووكالة الكتخذا المعروفة بوكالة ذى الفقار ، على باشا : ن . م . س أما محمد رمزى فيحدده بباب وكالة سالم ومحمد بازاراعة الحاملة لرقم ٢٥ بشارع التمبكشية . محمد رمزى م . س ٤/ ٣٦ هامش (٧) .

(٥) المقريزى : م . س ، ١/ ٣٧٥ ، ٤٣٤ .

(٦) كان للقصر الغربى ثلاثة أبواب ذكرتها المصادر هى : باب الساباط ، باب التبانين ، وباب الزمرد . المقريزى : م . س ١/ ٤٥٨ .

(٧) من الواضح أن سبب تسميته وجود سوق التبانين بالقرب منه وذلك خلال العصر الفاطمى ، حيث يقع هذا السوق بالقرب من باب قبو الخرنشف الحالى . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢/ ٩٢ ، وباب الخرنشف هو باب التبانين حسبما يذكر المقريزى . المقريزى ن . م . س .

(٨) المقريزى : ن . م . س .

(٩) ابن دقماق : الانتصار ق ١/ ٥٣ ـ ٥٤ .

ظهرت نتيجة تقسيمها فى عصر الناصر صلاح الدين الأيوبى . بل ان ظهور هذه الشوارع ترتب عليه إضافات جديدة لشبكة طرقات المدينة بشكل عام ، حيث استغلت للاتصال من منطقة إلى أخرى . فمن ذلك الطريق التى يقع عليها باب قصر الشوك كان بالإمكان الاتصال من خلالها برحبة باب العيد وما حولها حيث يذكر المقريزى متحدثا عن زمانه بأنه كان يسلك من جهة هذا الباب إلى درب السلامى (١) وغيره من المناطق (٢) . وهذا الدرب كان من جملة أراضى الرحبة(٣) . كذلك كان الأمر بالنسبة لباب الريح الذى يقع شمالى القصر الشرقى(٤) . والذى كان يسلك من خلاله إلى مابين القصرين (٥) . أى إلى المواضع الواقعة غربى القصر المذكور حيث توجد منطقة ما بين القصرين فى حين أن درب شمس الدولة الذى ظهر على أنقاض قصر فاطمى ، كان يسلك إليه من خط الخشيبة (٦) للوصول

---

(١) عرف هذا الدرب بخواجا مجد الدين السلامى (ت ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م) تاجر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ٦٩٣ ـ ٧٤١هـ / ١٢٩٣ ـ ١٣٤١ م . المقريزى : الخطط ٢/ ٤٣ ، مؤلف مجهول : تاريخ مصر القاهرة : ورقة ٥٠ ـ ٥١ ، وهذا الدرب يدل عليه درب الشيخ موسى وهو الآن غير نافذ . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

(٢) المقريزى : م . س ١/ ٣٦٢ . نظرا لإنسداد درب الشيخ موسى فهذا يعنى بأن هذا الطريق قد تغيرت معالمه وإنما يمكن عمل مخطط تخيلى له بوصل هذا الدرب بشارع درب القزازين من جهة بابه الصغير .

(٣) المقريزى : الخطط ٢/ ٤٣ . مؤلف مجهول : ن . م . س .

(٤) محمد رمزى : التعليقات فى النجوم ٤/ ٣٦ هامش ٧ .

(٥) المقريزى : م . س ١/ ٤٣٤ . ويمكن القول بأن هذا الشارع يدل عليه الآن الزقاق الذى جعله على باشا مبارك يدل على موضع باب الريح المذكور ، ومدخل حارة بيت القاضى من جهة بين القصرين والذى يدل على موضع باب البحر . وقد سبق الأشارة إلى ذلك .

(٦) سمى بالخشيبة لأنه كان يقع على مدخله فى العصر الفاطمى خشبة تمنع الأفراد من المرور راكبين لوجود مسجد بجوارها كان فى وقت من الأوقات مدفناً للخليفة الظاهر الفاطمى (٥٤٤ ـ ٥٤٩هـ / ١١٤٩ ـ ١١٥٤م) ولقد أزال صلاح الدين هذه الخشبة . المقريزى: م . س ٢/ ٢٩ ـ ٣٠ ، الخاصكى : التحفة الفاخرة لوحة ٦٣ ـ ٦٧ ، ويدل على هذا الخط فى الوقت الحاضر شارع المقاصيص . على باشا مبارك : م . س ٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨ .

إلى موضع سوق الحريرين الشرابيين[١] ، الذى كان يتصل به من الناحية الجنوبية [٢] . بينما أصبح بالإمكان الوصول إلى ساحل النيل من خلال بعض شوارع دار الملك [٣] . ولقد ترتب عن البناء على الساحات والمواضع الخالية من البناء إلى ظهور شوارع جديدة أيضا . فسوق الجملون الكبير الذى ظهر على إحدى الساحات [٤] ، كان شارعا مسلوكا حتى فى أثناء الليل ، ويسلك منه إلى البندقانين وغير ذلك من المواضع الواقعة إلى الغرب منه [٥] . ومن الواضح أن المنطقة الواقعة غربى الخليج قد شهدت عمليات تنظيم واسعة النطاق ، نظرا لازدياد الروابط بينها وبين المدينة بعد ضمها إلى سور القاهرة . كما أن بناء المنشآت والبساتين على ساحل النهر، يقتضى ظهور الشوارع كمرافق للتطورات العمرانية هذه ، مثلما حدث فى عهد الآمر بأحكام الله العبيدى، عندما خصص برابن التبان كموضع نزهة أنشئت فيه البساتين والدور والحوانيت ، فأدى ذلك إلى ظهور الطرقات والشوارع كمرافق لهذه المنشآت [٦] . بل ان من المؤكد أنه قد ظهر فى تلك الفترة شارع رئيسى يمتد بطول الساحل ويفصل بينه وبين الدور والبساتين المطلة عليه . كما يشير إلى ذلك المقريزى أثناء حديثه عن فم الخور [٧] . فهو يذكر بأنه كان (... يفصل بين البساتين والدور المطلة على النيل شارع مسلوك ...)[٨] . وكذلك فقد جرى الربط بين القاهرة وغربى الخليج بشوارع جديدة ،

---

(١) عن هذا السوق انظر ما يلى .

(٢) وحسبما ورد فى خريطة الحملة الفرنسية فإن هذا الطريق سد من جهة خط الخشيبة وبقى متصلا من ناحية السوق . انظر Reymond . E . Wiet, Les Marcees de Caire, pan, 3

(٣) ابن دقماق : الانتصار ق ١/ ٥٣ ـ ٥٤ .

(٤) عن هذا السوق وظهوره انظر ما يلى .

(٥) المقريزى : م . س ٢/ ١٠٣ ، الخاصكى : م . س . لوحة ٨٠ .

(٦) المقريزى : م . س . ٢/ ١١٤ ـ ١١٥ .

(٧) هو خليج فم الخور وقد سبق الحديث عن .

(٨) المقريزى : م . س ٢/ ١٣١ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ١٤٣ ، ويبدو أن هذا الشارع هو الذى سماه على باشا مبارك بشارع مصر العتيقة . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٣/ ٢٢٤ حيث يقع فى منطقة حدود الساحل فى تلك الفترة .

فمن الواضح أن الشارع الذى يربط بين باب القنطرة (الجديد) وباب البحر [١] قد ظهر فى تلك الأثناء ، اذ أن على طرفه الشمالى يقع باب القنطرة والقنطرة ، وكلاهما من المنشآت التى بناها صلاح الدين الأيوبى بدلا من الباب والقنطرة القديمين [٢] . علاوة على وجود باب البحر فى طرفه الجنوبى وهو من أبواب سور صلاح الدين الأيوبى [٣] ، ولقد جرى إنشاء هذا الشارع على أجزاء من بركة بطن البقر [٤] . حيث كانت تمتد إلى المنطقة التى يقع فيها هذا الشارع كما تشير التوقيعات بذلك [٥] بل أن من المؤكد أن يكون اتصال عمران المقسى بالقاهرة حينئذ عن طريق امتداد المبانى بمحاذاة هذا الشارع من جانبيه وصولا إلى باب القنطرة ، فقد ذكر ابن سعيد بأن من يريد الوصول إلى الساحل بالمقسى فإن عليه أن يسير مخترقا المبانى [٦] . والراجح أن شارع الموسكى [٧] قد ظهر فى تلك الفترة أيضا حيث تقع على طرفه الشمالى قنطرة الموسكى [٨] التى أنشئت فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى [٩] .

ولقد تعرض ساحل الفسطاط لتطورات مشابهة لتلك التى حدثت غربى الخليج ، أن البناء على هذا الساحل قد دفع المسئولين نحو الاهتمام بالمنطقة وتكوين مرافقها .

---

(١) وهذا الشارع يضم الآن مجموعة من الشوارع هى : شارع باب الشعرية الكبير الذى يبدأ من شارع مرجوشى حيث يوجد باب القنطرة ، وشارع أبى بدير وشارع سوق الخشب إلى شارع باب البحر الذى يدل على موقع باب البحر . انظر : على باشا مبارك : م . س ٣/ ١٢٨ ، ٢٥٧ ـ ٢٨٠ .

(٢) سيرد ذكر تفاصيل ذلك لاحقاً .

(٣) سيردذلك لاحقاً .

(٤) سبق ذكر هذه البركة وموقعها .

(٥) انظر خريطة رقم (٢) .

(٦) ابن سعيد الأندلسى : النجوم الزاهرة ص ٢٥ .

(٧) ينسب هذا الشارع إلى القنطرة التى تقع عليه وتعرف بقنطرة الموسكى . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٣/ ٣٠٩ .

(٨) ن . م . س وانظر خريطة رقم (١) .

(٩) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

فعندما يتحدث ابن دقماق عن مساجد الفسطاط يشير إلى شارع عرف « بالشارع الأعظم » كان يمتد من السيوريين[١] إلى باب مصر [٢] . وهو باب أمر صلاح الدين بإنشائه للفسطاط على أجزاء من أراضى الطرح النهرى [٣] . مما يدل على ظهور هذا الشارع فى تلك الفترة ، ليكون بديلا عن « الشارع الأعظم » الذى كان يقع شرقى الفسطاط فى العصر الفاطمى . يدل عليه درب الصفا ، حيث يشير ابن الطوير إلى ذلك أثناء حديثه عن أحد مواكب الخلفاء ، فيذكر بأن الموكب كان يلج إلى (درب الصفا ويقال له الشارع الأعظم ...) [٤] ان هذا التحول فى قصبة المدينة إنما يعبر عن انتقال النشاط العمرانى من شرقيها إلى غربيها فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، كما أن إنشاء البساتين فى المنطقة الواقعة فيما بين الفسطاط والقاهرة على يمين الخارج من باب زويلة ، يقتضى بطبيعة الحال إعادة تنظيم المنطقة بطريقة تختلف عما كانت عليه فى السابق ، الأمر الذى ترتب عنه ظهور شوارع جديدة، كمرافق وخدمات لهذه المتنزهات والبساتين ، لذلك فإن المصادر تذكر بأن الناس أنشأوا طريقا يسلكه المارة يفصل فيما بين بستان الحبانية ، وبركة الفيل[٥] .

---

(١) لم تورد المصادر معلومات واضحة عن سبب تسمية هذا الخط وكل ما يرد عنه هو تحديد موقعه . انظر ابن دقماق : الانتصار ق ٢/ ٣٨ . وهو يقع بالقرب من جامع عمرو بن العاص إلى الغرب منه . انظر: Casanova, Paul , de Reconstition, p. 43 .

(٢) ابن دقماق : م . س ق ١ / ٨٨ .

(٣) وكان هذا الباب يعرف بباب الساحل أيضا . المقريزى : الخطط ١/ ٣٤٤ ، ٣٤٧ Casanova , op. cit .

(٤) نقلا عن المقريزى : م . س ١/ ٤٨٤ . وحسبما ورد فى وثيقة نقلها الكندى عن تجديد مسجد عبد الله فإنه يتضح بأن هذا الشارع كان يقع فى الحد الجنوبى الشرقى من المسجد المذكور . الكندى: أبو عمر محمد بن يوسف ، كتاب الولاة وكتاب القضاء ، تحقيق دفن كسن ، بيروت ١٩٠٨ م ص ٤٠٧ ، ثم يتجه الشارع بعد ذلك إلى جامع عمرو بن العاص ثم إلى دار الملك على ما يبدو حيث يتكون نهاية مواكب الخلفاء فى العصر الفاطمى . المقريزى : ن . م . س اتعاظ الحنفاء ٣/ ٣٧ هامش (٢) وكان فى هذا الشارع يقع أحد أسواق الفسطاط ويعرف بسوق القصبة نسبة للشارع . ابن دقماق : الانتصار ق ١/ ٩١ .

(٥) المقريزى : الخطط ٢/ ١٣٣ ، ويصعب تحديد هذا الشارع فى الوقت الحاضر لتعرض المنطقة فى العصور اللاحقة لتغيرات عدةأثرت على تخطيطها .

ولم يكن ظهور الشوارع الجديدة قاصرا على تلك الأسباب فقط ، بل جرى شق بعض الشوارع من خلال بعض الحارات لتخترقها ، كما حدث بالنسبة لشارع خط سويقة أمير الجيوش ، الذى يسلك فيه من وسط القاهرة حيث « بين القصرين » إلى باب القنطرة وغربى الخليج [١] . فنظرا لتعديل موضع باب القنطرة الجديد بالنسبة للباب القديم ، حيث أضحى الجديد يقع إلى الجنوب من الأول [٢] . فلقد اقتضى ذلك تعديل مسارات الطرق المؤدية إليه من داخل المدينة ، وهو ما أشارت إليه المصادر ، فقد أورد أبو شامة أثناء الحديث عما تم انجازه من سور القاهرة عام (٥٧٤هـ/ ١١٧٨م) بأنه قد (ظهر العمل وطلع البناء وسلكت به الطرق المؤدية إلى الساحل بالمقسم ..)[٣] . ومن الواضح أن السور هو المقصود بعبارة (سلكت به الطرق ...) حيث اخترقته منافذ جديدة تؤدى إلى غربى الخليج حيث المقسى ، وهذه المنافذ هى باب القنطرة الجديد ، الأمر الذى يقتضى انشاء طريق يسلك منه إلى هذا الباب ، وهو شارع خط سويقة أمير الجيوش ، فتحولت حارة الفرحية إلى زقاق يحمل نفس الاسم كما يذكر المقريزى فى ثنايا حديثه عن الخط المذكور فى عصره [٤] . وتحول الحارة إلى خط أو درب أو زقاق يدل على أنها قد انتقلت من النوع الأول إلى الثانى من أنواع الأحياء وهو أمر لا يستقيم إلا بوجود شارع رئيسى مسلوك ، كما تقتضيه طبيعة التكوين العمرانى والوظيفى للنوع الثانى من الأحياء كما سبق أن ذكرنا . ولم تقتصر مظاهر التطور العمرانى للشوارع فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى على ظهور شوارع جديدة فقط ، بل كانت هناك مظاهر تطور عمرانى أخرى تعرضت لها الشوارع فى تلك الفترة . فهناك شوارع جرت توسعتها ، مثلما حدث للشارع الواقع

---

(١) المقريزى : الخطط ٢/ ١٠١ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١٢١ .

(٢) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

(٣) أبو شامة : الروضتين ٢/ ٢٠ ، ولقد ذكر المقريزى الخبر ذاته فى حوادث (٥٧٣هـ / ١١٧٦م) المقريزى : السلوك ١/ ١ / ٦٦ .

(٤) المقريزى : الخطط ٢/ ١٤ .

في مواجهة باب زويلة [١] ، الذى أجريت عليه بعض التعديلات من المؤكد أنها كانت توسعه . فبعدما أزيلت أنقاض حارة المنصورية وتحولت أراضيها إلى بساتين تم تعديل مسار الشارع حتي أنه (صار من يقف على باب الجامع الطولوني يرى باب زويلة) [٢]. وبالإضافة إلى التوسعه والتعديل ، فهناك شوارع زيد فى أطوالها ، فقصبة القاهرة زيد فى طولها لتشمل الشارع المواجه لباب زويلة والذى عرف باسم « الشارع الأعظم » كما تشير إلى ذلك وثيقة وقفية تعود لعام (٦٦٠هـ/ ١٢٦٠م) والتى تضمنت تخصيص بعض الأراضى الواقعة غربى الخليج لغرض توفير ملابس فى الشتاء (تفرق على الأيتام الذكور والأناث الفقراء غير البالغين بالشارع الأعظم خارج باب زويلة ...)[٣] . مما يدل على أن شارع القصبة لمدينة القاهرة قد زيد فى طوله ليشمل هذا الشارع وصولا إلى قلعة الجبل ، وذلك بعدما كان محصورا فى العصر الفاطمى

---

(١) بالنظر إلى ما ورد فى المصادر عن هذه المنطقة يلاحظ بأنها كانت فى العصر المملوكى تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، الأولى وهى التى تقع فى مواجهة الخارج من باب زويلة بينما تقع الثانية على يمين الخارج منه أما الثالثة فهى الواقعة على يسار الخارج من باب زويلة إلا أن هذه الصفة لم تكن موجودة فى العصر الفاطمى كما هى عليه الحال فى عصر المماليك . فالراجح أنه لم يكن يوجد فى بادئ الأمر سوى طريق واحد وهو المواجهة لباب زويلة ثم تلاحقت التطورات بعد ذلك إلى العصر المماليكى. والتى سنشير إلى بعضها فيما يلى . انظر :

المقريزى : الخطط ٢/ ١٠٠ ، ١١٠ ، السخاوى : تحفة الأحباب ص ١٠٤ . الخاصكى : التحفة الفاخرة لوحة ٨٨٠ .

أما بالنسبة لموقع هذا الشارع حديثا فإنه كان يؤدى إلى خط صليبة ابن طولون والمشهد النفيسى وما ورائه . المقريزى : ن . م . س أى أنه يشمل عددا كبيرا من الشوارع هى : شارع قصبة رضوان السيوفية ، وشارع الركبة ، وشارع الخليفة ، وشارع السيدة نفيسة . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢/ ١٣٢ ـ ١٨٩ .

(٢) المقريزى : م . س ٢/ ١١٠ .

(٣) المقريزى : م . س ٢/ ١١٥ .

فيما بين بابى زويلة والفتوح [١] .

ومن الواضح أن هذه الزيادة قد تمت فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، لما أحدثه من توسعه لهذا الشارع كما سبق أن أشرنا بالإضافة إلى استخدامه كطريق يسلك منه إلى قلعة الجبل [٢] . التى بنيت لتكون مقرا للسلطنة مما سيكسبه أهمية مضافة .

وعلى الرغم من أن هناك من الباحثين المحدثين من يعتبر أن « الشارع الأعظم» هذا كان موجوداً منذ العصر الفاطمى ، حيث يذكر وليم ميلورود أثناء تعريف لهذا الشارع بأنه كان امتدادا لقصبة القاهرة وينتهى جنوباً عند خط صليبة جامع ابن طولون[٣] . إلا أنه من المؤكد أن الأمر لم يكن كذلك فى العصر الفاطمى ، فابن

---

(١) عندما يتحدث المقريزى عن وصف القاهرة فى عصره يذكر بأن قصبة القاهرة تقع فيما بين باب زويلة وباب الخرنشف وهذا دفع عبد الرحمن زكى إلى القول بذلك عن القصبة ، إنما من الواضح أن المقريزى يتحدث عن جزء منها لأنه يعاود بعد ذلك إلى القول بأنها تنتهى عند باب الفتوح . المقريزى: م . س ١/ ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ١٣٧ . ومن الواضح أن المقريزى يقصد بالقصبة هنا وضعها فى العصر الفاطمى ، لأنها كانت فى عصره تمتد من أول الحسنية فى طرفها الشمالى إلى المشهد النفيسى . المقريزى : م . س ٢/ ٩٥ . أما على باشا مبارك فإنه يذكر بأن قصبة القاهرة فى العصر الفاطمى تقع فيما بين باب الفتوح وباب زويلة وباب النصر . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢/ ٧٧ ، والأصح هو ما ذكره المقريزى كما سبق أن أشرنا ، انظر حسن الباشا وآخرون ص ٥٤ ، وهذا الشارع يضم حديثا مجموعة من الشوارع هى : شارع باب الفتوح ، وشارع الكليباتى ومرجوش ، وشارع الامشاطية ، وشارع النحاسين ، وشارع الجوهرجية ، وشارع الخرزجية ، شارع الغورية ، شارع العقادين ، شارع المناخلية والسكرية . على باشا مبارك : م . س ٢/ ٧٦ ـ ١٢٥ .

(٢) المقريزى : م . س ٢/ ١١ ، الخاصكى : التحفة الفاخرة ، لوحة ٨٨ . ولا تقدم المصادر تحديدا واضحا للمنطقة التى ينعطف منها الشارع تجاه القلعة ولعله كان يتم عن طريق شارع المظفر الذى يؤدى إلى المنشية من تحت القلعة ، أو من شارع المنشية من جهة تقاطعه مع شارع صليبة ابن طولون وهذا يعنى أن المسافة أبعد . انظر على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢/ ١٥٧ ، ٢٩٢ ، ٣١٣ .

(٣) المسبحى : أخبار مصر ص ٢٠١ هامش ١ .

الطوير عند وصفه لأحد مواكب الخلفاء الفاطميين لايشير إلى « الشارع الأعظم» أثناء مرور المواكب فى هذه المنطقة إلا بعد أن يلج الفسطاط حيث يقول : (.. فيخرج شاقا القاهرة وشوارعها على الجامع الطولونى على المشاهد إلى درب الصفا ويقال له الشارع الأعظم ...)[(١)] . بل ان الشارع الواقع خارج باب زويلة لم يكن له أهمية رسمية فى العصر الفاطمى ، حيث ان المواكب كانت تتخلى عن مراسيمها وتنظيمها ساعة خروجها من باب زويلة باتجاه الفسطاط وهو ما ذكره ابن الطوير أثناء حديثه عن موكب ليالى الوقود الأربع حيث يقول : (... ثم يخرج (الموكب) من باب زويلة طالبا مصر بغير نظام ...)[(٢)] . كذلك فمن المؤكد أنه قد جرى مد طول الشارع الواقع على يسار الخارج من باب زويلة ، فمنذ أن بنيت قلعة الجبل صار يسلك من خلال هذا الطريق أيضا [(٣)] . مما يستوجب بطبيعة الحال أن يصل هذا الشارع إلى موقع القلعة ، وهو أمر لم يكن موجودا فى العصر الفاطمى ذلك أن هذه المنطقة كانت مخصصة أصلا كمقبرة . ومن الواضح أن وظيفة الشارع المذكور كان تحقيق الوصول إليها . وبالتالى فلا توجد ضرورة لأن يمتد الشارع إلى الجبل حيث أن موضع المقبرة كان دون الجبل ، ذلك أنها كانت تقع فى المنطقة الممتدة فيما بين باب زويلة والقطائع والجبل [(٤)] .

أما آخر المظاهر العمرانية التى شهدتها الشوارع فى تلك الفترة فكانت انسداد بعض

---

(١) نقلا عن ـ المقريزى : الخطط ١/ ٤٨٤ .

(٢) نقلا عن المقريزى : م . س ١/ ٤٦٧ .

(٣) المقريزى : م . س ٢/ ١١٠ ، ومن الواضح أن هذا الاستخدام لم يكن للمواكب الرسمية ، اذ أنها كانت تتجه من الطريق المواجه لباب زويلة كما سبق أن أشرنا . المقريزى : م . س ٢/١١٠ ، السخاوى تحفة الأحباب ص ١٠٤ ، ويدل على هذا الطريق الآن مجموعة من الشوارع المتصلة والمؤدية إلى القلعة ، وهى شارع الدرب الأحمر وشارع التبانة وشارع باب الوزير وشارع الحطابة ، على باشا مبارك الخطط التوفيقية ٢ / ٢٧٦ ـ ٢٨٣ .

(٤) سيرد ذكر ذلك لاحقاً .

الشوارع نظرا لإندثار بعض المناطق السكنية وتحولها إلى أكوام فى أواخر العصر الفاطمى. فلقد اقتضى ذلك الفصل بين الخرائب والمواضع التى أعيدت عمارتها، فسدت نهايات الشوارع التى يقع عندها الخراب كما يشير إلى ذلك ابن دقماق أثناء حديثه عن زقاق الزمامرة [(١)] حيث يقول عنه : (... وقد سد من أوله لجهة تجيب [(٢)] لاستيلاء الخراب ...) [(٣)] . لذلك فمن المؤكد أن يكون هناك الكثير من الشوارع التى سدت فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى نظرا لوقوع أجزاء كبيرة منه تحت طائل التلف بعد الحريق الذى تعرضت له المدينة فى عام (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م) ولم تجر إعادة عمارته مرة أخرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، وهكذا فقد تم الفصل بينها وبين المواضع التى أعيدت عمارتها عن طريق إغلاق نهايات الشوارع النافذة إلى الأكوام .

---

(١) لم تقدم المصادر سببا يوضح أصل مسماه وانما ذكر ابن دقماق موضعه الذى يصعب تحديده الآن لإندثار المبانى فى هذه المنطقة . ابن دقماق : الانتصار ق ١/ ١٦ .

(٢) هذه الخطة من خطط الفسطاط الأولى ، سكنتها إحدى بطون كندة تعرف بتجيب نسبت إليهم ، المقريزى : الخطط ١/ ٢٩٧ ، وهى تقع إلى الشمال الشرقى من قصر الشمع . فؤاد فرج : المدن المصرية ٤/ ٣٢٠ .

(٣) ابن دقماق : ن . م . س .

(جـ) الأسواق والصناعات :

قسم بعض الباحثين أسواق [١] المدن الإسلامية إلى ثلاثة أنواع ، أولها الأسواق الرئيسية ، وهى التى تتم فيها المبادلات التجارية وتجارة التوزيع ، بالإضافة إلى انفراد بعضها فى بيع نوع من أنواع المنتجات الاستهلاكية [٢] . والنوع الثانى منها هى أسواق الأحياء السكنية ، وتحتوى عادة على حوانيت البقالة وأفران الخبازين وما شابه ذلك ، وهى عادة ما تعرف بالسويقة [٣] . وإن كان يلاحظ بأن سويقة أمير الجيوش فى القاهرة لم تكن تخضع لهذا الاعتبار ، إذ كانت فى العصر المماليكى من أكبر أسواق القاهرة ، فيها عدة حوانيت لبيع الفراء ، وأنواع الطرائف علاوة على الأقمشة والثياب المخيطة ، وغير ذلك من المنتجات الرئيسية [٤] مما يدل على أنها لم تكن سوقا مخصصا لحى من الأحياء السكنية ، وإنما كانت من الأسواق الرئيسية فى المدينة . أما النوع الثالث من الأسواق فهى المختصة بالمنتجات الريفية وعادة ما تقع عند أطراف المدن [٥] .

ونظرا لأن ازدهار الأسواق وتوسيعها يرتبط إلى حد بعيد بزيادة الطلب على البضائع والسلع المختلفة الأنواع ، نتيجة الارتقاء الحضرى والاقتصادى فى المدينة[٦] . فمن الواضح أن أسواق القاهرة قد ازدهرت أوضاعها فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، حيث تعرضت المدينة لمتغيرات اقتصادية واجتماعية ترتب

---

(١) يدل الأصل للسوق على أنه المكان الذى ترد إليه السلع والبضائع ، الزبيدى : تاج العروس ٣٨٧/٦ ، ويستوفى الناس منها حاجاتهم الضرورية والكمالية ، ابن خلدون : المقدمة ١/ ٣٦٢ - ٣٦٣ .

(٢) نيكيتا اليسيف : التخطيط المادى ، ضمن كتاب المدينة الإسلامية ص ١٠٧ .

(٣) نيكيتا اليسيف : م . س ، ص ١٠٦ .

(٤) المقريزى : الخطط ١٠١/٢ ، الخاصكى : التحفة الفاخرة لوحة ٧٧ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١٢١ .

(٥) بدور شالمتيا : الأسواق ضمن كتاب المدينة الإسلامية ص ١١١ - ١١٢ .

(٦) ابن خلدون : المقدمة ١/ ٣٦٠ - ٣٦١ .

عنها زيادة فى الطلب على منتجات الأسواق بشكل عام . فأضحى هناك احتياجات جديدة ، نتيجة توجه الدولة ورجالها لتوفير الكثير من متطلباتهم من السوق . علاوة على ظهور تقاليد وأنماط اجتماعية مستجدة ، دفعت نحو مزيد من الطلب على الأسواق أيضا ، وقد سبق أن أوضحنا ذلك ، فانعكس كل ذلك على الأسواق فى شكل ظهور أسواق جديدة للسلاح والملابس والأطعمة وغير ذلك كما سيتضح لاحقا ، بل أن من المؤكد أن ذلك سينعكس أيضًا على أسواق المدينة القديمة أيضا [١] كما أن من الواضح أن هذه التطورات هى التى أوجدت غالب المتغيرات التى شهدتها أسواق المدينة فى تلك الأثناء ، ومن أبرز هذه المتغيرات ظهور التخصص فى الأسواق ، أى أن يكون لكل نوع من أنواع السلع سوقا متخصصة بها ، وهو إجراء تنظيمى بدأ باتخاذه منذ عهد صلاح الدين الأيوبى ، حيث يلاحظ أن غالبية الأسواق الرئيسية التى ظهرت فى تلك الفترة كانت متخصصة ببيع فئة واحدة من السلع والبضائع [٢] . وهذه ظاهرة لم تكن معروفة فى مصر قبل العصر الأيوبى . فأسواق الفسطاط لم تكن فى تلك الفترة تميل إلى التخصص ، إذ أن سوق زقاق القناديل الذى كان يعد من أشهر أسواق المدينة كان

---

(١) لا تقدم المصادر التى تناولت خطط القاهرة معلومات واضحة عن أسواق القاهرة بشكل عام ، فهى تارة تشير بشكل صريح إلى انتماء بعض الأسواق للعصر الفاطمى ، كسوق الشراجيين أو سوق حارة برجوان الذى كان يعرف حينئذ بسوق أمير الجيوش . وتذكر بنفس الوضوح أيضًا عن بعض الأسواق التى ظهرت فى عصر الناصر صلاح الدين سنشير إليها لاحقا . فى حين أنها تشير إلى أسواق أخرى لا تحدد بوضوح تاريخ ظهورها ونشأتها . انظر المقريزى : الخطط ٣/٩٤ ـ ١٠٧ ، الخاصكى التحفة الفاخرة لوحة ٦٨ ـ ٨٥ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١١٧ ـ ١٢٨ ، ومن الواضح أن أسواق العصر الفاطمى ثم التى تلتها فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى تشكل الأساس للأسواق فى المدينة ، التى أخذت تتشعب وتتوسع بعد ذلك لتبلغ ذروتها فى عصر المماليك ، حيث ازدهرت الأوضاع الحضارية والاقتصادية فى المدينة بشكل عام ، وهى من العوامل التى تسهم فى ازدهار هذا القطاع من المدينة كما سبق أن ذكرنا . انظر : سعيد عاشور ، مصر والشام ص ٢٢٦ ـ ٢٦٨ .

(٢) انظر ما يلى .

يحتوى على حوانيت لبيع الطرائف والمصنوعات المختلفة [١] . كما يحتوى على حوانيت لبيع الحلوى . فقد ذكر المسبحى أثناء حديثه عن حوادث سنة (٤١٤هـ/ ١٠٢٢م) أن المحتسب قد عاقب حلاويا له دكان عند باب الزقاق المذكور [٢].

كذلك كان الحال فى القطائع التى كان كل سوق من أسواقها الرئيسية يحتوى على أكثر من نوع من أنواع السلع المختلفة المتباينة فى نوعيتها فى بعض الأحيان . لعل خير مثال على ذلك أن سوق الطباخين كان (... يجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين ...)[٣] إضافة إلى الطباخين ، ويمكن تلمس هذه الظاهرة فى القاهرة خلال العصر الفاطمى فقد أشار المقريزى فى ثنايا كلامه عن حوادث عام (٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) إلى وجود حانوت للصرافة كان يقع فى سوق السراجين [٤] . والظاهر أنه كان بهذا السوق حوانيت للبزازين أيضاً [٥] .

ومن المظاهر العمرانية التى شهدتها الأسواق فى عهد الناصر صلاح الدين ظهور أسواق جديدة ، حيث أن نمو الاستهلاك وارتفاع مستوى الطلب على المنتجات المختلفة ، ترتب عنه ظهور أسواق جديدة كما سبق أن ذكرنا ، فأخذ بعضها بالظهور فى تلك الفترة ، فظهر سوق باب الفتوح ، عندما سكن بهاء الدين

---

(١) ناصر خسروا : سفر نامة ص ١٠٣ .

(٢) المسبحى : أخبار مصر ص ١٩٩ .

(٣) المقريزى : الخطط ١/ ٣١٥ ، عبد الفتاح وهبة : الجغرافية التاريخية ص ٤١٢ .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ١٦/٣ . وهذا السوق من أقدم أسواق القاهرة وكان يعرف بالشراجيين أيضا . الخاصكى : التحفة الفاخرة لوحة ٧٥ ، والسراج هو المصباح . أما الشريج فهو زيت السمسم الذى يستخدم وقودا للمصابيح . انظر : الزبيدى : تاج العروس ٥٨/٢ ، ٦٤ . ويدل على هذا السوق فى الوقت الحاضر شارع العقادين . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢/ ١١٩ ، وعن موقع السوق عرف فى العصر المملوكى بالشوايين . انظر :
A. Raymond E Wiet, Les Marcees de Caire, plan, 3 .

(٥) المقريزى : ن . م . س .

قراقوش فى الحارة التى نسبت إليه [١] ويعد هذا السوق من أجمل أسواق القاهرة، وكان معمور الجانبين بالحوانيت التى تبيع المواد الغذائية الطازجة من خضار ولحوم بأنواعها المختلفة [٢] . ومن الأسواق التى أسست فى تلك الفترة سويقة أمير الجيوش ، إذ تذكر المصادر أن صلاح الدين الأيوبى أوقف عددا من الدكاكين فى خط سويقة أمير الجيوش على مدرسته المعروفة بالسيوفية [٣] . مما يشير إلى وجود السويقة فى الخط الذى ظهر فى تلك الأثناء . وتقع هذه السويقة فى رأس الخط المذكور من جهة شارع القصبة [٤] . والراجح أن هذه السويقة كانت فى بادئ أمرها سوقا للخروقيين [٥] ، إذ كانت تعرف بذلك أيضًا بعد العصر الفاطمى (٥) حيث يوجد بها الحوانيت المتعلقة ببيع الأقمشة وما يرتبط بها من صناعات فمعظم حوانيتها للبزازين الخلعيين [٦] . وبها تباع الثياب المخيطة والفرش ونحو ذلك من السلع المختلفة [٧] . كذلك فمن الواضح أن سوق الجملون الكبير قد أنشىء فى عهد الناصر صلاح الدين ، إذ يقع فى هذا السوق قيسارتيى الشرب وابن قريش [٨] ، اللتان أنشئتا فى تلك الفترة على إحدى ساحات القاهرة ، مما

---

(١) المقريزى : م . س ٢/ ٩٥ ،. الخاصكى : التحفة الفاخرة لوحة ٦٩ .

(٢) ن . م . س . ويدل على هذا السوق شارع باب الفتوح الحالى الواقع ضمن شوارع القصبة . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢/٧٦ ـ ٧٧ . وانظر أيضاً لتحديد موقع هذا السوق :
A. Raymond E Wiet, Les Marcees , plan, 3 .

(٣) المقريزى : م . س ٢/ ١٤ ، على باشا مبارك : م . س ٣ / ١٢٨ . ويدل على هذه السويقة الآن شارع مرجيوش ، على باشا مبارك : م . س ٣/ ١٢٧ ـ ١٢٩ ، ولتحديد موقع هذا السوق انظر أيضا :

A. Raymond E Wiet, op. cit.,

(٤) الخروقيين : جمع خرقة وهى القطعة من الثوب ، يطلق هذا اللفظ على باعة الثياب والخرق . الزبيدى : تارج العروس ١/ ٣٢٨ .

(٥) المقريزى : م . س ٢/ ١٠١ ، الخاصكى : التحفة الفاخرة لوحة ٧٧ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرجة ورقة ١٢١ .

(٦) جمع خلعى وهم الذين يبيعون الثياب المستعملة . المقريزى : م . س ٢/ ١٠٤ .

(٧) المقريزى : م . س ٢/ ١٠١ ، الخاصكى : م . س ، لوحة ٧٧ .

(٨) على باشا مبارك: الخطط التوفيقية ٣/ ١٧٠ ـ ١٧١ ، وعن هاتين القيسارتين انظر الفصل التالى.

يشير بدوره أن هذا السوق قد أخذ بالظهور منذ ذلك العصر أيضا (١) . وكان هذا السوق مختصا ببيع الأقمشة الحريرية (٢) . وكما ظهر سوق عند باب الفتوح، فلقد ظهرت أسواقا أخرى على الساحة الواقعة عند باب زويلة . حيث بنى عليها حينئذ قيسارة القاضى الفاضل (٣) . فظهرت مجموعة من الأسواق المتعاقبة ، مثل سوق الغرابليين (٤) الذى تباع فيه مناخل الدقيق ليقابله حوانيت لبيع أقفال المنازل المعروفة بالضبب تليها حوانيت أخرى لبيع الأجبان المجلوبة من البلاد الشامية (٥). والتى ازدهرت التجارة معها فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، بالإضافة إلى وجود دكاكين خاصة بالمجبرين ، لتجبير المصابين بالكسور ، وأخرى للصيارفة وبائعى الطرف والمآكل وغير ذلك (٦) علاوة على ما اختصت به قيسارية القاضى الفاضل من بيع جهاز العروس وأساورهن (٧) . ومن الأسواق الجديدة التى ظهرت فى تلك الفترة بين القصرين الذى ظهر على أراضى ميدان بين القصرين ، الذى بدئ بالبناء عليه فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، حيث أصبح سوقا مبتذلا

---

(١) ويدل على موضع هذا السوق شارع التربيعة وعطفة الشرم والجملون . على باشا مبارك : م . س ٣/ ١٦٩ ـ ١٧١ ، وانظر أيضا لتحديد موقع هذا السوق :

A. Raymond E Wiet, Les Marcees , plan, 3 .

(٢) المقريزى : م . س ٢/ ١٠٣ ، الخاصكى : م . س لوحة ٨٠ . مؤلف مجهول تاريخ المصر القاهرة ورقة ١٢٤ .

(٣) وعن هذه القيسارية انظر الفصل التالى .

(٤) الغرابيل من الغربال وهو ما ينخل به . الزبيدى : تاج العروس ٨/ ٤٢ .

(٥) المقريزى : م . س ٢/ ١٠٠ ، الخاصكى : م . س ، لوحة ٧٥ ـ ٧٦ . مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١٢٠ .

(٦) المقريزى : ن . م . س الخاصكى : ن . م . س مؤلف مجهول م . م . س . ويدل على موضع هذا السوق فى الوقت الحاضر شارع المناخلية والسكرية من شارع القصبة . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢/ ١٢٧ ـ ١٣١ ، وانظر أيضا لتحديد موقع هذا السوق :

A. Raymond E Wiet, Les Marcees , plan, 3 .

(٧) المقريزى : م . س ، ٢/ ٨٩ .

على حد تعبير المقريزى [١] فكان به سوق كبير يجلس به الباعة مساء كل يوم لبيع الأنواع المختلفة من الطيور المقلاة ولحم الدجاج والأوز المطجن علاوة على الأجبان والفواكه والحلوى [٢] ويوجد بهذا السوق سوق للسلاح ظهر فى تلك الفترة أيضاً كانت تباع فيه القسي [٣] والنشاب [٤] . والزرديات [٥] وغير ذلك مما يحتاجه الجند من أنواع الأسلحة المختلفة [٦]. وقد ظهرت الأسواق التى تبيع لوازم حيوانات الركوب مثل سوق المهامزيين [٧] واللجميين وهما سوقان متصلان بعضهما البعض ظهرا بعد زوال حكم الفاطميين [٨] . وكان يباع فيهما المهاميز

---

(١) المقريزى : م . س ٢/ ٢٨ . ويدل على موقعه فى الوقت الحاضر شارع النحاسين . على باشا مبارك : م . س ٢/ ٨٩ ـ ٩١ ، وانظر أيضا لتحديد موقع هذا السوق :

A. Raymond E Wiet, Les Marcees , plan, 3 .

(٢) المقريزى : م . س ٢/ ٢٨ ـ ٢٩ ، ٩٧ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٣٢ ـ ٣٤ ، ١١٦ .

(٣) القسى جمع قوس ، وهو قضيب من الخشب يشد طرفاه أقصر من طول القضيب فيقوسه ، ويوضع فيه السهم فيطبقه . وهى على أنواع كبيرة الحجم وصغيرة . للمزيد انظر : الطرسوس : تبصرة أرباب الألباب ص ٦ ـ ١٠ ، أحمد محمد علوان : العسكرية الإسلامية ص ٥٧ ـ ٥٩ .

(٤) والنشاب هى النبال يرمىٰ بها من القسى وتعتبر من أنواع الرماح وتصنع من قصب مدور من الداخل أو من خشب الزان ويركب عليه رأس للمزيد انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ٢/ ١٤٠ ـ ١٤٢ ، الزبيدى تاج العروس ١/ ٤٨٤ ، أحمد علوان : م. س . ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٥) الزرد عبارة عن قمصان تصنع من الزرد الخالص وبعضها يكون قصيرا والبعض الآخر يكون طويلا يغطى ساقى الفارس . ابن سيدة : المخصص ٢/ ٧١/ ٧٢ ، أحمد علوان : م. س . ص ٦١ .

(٦) المقريزى : الخطط ٩٧/٢ . وانظر لتحديد موقعه ضمن السوق المذكور :

A. Raymond E Wiet, Les Marcees , plan, 2 .

(٧) المهاميز جمع مهماز وهى آلة من حديد تكون فى رجل الفارس ولها رأس حادة يضرب بها جانب الفرس لتتحرك ويزداد عدوها وتارة يصنع المهماز من ذهب خالص أو فضة خالصة ، وفى بعض الأحيان تصنع من حديد مطلى بالذهب والفضة . القلقشندى : صبح الأعشى ١٣٦/٢ .

(٨) المقريزى : م . س ٢/ ٩٧ ـ ٩٨ ، ويدل على موقعها فى العصر الحديث شارع الغورية . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢/ ١١٢ ـ ١١٧ وانظر أيضاً لتحديد موقعهما :

A. Raymond E Wiet, Les Marcees , plan, 3 .

والسلاسل والسروج التى كان بعضها يعمل من الجلد البلغارى الأسود ليستعمله القضاة والمشايخ (اقتداء بعادة بنى العباس فى استعمال السواد على ما جدده بديار مصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد زوال الدولة الفاطمية ...)[1] .

وكان يباع به الدوى والطرف ونحو ذلك . وكانت الأجزاء المعدنية من هذه الآلات تطلى بالذهب والفضة ولا يترك ذلك إلا أصحاب الدين والورع [2] ومن الأسواق التى أنشئت فى تلك الفترة أيضا سوقا الشرابشيين [3] والخوائصيين [4] المتصل بالسوق الأول . ففى هذين السوقين تباع ملابس الأجناد وأزيائهم [5] . علاوة على الخلع (... التى يلبسها السلطان للأمراء والوزراء والقضاة ...) [6] . والتى كانت تباع فى السوق الأول[7] . ويبدو أن سوقى الجوخيين والفرائيين قد ظهرا فى تلك الفترة أيضاً [8] ، لأن الجوخ والفراء أصبحا من لوازم ملابس الجند

(١) المقريزى : م . س ٢/ ٩٨ .

(٢) المقريزى : م . س ٢/ ٩٧ ـ ٩٨ .

(٣) الشربوشى هو غطاء للرأس كان يستخدم فى العصر الأيوبى كزى للأمراء اختصوا به وقد سبق تعريفه .

(٤) نسبة إلى الحياصة أو المنطقة كما كانت تعرف أيضا وهى حزام يشد به الوسط كان يصنع من معادن ثمينة . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ١٣٤/٢. ماير : الملابس لامملوكية ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٥) المقريزى : م . س ٢/ ٩٨ ـ ٩٩ ، ويدل على موقعهما الآن شارع الغورية . على باشا مبارك . الخطط التوفيقية ٢/ ١١٢، ١١٧ .

انظر أيضا لتحديد موقعها :

A. Raymond E Wiet, Les Marcees , plan, 2 .

(٦) المقريزى : م . س ٢/ ٩٨ .

(٧) ن . م . س .

(٨) المقريزى : م . س ٢/ ٩٨ ، ١٠٣ ، ويدل على موقع سوق الجوخيين فى العصر الحديث شارع الغورية ، أما سوق الفرائيين فيدل عليه شارع التبليطة . على باشا مبارك : م . س ٢/ ١١٢ ، ١١٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ .

وانظر أيضا لتحديد مواقعهما :

A. Raymond E Wiet, op. cit .

وزيهم كما يشير إلى ذلك ابن سعيد الأندلسى (١).

ولم يكن ظهور الأسواق الجديدة قاصرا على الأسواق المتخصصة الرئيسية التى تبيع منتجات الترف والرفاه وما شابه ذلك ، إذ أن ظهور الأحياء الجديدة يقتضى أيضاً أن تظهر فى داخلها أسواق تلبى إحتياجات قاطنيها . فبدأت تظهر الأسواق والحوانيت بجوار القصور والمنشآت التى تحولت إلى أحياء سكنية فى عهد الناصر صلاح الدين ، فالقصر الشرقى الكبير الذى أصبح منطقة سكنية ، وقسم إلى خطط وأحياء ، أخذت الحوانيت تحيط بأسواره من جميع الجهات تقريباً (٢) . كذلك ظهر سوق جديد على أراضى اصطبل الجميزة الذى تحول إلى منطقة سكنية . وكان معدا لبيع أنواع الأطعمة المختلفة ، الطازج والمطبوخ منها ، وعرف بسوق بئر زويلة نسبة إلى البئر التى كانت مرسومة للاصطبل فى العصر الفاطمى (٣) وعلى نفس الوتيرة فقد ظهر سوق فى خطة اصطبل الطارمة الذى ظهر على أراضى اصطبل يحمل نفس المسمى فى تلك الفترة حيث تذكر المصادر أن به

---

(١) ابن سعيد الأندلسى : النجوم الزاهرة ص ٢٧ . ولاحظ ما سبق أن ذكرناه عن جهاز « الحواصل الفاطمى ، والذى كان من مهامه توفير العديد من هذه المنتجات ـ أسلحة ، ملابس ، سروج ، أطعمة ... إلخ للدولة ورجالها ، وهو أمر جرى الغائه فى عهد الناصر صلاح الدين ، مما ترتب عنه أن اتجهت الدولة ورجالها إلى توفير العديد من هذه المطالب من السوق ، فكانت الأسواق سالفة الذكر .

(٢) Suzan Jane, Conquest and Fasion, p. 86 .

(٣) وتذكر المصادر أنه عرف بعد ذلك بسوق البندقانين نسبة لصناع قسى البندق الذين جعلوا لهم حوانيت فى هذا السوق . المقريزى م. س ٢/ ٣١، ١٠٤ ، ١٠٥ ، الخاصكى : التحفة الفاخرة لوحة ٨٢ ، بيد أنه من المؤكد أن دخول صناع البندق إلى مصر من شرق العالم الإسلامى لم يحدث إلا فى أوائل القرن (٧هـ / ١٣م) وذلك عندما طلب الخليفة الناصر العباسى (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ/ ١١٧٩ـ ١٢٢٥ م) من ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها وينتسبوا إليها فى رمى البندق ، اقتداء به ، فأجابوه إلى ذلك ، القلقشندى : مآثر الآنافة فى معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار فرج ، بيروت ٢/ ٦٠ . ويدل على هذا السوق فى العصر الحديث شارع البندقانين إلا أنه تقلص حجمه عما كان عليه فى السابق . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٣/ ١٥٩ـ ١٦١ .

سوقاً [١] . ومن المؤكد أن ظهور المبانى على الميدان الواقع خارج باب الفتوح ، قد دفع إلى ظهور أسواق فى المنطقة . فأنشئت سويقة البلشون خارج الباب المذكور ، بناها أحد أمراء صلاح الدين الأيوبى [٢] .

ومن المؤكد أن ازدهار النشاط العمرانى غربى خليج القاهرة سواء فى المقس الذى اتصل عمرانه بالقاهرة ، أو على طول الساحل ، قد أدى إلى ظهور أسواق جديدة فى المنطقة ، فبناء المبانى والبساتين لأغراض النزهة من عوامل الجذب للأسواق ، يدل على ذلك ما حدث فى بر ابن التبان فى أواخر العصر الفاطمى ، إذ أن تحوله إلى منطقة نزهة فى تلك الفترة أدى إلى ظهور العديد من الحوانيت فى هذا المكان [٣] . ويبدو أن ظهور الأسواق فى هذه المنطقة فى عهد صلاح الدين كان يرتبط بالطريق الموازى للساحل ، والذى ظهر فى تلك الفترة ، إذ تذكر المصادر بأنه قد أنشىء سوق على هذا الشارع [٤] . وكذلك كان الحال مع مبانى ساحل الفسطاط التى لعبت دورا فى جذب النشاط التجارى والصناعى نحو الساحل حيث انتقل هذا النشاط من شرقى المدينة إلى غربيها ويعد ذلك من المظاهر العمرانية التى تعرضت لها الأسواق فى عهد صلاح الدين الأيوبى حيث تنتقل الأسواق والصناعات من منطقة إلى أخرى . ومن أبرز معالم هذه الظاهرة انتقال بعض الأسواق والصناعات من الفسطاط إلى القاهرة ، فمن المعروف أن الفسطاط كانت فى العصر الفاطمى هى المركز الصناعى والتجارى [٥] .

---

(١) المقريزى : ٢/ ٣٥ ، الخاصكى : م . س لوحة ٤٥ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ٤٠ . ويمكن التعرف على موقع السوق بشكل عام من خلال تحديد موقع هذا الخط ، إذ لم يرد فيما اطلعت عليه من مصادر ومراجع تحديد دقيق لموقع هذا السوق .

(٢) بنى هذا السويقة أحد مماليك صلاح الدين وسلاح درايته الأمير سابق سنقر البلشون . المقريزى : الخطط ٢/ ١٠٦ . ولا تقدم المصادر والمراجع أى معلومات يمكن من خلالها تقديم تحديد واضح لموقع هذه السويقة .

(٣) المقريزى : م . س ٢/١١٤ ـ ١١٥ .

(٤) المقريزى : م . س ٢/ ١٣١ .

(٥) الأمين عوض الله : الحياة الاجتماعية ص ٢٢ ، عبد الفتاح وهبة ، الجغرافيا التاريخية ص ٤١٧.

ولذلك فمن المؤكد أن الأسواق الرئيسية كانت تركز فيها ، والتى كانت تقوم بتجارة التوزيع وتوفير المتطلبات الصناعية للسلع والمنتجات المختلفة ، بينما يلاحظ أنه فى عصر الناصر صلاح الدين الأيوبى أخذ العديد من الأسواق الرئيسية ينتقل مجال عملها إلى القاهرة ، حيث اختصت بتجارة التوزيع بعض أسواقها أمثال سوق بهاء الدين الذى ظهر فى تلك الفترة ، ويتمثل نشاطه بالقيام بتجارة التوزيع للمواد الغذائية الطازجة فكان (... يقصده الناس من أقطار البلاد لشراء أنواع اللحمان الضأن والبقر والمعز ولشراء أصناف الخضروات ...)[١] . ومن المؤكد أنه منذ تلك الفترة قد أضحت أسواق القاهرة تقوم بإنتاج العديد من السلع الصناعية المختلفة ، حيث يذكر ابن سعيد الأندلسى بأن القاهرة تختص ببيع كل ما يلزم الرجال والنساء من ملابس وأدوات زينة[٢] ، علاوة على شهرتها بصناعة المنتجات الجلدية من حقائب ، وسيور ونحو ذلك[٣] ، وهى منتجات كانت تتركز فى أسواق الفسطاط فى العصر الفاطمى ، حيث اشتهرت بالصناعات الجلدية فى تلك الأثناء[٤] ، والراجح أن المصنوعات العاجية والطرائف قد أخذت بالانتقال إلى القاهرة أيضاً ، فابن جبير الذى نزل فى فندق فى زقاق القناديل بالفسطاط لا يشير لهذه الصناعة [٥] التى اشتهر بها هذا الزقاق فى العصر الفاطمى[٦] . مما يدل على انتقال هذه الصناعات إلى القاهرة ، حيث أخذت بعض أسواقها بالظهور فى تلك الأثناء ، مثل سوق الامشاطيين ، الذى يذكر المقريزى بأنه بنى بعد العصر الفاطمى ، وفى المنطقة الواقعة فيما بين الصاغة [٧] والمدارس

(١) المقريزى : م . س ٢/ ٩٥ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١٠٦ .
(٢) ابن سعيد الأندلسى : النجوم الزاهرة ص ٢٧ .
(٣) ن . م س .
(٤) حسن إبراهيم حسن : الدولة الفاطمية ص ٥٩٠ .
(٥) ابن جبير : الرحلة ص ١٩ .
(٦) ناصر خسروا نامة ص ١٠٣ .
(٧) عن الصاغة انظر ما يلى

الصالحية[١][٢] ولا شك فى أن أسواق الأقمشة والملابس التى ظهرت فى القاهرة فى تلك الفترة [٣] كانت تعكس فى وجه من أوجهها لظاهرة الانتقال هذه . والراجح أن أسواق الرقيق قد انتقلت حينئذٍ من الفسطاط إلى القاهرة أيضاً ، فأصبح هناك سوق للرقيق فى أجزاء ميدان بين القصرين حيث كان موضع هذاالسوق فى المكان الذى أقيمت عليه المدرسة الكاملية [٤] .

ومن الواضح أن ظاهرة انتقال الأسواق من الفسطاط للقاهرة ، وإنما كانت نتيجة طبيعة ، لإباحة القاهرة لسكنى العامة والجمهور فى عهد صلاح الدين الأيوبى . حيث سيجد العديد من التجار والصناع فى ذلك فرصة للانتقال للقاهرة لممارسة نشاطهم فيها ، بالقرب من زبائنهم الأساسيين وهم الدولة ورجالها الذين أضحوا فى تلك الأثناء أداة رئيسية للاستهلاك تلاحقهم الأسواق حيثما حلوا . بالإضافة إلى أن تخلص الدولة من الجهاز الصناعى الذى كان قائما فى « الحاصلات » فى العصر الفاطمى قد أدى إلى تحول عدد كبير من هؤلاء الصناع إلى الأسواق المختلفة للعمل فيها ، مما أسهم على وجه التأكيد فى زيادة النشاط الصناعى وتطوره فى القاهرة .

ولم تكن حركة انتقال الأسواق والصناعات مقتصرة على انتقالها من الفسطاط إلى القاهرة فحسب ، بل أنها شهدت حركة تبديل واسعة النطاق لمواقعها فى داخل القاهرة نفسها . تغيرت فى عهد الناصر صلاح الدين مواقع بعض

---

(١) المقريزى : م . س ٩٧/٢ ، ومن الواضح أن هذا السوق يدل عليه فى الوقت الحاضر شارع الجوهرية . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ١٠٥/٢ .

(٢) المدرسة الصالحية تنسب إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبى (٦٣٧ ـ ٦٤٧ هـ / ٦٣٩ هـ ١٢٤١م) المقريزى : م . س ، ٢/ ٣٧٤ .

(٣) سبق أن ذكرنا أن سويقة أمير الجيوش وسوق الجملون الكبير كانا يختصان بشكل أساسى ببيع الثياب والأقمشة .

(٤) المقريزى : م . س ٢/ ٩٢ . والمدرسة الكاملية نسبة للملك الكامل الأيوبى (٦١٥ ـ ٦٣٥ هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢٣٧ م) أسسها فى عام (٦٢٢ هـ ١١٢٥ م) وهى أول دار حديث عملت فى مصر . المقريزى : م . س ٢/ ٣٧٥ .

أسواقها عما كانت عليه في عهد الفاطميين ، فالمقريزى يذكر أثناء حديثه عن سوق باب الزهومة [(١)] بأنه قد كان في موضعه (... في الدولة الفاطمية سوق الصيارف ويقابله سوق السيوفيين من حيث الخشيبة [(٢)] إلى نحو سوق الحريريين اليوم[(٣)] ... ويقابله سوق السوفيين إذ ذاك سوق الزجاجيين ... فلما زالت الفاطمية تغير ذلك كله ..) [(٤)]. فأصبح سوق السوفيين يمتد من الصاغة [(٥)] إلى درب السلسلة [(٦)] في حين أن سوق باب الزهومة تحول إلى سوق للمآكل والأطعمة ، حيث انتقل الصيارف إلى ما بين القصرين في خان مخصص لهم[(٧)]. في حين أن الصاغة انتقل سوقهم إلى موضع مطبخ القصر[(٨)] ، بعد أن كان في

---

(١) هذا السوق ينسب إلى أحد أبواب القصر الشرقي الكبير يعرف بالزهومة ، المقريزى : م . س ٢/ ٩٧.

(٢) يقصد به خط الخشيبة وقد سبق الحديث عنه .

(٣) يقصد به موقع سوق الحريرين في عصره ، وعن هذا الموقع انظر :

A. Raymond E Wiet, Les Marcees , plan, 2 .

والراجح أن موقع هذا السوق يدل عليه الشارع الذى أطلق عليه على باشا مبارك الوراقين . انظر على باشا مبارك الخطط التوفيقية ٣/ ١٥٦ .

(٤) المقريزى : ن . م . س . وهذه الأسواق كانت جميعها تقع في شارع الجوهرية الحالية . على باشا مبارك : م . س ٢ / ١٠٥ .

(٥) سنشير إلى الصاغة فيما يلى .

(٦) ينسب هذا الدرب إلى السلسلة التى كانت توضع عنده مساءً لمنع المرور من خلال ميدان بين القصرين وذلك في العصر الفاطمي ، المقريزى : م . س ٢/ ٣٨ ، ويذكر على باشا مبارك بأنه يدل عليه عطفة الصاغة . على باشا : م.س ٢/ ١٠٨ .

(٧) المقريزى : ٢/ ٩٧، الخاصكي: التحفة الفاخرة لوحة ٧٢. وانظر لتحديد موقع هذا السوق

A. Raymond E Wiet, op. cit .

(٨) المقريزى : م . س ٢/ ١٠٢ ، ولا يزال موضع الصاغة مشهورة بمكانها في شارع الجوهرية . وانظر أيضا لتحديد موقعها :

A. Raymond E Wiet, op. cit .

حارة الأمراء [١] ، وأصبح سوق صناع الأحذية والزجاجين فى سوقهم[٢] . أما سوق الزجاجين القديمة ، فلقد أضحى سوقا لصناعة الصناديق والخزائن والأسرة فعرف بسوق « الصنادقية »[٣].

ومثلما تغيرت بعض أسواق القاهرة ، تغيرت كذلك مواضع بعض أسواق الفسطاط ، حيث انتقلت كثير من أوجه النشاط الصناعى والتجارى نحو الساحل فى الأراضى التى كونها الطرح النهرى [٤] ، فمن الواضح أن مطابخ السكر التى كانت قائمة فى خط دار الملك ، والتى كانت ملكا للدولة قد أنشئت فى تلك الفترة [٥] ، حيث يشير ابن مماتى لمطابخ للسكر كانت ملكا للدولة فى تلك الأثناء، ويذكر بأنه من حق الأجناد استخدامها لاستخراج السكر [٦] . ويبدو أن المطبخ الذى أوقف على المارستان الطلاحى كان من جملتها [٧] .

ومن المؤكد أن الدار الفاضلية ، التى بنيت على أجزاء من أراضى الطرح النهرى ، كانت مخصصة للصناعات الغذائية التى يدخل التمر فى موادها الأساسية، فقد أشارت المصادر إلى أنها تعرف بصناعة التمر ولكن دون تبين أسباب ذلك[٨] ، بل أن هذه الدار كان بها عددا كبيرا من الحوانيت والمخازن [٩] ، مما يشير إلى ظهور النشاط التجارى فى المنطقة التى تقع فيها فى تلك الأثناء . ومن

---

(١) المقريزى : ن. م . س . ولقد سبق الإشارة إلى حارة الأمراء وموقعها .

(٢) وهـذا السوق عرف فى عصر المقريزى بالحريريين . المقريـزى : ن . م . س ولقد سبـق الإشارة إليه .

(٣) ن . م . س . ويدل على موقع هذا السوق فى العصر الحديث دكاكين الخردجية فى الشارع الذى يحمل مسماهم . على باشا مبارك : م . س ٢/ ١١٠ .

(٤) عبد الرحمن زكى : القاهرة ص ٤ .

(٥) ابن دقماق : الانتصار ق ١/ ٤١ .

(٦) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٦٧ .

(٧) ابن دقماق : م . س ق١ / ٤٥ .

(٨) المقريزى : م . س ، ٢/ ٩٧ .

(٩) المقريزى : م . س ٢/ ٧٨ ـ ٧٩ .

المؤكد أن انتقال الشارع الأعظم من شرقى المدينة إلى غربيها قد أدى إلى انتقال السوق تقع عليه أيضاً إلى هذه الناحية [١] ، مما يشير بشكل عام إلى اتجاه أسواق المدينة ناحية الساحل فى ذلك العصر .

(د) المنتزهات والبساتين :

يدل الأصل اللغوى للفظ المتنزهات على أنها تطلق على المواضع البعيدة عن العمران ، فالتنزه هو التباعد ، والأرض النزهة هى البعيدة عن الريف[٢] . وقد يدل اللفظ على البساتين والخضرة [٣] . بالتأمل فيما تذكره المصادر عن منتزهات القاهرة يلاحظ أن اللفظ قد اتسع مدلوله وارتبط بالعديد من المواضع ، خاصة تلك التى تقع فى ظاهر المدينة والتى تقع على المجارى المائية كنهر النيل والخلجان[٤] . بل يلاحظ أيضاً أن مواضع النزهة قد تميزت بخصائص محددة معلومة ، فلقد كان وجود غدران الماء فى القرافة ، من الأسباب الرئيسية التى جعلتها موضع نزهة ولا شك أن مثل هذا الاعتبار قد جعل مواضع النزهة تتميز بالثبات العمرانى ، ولا تكون عرضة للتغير إلا فيما ندر .

فخليج القاهرة ظل لفترة طويلة موضع نزهة لسكانها ، تعبره المراكب حاملة الناس جيئة وإيابا [٥]، وهذه السمة ظلت للخليج منذ أن أسست المدينة وحتى تاريخ قريب فى عصر المقريزى [٦]. بيد أن الثبات العمرانى لمواضع النزهة لم يجعلها بمنحى عن التطورات العمرانية التى تعرضت لها أقسام المدينة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى إذ شهدت المنتزهات فى تلك الفترة العديد من

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٣٣٣ .

(٢) الزبيدى : تاج العروس ٩/ ٤١٦ .

(٣) ن . م س .

(٤) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ٣/ ورقة ١٢٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٣٦٦ .

(٥) المقريزى : الخطط ٢/ ١٤٣ .

(٦) المقريزى : ن . م . س .

نية ، أبرزها ما تعرضت له منتزهات الخلفاء الفاطميين[١] من تغيرات عمرانية رئيسية . فصلاح الدين الأيوبى لم يكن يميل فى حياته إلى الترف ، لذلك فإنه لم يلتزم طريقة الفاطميين فى التنزه[٢] وكل ما يؤثر عنه خروجه إلى بركة الجب للصيد ولعب الاكره ، ففى عام (٥٧٧هـ / ١١٨١م) خرج صلاح الدين إلى هذه البركة (... للصيد ولعب الاكره وعاد بعد ستة أيام ...)[٣] وتذكر المصادر بأن القاضى الفاضل ذكر ذلك كثيراً عن صلاح الدين الأيوبى[٤] .

لقد ترتب على ذلك أن تأثرت أوضاع المتنزهات الفاطمية ، حيث تغيرت أوضاعها العمرانية ، فأضحى بعضها مساكن لعدد من أقرباء صلاح الدين الأيوبى ورجال دولته كما سبق أن ذكرنا ، فمنظرة اللؤلؤة التى كانت قصرا من أحسن القصور وأعظمها زخرفة وهو أحد منتزهات الدنيا المذكورة ...)[٥] . جرى تقسيمها وتحويلها إلى عدد من الدور السكنية ، وكذلك كانت الحال بالنسبة لمنشآت النزهة الواقعة بالقرب منها ، والتى كانت تطل على الخليج من جهته الشرقية، وتقع فيما بينه وبين القاهرة[٦] . وكذلك كان الحال بالنسبة لمنازل العز

---

(١) كان للفاطميين عدد كبير من منشآت للنزهة ، فكان لهم بساتين عدة يتنزهون بها منها البساتين الجيوشية ، كذلك كان لهم عدد كبير من المناظر منها اللؤلؤة ، والبعل ، والتاج ، ومنازل العز ، والهودج والأندلس ، وقبة الهواء ، ودار الملك ، وغير ذلك من المناظر . المقريزى : م . س ١/ ٤٦٥ ، ٤٨٧ .

(٢) كان الفاطميون يخرجون كل سبت وثلاثاء إلى بساتينهم ومناظرهم علاوة على اتخاذهم الأعياد والمناسبات المختلفة التى سادت فى عصرهم كأيام تنزه وفرجة . أفاض المقريزى فى وصفها . انظر المقريزى ١: م . س ١/ ٤٦٥ ـ ٤٩٥ ، وانظر : الأمين عوض الله : الحياة الاجتماعية ، ص ٣٣ ـ ٤١ .

(٣) المقريزى : السلوك ١/ ١/ ٧١ ـ ٧٢ .

(٤) المقريزى : الخطط ٢/ ١٦٤ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١٩٧ .

(٥) المقريزى : م . س ١/ ٤٦٧ .

(٦) كان يوجد فى هذه المنطقة عدد من مناظر النزهة التى كانت للفاطميين ورجالهم مثل الغزالة واللؤلؤة ودار الزهن . انظر المقريزى : م . س ٢/ ٢٤ ، الخاصكى القاهرة لوحة ٢٩ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ٢٧ ، على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٣/ ٦٩ ـ ٧٠ .

ودار الملك ، اللتان كانتا تطلان على النيل وتقعان على شاطىء الفسطاط[١] ، فلقد قسمت في ذلك الوقت وأوضحت أجزاء منها دورا سكنية . أما بستان الدكة، الذى كان به منظره تعرف به[٢] وكان من منتزهات الفاطميين[٣] ، فقد تحول إلى خطة كبيرة تعرف « بخطة الدكة » تتكون من عدد كبير من الحارات . ولم تكن التغيرات العمرانية التى تعرضت لها منتزهات الفاطميين قاصرة على تحويلها إلى أحياء سكنية ، فلقد أخذت بعض بساتينهم بالتحول إلى أراضى زراعية خاصة تلك التى تقع خارج سور صلاح الدين الأيوبى ، فظهرت على أراضيها بعض القرى ، فبستان المشوق[٤] . أضحى من جملة وقف الصابونى[٥] . وهو وقف أوقفه والد صلاح الدين الأيوبى نجم الدين أيوب على جماعة من الصوفية[٦] أصبح أرضا زراعية ، ونشأت عليه قرية كما يشير إلى ذلك ياقوت

---

(١) ابن دقماق : الانتصار فى ١/ ٩٣ ، المقريزى : الخطط ١/ ٤٨٣ ـ ٤٨٥ .

(٢) المقريزى : م . س ١/ ٤٨٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٣٥٧ .

(٣) المقريزى : م . س ١/ ٤٦٢ .

(٤) المعشوق اسم لمكان فيه أشجار بظاهر الفسطاط كان فى بادئ الأمر من جملة خطة راشدة ، عرف بجنان كهمس بن معمر ثم عرف بجنان الماراديني ثم عرف بجنان الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمى (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ / ٩٥٢ ـ ٩٧٥ م) وجدده بعد ذلك الوزير الفاطمى الأفضل بن أمير الجيوش (٤٨٧ ـ ٥١٥هـ / ١٠٩٤ ـ ١١٢١ م) فعرف به المقريزى : م . س ١٥٩/٢ .

(٥) كان هذا الوقف يشمل جزيرة الصابونى وأجزاء من بركة الحبش ، ويذكر المقريزى أثناء حديثه عن المعشوق بأن هذا الوقف أوقفه ابن الصابونى على بنيه ، إلا أنه أثناء حديثه عن جزيرة الصابونى يذكر أن الذى أوقفها على الصابونى وبنيه هو والد صلاح الدين الأيوبى حيث أوقفه على الصابونى وبنيه وصوفية بمكان بجوار قبة الإمام الشافعى ، وهذه الجزيرة من جملة المعشوق إذ أن رباط الآثار من جملتها بالإضافة إلى أنه من جملة البستان المذكور كما يشير إلى ذلك المقريزى مما يدل على أن الوقف أصله واحد وهو وقف نجم الدين أيوب . انظر المقريزى : م . س ٢/ ١٥٩ ، ١٩٥ .

(٦) المقريزى : م . س ٢/ ١٨٥ .

الحموى [١] وكما ظهرت قرية فى موضع بستان المعشوق ، فمن الواضح أن الخندق[٢] الذى تحول إلى بستان فى العصر الفاطمى [٣] قد تحول إلى أراضى زراعية ، وظهرت عليها قرية كبيرة[٤] ، يسكنها أعداد جمة من الناس وبها سوق وجامع[٥] . ومن متنزهات الفاطميين التى تحولت إلى أراضى زراعية البساتين التى على أراضى البعل[٦] . فلقد كان للفاطميين بساتين ثلاث متجاورة ، هى بستان البعل والتاج والخمس وجوه [٧] ، وكان فى كل واحد منهم منظرة [٨] معدة

---

(١) عبد العال الشامى : مدن مصر وقراها عند ياقوت ، ص ٥٤ ، ولقد اندثرت هذه القرية نتيجة تسلط مياه النيل عليها أثناء الفيضان ، فزالت هى وجزيرة الصابونى التى تتبعها ، ويدل على موقعها فى الوقت الحاضر المنطقة المطلة على شاطىء النيل ناحية دير الطين معادى الخبيرى جنوبى مصر العتيقة محمد رمزى : القاموس الجغرافى ١/ ٧٧ .

(٢) الخندق : موضع بشمالى القاهرة كان يعرف فى بادئ الأمر بمنية الأصبغ ، ثم عرف بالخندق عندما بنى جوهر الصقلى خندقا بجوارها لمواجهة هجوم القرامطة فعرفت به . المقريزى : م . س ، ٢/ ١٣٦ ، محمد رمزى : القاموس ق ١/ ٤٢٩ .

(٣) كان الخندق فى أوائل العصر الفاطمى قرية ثم تحول إلى بستان وأن كانت المصادر لا تقدم تحديدا واضحا لتاريخ هذا التحول . المقريزى : ن . م . س .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ٢/ ٣٩٢ .

(٥) المقريزى : م . س ٢/ ١٣٨ ، مؤلف مجهول : م . س ورقة ١٥١ ويدل على موقع هذه القرية فى الوقت الحاضر المنطقة التى يتوسطها دير الملاك البحرى بين الزاوية ومحطة الدمرداش . محمد رمزى : ن . م . س .

(٦) البعل ذو دلالات عدة فيقال البعل للأرض المرتفعة التى يصيبها المطر مرة واحدة فى السنة ، وقيل البعل كل شجر أو زرع لا يسقى وقيل هو ما سقى بالمطر من الأراضى ، وغير ذلك من المعانى . انظر الزبيدى : تاج العروس ٦/٢٢٩ـ ٢٣٠ ، المقريزى : م . س ٢/ ١٢٩ ، وهذه الأراضى كانت تعد من ضواحى القاهرة ، ثم طغت عليها مبانى المدينة فى الوقت الحاضر ، وتشمل المنطقة التى يحدها شارع الخليج المصرى من الناحية الشرقية والشارع الواقع إلى شمال المستشفى الإسرائيلى من جهتها الشمالية الشرقية ، ومن الشمال الغربى تحد بشارع مهمشة الذى يحدها من الغرب أيضاً بالإضافة إلى شارع وقف الخربوطلى ، ومن الجنوب تحد بشارع الظاهر . محمد رمزى : م . س ق ١/١٥ـ ١٦ .

(٧) المقريزى : ن . م . س السخاوى ، تحفة الأرباب ص ٢٢ .

(٨) المقريزى : م . س ١/ ٤٨١ .

بالفرش اللازم للشتاء والصيف ، كما يشير إلى ذلك المقريزى أثناء حديثه عن منظرة التاج [(١)] حيث يقول : « ... وان لها فرش معد لها للشتاء والصيف ...» [(٢)]. والراجح أنه قد أخذ بتحويل أراضى البساتين إلى أراضى زراعية فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، فزالت منها أشجار البساتين وأضيفت أراضيها لمنية الشيرج [(٣)] فعدت من جملتها [(٤)] . ومن المظاهر العمرانية التى تعرضت لها منتزهات الفاطميين هو تقسيم هذه المنتزهات ، فعلى الرغم من أن منازل العز ودار الملك ، قد جرى تحويلها إلى مناطق سكنية . فمن الواضح أن ذلك يشمل أجزاء منهما فقط فى حين أن هناك أجزاء أخرى ، وعلى الأخص تلك التى تطل على النيل فقد احتفظت بأهميتها كمنتزهات ، فيذكر العماد الأصفهانى بأن هذين القصرين قد استمرا يؤديان غرضهما كمنتزهات فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، حيث قال فى حوادث عام (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) (... وتوفرنا على الاجتماع فى المغانى لاستماع الأغانى والتنزه فى الجزيرة والجيزة والأماكن العزيزة، ومنازل العز ... ودار الملك والنيل) [(٥)] . ومن المؤكد أن منتزهات الفاطميين التى كانت فى جزيرة الروضة [(٦)] قد جرى تقسيمها أيضاً ، إذ تشير الكشوفات الأثرية

---

(١) هذه المنظرة بناها الوزير الفاطمى الأفضل بن أمير الجيوش . المقريزى : ن . م . س .

(٢) ن . م . س

(٣) منية الشيرج : يقول ياقوت عنها بأنها بلدة كبيرة طويلة ذات سوق بينهما وبين القاهرة فرسخ أو أكثر قليلا على طريق الإسكندرية . ياقوت : معجم البلدان ٥/ ٢١٨ . وكانت تعرف بمنية الأمراء ، وبها معاصر للسمسم الذى يستخرج منه زيت الشيرج المعروف بالسيرج وهى الآن من ضواحى القاهرة . عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ .

(٤) المقريزى : م . س ١/ ٤٨١ ، ٢ / ١٩٢ .

(٥) نقلا عن أبو شامة : الروضتين ١/ ٢/ ٦٨٥ .

(٦) كانت هذه الجزيرة تعرف بجزيرة مصر وجزيرة الصناعة ثم عرفت بعد ذلك بجزيرة الروضة نسبة إلى بستان بناه فيها الوزير الفاطمى الأفضل بن أمير الجيوش (٤٨٧ ـ ٥١٥ هـ / ١٩٠٤ ـ ١١٢١م) .وذلك فى عام (٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦م) وسماه بالروضة فنسبت الجزيرة إليه . عنها انظر ابن دقماق : الانتصار ق ١/ ١٠٩ ـ ١١٨ ، المقريزى : الخطط ٢/ ١٧٧ ـ ١٨٥ محمد رمزى : القاموس الجغرافى ق ١ ص ٢٠٨ ، عبد الرحمن زكى : امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك ، ضمن أبحاث ندوة القاهرة ٢/ ٦٢٣ـ ٦٢٤ ، ولقد =

إلى بقايا قصر يعود لفترة مبكرة من العصر الأيوبى[1] ، الراجح أنه قد بنى على أجزاء من بعض متنزهات الفاطميين التى كانت فى الجزيرة خاصة وأن جزيرة الروضة كانت موضع أهتمام كمكان للنزهة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى . حيث يذكر ابن جبير أثناء حديثه عنها ، بأنها كانت تعتبر حينئذ مجمع اللهو والنزهة [2]. ومن المظاهر العمرانية التى تعرضت لها المنتزهات فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، إهمال بعض المنتزهات وتحويلها إلى خراب وهدم البعض الآخر . ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما تعرض له بستان الكافورى ، الذى كان (... متنزها للخلفاء الفاطميين مدة أيامهم ...)[3] فمن الواضح أن هذا البستان قد أهمل فى الفترة الصلاحية ، حيث اتخذه بعض الفقراء مكانا لزرع الحشيشة [4]. وذلك قبل أن يبدأ البناء عليه ويختط فى عام (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م)[5]. أما المتنزهات التى هدمت ، فهى تلك المنشآت التى كانت للفاطميين ورجال دولتهم فى القرافة الكبرى ، والتى كانت من أهم متنزهات الفاطميين ، حيث بنوا فيها العديد من القصور والبساتين ، ونزل بها غالبية أهل الدولة كما يذكر السخاوى[6] غير أن تلك المنشآت قد جرى هدمها ، ذلك أن « قصر الأندلس » الذى سماه المقريزى بقصر القرافة [7] ، جرى هدمه فى أوائل

= استخدم الفاطميون هذه الجزيرة كموضع نزهة منذ أوائل عهدهم وكان لهم فيها عدد من المنشآت جعلت كمتنزة خاص ، المقدسى ، أحسن التقاسيم ص ٢٠٠ ، ناصر خسروا : سفر نامة ص ١٠٤ ، ابن دقماق الانتصار ق ١ / ١٠٩ ، ١١٥ ، المقريزى : م . س ٢/ ١٨١ ـ ١٨٢.

(١) Jean Floude Garcin, Bernard Maury Jeques Revault, Mona Zakariya, palais Et Maisons Du Caire Epoque Mamelouke , Paris, 1982, vol. I, p. 32 - 36 .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص ٢٩ .

(٣) المقريزى : الخطط ١/ ٤٥٧ .

(٤) الخاصكى : التحفة الفاخرة لوحة ٣١ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٣٥٢ . وانظر على نفس المعنى : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ص ٤٨ .

(٦) السخاوى : تحفة الأحباب ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٧) هذا القصر بنته تغريد أم العزيز بالله العبيدى (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ/ ٩٧٦ ـ ٩٩٦ م) فى عام (٣٦٦ هـ / ٩٧٦م) . المقريزى : الخطط ١/ ٤٨٦ ، ٢ / ٤٥٣ .

عام (٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م) بعد أن انتهت الدولة الفاطمية [(١)] لأنه وغيره من المنشآت المذكورة قد التهمتها النيران على وجه التأكيد أثناء حريق الفسطاط عام (٥٦٤ هـ/ ١١٦٨م). والذى تحدثنا عنه آنفا .

أما عن المظاهر العمرانية الأخرى التى تعرضت لها المتنزهات والبساتين فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، فإن من أبرزها ظهور أماكن جديدة كمواضع للنزهة ، فقد ظهر بعضها فى داخل القاهرة . حيث كان ظهور خط بين القصرين فى تلك الفترة سببا فى أن يتحول هذا الموضع إلى متنزة تمر فيه أعيان الناس وأماثلهم فى الليل مشاه لرؤية ما هناك من السرج والقناديل الخارجة عن الحد من الكثرة ولرؤية وما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين مما فيه لذة للحواس الخمس ...»[(٢)] . بل أن هذا التطور أدى إلى أن يتحول هذا المكان إلى أهم منتزهات المدنية يدل على ذلك الاعداد الكبيرة من الناس التى كانت تمر فيه جيئة وذهابا لغرض التفرج والنزهة[(٣)] . كذلك أخذت المنطقة الواقعة فيما بين الفسطاط والقاهرة على يمين الخارج من باب زويلة بالتحول إلى مكان للنزهة . إذ تذكر المصادر بأن حارة المنصورية التى أحرقت أثناء ثورة العبيد (٥٦٤/ ١١٨٦م) قام بعض أمراء الدولة الصلاحية بإزالة أنقاضها . وتحويلها إلى بساتين لهم[(٤)] ، الأمر الذى ترتب عنه أن امتدت البساتين من الباب المذكور وصولا إلى المشهد النفيسى[(٥)] . بل يبدو أن البساتين امتدت وصولا إلى باب مصر فى الفسطاط . إذ يذكر ابن الطوير بأن شون الاتبان التى كانت مخصصة لاصطبلات الخلفاء والتى كانت تقع على الساحل تحولت إلى بساتين تنسب إلى صارم الدين

---

(١) ن . م . س .

(٢) المقريزى : م. س ٢/ ٢٨ ، الخاصكى : التحفة الفاخرة لوحة ٢٤ .

(٣) العبدرى : الرحلة المغربية ص ١٢٨ ، المقريزى : م . س ٢/ ٢٩ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ١/ ٢ / ٤٥٢ ، الحنبلى : شفاء القلوب ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٥) المقريزى : م . س ٢/ ١١٠ .

خطلبا [(١)(٢)] . ومــن الأماكن التى بدأت بالتحول إلى موضع نزهة فى تلك الفترة ، منطقة المقابر التى تعرف بالقرافة [(٣)]. ففى عام (٥٧٤هـ/ ١١٧٨م) بنى الحاجب لؤلؤ العادلى [(٤)] بستانا فى رحبة مسجد الأندلس [(٥)] الذى يقع فى القرافة الصغرى [(٦)] كذلك فإن العماد الأصفهانى يشير أثناء حديثه عن متنزهات المدينة فى تلك الأثناء إلى قصور فى القــرافة [(٧)]. من الواضح أنه يقصد بها منطقة المقابر ، التى يذكر ابن سعيد الأندلسى بأنه شاهـد بها منازل لأعيان الفسطاط والقاهرة [(٨)] . وعلى الرغم من أن بعض المصادر تذكر بأن الفاطميين كانت لهم منشآت نزهة فى القرافة الكبرى [(٩)] ، فـإن مـن الـواضح

(١) المقريزى : م . س ١/ ٤٤٥ .

(٢) صارم الدين بن موسى الفارسى التبتى من أمراء الدولة الصلاحية (ت ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م) ويذكر المقريزى بأنه استقر فى ولاية القاهرة سنة (٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م) وأضيفت إليه ولاية الفيوم سنة (٥٧٧ هـ / ١١٨١ م) ليصرف عنها ويسلم اليمن فى نفس السنة ، إلا أن العماد الأصفهانى يشير فى ثنايا حديثه عن السنة نفسها بأنه كان متوليا للفسطاط وليس القاهرة . العماد الأصفهانى : البرق الشامى (سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبى) تحقيق رمضان ششن ، اسطنبول ، ١٩٧٩م ، ٥/ ١٥٣ ، المقريزى : م . س ٢/ ١٢٠ .

(٣) عنها انظر ما يلى .

(٤) هو لؤلؤ الحاجب الأرمنى (ت ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م) كان من أجناد الاسطول فى عهد الفاطميين ثم ترقى فى الخدمة فى دولة الناصر صلاح الدين حتى ولى أمره لأسطول واشتهر أمره عندما قام بإحباط محاولة الفرنج مهاجمة المدينة المنورة عام (٥٩٨ هـ / ١١٩١م) . وكان محبا للخير كثير الصدقة . المقريزى : م . س . ٢/ ٨٥ ـ ٨٦ .

(٥) هذا المسجد من جملة مساجد القرافة الصغرى فى شرقيها ، يقال بأنه بنى عند فتح مصر وقيل فى خلافة معاوية رضى الله عنه . المقريزى م . س ٢/ ٤٤٤.

(٦) ن . م. س . وعن القرافة الصغرى انظر ما يلى .

(٧) نقلا عن أبو شامة : الروضتين ١/ ٢/ ٦٨٥ .

(٨) ابن سعيد الأندلسى : الاغتباط فى حلى الفسطاط ص ١٠ ، المقريزى م . س ٢/ ٤٤٤.

(٩) انظر فيما يذكره السخاوى / تحفة الأحباب / ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

أن القرافة التى كانت فيها هذه المنشآت ، لم تكن منطقة المقابر وإنما كانت منطقة سكنية ، إذ يذكر ابن حوقل أثناء حديثه عن جامع القرافة الذى كان يعرف بجامع الأولياء [١] ، بأنه يقع فى القرافة ، التى عرفها بأنها : « موضع بظاهر مصر» [٢]، ولم يذكر بأنها هى المقبرة التى كانت للمدينة . هذا بالإضافة إلى أن المصادر التى تحدثت عن مقابر المدينة أثناء العصر الفاطمى لا تشير إلى وجود منشآت للتنزهة فيها فى تلك الأثناء ، فالمقدسى عندما يتحدث عن هذه المقابر يذكر بأنها كانت سكنا للزهاد والعباد ولا يشير إلى وجود المنشآت الأخرى[٣] وهكذا فإن مما لا شك فيه أن القرافة التى كانت موضع نزهة للفاطميين كانت منطقة سكنية فى نفس الوقت ، حيث يشير المسبحى فى تاريخه فى أكثر من موضع إلى طائفة من الجيش الفاطمى كان يطلق عليهم « القرافيون » [٤] والمرجح أن تكون هذه النسبة قد لاحقتهم نتيجة سكناهم للمنطقة ، من الواضح أنها لم تكن منطقة القبور ، ومما يؤكد ذلك أن ابن دقماق يذكر أثناء حديثه عن حريق الفسطاط عام (٥٦٤ هـ/ ١١٦٨م) بأنه أحرقت مدينة يطلق عليها « باب ليون» وأن ما يدل على تلك المدينة فى عصره (الكيمان التى بالقرافة خارج السور)[٥] ، وهذه المنطقة هى التى عرفت بالقرافة الكبرى كما سيتضح لاحقا مما يشير إلى أن موضع النزهة والمنطقة السكنية هذه لم تتحول إلى مقابر إلا بعد العصر الفاطمى .

---

(١) هذا الجامع بالقرافة الكبرى ويقع فى منطقة كانت فى الأصل خطة من خطط الفسطاط الأولى تعرف بخطة المغافر . بنته تغريد أم العزيز بالله العبيدى (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ/ ٩٧٦ - ٩٩٦ م) فى سنة (٣٦٦هـ / ٩٧٦ م) ، المقريزى : الخطط ٢/ ٣١٨ .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٣٨ .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٣٠٩ .

(٤) المسبحى : أخبار مصر ص ١٧٤ ، ١٧٦.

(٥) ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٢١٨ .

ومع المظاهر العمرانية التى تعرضت لها المتنزهات فى عهد الناصر صلاح الدين ، تغيّر أوضاع بعض هذه المتنزهات ، خاصة المواضع المائية - الخلجان والبرك وساحل النيل - إذ أخذت المنشآت تتقدم باتجاه هذه المواضع ، وبشكل كبير فاق ما كان عليه الحال زمن الفاطميين . فبالنسبة للخلجان ، فلقد أخذت المناظر تحيط بشواطئها ، نتيجة لتقدم المبانى تجاه الساحل خلال ذلك العصر حيث أدى ذلك إلى أن تظهر على جانبى خليج القاهرة - وعلى الأخص الشرقية منه - العديد من المناظر ومنشآت النزهة التى تطل عليه كما يذكر ابن سعيد (١) ، وذلك على غير ما كان عليه الحال فى عهد الفاطميين ، حيث كان يفصل بين المناظر المطلة على هذا الخليج ، والخليج شارع يخرج إليه الناس عصرا فى أغلب الأيام للتفرج والنزهة (٢) كذلك كان الحال بالنسبة لخليج الخور (٣) الذى بنيت عليه مناظر فى تلك الفترة ، إذ بنى الشيخ عبد الكريم الصعبى (٤) مناظر تطل على النيل وعلى هذا الخليج .

ومن المرجح أن الخلجان التى كانت تقع جنوبى الفسطاط قد بنى عليها منشآت للنزهة منذ تلك الفترة (٥) إذ أن البرك التى تقع فى هذه المنطقة بدأت منشآت النزهة والبساتين تحيط بها منذ ذلك العهد ، فالبرك التى كانت توجد جنوبى الفسطاط أخذت منشآت النزهة تحيط بها وتلتصق بشواطئها ، فناحية

---

(١) ابن سعيد : النجوم الزاهرة ، ص ٣١ ، المقريزى : م . س ١ / ٣٦٨ .

(٢) المقريزى : م . س ٢/ ٢٤ ، ١٠٩ ، الخاصكى : التحفة الفاخرة لوحة ٢٩ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ٢٧٠ .

(٣) هو الشيخ كريم الدولة عبد الواحد بن محمد بن على الصعبى توفى فى رمضان عام (٦٠٣ هـ/ ١٢٠٦ م) المقريزى : م . س ٢/ ١١٩ .

(٤) ن . م. س .

(٥) ابن دقماق : الانتصار ١/ ٥٥ .

العدوية [١] التى تحد بركة الحبش من ناحيتها الجنوبية [٢] بدأت تتحول إلى موضع للنزهة فى تلك الفترة ، إذ يذكر العماد الأصفهانى أثناء حديثه عن حوادث عام (٥٧٧ هـ/ ١١٨١م) بأن الأمير مجد الدين سيف الدولة مبارك بن منقذ [٣] دعاه إلى دعوة أقامها فى هذه الناحية ، بعد ما أشتراها من السلطان صلاح الدين الأيوبى [٤] ، وأجرى فيها الإصلاحات اللازمة حيث (... عدل أحوالها بالعمارة السوية ...)[٥] فأصبحت (... ذات جنان وعيون وأفنان وحدائق فاخرة ، وهى على الحقيقة جنة القاهرة ...)[٦] . وكذلك كان الحال بالنسبة للبرك الواقعة فيما بين الفسطاط والقاهرة ، فمن المؤكد أن منشآت النزهة من مناظر وبساتين قد أخذت تحيط ببركة الفيل منذ تلك الفترة [٧] ، إذ أنشأ الأمير سيف الإسلام طغتكين [٨] بستانا نسب إليه ، كان يطل على هذه البركة من

---

(١) يذكر ياقوت بأنها فى وقته قد أضحت قرية ذات بساتين قرب الفسطاط على الشاطئ الشرقى من النيل تلقاء الصعيد . ياقوت الحموى ، معجم البلدان ١/ ٩٠ ، أما محمد رمزى فيذكر بأنه يدل عليها فى وقته عزبة تحمل نفس الاسم من توابع ناحية الفاروقية بجوار معادى الخبيرى فى أراضى البساتين بالجيزة . محمد رمزى : القاموس الجغرافى ١/ ٨٣ ، ويدل عليها الآن دير العدوية الذى يوجد فى هذه المنطقة . عبد العال الشامى : مدن مصر وقراها ص ٥٤ .

(٢) المقريزى : الخطط ٢/ ١٥٣ .

(٣) هو أبو الميمون كامل بن على بن مقلد بن ناصر بن منقذ الكنانى (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣م) من أمراء حصن شيزر بالشام ، كان له مكانة فى الدولة الصلاحية ، إستنابه شمس الدولة باليمن بعد أن ضمها للمزيد عنه انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤/ ١٤٤ ـ ١٤٦.

(٤) نقلا عن أبو شامة : الروضتين ٢/ ٢٥ ، البندارى : سنا البرق الشامى ص ١٨٩ .

(٥) البندارى : ن . م . س .

(٦) ن . م . س .

(٧) ابن سعيد المغربى : النجوم الزاهرة ص ٢٧ ، المقريزى : الخطط ١/ ٣٦٧ ، ١٣٣.

(٨) هو الملك العزيز سيف الإسلام أبو الفوارس طغتكين بن أيوب (ت ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ م) أحد أخوة الناصر صلاح الدين الأيوبى ، ولاه اليمن عام (٥٧٧ هـ / ١١٨١ م) بعدما عاد شمس الدولة توران شاه الذى كان قد ضمها وإليه ينتمى البيت الأيوبى الذى حكم اليمن . انظر : ابن خلكان م . س ٢/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤ ، أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١١ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٤/ ٣١٢ ـ ٣١٣ .

جهتها الشرقية [١]. كذلك فإن بستان الحبانية كان يقع على هذه البركة [٢]. وهو بستان أوقفه الناصر صلاح الدين على خانقاه سعيد السعداء [٣] وأخذت هذه المنشآت تتجه نحو البرك الواقعة غربى الخليج إذ من المؤكد أن العديد من المناظر قد أنشئت على بركة الشقاف فى تلك الفترة حيث يذكر المقريزى بأن هذه البركة (... كان عليها فى القديم عدة مناظر ... وذلك أيام كانت أراضى اللوق مواضع نزهة قبل أن تحتكر وتبنى دورا وذلك بعد سنة ستمائة ....) [٤]. (١٢٠٣م) . ومن الواضح أن هذا البناء يعود إلى عصر صلاح الدين الأيوبى ، إذ أن أراضى اللوق لم تظهر عليها منشآت النزهة إلا منذ ذلك العهد . كما سيتضح لاحقا .

ومن خلال العرض السابق نلاحظ بأن علاقة منشآت النزهة بالبرك قد توطدت إلى حد بعيد فى تلك الأثناء ، بل إن صلاح الدين الأيوبى نفسه كان من عادته التنزه عند بركة الجب كما سبق أن شاهدنا ، وهو مظهر حافظ عليه الأيوبيون من بعده ، حيث كانت هذه البركة من أخص متنزهاتهم [٥] كذلك فلقد أخذت فى تلك الفترة العديد من منشآت النزهة بالظهور على شاطىء النيل فى المنطقة الواقعة غربى الخليج . فأنشىء فى تلك الفترة العديد من البساتين على الأراضى المتخلفة من الطرح النهرى . فعلى أجزاء من هذه الأراضى أنشأ وزير صلاح الدين الأيوبى . القاضى الفاضل بستانا كبيرا كان يمير الفسطاط والقاهرة بثماره وأعنابه [٦] . وتذكر المصادر بأن القاضى المذكور قد اشترى قطعة كبيرة من

---

(١) المقريزى : م . س ٢/ ١٣٤ ، ويدل على موضع هذا البستان فى الوقت الحاضر حارة الألفى فى شارع السيوفية . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢/ ١٨١ .

(٢) المقريزى : م . س . ، ٢/ ١٣٣ . ويدل على موقع هذا البستان شارع الحبانية الحالى ، والذى يذكر على باشا مبارك بأنه يقع عليه فى عصره بقايا بستان يعتقد بأنه من أجزاء البستان المذكور.على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٣/ ٢٤٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٣٦٥ .

(٤) المقريزى : م . س ، ٢/ ١٦٢ .

(٥) المقريزى : م . س ، ١/ ٤٨٩ .

(٦) ابن دقماق : الانتصار ١/ ١١٩ ، المقريزى : م . س ١/ ٣٤٥ ، ٢ / ١٠٩ .

ولقد طغى الفيضان النهرى على هذا البستان واندثرت معالمه ، وكان ذلك فى أوائل العصر المملوكى ، المقريزى : م . س ٢/ ٢٩٨ ، ويذكر على باشا مبارك ، بأن محل هذا البستان =

أراضى اللوق ووقفها على العين الزرقاء [١] بالمدينة المنورة ، من أجل تنظيفها وتنظيف مجاريها ، وأن هذه الأراضى عرفت ببستان ابن قريش [٢]. وكان لأحد أمراء صلاح الدين الأيوبى ، وهو سابق الدين البلشون بستانًا فى المقسى عرف ببستان البلشون [٣] ، ومن المرجح أنه أنشأ على الأراضى التى تكونت من الطرح النهرى فى هذه المنطقة . ويذكر المقريزى أثناء حديثه عن بستان ابن ثعلب [٤]، بأنه كان من جملة حدوده الشرقية بستان عرف بـ (بستان الأمير

= بعض الأراضى التى عليها القصر العالى والقصر العينى ، على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٣/ ٢٣١ ويحدده عبد الرحمن زكى على وجه التقريب بالمنطقة التى تحد من الشمال بشارع الطرقة الغربى ومن الغرب بشارع القصر العينى ومن الجنوب بشارع عمر بن عبد العزيز ومن الشرق بشارع الخليج المصرى (بور سعيد) وشارع الدواوين . عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ٣٧٠ .

(١) وأصلها عين الأزرق ، أما لفظ الزرقاء فهو من اطلاقات العامة والأزرق هو مروان بن الحكم عرف بذلك لزراق عينيه أجرى هذه العين بأمر من معاوية رضى الله عنه . وتقع هذه العين فى ظاهر المدينة قبالة مصلى العيد . انظر السمهودى : نور الدين على بن أحمد (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥م) ، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م ٣/ ٩٨٥ ، ٩٨٧ .

(٢) المقريزى : م . س ٢/ ١١٧ ، ولعل ابن قريش هذا هو القاضى المرتضى صفى الدين أبو المجد عبد الرحمن بن على بن قريش أحد كتاب الإنشاء فى الدولة الصلاحية . مات شهيدا على عكا سنة (٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م) المقريزى م . س ، ٢/ ٨٦ . ولا تقدم المصادر أية معلومات واضحة عن موقع هذا البستان ضمن أراضى اللوق ، بيد أن المقريزى يذكر بأن هذا البستان دخل بعضه ضمن أراضى الميدان الظاهرى . والذى يقع جنوبى الميدان الصالحى . المقريزى : م . س ٢/ ١١٧ ، ٩٨ ، ويدل على الميدان الصالحى الآن أراضى اللوق بشارع الصنافيرى . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٣/ ٢٢٣ .

(٣) المقريزى : م . س ٢/ ١٠٦ ، ويصعب تحديد موقع هذا البستان لعدم توفر معلومات واضحة عنه، وإن كان من المرجح أنه يقع على ساحل المقس .

(٤) هذا البستان كان بستانًا عظيم القدر يتكون من خمسة وسبعين فدانًا وينسب إلى الأمير الشريف فخر الدين إسماعيل بن ثعلب أحد أمراء الدولة الأيوبية فى عهد الملك العادل بن أيوب . المقريزى: م . س ٢/ ١١٨ .

قراقرش ....)[١] ولا شك بأنه كان بستانا لبهاء الدين قراقوش أحد كبار أمراء الدولة الصلاحية ، من المؤكد أنه نشأ على الأراضى التى تخلفت من الطرح النهرى . بل إن البساتين والمتنزهات تقدمت لتغطى بعض الجزر التى كانت تتخلف من هذا الطرح ، فلقد كان للشيخ عبد الكريم الصعبى ، بستان يعرف بالجزيرة يعنى بستان الجزيرة المعروف بالصعبى وكان من البساتين الجليلة[٢] . مما يشير إلى أن هذا البستان كان يقع على جزيرة كانت توجد بالقرب من الشاطىء فى تلك الأثناء[٣] . وبالإضافة إلى البساتين فلقد أخذت المناظر والدور بالظهور على شاطىء النيل فى هذه المنطقة ، ومن أبرز الدلائل على ذلك مناظر الصعبى التى كانت تشرف على نهر النيل[٤] . ومنشأة القاضى الفاضل التى كان قد بناها بجوار بستانه سابق الذكر ، وكانت تتكون من عدد من الدور ، من المؤكد أنها كانت تستخدم لأغراض النزهة[٥] . كذلك فإن العماد الأصفهانى يشير إلى بعض أفراد المجتمع القاهرى ، الذين كان لهم عدد من الدور جعلوها للنزهة والضيافة ، وكانت تقع على شاطىء نهر النيل[٦] من المؤكد أنه الشاطىء الذى يقع غربى الخليج فى هذه المنطقة .

---

(١) ن . م . س . ويدل على موقع هذا البستان بعض أراضى تل سن ابره أو تل اليهودية كما تعرف فى بعض الأحيان ، كما يشير إلى ذلك على باشا مبارك أثناء حديثه عن خط فم الخور . على باشا مبارك م . س ، ٣/ ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) المقريزى : م . س ٢/ ١١٩ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١٤١ .

(٣) ومن الواضح أن هذه الجزيرة والبستان قد أصبحا بعد ذلك من جملة بستان ابن ثعلب كما يشير إلى ذلك المقريزى أثناء حديثه عن مناظر الصعبى وبستانه . المقريزى : ن . م . س . وبالتالى فإن هذا البستان يشمل المنطقة التى فيها تل سن أبرة أو تل اليهودية بالإضافة إلى الدور والأزقة والحارات الواقعة على يسار السالك فى شارع باب اللوق ابتداء من جامع الطباخ إلى المنطقة الواقعة غربى الشارع الموصل إلى مصر العتيقة بالإضافة إلى المنطقة التى تحتلها بركة قرموط والتى يذكر على باشا بأنه يقع فى موضعها فى عصره بعض المنازل والقصور بالقرب من شارع مصر العتيقة . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٣/ ٢٢٧ - ٢٣٠ .

(٤) المقريزى : ن . م . س .

(٥) ابن دقماق : الانتصار ق ١/ ١١٩ ، المقريزى : الخطط ٢/ ٣٤٥ .

(٦) نقلا عن أبو شامة : الروضتين ١/٢/٦٨٥ - ٦٨٦ .

ويتضح من خلال العرض السابق بأن منشآت النزهة ، قد توطدت علاقاتها حينئذ بشاطىء النيل ، مثلما حدث مع الخلجان والبرك فى تلك الفترة أيضا . وهو ما أشار إليه المقريزى أثناء حديثه عن أراضى اللوق ، حيث أوضح بأن بناء منشآت النزهة فيها لم يحدث إلا بعد ما أن بنى بها القاضى الفاضل منشآته سابقة الذكر حيث يقول : (.. وأرض اللوق هذه كانت بساتين ومزروعات ولما يكن بها فى القديم بناء البتة ثم لما انحسر الماء من منشأة الفاضل عمر فيها ....) [١] أى أن البناء للنزهة لم يظهر فى هذه المنطقة إلا بعد ما عمرت منشأة القاضى الفاضل وخاصة وأن فرصة البناء على شاطىء النيل قد أصبحت مواتية منذ عصر الناصر صلاح الدين الأيوبى نظرا لابتعاد خطر الفيضان النهرى ، وهو الأمر الذى لم يكن متوافرا فى العصر الفاطمى الأمر الذى أدى إلى اندفاع المدينة باتجاه الساحل . للتحول أجزاء كبيرة منه إلى مواضع تبنى عليها منشآت النزهة المختلفة ، حيث استمر هذا الوضع إلى ما بعد سنة (٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) كما تشير إلى ذلك المصادر أثناء حديثها عن أراضى اللوق [٢] .

(هـ) الرحاب والميادين :

لا تخلو أى مدينة من المدن من وجود ساحات فى داخلها وإن اختلفت المسميات التى تطلق عليها ، وبالنظر إلى ما تقدمه المصادر من نصوص عن ساحات القاهرة فبالإمكان القول بأن هناك نوعان رئيسيان من هذه الساحات الأولى الرحاب والثانية هى الميادين [٣] .

وبالنظر إلى الأصول اللغوية لهذه الألفاظ ، بالإضافة إلى ما تقدمه المصادر والدراسات الحديثة من نصوص عن هذه المواضع ، فإن بالإمكان استجلاء بعض المفاهيم العمرانية التى تميز فيما بينها ، فالرحبة تدل بشكل عام على الموضع

---

(١) المقريزى : م . س ٢/ ١١٧ .

(٢) المقريزى : م . س ٢/ ١٦٣ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١٨٧ .

(٣) انظر : المقريزى : م . س ٢/ ٤٧ ـ ٥١ ، ١٩٧ ـ ٢٠١ .

الخالى من البناء المتميز بالاتساع ، ويذكر الزبيدى بأن الرحبة لفظ يطلق على المكان الواسع [(١)] . وعلى الرغم من أن هذا الإطلاق لا يقدم دلالة عمرانية واضحة المعالم حيث لا يمكن تلمس مدلولات وظيفية من خلاله ، يمكن من خلالها تحديد دور الرحبة العمرانى ومدى تداخله مع الهيكل المادى للمدينة . إلا أن من الواضح أن هذه الساحات هى التى كانت تستخدم للتهوية والإضاءة فى الأحياء السكنية ، أو كقاطعات للطرق ، وكانت تعرف « كمربعة » [(٢)] . لذلك كان فى الحارات رحاب ، من المؤكد أنها وجدت للقيام بمثل هذه المهام . أما بالنسبة للميدان فإن المعلومات تبدو أكثر وضوحا مما هو متوفر عن الرحاب ، ففى اللغة يطلق اللفظ على المكان الذى تصول فيه الخيول وتتعطف[(٣)] ، وبالتالى فإن الميدان موضع له صبغة اجتماعية ، حيث أنه يعبر بذلك عن الفروسية وحياتها . الأمر الذى أعطاه بعدا وظيفيا فى داخل المدينة ، ففيه يصطف الجند ويجرى عرضهم وتعدادهم ، كما تشير إلى ذلك المصادر أثناء حديثها عن ميدان بين القصرين [(٤)] . كذلك يستخدم الميدان كموضع يتدرب فيه الأجناد على فنون القتال المختلفة ، حيث يذكر حسن الرماح أثناء حديثه عن تدريب الأجناد بأن ذلك كان يتم فى « الميدان » [(٥)] . بل أن « الميدان » ارتبط بشكل عام بالسلطة فميادين القاهرة الكبرى كانت على الدوام وعبر تاريخها الطويل مواضع مرتبطة بالسلطان والدولة[(٦)] .

لقد كان عصر الناصر صلاح الدين الأيوبى مرحلة تحول أساسية فى ساحات

---

(١) الزبيدى : تاج العروس ١/ ٢٦٨ .

(٢) نيكيتا اليسيف : التخطيط المادى ضمن كتاب المدينة الإسلامية ص ١٠٥ .

(٣) الزبيدى : م . س ٢/ ٥٠٧ .

(٤) المقريزى : م . س ٢/ ٢٨٠ ، الخاصكى : التحفة الفاخرة ص ٢٤ .

(٥) نجم الدين حسن الرماح المعروف بالأحدب (ت ٦٩٥ هـ / ١٢٩١م) الفروسية والمناصب الحربية تحقيق : عيد ضيف العبادى . بغداد ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤ م ص ص ٢٩ ، ٣٦ ، ٥٩ . وانظر أيضا نتكيتا اليسيف : م . س ص ١٠٢ .

(٦) المقريزى : الخطط ٢ / ١٩٧ - ٢٠١ .

القاهرة الكبرى ، حيث أخذت تشهد متغيرات عمرانية رئيسية كغيرها من بقية أقسام المدينة . ومن أهم تلك المتغيرات ما شبهدته ساحات المدينة الفاطمية ، التى توسعت على حسابها المنشآت والمبانى بأنواعها المختلفة ، لتتحول هذه الساحات إلى أحياء سكنية وأسواق وما شابه ذلك وقد سبق الإشارة إلى ذلك ، بيد أن تلك التحولات لم تقف حائلا دون أن تشهد المدينة ظهور ساحات جديدة أخرى ، ونتيجة مقتضيات الدور الوظيفى الذى تقوم به الرحاب والميادين فى أى مدينة بشكل عام ، فظهور الأحياء السكنية الجديدة قد ترتب عنه بطبيعة الحال ظهور رحاب فى هذه الأحياء ، بحكم دورها للإضاءة والتهوية أو كتقاطعات للطرق التى تخترق هذه الأحياء . لذلك فإن تحول المنشآت المختلفة الأنواع ، إلى أحياء سكنية سيترتب عنه ظهور رحاب فى داخل هذه الأحياء ، فالقصر الشرقى الكبير الذى أخذ بالتحول إلى منطقة سكنية تتكون من مجموعة أحياء ظهرت فيها رحاب تخدمها ، فرحبة البدرى[1] هى من جملة القصر المذكور ، كانت تقع فى طريق السالك من باب قصر الشوك إلى المارستان الصلاحى [2] ومن الواضح أن رحبة جعفر[3] التى تقع فى حارة برجوان هى فى الأصل من جملة دار الضيافة التى اختطت فى تلك الأثناء . إذ يطل عليها شباك قبر جعفر الذى يقع فيها[4] . والراجح أن رحبتى دار الملك ومنازل العز [5] قد كانتا من جملة هذين القصرين الفاطميين الذين تحولا إلى أحياء سكنية فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، كذلك كان الحال بالنسبة لبقية المنشآت التى تحولت إلى أحياء سكنية فى تلك الأثناء ففى الاصطبلات الفاطمية التى تحولت إلى أحياء سكنية ، ظهرت رحاب

---

(١) تنسب هذه الرحبة للأمير بيدمر البدرى لأن داره تطل عليها . المقريزى م . س ، ٢/ ٤٨ .

(٢) المقريزى : ن . م . س .

(٣) تنسب هـذه الرحبـة إلى جعفر بن أمير الجيوش لأن شباك قبره يطل عليها . المقريزى : ن . م . س .

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ / ٤٨ .

(٥) ابن دقماق : الانتصار ق ١ / ٣٥ .

أيضا ، فرحبة كتبغا [(١)] في الأصل (... من جملة اصطبل الجميزة ...)[(٢)] . وعلى الرغم من أن المصادر لا تقدم معلومات واضحة عن كيفية ظهور هذه الرحاب ، إلا أنه من المرجح أنه قد جرى حجز بعض المساحات الخالية من البناء في تلك المنشآت لتحول إلى رحاب وذلك بالنسبة لبعضها ، في حين أن البعض الآخر قد يكون ظهوره نتيجة هدم أجزاء من تلك المنشآت . إذ قد يهدم بناء من الأبنية فيتحول إلى رحبة [(٣)]. ولم يكن ظهور الرحاب قاصراً على المنشآت فقط ، إذ أن البناء على المساحات الخالية من البناء أدى إلى ظهور رحاب أيضا لخدمة الأحياء التي ظهرت عليها ومن أبرز الدلائل على ذلك مصير الساحات التي كانت تحيط بالقصور الفاطمية ، والتي أخذت بالتحول إلى أحياء سكنية فقد ظهرت عليها رحاب مثل رحبة قصر بشتاك[(٤)] وهي من جملة أراضي بين القصرين [(٥)] ورحبة ضروط[(٦)] ورحبة الايدمري [(٧)] وهما من جملة أراضي رحبة قصر الشوك[(٨)] . في حين أن رحبتي الحلي[(٩)] واقبغا [(١٠)] من أراضي رحبة الجامع الأزهر[(١١)] .

---

(١) تنسب هذه الرحبة إلى الملك العادل كتبغا لأنها تقع تجاه داره . المقريزي : م . س ٢/ ٥٠ .

(٢) المقريزي : ن . م . س .

(٣) الخاصكي : التحفة الفاخرة لوحة ٦٣ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ٥٥ .

(٤) سميت برحبة قصر بشتاك لأنها تقع تجاه قصر يعرف بقصر بشتاك . المقريزي : الخطط ٢/ ٤٨ .

(٥) ن . م . س .

(٦) تنسب هذه الرحبة لأمير ضروط الحاجب كان يسكن عند هذه الرحبة . المقريزي : ن . م . س.

(٧) تنسب هذه الرحبة إلى أحد مماليك الأمير عز الدين الأيدمري نائب السلطنة في أيام الملك الظاهر بيبرس . ن . م . س.

(٨) ن . م . س .

(٩) عرفت هذه الرحبة بالقاضي نجم الدين أبي العباس أحمد بن شمس الدين على الحلي التاجر ، المقريزي : م . س ٢/ ٤٧ .

(١٠) عرفت هذه الرحبة بالأمير أقبغا عبد الواحد استدار الملك الناصر محمد قلاوون . المقريزي : م . س ٢/ ٤٨ .

(١١) المقريزي : م . س ٢/ ٤٧ ، ٤٨ .

وبالإضافة إلى هذه الرحاب الجديدة فلقد عرفت المدينة ميادين جديدة أيضا . فمن الواضح أن اختفاء ميادين القاهرة الفاطمية سيستدعى ظهور ميادين جديدة تلبى احتياجات المدينة ، وعلى الأخص احتياجات الدولة فى هذا الإطار ، حيث أن الميادين علىٰ علاقة وثيقة بالسلطة كما سبق أن أشرنا . لذلك فقد أخذت بعض الميادين بالظهور خارج سور المدينة . ومن المؤكد أنه قد أنشىء بجوار بركة الجب ميدان . إذ أن صلاح الدين الأيوبى كان يمارس لعبة الأكره عند هذه البركة كما سبق أن ذكرنا . علاوة على أن الجيوش قد أصبحت تجتمع فيها قبل المسير إلى الجهاد . ففى الحادى عشر من ذى القعدة من عام (٥٧٧هـ/ ١١٨١م) خرج السلطان صلاح الدين الأيوبى (... إلى بركة الجب ، لتجريد العساكر والمسير إلى الشام ...) [١] ومثل هذه الأمور تحتاج إلى وجود ميدان تمارس تقاليدها على أراضيه . وبالإضافة إلى ذلك الميدان فلقد كان هناك ميدان آخر للعب الأكره ، ينسب إلى قراقوش ، وكان يقع خارج باب الفتوح [٢]، ومن الواضح أنه كان قد أعده بهاء الدين قراقوش ، وجعله للعب الأكره التى كانت من الألعاب الرياضية المحببة فى ذلك العصر . بل إن مصلى العيد الذى يقع خارج باب النصر[٣] قد جرى تحويله إلى ميدان مؤقت للعب الأكره ، فيذكر أحمد الحنبلى أثناء حديثه عن حادثة وفاة والد صلاح الدين الأيوبى نجم الدين أيوب [٤] بأنه (... ركب يوما وخرج من باب النصر يريد الميدان ...) [٥]. ومن الواضح أن هذا الميدان هو فى موضع المصلى حيث صار يعرف بعد ذلك بميدان العيد [٦].

---

(١) المقريزى : السلوك ١/ ق ١ ٧٦ .

(٢) السخاوى : تحفة الأحباب ص ٢٢ .

(٣) المقريزى : الخطط ١/ ٤٥١ ، ٢/ ١٣٨ . عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ٣٨٧ .

(٤) للمزيد عن حادثة الوفاة هذه انظر : أبو شامة : الروضتين ١/ ق ٢ ٥٣٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١/ ٢٣٠ .

(٥) الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ٤٥ .

(٦) المقريزى : السلوك ١/ ق ٢ / ٥٧٢ .

(و) المقابر :

إن من الضرورى أن يكون لكل مدينة أو قرية موضع مخصص لدفن الموتى ، وهو ما تأكد فى التخطيط العمراني للمدينة الإسلامية ، حيث كان لأهل كل خطة مساحة من الأرض مخصصة لدفن الموتى من سكانها[١] .

ولقد شهدت مقابر القاهرة الكبرى تحولات أساسية فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، من أبرزها التوقف عن الدفن فى بعض المقابر ، كما حدث لتربة الزعفران[٢] ، فقد توقف عن الدفن بها منذ تلك الفترة ذلك أنها كانت مخصصة للأسرة الفاطمية [٣] ، التى انقضى عهدها ولم تعد تستخدم بدورها كمقبرة ، وإنما احتفظ بها كأثر إلى أن أزيلت فى العصر المملوكى ، وبنى فى موضعها الخان المعروف بخان الخليلى [٤] .

ومن المقابر التى توقف عن الدفن بها خلال فترة البحث ، المقبرة الواقعة خارج باب زويلة[٥] . ذلك أنها كانت فى العصر الفاطمى مخصصة لكى يدفن

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٨٠ .

(٢) وكانت تعرف أيضا بالتربة المعزية نسبة للمعز لدين الله الفاطمى الذى أسسها وجعلها من ضمن مرافق القصر الشرقى الكبير ، عنها انظر المقريزى : الخطط ١/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨ ، ٢ / ٤٤٢ ـ ٤٤٣ ، السخاوى : تحفة الأحباب ص ٩٠ ، ١٠٤ ، حسن الباشا وأخرون : القاهرة ص ٥٣ ، عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ٩٤ .

(٣) ن . م . س .

(٤) ولقد بنى هذا الخان الأمير جهاركس الخليلى (ت ٧٩١ هـ / ١٣٨٨ م) وجعله وقفاً على فقراء مكة . المقريزى : م . س ٢/ ٩٤ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١١٣ .

(٥) نشأت هذه المقبرة منذ أن بنيت الحارات خارج باب زويلة فى العصر الفاطمى ، ويبدو أنها هى المقبرة التى ذكرها المسبحى بأنها تعرف بمقابر القاهرة ، أثناء حديثه عن وفاة أحد قادة الفاطميين ، حيث ذكر بأنه دفن فى مقابر القاهرة ، أثناء حديثه عن ظواهر القاهرة الفاطمية حيث يذكر بأن هذه المقبرة كان لأهل القاهرة ، ولقد كانت هذه المقبرة تشغل المنطقة الواقعة فيما بين جامع الصالح طلائع بجوار باب زويلة إلى الشرف الذى عليه قلعة الجبل . انظر : المسبحى ، أخبار مصر ص ٢٢٦ ، المقريزى : م . س ١/ ٣٦٤ ، ٢ / ١٣٦ ، ٢٠٢ ، ٤٤٣ ، السخاوى م . س ص ١٠٤ ، حسن الباشا وآخرون : م . س ص ٤٧٩ ، وانظر خريطة رقم (٢) .

بها الموتى من سكان الحارات الواقعة خارج هذا الباب (١) . والملاحظ أنه منذ عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى قد توقف الدفن فيها ، حيث أخذ البناء يمتد فيها تدريجيا ابتداء من هذه الفترة ، ذلك أنه ما أن عمرت قلعة الجبل حتى أخذ البناء يتقدم على حساب هذه المقبرة شيئا فشيئا (٢) . وبالإضافة إلى هذا المظهر العمرانى الذى تعرضت له المقابر ، فمن الواضح أن مقابر باب النصر (٣) ، قد جرى إضافة أجزاء إليها من مصلى العيد الذى يقع فى هذه المنطقة . حيث تم اقتطاع جزء منه ليضاف إلى المقبرة ، فلقد قام الأمير نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ببناء مصلى للأموات على جزء من الموضع الذى كان الخلفاء الفاطميون يخطبون فيه أيام الأعياد (٤) . مما يشير إلى تحول أجزاء منه إلى مقبرة خلال ذلك العصر ، ربما بهدف توسعتها . وقد جرى الأمر على نفس المنوال فى مقبرة القرافة(٥). فهذه المقبرة قد تزايد الاهتمام للدفن فيها فى عهد صلاح الدين الأيوبى (٦) ، ولا شك فى أنها قد أصبحت اعتبارا من ذلك الوقت عامة لسكان الفسطاط والقاهرة وهو أمر يختلف عما كان عليه الحال فى العصر الفاطمى ، حيث لم يجر استخدامها كمقبرة لسكان القاهرة إلا فى أوائل

المقريزى أثناء حديثه عن

(٢) المقريزى : م . س ٢/ ١٣٦ .

(٣) بدأت هذه المقبرة بالظهور بعد وفاة الوزير الفاطمى بدر الجمالى (٤٦٦ ـ ٤٨٧ هـ / ١٠٧٣ ـ ١٠٩٤ م) حيث دفن بشمالى مصلى العيد وبدأ الناس بالدفن من هذه الناحية الشمالية الشرقية للقبر المذكور وصولا إلى الريدانية . المقريزى : م . س ٢/ ١١٠ ـ ١١١ ، ١٣٨ ـ ١٣٩ ، ٤٤٣ . السخاوى : تحفة الأحباب ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٤) السخاوى : م . س. ص ٣٥ ـ ٣٦ ، وهذا المسجد يذكر على باشا مبارك ، بأنه يعرف فى عصره بمسجد الست زينب ، وفى حين أن الحديدى يذكر بأن زاوية بدر الدين النقيب هى موضع هذا المسجد . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢/ ٢١٣ ، فتحى الحديد : القاهرة ص ٧٨ .

(٥) سميت بالقرافة نسبة إلى قبيلة من المعافر يدعون بنى قرافة ، ولقد كانت هذه المقبرة فى الأصل منطقة أحياء سكنية وخطة من خطة الفسطاط الأولى . ياقوت الحموى : المشترك ص ٣٤١ ، معجم البلدان ٢١٧/٤ . المقريزى : م . س ٢ / ٤٤٣ ، عبد العال الشامى : مدن مصر وقراها ص٥٤ .

(٦) عبد الرحمن زكى : الفسطاط ص ٣٢ .

عهدهم ، حيث دفنوا بعض أتباعهم فيها ، قبل أن يعدلوا عن ذلك ، ويوجهوا الدفن إلى المقابر الواقعة خارج باب زويلة [١] . وقد ترتب عن هذا التغيير أن تظهر الحاجة إلى توسيع القرافة بما يكفى لكى تستوعب حالات الوفاة الطبيعية فى المدينتين معا . لذلك فقد جرت توسعات فيها شملت بعض المواضع التى كانت أصلا مناطق سكنى ، فمدينة باب ليون التى أحرقت فى حريق الفسطاط عام (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م) يشير ابن دقماق إلى أنها أضحت جزءا من مقبرة القرافة[٢] . ومن الواضح أنها القرافة الكبرى [٣] ، إذ أن هذه المدينة كانت تشمل الرصد كما سبق أن ذكرنا ، والذى أضحى جزءاً من هذه القرافة كما يشير إلى ذلك المقريزى أثناء حديثه عن بعض مساجدها[٤] . وعلى الرغم من أنه يذكر أثناء حديثه عن مقابر المدينة الكبرى ، بأن القرافة الكبرى هى أقدم مقبرة فى المدينة على الإطلاق [٥] ، وأنها ظلت كذلك إلى العصر الفاطمى[٦] . أو إلى ما بعده كما يشير أثناء حديثه عن القرافة الصغرى [٧] . بيد أن من الواضح أن المقصود هو أجزاء منها وليس كلها . ويدل على ذلك التغيير الحاصل فى علاقة القرافتين بالفسطاط خلال العهود المتعاقبة ، إذ أن ياقوت الحموى حينما يتحدث

---

(١) المقريزى : م . س ٢ / ٤٤٢ ـ ٤٤٣ .

(٢) ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

(٣) وحسبما يرد فى المصادر فمن الواضح بأن القرافة انقسمت فى عهد الملك الكامل الأيوبى (٦١٥ ـ ٦٣٥هـ / ١٢١٨ ـ ١٢٣٨م) إلى قرافتين الصغرى والكبرى ، فالصغرى تقع ناحية قبر الإمام الشافعى ، والكبرى حيث يوجد جامع الأولياء . المقريزى : الخطط ٢ / ٤٤٤ ـ ٤٤٥ .

(٤) انظر فيما يذكره المقريزى عن مساجد الرصد ، وشقيق الملك ، والأنطاكى والذى يجعلها من جملة مساجد القرافة الكبرى ويذكر فى ذات الوقت بأنهم كانوا يقعون على الرصد . المقريزى : م . س ٢ / ٤٤٠ ـ ٤٤٦ .

(٥) المقريزى : ن . م . س .

(٦) المقريزى : م . س / ٤٤٢ ، وانظر ما يذكره السخاوى نقلا عن المقريزى . السخاوى : تحفة الأحباب ص ١٠٤ .

(٧) المقريزى : ن . م . س .

(١) المقريزى : م . س ٢ / ٤٤٤ .

عنهما فإنه يذكر بأن القرافة الصغرى كانت أقرب إلى المدينة من القرافة الكبرى ، حيث يقول « ... وهما قرافتان متصلتان : القرافة الصغرى وهى أقربهما إلى الفسطاط وبها قبر الإمام محمد بن إدريس الشافعى ... » [(١)] . وفى حين يشير المقريزى إلى قرب القرافة الكبرى من المدينة فى عصره ، فيذكر بأنه « ما كان منها شرقى مصر بجوار المساكن يقال له القرافة الكبرى ... » [(٢)] ، مما يشير إلى مدى توسع القرافة الكبرى حتى أضحت أقرب من الصغرى بالنسبة للمدينة[(٣)]. وهو توسع على حساب المناطق السكنية التى تضررت كثيرا من حريق الفسطاط، وأضحت خارج السور ، كما يتبين من حديث ابن دقماق عن مدينة باب ليون

---

(١) ياقوت الحموى ، المشترك ، ٣٤١ .

(٢) المقريزى : م . س ، ٢ / ٤٤٢ .

(٣) على الرغم من أن الصعب تحديد أبعاد حركة التمدد بشكل دقيق على المدلول المكانى للقرافة الصغرى والكبرى ، إلا أنه بالإمكان القول بأن القرافتين كانتا فى العصر المملوكى تحصران قناطر ابن طولون التى كانت تفصل فيما بينهما كما يشير إلى ذلك المقريزى أثناء حديثه عن خطة المغافر بحيث تكون القرافة الكبرى فى الناحية الغربية من هذه القناطر حيث يوجد جامع الأولياء بينما تكون الصغرى إلى الشرق والشمال الشرقى منهما . إلا أنه يبدو أن هذا الوضع لم يكن كذلك مع بداية ظهور هاتين القرافتين إذ أن المقريزى عندما يتحدث عن وضع القرافة فى القديم يذكر بأنها كانت تمتد من مسجد الفتح إلى سفح المقطم ، ثم توسعت شمالا على ما يبدو بحيث احتلت المنطقة الواقعة فيما بين خطة المغافر ومصلى خولان فى حين أنه يذكر بأن خطة المغافر تعرف فى عصره بالقرافة الكبرى ، فإذا أخذنا بالاعتبار قول المقريزى بأن القرافة الكبرى هى أقدم موضع للدفن فإن هذا يعنى بدوره أن جزءا كبيرا منها قد انفصل عنها وأصبح من جملة القرافة الصغرى ، حيث يذكر المقريزى بأن هذه القرافة تقع على سفح الجبل . أى فى ضمن أجزاء من الموضع الذى كانت تشغله المقبرة فى القديم . أى أن القرافة الكبرى خسرت أجزاء منها لصالح الصغرى ، لتقوم بتعويضها من الجهة الثانية الغربية ، على حساب المواضع السكنية .

انظر : المقريزى : م . س ١ / ٢٩٨ ، ٢ / ٤٤٢ ، ٤٤٤ ـ ٤٤٥ .

وعن موقع جامع الأولياء ومسجد الفتح وقناطر ابن طولون انظر :

Casanova, Paul, de Reconstitution, plan 1 .

والذى سبقت الإشارة إليه . ومن المؤكد أن هذا التوسع قد تم فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، حيث أن المواضع المذكورة لم تعد لها أهمية سكنية بدليل أنها لم تضم إلى ما شملته أسوار المدينة ، وربما ساعد ذلك على تحويلها إلى مقبرة ، إذ أن ياقوت الحموى الذى زار مصر فى أوائل القرن السابع (٧هـ/١٣م) يذكر فى ثنايا وصفه القرافة الكبرى بأن (... فيها مقابر ومشاهد ومنازل كثيرة ومساكن لأهل مصر وبها سوق وجامع ...)[(١)]. وهذا يدل على تحول المنطقة إلى مقابر ، رغم وجود المفهوم السكنى فيها . نظرا لأن منطقة المقابر كانت أيضا منطقة سكنية للمتصوفة والمنقطعين عن الدنيا . بيد أنها كانت على نطاق ضيق ، إذ أن هؤلاء كانوا يشكلون كثافة قليلة العدد[(٢)].

ولم يكن التوسع فى القرافة قاصرا على المناطق السكنية ، وإنما اتجه أيضا ناحية الصحراء فى الجبل فالمقريزى أثناء حديثه عن مساجد الجبل والصحراء بالقرافة التى عرفت فى وقته بالقرافة الصغرى [(٣)] وأثناء حديثه عن مسجد لؤلؤ الحاجب الذى بنى فى تلك الأثناء [(٤)] يذكر بأنه قد بنى بجانب المسجد مقبرة[(٥)]، مما يشير إلى توسع المقبرة فى الناحية التى يقع فيها المسجد [(٦)].

وبشكل عام فإنه بالإضافة إلى التطورات السابقة ، فإن المتابعة الجغرافية لها تكشف عن نتيجة عمرانية أخرى ، وهى أن المقابر قد حولت لتكون خارج المدينة

---

(١) ياقوت : المشترك ص ٣٤١ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٣ ٣٧٥ .

(٣) المقريزى : م . س ٢ / ٤٥٥ - ٤٥٦ .

(٤) ينسب هذا الجامع للؤلؤ الحاجب . المقريزى : م . س ٢ / ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٥) ن . م . س .

(٦) يصعب تقديم تحديد دقيق لاتجاه التوسع هذا على الخرائط نظرا لعدم توفر معلومات تفيد فى التعرف على موقع المسجد وإنما بالامكان القول بأن هذا التوسع كان ناحية الجبل بشكل عام .

الكبرى وأن سور صلاح الدين الأيوبى كان حدا فاصلا ، ذلك أن المقابر التى توقف استخدامها كانت تقع في داخل السور ، فى حين أن المستحدثة كانت تقع فى خارجه[1] .

(١) انظر خريطة رقم (١) .

الفصل الثالث

منشـآت المرافـق

من المعروف أن أى مدينة تشمل عمائر ومنشآت مختلفة الأنواع ، فمنها ما هو دينى الطابع كالمساجد وما شابه ذلك ، ومنها ما هو مدنى كالمنازل والمنشآت الاقتصادية ، ومنها ما هو حربى كالقلاع ، والأسوار ، بل إن هذه التقسيمات للعمائر تحوى فى داخلها على فروع تزيد من مدى التشعب لأنواع المنشآت ، فالمنازل فى حد ذاتها يمكن تقسيمها إلى أجزاء عدة فهناك القصور ، وهناك الأدر الاعتيادية ، ومنها ما هو صغير جدا فعرف فى اللغة بالدويرة [(١)] . وتعتبر هذه المنشآت الوعاء المادى للعمران فمن خلالها يمارس الإنسان العديد من أوجه نشاطه الحضرى . فالمساجد كانت فى الصدر الأول للإسلام مركزا للعديد من الأنشطة والوظائف الاجتماعية فعلاوة على كونها مركزا للعبادة ، فلقد كانت مقرا للإدارة والحكم ، وساحة لاجتماع الجيوش ، ودارا لاستقبال الوفود ، وغير ذلك من الوظائف [(٢)] .

ولقد حث الإسلام على البناء والتشييد ، فبناء المساجد يعد من أعظم القربات لله تعالى [(٣)] . كذلك فإن من واجبات الحاكم تحصين الثغور وتأمين السبل ، وتشييد ما يلزم ذلك من عمائر واستحكمات [(٤)] . وكان على المحتسب الاهتمام بمرافق المدينة ، والسعى لتوفير ما يلزم منها فى حال عدم توفره [(٥)] . بل إن الفقهاء أوصوا بأن يحرص المسلم على أن يكون له دار يسكنها [(٦)] ، الأمر الذى يدفع بالتأكيد نحو البناء والتشييد . وفى ضوء هذه المفاهيم التى تعكس عمقا حضاريا ، وبتوفير الظروف الملائمة للاستقرار وأمن ورخاء اقتصادى ـ فإن المدينة

---

(١) الزبيدى : تاج العروس ٣ / ٢١٣ .

(٢) أحمد شلبى : التربية الإسلامية ص ١٠٢ .

(٣) قال تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر .. ﴾ التوبة آية ١٨ .

(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٦ محمد عبد الله الشيبانى : نظام الحكم والإدارة فى الدولة الإسلامية (منذ صدر الإسلام إلى سقوط الدولة العباسية) الرياض ط الثانية ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص ٨٢ .

(٥) الماوردى : م . س ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

(٦) أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن الحبشى (ت ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م) البركة فى فضل السعى والحركة ، بيروت ،١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م ، ص ٢١ ـ ٢٢ .

الإسلامية تتحول إلى ساحة عمل كبرى ، تشيد فيها العمائر والمرافق باصرار وصبر دؤوبين . الأمر الذى سيكون له - وبدون أدنى شك - أكبر الأثر فى تطور وازدهار حركة البناء والتشييد ، فترقى فنونها وتتعدد أساليبها ، وتتشعب أنواعها [(١)] .

ونظراً لأن عهد الناصر صلاح الدين قد تميز بتوفير العناصر الملائمة لبروز النشاط المعمارى [(٢)] ، فلقد انعكس ذلك فى ازدهار هذا النشاط فى القاهرة بشكل عام [(٣)] . ويمكن تحديد أبرز مظاهر الازدهار فى العناصر التالية :-

(أ)عمائر تدخل المدينة لأول مرة

ليس من المغالاة إذا ما قلنا بأن دخول أنواع جديدة من العمائر للقاهرة يعد من أبرز مظاهر الازدهار الإنشائى فيها فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى . حيث أنه بذلك أضاف إلى المدينة طابعا معماريا وعمرانيا جديدا فى تلك الأثناء .

ومن أبرز العمائر التى دخلت إليها حينئذ القلعة ، التى يذكر ابن كثير بأنها دخلت البلاد لأول مرة على يد صلاح الدين[(٤)] .

ونظرا لأن المصادر التاريخية لا تنقل عن الناصر صلاح الدين ما يفيد إلى تحديد الأسباب التى دفعته نحو بناء القلعة ، فلقد اختلف المؤرخون فى تحديد هذه الأسباب . فالمقريزى يذكر بأن سبب بنائها خوف الناصر صلاح الدين من شيعة الفاطميين ، الذين كانوا يحاولون إعادة نبض الحياة إلى خلافتهم ، علاوة على خوفه من الملك العادل نور الدين زنكى ، الذى تذكر المصادر بأنه قد حدث بينه وبين صلاح الدين جفوة ، وأن العادل قد عقد العزم على إزالته عن حكم

---

(١) ابن خلدون : المقدمة / ١ / ٣٧٢ .

(٢) سبق الإشارة فى الباب الأول وعلى الأخص فى الفصول الثانى ، والثالث ، والرابع إلى وجود عوامل دفعت إلى تكثيف نشاط البناء . فانظرها هناك .

(٣) أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ٢ / ٢١ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢ / ٢٩٧ ، وانظر أيضاً فى هذا الصدد حسن الباشا وآخرون : القاهرة ص ٢٢٩ ، عبد الرحمن زكى : القاهرة ص ٦٥ ، لينبول : سيرة القاهرة ص ١٥٧ .

مصر [١] ولقد أثيرت بعض الاعتراضات حول هذا التفسير ، فهناك من يرى بأن خشية الناصر صلاح الدين من ثورة داخلية محتملة ، ليس السبب المباشر الذى دفعه لبناء القلعة [٢] ، ولعل مرد ذلك أن الناصر صلاح الدين كان عندما أمر ببنائها عام (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) قد بلغ مقدار من القوة بحيث يصعب على شيعة الفاطميين مواجهته . حيث أضحى حاكما على أجزاء كبيرة من الشام ، علاوة على مصر وبلاد اليمن كما سبق أن وضحنا . بل إن انتصاراته على شيعة الفاطميين وقدرته على تحطيم دولتهم ، وهى أحداث سبقت ذلك التاريخ[٣] تدل بوضوح على أنه كان يتمتع بمركز قوى فى مصر منذ فترة مبكرة حيث يدعم وجوده جيش قوى يديره عدد من أخوته وأقربائه وأمراء أوفياء[٤] ، أما بالنسبة لما ذكره المقريزى آنفا من خوف الناصر صلاح الدين من الملك العادل نور الدين زنكى ، فلقد اعتبره كريزويل تفسيرا مرفوضا أيضا ، ذلك أن تاريخ صدور الأوامر ببناء القلعة تلا وفاة نور الدين بعامين تقريبا ، حيث أنها صدرت عام (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) فى حين أن وفاة الملك العادل كانت فى عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ . مما يشير إلى وجود فرق بين الأمرين ، حيث ذكر كريزويل إلى أنه لم يدر فى خلد الناصر صلاح الدين التفكير بتأسيس القلعة قبل ذلك التاريخ [٥] . ويرى بعض المؤرخين المحدثين دوافع أخرى حدت بالناصر لبناء هذه المنشأة ، فهناك من يعتبر أن وجود الخطر الصليبى السبب الرئيسى الذى دفع بالناصر لبناء تحصينات المدينة بشكل عام [٦] ، ومنها القلعة بطبيعة الحال ، فقد دلت التجارب أكثر من مرة على إمكان سقوط المدينة فى حين تظل القلعة صامدة وسبيلا للاسترداد [٧] .

---

(١) المقريزى : الخطط ٢ / ٢٠٣ .

(٢) كريزويل : وصف قلعة الجبل ص ١٣ .

(٣) سبق ذكر هذه الأحداث .

(٤) كريزويل : م . س ، ص ١٣ .

(٥) كريزويل : م . س ، ص ١٤

(٦) حسن الباشا وآخرون : القاهرة س ٤٤٧ ، أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ٢ / ٢٢ .

(٧) حسن الباشا وآخرون : م . س ، ص ٤٨٠ ، كريزويل : م . س ، ص ١٣ .

وبالتالى فإن بناء القلعة من جملة استحكامات المدينة من الأسباب التى تزيد من منعتها وقوتها ، وخاصة وأن الخطر الصليبى تزايد على مصر منذ أن اعتلى بنى أيوب سدة الأمر والنهى فيها . ومن هؤلاء المؤرخين من يرى وجود دوافع حضارية أسهمت فى بناء هذه القلعة فيعتبرون أن بناء هذه المنشأة فكرة أتى بها الناصر صلاح الدين من بلاد الشام ، حيث كان لكل مدينة فيها قلعة تحميها [١] . علاوة على استخدامها كمركز للحكم والإدارة [٢]. ومن هؤلاء المؤرخين من ذهب بعيدا فى إضفاء أسباب أخرى لبناء هذه المنشأة ، حيث وجد بعضهم أسبابا معنوية لهذا الأمر ، فاعتبروا أن كره الناصر لقصور الخلفاء الشيعة هو الذى دفعه نحو بناء القلعة[٣].

وعلى أية حال فإن مشروعا كهذا لا يمكن أن يبرز بدون وجود أسباب ذات أهمية كبرى ، نظرا لكونه باهظ التكاليف[٤] . وبالتالى فإن وجود الاعتبارات سابقة الذكر مجتمعة كأسباب دفعت بالناصر لبناء القلعة أمر يمكن قبوله .

إذ من الواضح أن وجود الأسباب العسكرية والأمنية التى سبق ذكرها أمر له أهميته فى تلك الأثناء ، فالعماد الأصفهانى ينقل عن الناصر صلاح الدين ما يفيد اهتمامه بحماية المدينة وصيانتها من الغزو وذلك أثناء حديثه عن الأسباب التى دفعته للقيام بمشروع التحصينى لها ، والذى كان بناء القلعة جزءا رئيسيا منه[٥] . ويذكر القاضى الفاضل فى إحدى رسائله أن تحصين المدينة وعلى الأخص السور ، قد نشر الطمأنينة بين سكانها بشكل عام [٦] . وبالتالى فإن وجود القلعة

---

(١) لينبول : سيرة القاهرة ص ١٥٧ ، كريزويل : م . س ، ص ١٣ .
عبد الرحمن زكى : القاهرة ص ٦٥ .

(٢) المقريزى : الخطط ٢ / ٢٠٣ ، أحمد فكرى : م . س ، ٢ / ٨ .

(٣) لينبول : م . س ، ص ١٥٧ ، عبد الرحمن زكى ، القاهرة ص ٦٥ .

(٤) كريزويل : م . س . ص ١٤ .

(٥) البندارى : سنا البرق ص ١١٩ .

(٦) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ٣ / ورقة ١٢٧ .

فى موضع مطل عليها يمكن مشاهدته من كافة أرجائها ، سيرمز للقوة والسلطان ويعتبر ذلك عامل ردع أمام من تسول له نفسه بالعصيان والشغب ، الأمر الذى سيسهم على وجه التأكيد فى نشر الأمن للشعب والسلطة نفسها . أما القول بأن فكرة القلعة قادمة من الشام ، فهو أمر لا مرية فيه ، ففى ضوء الاحتياجات العسكرية والأمنية سابقة الذكر ، سيلجأ صلاح الدين إلى خبراته الحضارية فكانت هذه المنشأة التى شاهدها هناك كما سبق أن ذكرنا . كذلك فإن كره الصلاح لمعالم الفاطميين ، والمتمثلة فى قصورهم ، اعتبارا يمكن الجزم بوجوده ، إذ أن الدولة الجديدة ترغب فى طمس المعالم السابقة لها ، وبالتالى فإن بناء القلعة يعد لفتا لأنظار الشعب نحو السلطة الجديدة بهدف إبعادهم عن تلك التى قبلها .

ولقد تم اختيار موقع هذه المنشأة بحيث يكون مشرفا على كافة أرجاء المدينة الكبرى . وجرت تسويته بحيث يكون معدا لبنائها فجرى إزالة القبور ، وبعض المنشآت المقامة هناك مثل المساجد وغيرها لكى لا تقف حائلا دون إتمام مخطط المشروع [(١)] .

وتكاد تتفق المصادر على أن الشروع فى تنفيذ بناء القلعة . كان فى عام (٥٧٢هـ/ ١١٧٦) بأمر مباشر من الناصر صلاح الدين الأيوبى بحيث تكون القلعة جزءا من مشروع تحصينى للقاهرة الكبرى يتكون من قلعة فى وسط سور كبير يحيط بأرجاء واسعة من المنطقة [(٢)] . وعندما زار ابن جبير القاهرة أواخر عام (٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) شاهد الأعمال مستمرة بهدف انجاز هذا المشروع ، وعلق على ذلك فيقول عن القلعة : « وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتصل

---

(١) أبو شامة : الروضتين ١ / ق٢ / ٦٨١ ، البندارى : سنا البرق ص ١١٩ المقريزى ٢ / ٢٠٣ . كازانوفا تاريخ قلعة القاهرة ص ٦١ ـ ٦٧ ، كريزويل : وصف قلعة الجبل ص ١٩ .

(٢) أبو شامة : م . س ١ / ٦٨٨ ، البندارى : ن . م . س ، الحنبلى ، شفاء القلوب ص ٩٣ ، المقريزى : ن . م . س ، ويذكر ابن كثير بأن أمر البناء صدر فى أوائل عام (٥٧٣هـ / ١١٧٧م) . ابن كثير : البداية والنهاية ١٢ / ٢٩٧ .

بالقاهرة حصين المنعة يريد أن يتخذه السلطان موضع سكناه »[١] . ويشير نقش كتابى يقع بجوار أحد أبواب القلعة إلى أن الانتهاء من أعمالها قد تم فى عام (٥٧٩هـ/ ١١٨٣م)[٢] . بيد أن المقريزى ذكر أن الناصر صلاح الدين توفى قبل إتمام العمل فيها وأن استكمال أعمالها كان على يد الملك الكامل الأيوبى ، الذى أنشأ بها الأدر السلطانية عام (٦٠٤هـ/ ١٠٢٧ م)[٣] . وتحول إليها من دار الوزراة . فأصبحت منذ ذلك الحين مقرا للسلطان [٤] . ولقد أيد كازانوفا هذا التصور بدعوى أن البئر التى بنيت للقلعة فى عهد الناصر صلاح الدين تقع فى الوقت الحاضر خارج أسوار القسم المحصن منها[٥] . والراجح أنه قد تم الانتهاء من بناء هذه المنشأة فى عهد الناصر صلاح الدين ، وفق ما كان مخطط لها ، أما ما حدث على يد الكامل الأيوبى ، فلا يعدوا كونه تعديلات واضافات اجريت على المبنى ، يدل على ذلك أنه قد أُحدثت فى تلك الأثناء إضافات على الأجزاء التى تعود لعهد الناصر صلاح الدين . حيث دعمت هذه الأجزاء بأبراج جديدة ، وجرى تقوية وتدعيم القديم منها[٦] . وكون بئرها تقع خارج أسوارها فى الوقت الحاضر ، فإن هذا مرده إلـى التعديلات التى أجريت على هذه المنشأة فى عصور لاحقة [٧] ، فى حين أنها كانت فى عهد الناصر

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٢٥ .

(٢) كازانوفا : م . س ، ص ٧١ ـ ٧٢ ، ولقد اعتبره أحمد فكرى هو تاريخ الإنتهاء من أعمال هذه القلعة . أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ٢ / ٢٨ .

(٣) المقريزى : الخطط ٢ / ٢٠٣ .

(٤) المقريزى : م . س ١ / ٨٤٨ . ومن الواضح أن هذا التحول تم عندما كان الكامل وليا للعهد ، كما يذكر المقريزى . المقريزى : م . س ٢ / ٢٠٣ . أى أن سكنى هذه القلعة تم فى عهد الملك العادل الأيوبى وهو ما ذكره ابن فضل الله الذى ذكر بأن العادل سكن القلعة . ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ٣ / ورقة ١٢٧ .

(٥) كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة الجبل ص ٧٤ ، ٨١ .

(٦) أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ٣ / ٢٦ .

(٧) يدل على هذه التعديلات تلك الأضافات العديدة التى أدخلت على هذه المنشأة على مر العصور . انظر : بول كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ص ٨٨ ـ ٢١٩ .

صلاح الدين تقع ضمن هذه الأسوار[١] . ولقد نص مخطط مشروع القلعة على أن يبلغ محيطها ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع ، بذراع العمل الهاشمى[٢] . ولا شك أن معظمه يشمله فى الوقت الحالى القسم الشمالى الشرقى من قلعة الجبل[٣] . والذى تعود معظم مكوناته التخطيطية لعهد الناصر صلاح الدين[٤]، بل لا تزال أجزاء كبيرة منه يعود بنائها إلى ذلك العصر[٥] . فى حين أن القسم الجنوبى الغربى من القلعة والذى يحتوى الآن على منشآت عامة من قصور وجوامع، فإن ما يمكن نسبته منه لعهد صلاح الدين هو أجزاء يسيرة من سوره الجنوبى[٦] . علاوة على البئر التى تعرف الآن ببئر يوسف ، وهى بئر عميقة جدا نقرت فى الصخر بهدف توفير المياه للقلعة[٧] ، ولقد جرى هدم عدد كبير من

---

(١) كريزويل : م . س ، ص ١٠١ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ٣ / ٦٨٨ ، البندارى : سنا البرق ص ١١٩ ، القلقشندى صبح الأعشى ٣ / ٣٥١ ، كريزويل : ن . م . س . وقد سبقت الإشارة إلى الذراع الهاشمى .

(٣) يبدو أن التعديلات التى أعقبت عهد صلاح الدين والتى سبقت الإشارة إليها ، هى التى أدت إلى أن تنقسم القلعة إلى قسمين ، قسم محصن مخصص للأجناد وفيه ثكناتهم والآخر وفيه القصور والجوامع وغير ذلك من المنشآت . أحمد فكرى : م . س، ٣ / ٢٣ ـ ٢٤ ، كريزويل : م . س، ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٤) أحمد فكرى : م . س ٢ / ٢٥ ـ ٢٧ .

(٥) يعزى كريزويل إلى صلاح الدين الأيوبى حائط السور الممتد من الجانب الشرقى ببرج المقطم والمتجه نحو الجنوب والشمال حتى يقف عند الموضع الذى فيه المتحف الحربى حاليا . انظر كريزويل : م . س ص ١٠٠ ، عبد الرحمن زكى : قلعة صلاح الدين وما حولها من آثار القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م ص ٤١ .

(٦) يعتقد كريزويل : أن جزءا من جدار سور صلاح الدين فى هذا القسم لا يزال مردوما فى الجزء السميك جدا من الجدار الواقع بين برج المقطم والبرج الواقع بجوار بئر يوسف . كريزويل : م . س ، ص ١٠١ .

(٧) ومن الواضح أنه كان هناك حرص لتوفير المياه للقلعة حيث اعتمد فى ذلك على مصدرين رئيسيين ، أولهما البئر والتى لم تكن مائها تستخدم للشرب نظرا لملوحتها ، ويبدو أن بنائها كان عام ٥٨٣هـ / ١١٣٧م وثانيهما عبارة عن سواقى مياه جعلت على السور المحيط بالفسطاط القلقشندى : صبح الأعشى ٣ / ٣٧٢ ، عبد الرحمن زكى : م . س ، ص ٣٩ ـ ٤٠ ، سعاد ماهر : مجرى مياه فم الخليج ، بحث منشور فى المجلة التاريخية المصرية ١٩٥٨م ٧ / ١٤١ .

الأهرام الصغيرة التى توجد بالجيزة لتبنى بها هذه المنشأة[(١)] .

ومن المنشآت الجديدة التى دخلت المدينة لأول مرة فى عهد الناصر صلاح الدين المدارس [(٢)] ، وهى مؤسسة تعليمية أتى بها صلاح الدين من الشام ، مقتديا بذلك بالملك العادل نور الدين زنكى [(٣)] ، وذلك لتشجيع العلم ونشره ومحاربة التشيع ، بإزالة ما علق فى أذهان الناس من بدع وخرافات .

وعلى الرغم من أن هناك من المؤرخين من يذكر بأن المدارس لم تدخل مصر إلا على يد الناصر صلاح الدين الأيوبى [(٤)] ، إلا أن الحقيقة على خلاف ذلك فلقد دخلت المدارس الإسكندرية قبيل زوال حكم الفاطميين ، حيث أسس فى تلك الأثناء مدرستان [(٥)] .

أما بالنسبة للقاهرة فإن دخول المدارس إليها لم يحدث إلا فى عهد الناصر صلاح الدين وبأمر منه [(٦)] ، حيث يذكر القلقشندى فى هذا الصدد بأن دخول

---

(١) المقريزى : ١ / ١٢٠ ، ٢ / ١٥١ ، ١٢٠ .

(٢) كانت بداية ظهور المدارس فى مشرق العالم الإسلامى فى أواخر القرن الثانى (٢هـ/٨م) وأوائل القرن الثالث (٣هـ / ٩م) ثم أخذت بالتوسع بعد ذلك خاصة منذ القرن الخامس الهجرى (٥هـ / ١١م) .

انظر : حسام الدين السامرائى : المدرسة مع التركيز على النظاميات . بحث مقدم للمجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية . عمان ١٤٠٦هـ/١٩٨٧م ، ص ٦ ـ ١٤ .

(٣) حسن الباشا وآخرون : القاهرة ، ص ٢٣٢ . أحمد بدوى : الحياة العقلية ص ٣١ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢٠٦/٧ ، السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة الأولى ، ١٣٨٧هـ / ١٩٧٨م ، ٢ / ٢٥٦ .

(٥) حسام الدين السامرائى : م . س ، ص ٣٠ ـ ٣١ ، أحمد فكرى : مساجد القاهرة ، ومدارسها ٢ / ٥٠ .

(٦) يذكر أحمد فكرى أثناء حديثه عن المدارس الأيوبية بأنه قد أسس فى القاهرة مدرستان فى أواخر العصر الفاطمى وهما مدرسة كانت توجد فى موقع مسجد معاذ الذى بنى سنة (٥٥٣هـ/١٥٧م) على مشهد الشريف معاذ بن داود ، ولقد أحال فى ذلك إلى على باشا مبارك فى خططه ٧٣/٢ ، ١٢٠/٥ . أما المدرسة الثانية فهى المدرسة المسرورية التى يذكر بأنها بنيت =

المدارس إلى القاهرة لم يحدث إلا بمجيء دولة بني أيوب ، التي كانت في هذا الشأن (... الفاتحة لباب الخير ، والغارسة لشجرة الفضل ...)[١] ولقد كانت بداية إنشاء المدارس علي يد صلاح الدين عندما كان وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد ، حيث أسس في عام (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م) مدرستان بالفسطاط بجوار جامع عمرو بن العاص ، أولهما المدرسة النصارية ، والتي عرفت بعد ذلك بابن زين التجار ، ثم بالشريفية نسبة لعلماء درسوا بها [٢] . وكانت تقع إلى الشرق مع جامع عمرو بن العاص[٣] ، وخصصت لتدريس المذهب الشافعي ، وكان في

= على يد مسرور الخادم أحد خدام الفاطميين في أواخر العصر الفاطمي . وأحال في ذلك إلى المقريزي في خططه ٢ / ٣٧٨ . والقلقشندي : صبح الأعشى ٣ / ٥٦ .

وبالرجوع إلى الإحالات المذكورة يلاحظ بأن الأستاذ الجليل أخطأ في تحديد أرقام بعض الصفحات فبالنسبة لمسجد معاذ فإن على باشا لم يذكر مسجد معاذ في ص ٨٣ وإنما ذكره في ص ٢٤٠ - ٢٤١ . من الجزء المذكور . كذلك فإن القلقشندي لم يذكر المدرسة المسرورية في ص ٣٥٦ ، وإنما ذكرها في ص ٣٥٢ . من الجزء المذكور . كذلك يلاحظ بأن تاريخ بناء المسجد الذي ذكره لم يرد على الاطلاق عند على باشا مبارك ، فضلا عن أنه لم يحدد المصدر الذي استقى منه تحديد التاريخ المذكور . ولعله قرأ خطأ السنة الوحيدة التي أوردها على باشا أثناء حديثه عن هذا المسجد وهي وفاة صاحب القبر والتي كانت في عام (٢٩٥هـ / ٩٠٤م) مما يدل على أنه لا يوجد تاريخ محدد لبناء الجامع والمدرسة ، الأمر الذي يدل على أن نتيجة أحمد فكري لا تقوم على أساس سليم . أما بالنسبة للمدرسة المسرورية فإن القلقشندي لم يحدد تاريخ بناء المدرسة في حين أن المقريزي يشير بشكل صريح إلى أن بنائها كان في العصر الأيوبي ، مما ينفي بشكل قاطع ما ذكره الأستاذ الفاضل . انظر المقريزي : الخطط ٢ /٣٧٨ ، القلقشندي : صبح الأعشى ٣ / ٣٥٢ ، على باشا مبارك - الخطط التوفيقية ٢ / ٢٤٠ - ٢٤١ ، ٥ / ١٢٠ - ١٢١ .

(١) القلقشندي : م . س ، ص / ٣٦٣ .

(٢) عرفت بابن زين التجار نسبة لأحد كبار علماء الشافعية ، وهو أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقي المعروف بابن زين التجار ، وعرفت بالشريفة نسبة للقاضي الشريف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد الحنفي قاضي العسكر ابن دقماق : الانتصار ٩٣/١٦ ، المقريزي : م . س ، ٣٦٣/٢ - ٣٦٤ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ٤٤٣ .

(٣) ابن دقماق : م . س ، ١ / ٩٣ .

موضعها حبس المعونة[١] جرى إزالته لتبنى المدرسة فى موضعه[٢]

ثم اتبع صلاح الدين هذه المدرسة بمدرسة أخرى هى المدرسة القمحية والتى عرفت بذلك لأن جزءا من جرايتها كان يصرف قمحا ، من ضيعه موقوفة عليها[٣] ويشير ابن دقماق إلى أنها كانت تعرف بالمالكية أيضاً [٤] نسبة للمذهب المالكى الذى كانت تختص بتدريسه ، فى أربعة زوايا [٥] فى كل واحدة منها مدرس عنده عدد من الطلبة [٦] . وكان فى موضعها قيسارية للغزل ، هدمها الناصر صلاح الدين وجعل مكانها المدرسة [٧] . وبعد أن تمكن الناصر صلاح الدين من القضاء على الدولة الفاطمية عام (٥٦٧هـ/ ١١٧٧م) ، أخذ فى المضى فى تأسيس المدارس فى القاهرة[٨] . ففى عام (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) بنى ثلاث مدارس ، اثنتان منها فى القاهرة وهما المدرسة السيوفية والتى سميت بذلك لأن سوق السيوفيين يقع على بابها [٩] . وجعلت هذه المدرسة لتدريس المذهب

---

(١) كان هذا الحبس فى الأصل خطة لقيس بن سعد بن عبادة الأنصارى رضى الله عنه ، جعلها بعد موته للمسلمين ينزلها ولا تهدم وجعلت مخزنا للفلفل بعض الوقت فى العصر الأموى ، فعرفت بدار الفلفل ، ثم جعلت فى العصر العباسى دار للشرطة ، وحولت إلى حبس فى العصر الفاطمى . المقريزى : م . س ٢ / ١٨٧ ـ ١٨٨

(٢) ابن الأثير : الكامل ٩ / ١١٠ ، أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ / ٤٨٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٣٤٣/٣ ، محمد بهادر : مختصر الفتوح ورقة ٧ ، ولقد أندثرت هذه المدرسة ولا يوجد أثر يدل عليها فى الوقت الحاضر . محمد رمزى التعليقات فى النجوم ٥ / ٣٨٥ هامش (١) .

(٣) المقريزى : م . س ، ٢/ ٣٦٤ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ٤٤٤ .

(٤) ابن دقماق : م . س ، ق١ / ٩٥ .

(٥) ن . م . س . ويذكر ابن الأثير أنها جعلت للشافعية ،وهذا مخالف لما أجمعت عليه المصادر . ابن الأثير : م . س ، ٩ / ١١٠

(٦) المقريزى : ن . م . س

(٧) ابن الأثير : ن . م س البندارى : سنا البرق ، ص ٥٧ ، القلقشندى م س ، ٣ / ٣٤٣ ، اندثرت هذه المدرسة ولا يوجد أثر يدل عليها فى الوقت الحاضر . محمد رمزى : التعليقات فى النجوم ٥ / ٣٨٥ هامش (٢)

(٨) عبد الرحمن زكى : القاهرة ، ص ٧١

(٩) المقريزى : م . س ٢ / ٣٦٥

الحنفي ، وقرر لها مدرس وعدد من الطلبة [١] ولقد جرى بنائها على أجزاء من الدار المأمونية . وفي نفس العام أيضا بنى مدرسة بجوار المشهد الحسيني[٢] ، ذكرتها بعض المصادر[٣] ، وإن كان المقريزي لا يشير إلى هذه المدرسة ، وإنما يذكر بأن الناصر جعل به حلقة للتدريس[٤] . وهي مدرسة يبدو أنها جعلت لتدريس المذهب الشافعي ، وألحق صلاح الدين المدرستين السابقتين بمدرسة ثالثة ، وهي المدرسة الناصرية بالقرافة [٥] ، والتي عرفت أيضا بالشافعي[٦] ، لأنها بنيت بالقرب من قبر الإمام الشافعي رحمه الله[٧] ، وهي من أكبر المدارس التي أنشأها صلاح الدين ، أشاد ابن جبير بكبر حجمها، وبما تحتوي عليه من مرافق ، وذلك في قوله بأنها (... مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، ولا أوسع مساحة ولا أحفل بناء يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها ، والبناء فيها حتى الساعة، والنفقة عليها لا تحصى)[٨] .
وكان يدرس بها المذهب الشافعي ، وقدر لها مدرس وعشرة معيدين وعدد

---

(١) ن . م . س . يدل عليها الآن جامع الشيخ مطهر من شارع الخرنجية ، علي باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢ / ١٠٩ ، ٦ / ٨ ، عبد الرحمن زكي موسوعة القاهرة ، ص ٢٧٢ ، كمال الدين سامح ، العمارة الإسلامية في مصر ، القاهرة ، ط الثانية ، ١٩٨٣ ، ص ٣٢ .

(٢) حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ٣ / ١٠٥٦ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٧ / ٢٠٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٦ / ٥٥ ، السخاوى : تحفة الأحباب ص ٩٥ ، ولقد زال أثر هذه المدرسة ولم يعد هناك شيء يدل عليها في الوقت الحاضر عبد الرحمن زكي ، القاهرة ، ص ٧٢ .

(٤) المقريزى : م . س ، ١ / ٤٢٧ .

(٥) المقريزى : م . س ٢ / ٤٠٠ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ، ورقة ٤٤٤ .

(٦) ابن خلكان : م . س ٧ / ٢٠٧ ، ابن تغرى بردى : م . س ٦ / ٧٩ .

(٧) أبو شامة : الروضتين ١ / ق ٢ / ٦٨٨ ، البندارى : سنا البرق ص ١٢٠ .

الحنبلى : شفاء القلوب ص ٩٣ ، محمد بهادر : مختصر الفتوح ورقة ١٠ ، كمال الدين سامح: م . س ، ص ٣٢ .

(٨) ابن جبير : الرحلة ص ٢٢ ـ ٢٣ .

كبير من الطلبة[١] .

ولعل من المفيد أن نذكر أنه قد اقتدى بالناصر صلاح الدين الأيوبى فى بناء المدارس أقربائه وأمراءه [٢] ، وغيرهم من الأعيان ، فابتنوا فى الفسطاط والقاهرة عدد منها ، من أبرزها المدرسة التقوية نسبة إلى مؤسسها تقى الدين عمر ، الذى أنشائها فى عام (٥٦٦هـ/ ١١١٧م) لتكون مدرسة لتدريس المذهب الشافعى[٣] ، وعرفت بمنازل العز ، وهو قصر فاطمى ، أسست هذه المدرسة على أجزاء منه كان تقى الدين قد سكنه ثم إقتناه من بيت المال وبناه مدرسة فعرفت به [٤] . ومن المدارس التى بنيت فى الفسطاط أيضاً فى تلك الأثناء ، مدرسة ابن الارسوفى ، نسبة إلى ابن الأرسوفى التاجر العسقلانى[٥] ، وكان بناؤها سنة (٥٧٠هـ / ١١٧٤م)[٦] ، ويذكر ابن دقماق أنها عبارة عن مسجد معلق ،

---

(١) المقريزى : م . س ٢ / ٤٠٠ ، ويدل عليها فى الوقت الحاضر جامع الإمام الشافعى بالقرافة ، على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٦ / ٩ ، محمد رمزى : التعليقات فى النجوم ٦ / ٥٤ هامش (٥) .

(٢) المقريزى : م . س ٢ / ٣٦٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ٩ / ١١٠ ، أبو شامة : الروضتين ١ / ق٢ / ٤٨٧ ، البندارى ، سنا البرق ص ٥٨ ، ويذكر أحمد فكرى أن بناءها كان عام (٥٧٩هـ/١١٨٣م) ، أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ٥٢/٢ ، ويبدو أن فكرى اعتمد فى ذلك على مل ورد عند ابن دقماق والمقريزى ، من أن تقى الدين اشترى منازل العز عام (٥٦٦هـ/١١٧٠م) ولم يوقفها الا عندما أراد الخروج من مصر . ابن دقماق : الانتصار ق١ / ٩٣ - ٩٤ ، المقريزى م . س ٢ / ٣٦٤ والراجح أنه جعلها مدرسة فى بادئ الأمر وأوقف عليها لما أراد الخروج من مصر .

(٤) ابن دقماق : ن . م . س ، المقريزى : ن . م . س ، ولعله يدل عليها فى الوقت الحاضر جامع المرحومى الذى يعد جزءا من الموضوع الذى كانت منازل العز تشغله . على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٦ / ١٥ .

(٥) هو عفيف الدين عبد الله بن محمد بن محمد الارسوفى (ت٥٩٣هـ/١١٩٦م) . المقريزى : م . س ٢ / ٣٦٤ .

(٦) ن . م . س .

وهى تختص بتدريس المذهب الشافعى[١] كذلك أسس عدد من رجال الدولة مدارس فى القاهرة من أهمها المدرسة القطبية التى أسسها الأمير قطب الدين خسروا [٢] سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) ، فنسبت إليه وكانت مخصصة لتدريس المذهب الشافعى [٣] . والمدرسة السيفية التى تنسب إلى مؤسسها الأمير سيف الإسلام طفتكين بن أيوب[٤] ، والتى أنشأها قبل أن يتجه إلى اليمن عام (٥٧٧هـ/ ١١٨١م) ليليها بأمر من أخيه الناصر صلاح الدين الأيوبى[٥] . ولقد أنشئت هاتين المدرستين على أجزاء من دار الديباج الفاطمية . كذلك أسس القاضى الفاضل فى سنة (٥٨٠ هـ/ ١١٨٤م) مدرسة بجوار داره[٦] فعرفت به وأطلق عليها « الفاضلية » ، وهى مدرسة كبيرة جدا يقول عنها المقريزى بأنها (أعظم مدارس القاهرة وأجلها ...)[٧] .

وتحوى مكتبة ضخمة قيل بأن عدد كتبها بلغ مائة ألف مجلد[٨] وجعلت لتدريس المذهبين الشافعى والمالكى ، علاوة على احتوائها على قاعة لتعليم القرآن الكريم [٩] ، وكان بها مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه[١٠] ولقد أسست هذه الدار على أجزاء من خزانة فاطمية وهى خزائن دار

---

(١) ابن دقماق : م . س ق١ / ٩٨ . ولا توجد معلومات يمكن من خلالها التعرف على موقع المدرسة فى الوقت الحاضر ، لعلها اندثرت مثلما حدث للناصرية والقمحية .

(٢) لم استطع العثور على ترجمة له فى المصادر المتوفرة لدى .

(٣) المقريزى : م . س ، ٢ / ٣٦٩ ، حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ٣ / ١٠٥٧ ، ويدل عليها فى العصر الحديث جامع ابى الفضل الواقع فى حارة الفرن . على باشا مبارك : م . س ، ٣ / ٢٠٠ .

(٤) السخاوى : تحفة الأحباب ص ٨٤ .

(٥) المقريزى : م . س ٢ / ٣٦٨ ، على باشا مبارك : م . س ٦ / ٨ ، ويدل عليها فى الوقت الحاضر ، زاوية عثمان الحطاب بشارع بيبرس . السخاوى م . س ص ٨٤ ، هامش (٢) .

(٦) أبو شامة : الروضتين ٢ / ٢٤٠ ، السخاوى : م . س . ص٩٣ ـ ٩٤ ، أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ٢ / ٥٢ .

(٧) المقريزى : م . س٢ / ٣٦٦ .

(٨) ن . م . س . أحمد فكرى : م . س ٢ / ٥٣ ، ويذكر على باشا بأن عددها كان أربعمائة ألف. على باشا مبارك : م . س ٢ / ٢٣٨ .

(٩) المقريزى : م . س ٢ / ٣٦٦ ، أحمد فكرى : م . س ٥٢/٢ .

(١٠) المقريزى : ن . م . س . أحمد فكرى: م . س . ٢ / ٥٣ .

افتكين[١] .

ولكى تتمكن هذه المدارس من ممارسة مهامها على الدوام بيسر وسهولة ، فلقد وفر لها مؤسسوها موارد مالية ثابتة ، بحبس الحبوس عليها .

فلقد كانت أوقاف الناصر صلاح الدين على مدارس جليلة القدر ، فالمدرسة الناصرية بالفسطاط ، وقف عليها سوق الصاغة المجاور لها وإحدى قرى الديار المصرية[٢] . أما المدرسة القمحية فإن وقفها كان عبارة عن قيسارة الوراقين وعلوها بمصر ، وضيعة بالفيوم تعرف بالخنبوشية [٣] . وكان وقف المدرسة السيوفية عبارة عن اثنين وثلاثين حانوتا بخط سويقة أمير الجيوش ، وباب الفتوح ، وحارة برجوان[٤] . وتذكر المصادر أن الناصر صلاح الدين أوقف وقفا كبيرا على مدرسته المجاورة للمشهد الحسينى ، وأن كان لا تقدم تفاصيل لهذه الأوقاف[٥] . ونظرا لضخامة مدرسة الشافعي بالقرافة ، فلقد كان لها وقف كبير أيضا ، عبارة عن حمام بجوارها وفرنا أمامها ، وحوانيت بظاهرها [٦] وبعض الرباع[٧] . وأراضى جزيرة الفيل ، التى استزرعت فى تلك الأثناء [٨] .

ولقد فعل مؤسسوا المدارس الأخرى مثلما فعل الصلاح بحبس الأوقاف على المدارس ، فأوقف تقى الدين عمر لمدرسته أوقاف عظيمة [٩] ، إذ اشترى منازل العز

---

(١) المقريزى : م . س ١ / ٤٢٣ ، ويصعب تحديد موقع هذه المدرسة فى الوقت الحاضر حيث اختفت آثارها ، وإنما كانت تقع فى درب ملوخيا الذى هو الآن شارع القزازين . على باشا مبارك: الخطط التوفيقية ٦ / ١٣ .

(٢) المقريزى : م . س ٢ / ٣٦٣ ـ ٣٦٤ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ٤٤٣ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٧٦ .

(٣) المقريزى : م . س ٣٦٤/٢ ، مؤلف مجهول: م . س ورقة ٤٤٤ ،حسنين ربيع : ن . م . س.

(٤) المقريزى : م. س٣٦٦/٢ . مؤلف مجهول : م. س ورقة ٤٤٦، حسنين ربيع : ن . م . س .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان (٧ / ٢٠٦ ، السخاوى : تحفة الأحباب ، ص ٩٥ .

(٦) المقريزى : م . س ، ٢ / ٤٠٠ .

(٧) حسنين ربيع : م . س ، ص ٧٧ .

(٨) المقريزى : م . س ٢ / ١٨٥ .

(٩) أبو شامة : الروضتين ١ / ق٢ / ٤٨٧ ، البندارى : سنا البرق ص ٥٨ .

وحمامها ، والاصطبل المجاور لها الذى بناه فندقا عرف بفندق النخلة ، ثم اشترى جزيرة الروضة من بيت المال وأوقف جميع ذلك على هذه المدرسة[(١)] . بل يبدو أنه أوقف عليها الفندقين المعروفين بفندق الكارم[(٢)] ، والربع المجاور لهما أيضاً [(٣)] .

كذلك أوقف ابن الارسوقى عددا كبيرا من الحوانيت على مدرسته ، فأوقف عليها الحوانيت الواقعة أسفل منها ، وأخرى مجاورة لها ، علاوة على جميع الحوانيت فى القيسارتين الكبرى والصغرى اللتان تنسبان إليه[(٤)] .

ومن العمائر التى دخلت المدينة فى تلك الأثناء أيضا ، الخوانك[(٥)] وهى نوع من المنشآت جعلت للمتصوفة ينقطعون بها ، للتفرغ للعبادة على حسب مفاهيم ذلك العصر[(٦)] . ولم تكن هذه الخنكاوات معروفة فى مصر فى العصر الفاطمى ، ولم تدخل البلاد إلا على يد الناصر صلاح الدين الأيوبى[(٧)] الذى عرف عنه الاهتمام بالمتصوفة ورعايتهم . فأنشأ عام (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) أول خنكاه بالقاهرة [(٨)] ، وهى الخانكاه الصلاحية سعيد السعداء [(٩)] والتى كانت دار ضيافة فى أواخر العصر الفاطمى[(١٠)] ، بناها الناصر صلاح الدين خنكاه لاستقبال الصوفية

---

(١) ابن دقماق : الأنتصار ق١ / ٩٣ - ٩٤ ، المقريزى : م . س ٢ / ٣٦٤ .
(٢) عن هذا الفندق انظر ما يلى .
(٣) ابن دقماق : ن . م . س ، المقريزى : ن . م . س .
(٤) ابن دقماق : م . س ، ق ١ / ٩٨ .
(٥) الخوانق جمع خانكاه وفارسيتها خركاه ، وهو البيت ويطلق على سرادق الملوك والوزراء . أدى شير. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص ٥٣ . وكان ظهورها فى القرن الخامس (٥هـ/١٠م) تقريبا . المقريزى م . س ، ٢ / ٤١٤ ، عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ٩٦ .
(٦) المقريزى : ن . م . س .
(٧) القلقشندى : صبح الأعشى ٣ / ٣٦٤ .
(٨) القلقشندى : ن . م . س . السخاوى : تحفة الأحباب ص ٧٧ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٧٤ .
(٩) وسميت بسعيد السعداء نسبة إلى قنبر - ويقال عنبر - أحد خدام الفاطميين قتل مصلوبا عام (٥٤٤هـ/١١٤٩م) . المقريزى : م . س ٤١٥/٢ اتعاظ الحنفاء ٣ / ٢٠٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ / ٢٦٠ ، عبد الرحمن زكى : م . س ، ص ٩٨ .
(١٠) المقريزى : م. س ٣٦٣/١ ، ويدل عليها الآن جامع سعيد السعداء ، عبد الرحمن زكى : ن . م . س .

الوافدين إلى البلاد ، والذين فتحت لهم أبوابها فى تلك الأثناء ، ووفر لهم فيها كل ما يعوزهم من مطعم ومشرب وملبس [(١)] ، وذلك عن طريق أوقاف جليلة تمثلت فى بستان يعرف ببستان الحبانية [(٢)] وقيسارية بالقاهرة تعرف بقيسارية الشرب [(٣)] ، وناحية دهمر من البهنساوية [(٤)] ، إضافة إلى حمام بجوارها عرف بحمام الصوفية [(٥)] .

ولقد كان تأسيس هذه الخانكاة البداية لبناء العديد منها فى القاهرة الكبرى فى العصور التى تلت عصر الناصر صلاح الدين الأيوبى ، وذكرت المصادر العديد منها[(٦)] .

ويتضح من خلال العرض السابق أن القاهرة الكبرى أخذت تعرف أنواعا جديدة من العمائر لم تكن تعرفها فى السابق ، ظهرت كإنعكاسات لتطورات سياسية ودينية وثقافية سبقت الإشارة إليها .

(ب) عمائر توسع فى بنائها :

ومثلما كان لازدهارالنشاط المعمارى فى القاهرة الصلاحية دورا فى أن يدخل المدينة أنواع جديدة من العمائر كما سبق أن شاهدنا ، فلقد شهدت القاهرة فى تلك الأثناء توسعا فى استخدام أنواع من العمائر كانت موجودة بها فعلا .

ومن أبرز العمائر التى توسع فى إنشائها فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى هو سور القاهرة الذى صدرت الأوامر بالبدء فى بنائه عام (٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م) كما

---

(١) المقريزى : م . س ٤١٦/٢ ـ ٤١٧ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ٢/ ٢٦٠ .

(٢) عن هذه القيسارة انظر ما يلى .

(٣) المقريزى : م . س ، ٢/ ٤١٥ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٧٤ . والبهنساوية إحدى كور الصعيد تقع غربى النيل ، كانت قاعدتها مدينة البهنسا . للمزيد انظر محمد رمزى : القاموس الجغرافى ق ٢/ جـ/ ٣ / ٢١١ ـ ٢١٢ .

(٤) المقريزى : م . س ٢/ ٨٥ ، وللمزيد عن هذا الحمام انظر مايلى

(٥) المقريزى : م . س ٢/ ٤١٦ ـ ٤١٧ ، السيوطى : م . س ، ٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٧ .

تذكر غالبية المصادر التاريخية [١] . وكان الهدف الأساسى من بنائه نشر بساط الأمن وحماية القاهرة الكبرى من الهجمات المعادية [٢] . ويعد هذا السور ثالث أسوار القاهرة، حيث بنى لها فى العصر الفاطمى سورين ، وكان هذا السور ثالثهما ، ويقول المقريزى فى هذا الصدد : (أعلم أن القاهرة منذ أسست عمل سورها ثلاث مرات ، الأولى وضعه القائد جوهر[٣] ، والمرة الثانية وضعه أمير الجيوش بدر الجمالى [٤] فى

---

(١) أبو شامة : الروضتين ١/ ٢/ ٦٨٧ ، البندارى : سنا البرق ، ص ١١٩ ، الحنبلى شفاء القلوب ، ص ٩٣ . المقريزى : م . س ٢/ ٢٣٣ ، السلوك ١/ ٢/ ٦٣ ، محمود وصفى : دراسات فى الفنون والعمارة العربية الإسلامية الدمام ص ١٤١ ، وينقل ابن تغرى بردى عن ابن عبد الظاهر أن تاريخ هذا الأمر كان فى عام (٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م) . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤/ ٣٩ .

(٢) أبو شامة : ن . م . س البندارى : ن . م . س . كازانوافا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ص ٣٢ .

(٣) بنى هذا السور عشية تأسيس القاهرة عام (٣٥٨ (٩٦٨م) وكانت أبعاده تبلغ (١١٠٠م) من الشرق إلى الغرب ، حوالى (١١٥٠م) من الشمال إلى الجنوب ، وجعل له عدد من الأبواب أهمها باب زويلة وبابى النصر والفتوح . وللمزيد انظر : المقريزى : م . س ١/ ٣٧٧ ، ٣٨٠ ـ ٣٨٣ ابن تغرى بردى : م . س ٤/ ٣٧ ـ ٣٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٣٤٨ ـ ٣٥٠ ، عبد الرحمن زكى : القاهرة ص ١٣ ـ ١٧ ، كازانوفا : م . س ص ٣٦ ـ ٤١ .

Greswell, The Muslim Arcitectur of Egypt, p. 24 Fig. 10 .

(٤) كانت زيادة بدر الجمالى هذه فى عام (٤٨٠ هـ / ١٠٨٧م) وحسبما يرد من نصوص عنها فى المصادر التاريخية فإن هذه التوسعة حدثت فى الناحيتين الجنوبية والشمالية فقط ، ويدل عليها ثلاثة أبواب وهى باب زويلة وبابى النصر والفتوح . المقريزى م . س ١/ ٣٧٩ ، ٣٨٠ ـ ٣٨٣ ابن تغرى بردى : م . س ٤/ ٣٩ ، وعلى الرغم من ذلك فلقد أثارت توسعة بدر الجمالى جدلا فيما بين الباحثين حيث أن هناك من يعتقد بأن هذه التوسعة شملت جميع النواحى ، فى حين ذهب البعض إلى مخالفتهم فى هذا التصور . انظر أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ١/ ٢٣ شكل (٢) ، عبد الرحمن زكى : القاهرة ص ١٤ ـ ١٥ ، كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ص ٤١ ـ ٤٣ .

Ravaisse, Essai sur chistoire et sur la topographie du Caire, Caire, plan 2 . Creswell, The Muslim Architecture of Egypt, Fig. 10 .

والراجح أن زيادة بدر الجمالى كانت تشمل ثلاث جهات هى الجنوبية والشمالية كما هو معروف بالإضافة إلى الجهة الشرقية ، يدل على ذلك باب التوفيق الذى بناه الوزير المذكور أيضا حيث يقع =

أيام الخليفة المستنصر والمرة الثالثة بناء الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى فى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ...) [(١)] .

ولقد كان سور صلاح الدين عبارة عن زيادة وتوسعه لسور المدينة القديم [(٢)] ، بحيث يشمل أجزاء كبيرة من المنطقة ، وأهمها القاهرة والقلعة ومدينة الفسطاط[(٣)] . ولذلك فلقد جاء محيطه كبيراً ، فبلغ مجموع أطوال أضلاعه مضافا إليها أطوال سور القلعة ما مقداره تسعة وعشرين ألف وثلاثمائة ذراع وذراعين [(٤)] ، بذراع العمل الهاشمى[(٥)] . ولعل هذا الكبر فى محيط السور هو الذى أدى إلى عدم اتمامه ، حتى توفى صلاح الدين ، وقد بقى من السور مواضع لم يتم انجازها ، على الرغم من أن الأعمال به كانت متواصلة على الدوام[(٦)] .

= على بعد عشرة أمتار غربى سور الناصر صلاح الدين فى حين أن أسوار جوهر تقع على بعد خمسة وعشرين متر غربى السور المذكور فى نفس الناحية مما يشير إلى أن هذه التوسعة كانت بسيطة جداً وأنها فى حدود خمسة عشر مترا تقريبا . انظر عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ١٩ ـ ٢٠ .

Greswell, op. cit., p. 25 .

أما بالنسبة للناحية الغربية فإن أحداث توسعه فيها يترتب عنها الاضرار بمنشآت النزهة الفاطمية التى تقع بالقرب من السور القديم ـ سور جوهر ـ وتطل على الخليج ، انظر المقريزى : م . س ٢/ ٢٤ ، حيث سيترتب عنها عزل المنشآت عن الخليج ، وهو أمر لا توجد أى دلائل تشير إلى حدوثه .

(١) المقريزى : م . س ١ / ٢٧٧ .

(٢) المقريزى : م . س ٢ / ٢٠٣ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ / ٦٨٧ ، البندارى : سنا البرق ص ١١٩ ، المقريزى : م . س ٢ / ٢٠٣ .

(٤) أبو شامة : ن . م . س . البندارى : ن . م . س . القلقشندى صبح الأعشى ٣ / ٣٥٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤ / ٤٠ على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٣ / ٢٦٢ ، ويذكر صاحب المراصد بأن هذا الرقم يوازى سبعة أميال ونصف الميل ، أو فرسخان ونصف ، صفى الدين عبد المؤمن : مراصد الاطلاع ٣ / ١٠٣٧ .

(٥) المقريزى : م . س . ١ / ٣٨٠ ، القلقشندى : م . س . ابن تغرى بردى ن . م . س .

(٦) أبو شامة : م . س ١ / ٢ / ٦٨٨ ، البندارى : م . س . ص ١١٩ ـ ١٢٠ ، القلقشندى : ن . م . س .

ولكى نتمكن من فهم مخطط هذا المشروع الكبير وما تم إنجازه بالفعل فمن الأحرى تقسيمه إلى أقسام ثلاثة ، وذلك بالنظر لما أوردته المصادر من تفاصيل عن أبعاد هذا السور ، إذ جرت فى تقسيمها إلى ثلاثة أقسام ، أولها الضلع الغربى وكان يمتد من البرج الواقع بالمقس حتى يصل إلى البرج الواقع بالكوم الأحمر [١] ، ويبلغ طول هذا الضلع عشرة آلاف وخمسمائة ذراع[٢] ، ويذكر القلقشندى بأن هذا الضلع قد انهدم [٣]. مما يعنى بأنه قد جرى بنائه . فى حين أن المقريزى يذكر أنه لم يبن على الإطلاق [٤] ، وهو الأصح كما يذكر عدد من الباحثين[٥] ، أما القسم الثانى فيتكون من السور الشمالى للمدينة ، علاوة على أجزاء كبيرة من السور الشرقى وصولا إلى قلعة الجبل [٦] وبلغ طول هذا الحائط ثمانية آلاف وثلاث مائة واثنان وتسعون ذراعا[٧] . وإن كان يدخل فى جملته أجزاء من سور بدر الجمالى القديم ، فما قام به الناصر صلاح الدين فى هذا الحائط كان عبارة عن زيادة فى سورها

---

(١) تذكر بعض المصادر أن الكوم الأحمر هو الكوم الواقع بالقرب من فم خليج القاهرة ، عند شاطئه الغربى حيث منشأة المهرانى ، المقريزى م . س ، ١ / ٣٤٧ . القلقشندى : م . س ، ٣ / ٣٥٠ ـ ٣٥١ ، والحقيقة أن هذا الكوم يقع جنوبى الفسطاط كما بين كازانوفا . يؤكد ذلك أن بستان المشتوق الذى يقع فى هذه المنطقة كما سبق أن بينا أثناء الحديث عن المتنزهات ، كان يقع فى منطقة تعرف بالكوم الأحمر ، انظر المسبحى : أخبار مصر ص ٤٤ ، كازانوفا : تاريخ وصف قلعة القاهرة ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ / ٦٨٧ ، البندارى : سنا البرق ص ١١٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤ / ٤٠ ـ ٤١ .

(٣) القلقشندى : م . س ٣ / ٣٥١ .

(٤) المقريزى : ن . م . س .

(٥) عبد الرحمن زكى : القاهرة ص ٦٨ ـ ٦٩ ، جرجى زيدان : تاريخ مصر ١ / ٣٢٣ ، كازانوفا : م . س . ص ٥٥ .

(٦) كازانوفا : م . س . ص ٥٨ .

(٧) أبو شامة : ن . م . س البندارى : ن . م . س . المقريزى : م . س ١ / ٣٨٠ ، القلقشندى: ن . م . س . ابن تغرى بردى : م . س ٤ / ٤١ .

القديم، حيث زاد من الناحية الشمالية الغربية الممتدة من باب القنطرة [١] ، إلى باب الشعرية [٢] وصولا إلى ساحل النيل حيث البرج الواقع فى المقس [٣] . فشمل بذلك أجزاء كبيرة من المنطقة الواقعة غربى الخليج [٤] . كذلك زاد من الناحية الشمالية الشرقية ، القطعة الممتدة مما يلى باب النصر وصولا إلى برج الظفر [٥] ، الذى يعد الزاوية الشمالية الشرقية للسور [٦] ، حيث يأخذ السور بالاتجاه جنوبا محددا الزيادة الشرقية لسور القاهرة والتى كانت مساحتها صغيرة جدا، إذ أن السور يتجه فى هذه الناحية نحو الميل غربا بصورة تدريجية ليقترب من سور المدينة القديم [٧] ، ثم يتجه بعد ذلك ليلتقى بسور القلعة عند نقطة من طرفه الشمالى

---

(١) عن هذا الباب انظر ما يلى . ومما يذكر أنه قد أدى جعل هذا الباب نقطة البداية إلى أن يظهر فى السور قطعة زائدة تتجه نحو الغرب قليلا تصل فيما بين سمت الحائط الشمالى القادم من باب الشعرية والباب المذكور . مما دفع بعض الباحثين إلى القول بأن صلاح الدين قد بنى حائطا موازيا للحائط الغربى لسور المدينة القديم . ويسير على الساحل الشرقى لخليج القاهرة وذلك على أساس أنه يوجد فى هذه المنطقة خط يعرف بخط بين السورين أى أنه يقع بين سورين . انظر : المقريزى : م . س ، ٢ / ٢٤ ، حسن الباشا وآخرين : القاهرة ص ٣٢ ، محمد رمزى : التعليقات فى النجوم الزاهرة ٤ / ٣٩ ، هامش (٣) .

والواقع أن سور الناصر صلاح الدين لم يتجاوز فى اتجاهه جنوبا الباب المذكور ، حيث كان يوجد فى هذه المنطقة فى تلك الأثناء منشآت للنزهة سبق الإشارة إليها . ووجود السور سيكون عائقا أمام بناء هذه المنشآت ، لأنه يسير بمحاذاة الخليج . أما بالنسبة لمسمى خط بين السورين فمن الواضح أن مسماه كان بسبب وجود طرفه الشمالى فيما بين سور المدينة القديم والقطعة التى بناها صلاح الدين .

(٢) عن هذا الباب انظر ما يلى .

(٣) المقريزى : م . س ١ / ٣٧٩ ، على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٣ / ٢٧١ ، عبد الرحمن زكى : القاهرة ص ٦٦ .

(٤) انظر : عبد الرحمن زكى : م . س . ص ١٠١ الخريطة .

(٥) عن هذا البرج انظر ما يلى .

(٦) عبد الرحمن زكى : م . س . ص ٦٦ ، كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ص ٥٠ .

(٧) Creswell, The Muslim Architecture of Egypt, Fig. 10 .

الغربى [١] .

ومن الواضح أن هذا القسم من السور هو أول الأقسام التى بدئ فى تنفيذها ، ففى عام (٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م) كانت حوائطه قد بدأت بالظهور بصورة واضحة للعيان[٢] ، بحيث لم ينفض عهد الناصر صلاح الدين إلا وكانت أجزاء كبيرة منه قد تم إنجازها ، ولم يبق منه سوى قطعة صغيرة تصله بقلعة الجبل ، حيث توقف السور بالقرب من مكان يعرف بالصوه يقع تحت القلعة [٣] ويبقى لنا من السور القسم الثالث، وهذا القسم كان يهدف إلى ربط مدينة الفسطاط بالقلعة إذ خطط له أن يمتد منها إلى أن يصل شاطىء النيل حيث البرج الواقع بالكوم الأحمر ، ويبلغ طول هذا الضلع سبعة آلاف ومائتا ذراع[٤] . وهو بذلك يشكل الضلع الجنوبى والجنوبى الشرقى لسور المدينة [٥] . ولقد بدأ بناء هذا الضلع عام (٥٨١ هـ ١١٨٥م)[٦] ، ولا يعرف على وجه التحديد ما قد تم إنجازه من هذا الجانب فى عهد الناصر صلاح الدين ، فكل ما يرد عنه هو أنه لم يتسن فى تلك الأثناء وصل هذا السور بالقلعة[٧]

---

(١) كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ص ٦٤ . ولا زالت أجزاء كبيرة من هذا القسم موجودة حتى الوقت الحاضر . انظر عبد الرحمن زكى القاهرة ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ٢/٢ ، المقريزى ، السلوك ٦٦/١/١ .

(٣) المقريزى : الخطط ٣٨٠/١ ، على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢٦١/٣ ، عبد الرحمن زكى : م. س . ص ٦٦ . جرجى زيدان : تاريخ مصر ٣٢٤/١ . وعن موقع الصوة انظر أيضا ما يذكره القلقشندى أثناء حديثه عن المدرسة الأشرفية ، القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٣٦٣ .

(٤) أبو شامة : م . س ١/ ٢/ ٦٨٧ . البندارى : سنا البرق ص ١١٩ ، القلقشندى : م . س ٣/ ٣٥١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤١/٤ .

(٥) انظر عبد الرحمن زكى : القاهرة ص ١٠١ ، الخريطة .

(٦) المقريزى : السلوك ٩٠/١/١ .

(٧) المقريزى : الخطط ٣٨٠/١ . ويذكر عبد الرحمن زكى بأن هذا الضلع قد تم انجازه فعلا فى عهد صلاح الدين وذلك بناء على ما يذكره أثناء حديثه عن قنطرة خليج بنى وائل من هذا السور قد جرى مده فعلا ، وهو بذلك يناقض نفسه حيث ذكر أنه لم يتسن إكماله فى تلك الأثناء ، انظر عبد الرحمن زكى : م . س . ص ٦٨ . الواقع أنه لم يتم إكمال هذا الضلع وإلا فمن باب أولى إكمال الضلع الشمالى الشرقى الذى بدىء ببنائه قبل هذا الأخير كما سبق أن أوضحنا .

وقد كشفت أعمال البحث الأثرى عن أجزاء كبيرة منه [١] .

أما عن الأبراج فلقد زود الناصر صلاح الدين الأيوبى هذا السور بأبراج كبيرة جدا تعتبر حصونا قائمة بذاتها [٢] .

فعلى ساحل النيل بالمقس بنى برجاً كبيراً جدا [٣] ، عرف « بقلعة المقسى » أو « قلعة قراقوش » [٤] . ولقد بنى هذا البرج فى موضع منظره من مناظر الخلفاء الفاطميين كانت تعرف بمنظرة المقسى[٥] كذلك بنى أيضا برج آخر جنوبى الفسطاط شبيه بالبرج الأول [٦] ، وكان يقع على الكوم الأحمر على شاطىء النيل[٧] ، وعرف بقلعة بازكوج[٨] . وفى الزاوية الشمالية الشرقية من سور المدينة ، بنى برج ثالث أطلق عليه برج الظفر [٩] كان يحتل موقعاً فى غاية الأهمية لإشرافه

---

(١) حسن الباشا وآخرون : القاهرة ص ٤٤٧ . وانظر أيضا :

Casanova, paul, de Reconstitutiom, plan 1 .

(٢) كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة الجبل ص ٤٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٣٥٠ . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤/ ٣٩ .

(٤) المقريزى : م . س ، ١/ ٣٨٠ ، ٢/ ١٢٣ . ومن الواضح أن نسبه إلى قراقوش يقصد بهاء الدين قراقوش الذى كان متوليا لعمارة السور والقلعة كما سبق أن ذكرنا .

(٥) المقريزى : م. س ١/ ٤٨٠ . هدم هذا البرج عام (٧٧٠هـ/ ١٣٦٩ م) وقيل (٦٧٠ هـ/ ١٢٧١ م) المقريزى : ن . م . س ابن تغرى بردى : م . س ٤/ ٤٠ ، ويدل عليه الآن المبانى المجاورة لجامع أولا عنان من الناحية الشمالية الشرقية بميدان باب الحديد . محمد رمزى : التعليقات فى النجوم الزاهرة ٤/ ٤٩ هامش (٤) . عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ٣٧١ .

(٦) القلقشندى : ن . م . س .

(٧) أبو شامة : الروضتين ٦٨٧/٢/١ ، البندارى : سنا البرق ص ١١٩ .

(٨) ابن تغرى بردى : م . س ٣٩/٤ ومن الواضح أنه ينسب إلى الأمير سيف الدين بازكوج الأسدى (ت ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) الذى كان أميرا على طائفة الأجناد الأسدية فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى . المقريزى م . س ٢/ ٣٦٧ ، ويبدو أن هذا البرج قد هدم أيضا فى وقت من الأوقات ويصعب تحديد موقعه على وجه الدقة وإن كان من المرجح أنه يقع بجوار باب القنطرة الذى كان يوجد هناك . انظر محمد رمزى : م . س ٤/ ٤٠ هامش (٢).

(٩) كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة الجبل ص ٥١ ، حسن الباشا وآخرون ، القاهرة ص ٤٨٤ .

على الضلعين الشرقى والغربى من سور المدينة [١].

أما عن الأبواب فإن الناصر صلاح الدين الأيوبى قد زود السور بأبواب عدة أهمها بابان كانا يقعان فى السور غربى الخليج . وأولهما باب بالمقسى ، فى مواجهة ساحل النيل ، لذلك عرف بباب البحر [٢]، وثانيهما باب الشعرية[٣] ، الذى كان يقع بالقرب من خليج القاهرة . كذلك بنى الناصر صلاح الدين بابا فى مواجهة الضلع الغربى لسور القاهرة القديم عرف بباب القنطرة [٤] ، كان يقع فى نهاية خط سويقة أمير الجيوش كما يشير بذلك المقريزى [٥] . ومن الواضح أنه بنى بدلا من باب القنطرة القديم ، الذى كان يقع إلى الشمال من نظيره الجديد [٦] . كذلك فلقد

---

(١) حسن الباشا وآخرون : ن . م. س . ولا يزال هذا البرج موجودا حتى الوقت الحاضر . عبد الرحمن زكى : م . س . ص ٢٧ .

(٢) المقريزى : م . س ، ٢/ ١٥١ . هدم هذا الباب عام (١٥٨٧ م) ويدل على موقعه فى الوقت الحاضر مدخل شارع باب البحر من جهة ميدان باب الحديد . عبد الرحمن زكى : القاهرة ص ٦٩ ، موسوعة مدينة القاهرة ص ١٩ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٣٥٠ . وعرف بباب الشعرية نسبة لطائفة من البربر يقال لهم بنى الشعرية ، يبدو أن مساكنهم كانت بجوار هذا الباب . المقريزى : م . س ١/ ٣٨٣ . وقد هدم هذا الباب عام (١٨٨٤ م) لخلل فى مبانيه ويدل على موقعه فى الوقت الحاضر ميدان العدوى . عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ٢٢ .

(٤) محمد رمزى : التعليقات فى النجوم الزاهرة ٤/ ٣٩ هامش (٣) .

(٥) المقريزى : م . س ١٠١/٢ ، ومن الواضح أن هذا الباب هو الذى ذكره على باشا مبارك . وذكر بأنه يقع فى نهاية هذا الخط تجاه البرج ، وهدم عام (١٢٩٥ هـ) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٨٣/ ١٢ ويدل على هذا الباب الآن المنطقة التى يلتقى فيها شارع أمير الجيوش بشارع الخليج . عبد الرحمن : م . س . ص ٢٤ .

(٦) عرف هذا الباب بباب القنطرة ، لأنه كان يقع فى مواجهة قنطرة تؤدى إلى باب القنطرة حيث يقع فى مواجهته قنطرة تؤدى إلى بر الخليج الغربى . وهو من بناء جوهر الصقلى بانى القاهرة . المقريزى: م . س ١/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣ . ومن الواضح أن هذا الباب كان يقع فى مواجهة القنطرة الفاطمية التى يذكر على باشا مبارك أنها تقع فى عطفة المصطاحى ، ويذكر بأن السور قد سدها ، بيد أنه =

اقتضت زيادة الناصر صلاح الدين لسور المدينة الشرقى أن ينى له أبوابا فبنى بابين هما بابى البرقية [(١)] والمحروق [(٢)] (القراطين)[(٣)] ليكونا بديلين عن البابين الفاطميين اللذين كانا يقعان فى مواجهتهما [(٤)] . كذلك أضاف صلاح الدين لهذه الأبواب بابا ثالثا عرف بالباب الجديد [(٥)] ، من الواضح أنه سمى بذلك لأنه لم يكن له نظير

= يذكر بأن هذا السور هو من بناء الفاطميين رغم أنه يشير إلى أنه يتصل باب القنطرة وهو الباب الذى بناه صلاح الدين كما سبق أن بينا ، مما يدل بدوره على أن هذا السور هو الذى بناه صلاح الدين ، والذى سبقت الإشارة إليه ومن الواضح أن سبب اللبس هذا عند على باشا مبارك هو أنه لم يكن يعلم ببناء الناصر صلاح الدين هذا الباب والسور هنا . انظر على باشا مبارك : م . س ٣/ ٢٧٢ ، وانظر أيضا عن موقع الباب الفاطمى :

A. Raymond E Wiet, Les Marcees de Caire, plan 2 .

وبذلك يثبت لدينا بأن هذا الباب لم يكن يقع فى مواجهة باب صلاح الدين كما يذكر بعض الباحثين . انظر محمد رمزى : م . س ، ٤/ ٣٩ هامش (٣).

Creswell, The Muslim Architecture of Egypt, Fig. 10 .

(١) يرجع أصل تسمية هذا الباب إلى العصر الفاطمى ، وهى إحدى طوائف الجيش الفاطمى ، ومن الواضح أنه احتفظ بنفس المسمى لأنه بنى بدلا من آخر قديم . ولقد كشفت أعمال البحث الأثرى عن هذا الباب ، الذى لا يزال محتفظا بحالته الأصلية . ويقع بجوار التله الواقعة على يمين الداخل من طريق قطع المرآة ـ الموصلة من شارع الغريب إلى جبانة المجاورين والمماليك شرقى القاهرة على بعد (١٢٠ م) شرقى جامعة الأزهر . عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص١٩ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٣٥٠ ، عبد الرحمن زكى : القاهرة ص ٧٠ .

(٣) كان هذا الباب يعرف بباب القراطين نسبة لباعة القرط ، وهو البرسيم حيث كان يوجد عنده سوق للغنم . ثم عرف بالباب المحروق فى أوائل العصر المماليكى حيث أحرق هذا الباب عام (٦٥٢ هـ ١٢٥٤م) ولا يزال يوجد فى القاهرة درب يعرف بدرب المحروق يدل على هذا الباب علاوة على أنه قد تم العثور على برجين من أبراجه . انظر المقريزى م . س ١/ ٣٨٧ . عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ٢٤ ، القاهرة ص ٧٠ .

(٤) Creswell, The Muslim Architecture of Egypt, Fig. 10 .

(٥) ولقد كشفت أعمال البحث الأثرى عن هذا الباب ، ويقع على بعد (١٤٥م) جنوبى برج الظفر . عبد الرحمن زكى : م . س . ، ص ٢٠.

في العصر الفاطمي ، فاعتبر بابا جديدا يضاف إلى أسوار المدنية في هذه الناحية . ولم تكن أبواب صلاح الدين قاصرة على سور المدينة الشمالي والشرقي ، بل أنه بنى أبوابا في السور الجنوبي أيضا ، من أهمها باب القنطرة [(١)] وكان يقع في مواجهة باب القنطرة الفاطمي [(٢)] ، فابن دقماق عندما يتحدث عن المساجد التي كانت تقع في هذه المنطقة ، يذكر بأنه كان هناك باب يعرف « بباب القنطرة الجواني » [(٣)] مما يشير إلى وجود باب آخر يقع في مقابله ، ويؤيد ذلك أنه عندما يتحدث عن رحاب الفسطاط ، فإنه يذكر رحبة تعرف برحبة « بابي القنطرة » [(٤)] أي أنها تقع فيما بينهما .

ولكي يتمكن السور من أداء المهام الدفاعية التي بني من أجلها على أكمل وجه، فلقد زود بخندق كان يحيط السور الشرقي وأجزاء كبيرة من السور الشمالي [(٥)] .

ومن الجدير بالذكر أنه كان لازدهار التجارة وتزايد النشاط الاقتصادي في عهد الناصر صلاح الدين ، دورا في أن تشهد المدينة توسعا كبيرا في بناء عمائر الخدمات الاقتصادية ، ومن أبرزها الخانات أو الفنادق [(٦)] . وهي منشآت ضخمة كانت

---

(١) وعرف باب القنطرة نسبة لقنطرة بني وائل التي يقع بجوارها ، المقريزي : م . س ١/ ٣٤٧ . وكان يقع هذا الباب في المنطقة التي يتقاطع فيها شارع الصغير بشارع آثر النبي . محمد رمزي : التعليقات في النجوم ٤/ ٤٠ هامش (٢).

(٢) سبق التطرق لهذا الباب أثناء الحديث عن سور شاور .

(٣) ابن دقماق : الانتصار ١/ ٧٩ .

(٤) ابن دقماق : م . س ١/ ٣٥ .

(٥) المقريزي م . س ١/ ٣٨٠ . حسن الباشا وآخرون : القاهرة ص ٤٧٨ .

(٦) الخان كلمة فارسية الأصل ، والفندق كلمة لاتينية الأصل ، والكلمتان تطلقان على منشآت من نوع واحد ، وإن كان من المرجح أن يكون الخان هو المستعمل في شرق العالم الإسلامي والفندق في غربه. حسن الباشا : المدخل للآثار الإسلامية ص ١٩٢ ـ ١٩٣ ، عطية القوص : تجارة مصر ص ١٩٧ ، ١٩٩ .

مخصصة لنزول التجار والمسافرين [(١)] . كانت معروفة في مصر فى العصر الفاطمى[(٢)] ومن أبرز ما بنى فى القاهرة الكبرى منها خان السبيل ، الذى يقع خارج باب الفتوح وهو من بناء الأمير بهاء الدين قراقوش جعله لأبناء السبيل والمسافرين بدون أجر ، وكان به بئر ساقية ، وحوض للشرب [(٣)] .

ومن الخانات التى بنيت فى تلك الأثناء ، خان مسرور [(٤)] وهو خان كبير كان يتكون من مئة بيت إلا بيت ، وبه مسجد جامع تقام فيه الجمع والجماعات . وكان ينزله أعيان التجار الشاميين [(٥)] . ولقد بنى هذا الخان على موضع خزانة الأسلحة الفاطمية [(٦)] كذلك بنى الأمير ركن الدين منكورش (ت ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م)[(٧)] ، خانا عرف به كان يقع بالقرب من الجامع الأزهر [(٨)] وبنى تقى الدين عمر فى الفسطاط ثلاثة فنادق ، أهمها فندق الكارم [(٩)] ، الذى كان عبارة

---

(١) حسن الباشا : م . س ، ص ١٩٢ . عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ٩٤ .

(٢) عطية القوصى : م . س ، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ ، ٢٠٠ .

(٣) المقريزى : الخطط ٢/ ٩٣ ، مؤلف مجهول : تاريخ المصر القاهرة ورقة ١٠٢ ، عطية القوصى : م . س ، ص ١٩٨ ، ويدل على موقع هذا الخان مسجد البيومى وحوض الشرب المجاور له بشارع البيومى. عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ٩٦ .

(٤) ينسب إلى مسرور الخادم . أحد خدام الفاطميين ، ثم اختص بالناصر صلاح الدين الأيوبى وبقى حيا إلى الأيام الكاملية ، اشتهر بالبر والإحسان . المقريزى م . س ٢/ ٩٢ .

(٥) المقريزى : ن . م . س على باشا مبارك الخطط التوفيقية ٢/ ١١١.

(٦) المقريزى : ن . م . س ويدل على موقعه فى الوقت الحاضر مجموعة المبانى التى تحد من الغرب بشارع النردجية ، ومن الجنوب بشارع السكة الجديدة ومن الشرق والشمال بشارع خان الخليلى . عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ١٧٨ .

(٧) هو الأمير ركن الدين منكورش ، أحد مماليك الناصر صلاح الدين ، وكان من أمراء الأجناد الصلاحية ، عرف بالشجاعة وإصابة الرأى . المقريزى م . س ٢/ ٩٣ .

(٨) المقريزى : م . ن . س ويدل عليه فى الوقت الحاضر مجموعة المبانى الواقعة خلف وكالة المحلل بالقرب من جامع أيبك ، فى شارع الصنادقية على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ٢/ ١٠٠ .

(٩) ابن دقماق : الانتصار ١/ ٤٠ .

عن فندقين أحدهما كبير والآخر صغير [(١)] . خصص لنزول تجار الكارم [(٢)] الذين ازدهرت تجارتهم فى تلك الأثناء . وبنى فى موضع اصطبل منازل العز ، فندقا عرف بفندق النخلة [(٣)] .

ومن المنشآت الاقتصادية التى توسع فى بنائها فى تلك الأثناء القياسر وهى منشآت تجارية تحوى حوانيت ومصانع [(٤)] عرفت فى مصر منذ العصر الأموى [(٥)] .

فلقد بنى فى القاهرة فى تلك الأثناء عدد من القياسر. فبنى صلاح الدين فى شارع القصبة قيسارية الشرب ، وكان موضعها فى السابق اصطبلا ، وجعلها وقفا على صوفية خنقاه سعيد السعداء [(٦)] . كذلك بنى القاضى المرتضى بن قريش [(٧)] قيسارية فى سوق الجملون الكبير ، عرفت بقيسارية ابن قريش ، وكان موضعها فى السابق اصطبلا أيضاً [(٨)] وبنى القاضى الفاضل قيسارية بجوار باب زويلة عرفت

---

(١) ابن دقماق : م . س ق ١/ ٩٦ .

(٢) عطية القوصى : تجارة مصر ص ٢٠١ ، وتجار الكارم هم تجار السلع القادمة من الهند وجنوب شرقى آسيا ، وكان من أهم تجارتهم معها البهارات . عطية القوصى : م . س ٩١ . ويصعب تحديد موقع هذا الفندق فى الوقت الحاضر ، وإن كان كازانوفا قد قدم تحديدا تقريبيا له .
انظر Casanova,Paul, de Reconstitution, p. 42 .

(٣) ابن دقماق : الانتصار ق ٩٦ . ولا توجد معلومات تمكن من تحديد موقع هذا الفندق فى الوقت الحاضر .

(٤) عطية القوصى : م . س ص ١٩٢ .

(٥) عطية القوصى : م . س . ص ١٩٣ .

(٦) المقريزى : م . س ٢/ ٨٦ . ويذكر على باشا بأنه يدل عليها خان يقع تجاه وكالة الزيت . على باشا مبارك : م . س ٢/ ٢٥٢ .

(٧) هو القاضى صفى أبو المجد عبد الرحمن بن قريش (ت ٥٨٠ هـ / ١١٩٠ م) أحد كتاب الإنشاء فى دولة الناصر صلاح الدين ، توفى شهيدا على عكا . المقريزى م . س ٢/ ٩٦ .

(٨) المقريزى : ن . م . س . ويدل عليها فى العصر الحديث الجوانيت الواقعة تجاه الشرم والجملون ومطهرة الغورى وما خلف ذلك . على باشا مبارك : م . س ٣/ ١٧١ .

بقيسارية الفاضل[١] .

ونظرا لتزايد الاهتمام بالتصوف وانتشاره فى تلك الأثناء ، فلقد توسع فى بناء الأربطة [٢] فى القاهرة الكبرى ، حيث تذكر المصادر أن الأمير بهاء الدين قراقوش بنى فى المقس رباطا [٣] . وعلى الرغم من أن القلقشندى يذكر بأن هذا النوع من العمائر لم يدخل مصر إلا فى العصر الأيوبى [٤] ، إلا أن وجود رباط الأندلس فى القرافة والذى يعود إلى أواخر العصر الفاطمى ينفى هذا القول [٥] ، ولعل القلقشندى يقصد بقوله هذا أن هذه الأربطة أصبحت منذ عهد الناصر صلاح الدين تبنى فى داخل المدينة وليس فى مقابرها ، كما هو واضح من رباط بهاء الدين السابق الذكر .

ومن الواضح أن تزايد الكثافة السكانية فى القاهرة الفاطمية منذ عهد الناصر صلاح الدين اقتضى التوسع فى بناء الحمامات ، فلقد بنى الناصر صلاح الدين بجوار خنقاه سعيد السعداء حماماً عرف بحمام الصوفية ، وجعله وقفا على المتصوفة القانطين بهذه الخنقاه [٦] كذلك بنى القاضى الفاضل حماما يقع بالقرب من قيساريته ، وكانت عبارة عن حمامين إحداهما للرجال والآخر للنساء [٧] . وبنى

---

(١) المقريزى : م . س ٢/ ٨٩ . ويدل موقعها فى الوقت الحاضر الحوانيت والوكالة التى تقع فى مواجهة جامع المؤيد . على باشا مبارك : م . س ٢/ ١٣١ .

(٢) الأربطة جمع رباط ، وهى منشآت عسكرية يقيم فيها المجاهدون فى سبيل الله ، ثم تحول بمرور الأيام إلى منشآت يقيم فيها المنقطعون للعبادة . حسن الباشا : المدخل للآثار الإسلامية ص ١٦٩ .

(٣) المقريزى : م . س ٢/ ٩٣ . ولا يوجد عن هذا الرباط أى معلومات يمكن من خلالها تحديد موقعه.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٣٦٤.

(٥) المقريزى : م . س ٤٤٦ ، ٤٥٤ .

(٦) المقريزى : م . س ٢/ ٨٥ . ولا تزال هذه الحمام موجودة حتى العصر الحديث وتعرف بحمام سعيد السعداء . على باشا مبارك : م . س ٢/ ٢١٨ .

(٧) وتعرف فى الوقت الحاضر بحمام السكرية . انظر : على باشا مبارك م . س ٢/ ١٢٩ .

لؤلؤ الحاجب حماما أيضا يقع برأس رحبة الأيدمرى [١] .

ونظرا لتزايد الروابط العمرانية بين القاهرة ومنطقة غربى الخليج ، فقد اقتضى ذلك إنشاء قناطر جديدة على هذا الخليج لكى تستوعب هذه الروابط ، فأنشأ الأمير عز الدين موسك [٢] على هذا الخليج قنطرة عرفت به [٣] .

(جـ) عمائر تبنى فى مواضع لم تكن توجد بها فى السابق :

كما سبق أن شاهدنا فإن انحراف مجرى نهر النيل قد أوجد فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، فرصة كبيرة ومواتية لاستغلال الأراضى المترتبة عن هذا الطرح. لذلك أخذت بعض عمائر المرافق بالظهور عليها . فبنى عليها المساجد الجامعة، حيث تذكر المصادر أن القاضى الفاضل بنى فى منشآته التى بنيت على هذه الأراضى، مسجدا جامعا [٤] . كذلك بنى هذا الوزير على هذه الأراضى الواقعة على ساحل الفسطاط دار التمر [٥] ، التى كانت عبارة عن ربع [٦] عظيم ، وكان به ثلاثة مساجد [٧] ، وخمسة وسبعين منزلا ، وثمانية وخمسون مخزنا واثنا عشر حانوتا ، وغير ذلك من المنشآت . وكان هذا الربع موقوفا على فكاك أسرى المسلمين

---

(١) المقريزى : م . س ٢/ ٨٥ . ولا توجد معلومات عن موقع هذه الحمام حديثا .

(٢) هو الأمير عز الدين موسك (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) من أقرباء الناصر صلاح الدين كان خيرا ومن حفظة القرآن الكريم محبا لأهل الخير والصلاح ، المقريزى : م . س ٢/ ١٤٧ .

(٣) ن . م س . جرجى زيدان : تاريخ مصر ١/ ٣٣٢ . وقد ظلت هذه القنطرة حتى عصر على باشا ويدل عليها فى الوقت الحاضر النقطة التى يتقاطع فيها شارع الموسكى مع شارع الخليج (بور سعيد) مع شارع السكة الجديدة (جوهر القائد) على باشا مبارك : م . س ٢/ ٣٠٩ .

(٤) ولقد اندثر هذا الجامع فى أوائل العصر المملوكى نتيجة للفيضان النهرى . انظر المقريزى م . س ٢/ ٢٦٨ .

(٥) سبق الإشارة إلى أنها تدل على صناعة مرتبطة بالتمور .

(٦) الربع مبنى كبير يتكون من عدد كبير من المساكن فى أعلاه وحوانيت فى أسفله . عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ١٥ .

(٧) ابن دقماق : الانتصار ق ١ / ٩٠ .

عند الفرج [١] .

(د) عمائر تبنى بدلا من أخرى قديمة :

ومن أوجه النشاط الإنشائى ، الذى شهدته القاهرة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، هو بناء عمائر للمرافق بدلا من أخرى قديمة . ومن أبرز الأمثلة على ذلك المارستان الصلاحى الذى عرف فى العصر بالمارستان العتيق [٢] . وهو منشأة أمر الناصر صلاح الدين ببنائها عام (٥٧٢ هـ / ١١٧٦م) [٣] على أجزاء من القصر الشرقى الكبير [٤] ، حيث جرى استغلال بعض قاعات هذا القصر وخزاناته ليتكون منها المارستان ، فقيل أن به قاعة كتب القرآن الكريم على حيطانها ، لا يدخلها نمل أبدا [٥] ، كذلك يذكر ابن الطوير بأن خزانتى الكتب [٦] والأشربة [٧] جعلتا من جملة ملاحق هذا المارستان [٨] .

---

(١) المقريزى : م . س ٢/ ٧٨ ــ ٧٩ .

(٢) عبد العزيز عبد الدايم : الرعاية الطبية فى عصر المماليك ، بحث منشور فى مجلة كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، العدد الثانى ١٩٧٧ م ، ص ١٦٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ٩/ ١٤١ ، أبو شامة : الروضتين ١/ ٢/ ٦٨٨ . وينقل المقريزى عن القاضى الفاضل بأن بنائه كان عام (٥٧٧ هـ / ١١٧٦م) المقريزى : م . س ١/ ٤٠٧ .

(٤) على باشا مبارك : م . س ٢/ ٢٣٨ .

(٥) المقريزى : ن . م س عبد العزيز عبد الدايم : ن . م . س .

(٦) هذه الخزانة كانت من أجل خزانات الفاطميين ، وكانت تحوى مئات الآلوف من المجلدات فى مختلف العلوم والفنون ، قام الناصر صلاح الدين ببيعها ، وحصل القاضى الفاضل على جملة وافرة منها ، المقريزى : م . س ١/ ٤٠٩ .

(٧) كانت هذه الخزانة من جملة خزانات القصر الشرقى ، وكانت تحتوى على الأنواع المختلفة من الأشربة والمعاجين والأدوية . المقريزى م . س ١/ ٤٢٠ .

(٨) المقريزى : م . س ١/ ٤٠٩ ، ٤٢٠ ، ويدل على موقعه فى الوقت الحاضر مجموعة المبانى الواقعة خلف دورة المياه بجامع الحسين من الجهة الشمالية ، عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ٤٣ ــ ٤٤ .

ولقد زود الناصر صلاح الدين هذا المارستان بما يحتاجه من أطباء وموظفين [(١)] وأوقف عليه الأوقاف الجليلة ضمانا لأستمرار العمل به وهى مائتا دينار من أجرة الرباع الديوانية ، وغلات جهاتها الفيوم [(٢)] . علاوة على مطبخ للسكر وحماما يقعان فى الفسطاط [(٣)] .

وعندما زار ابن جبير القاهرة فى تلك الأثناء ، زار هذا المارستان وأشاد به حيث يقول : (مما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السلطان المارستان الذى بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائقة حسنا واتساعا ، وأبرزه لهذه الفضيلة تأجرا واحتسابا ، وعين قيما من أهل المعرفة ووضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها ، ووضعت فى مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى ، وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكلفون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم . وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى ، لهن أيضا من يكفلهن ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ويقابلهم بما يصلح لها . والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد) [(٤)] ومن الواضح أن هذا المارستان بنى بدلا من الفاطمى القديم[(٥)] الذى حول إلى حى سكنى فى تلك الأثناء كما سبق أن ذكرنا .

كذلك بنى الناصر صلاح الدين داراً جديدة لضرب النقود [(٦)] جعلت فى

---

(١) المقريزى : م . س ١/ ٤٠٧ ، عبد العزيز عبد الدايم : م . س ، ص ١٦٣ .

(٢) المقريزى : ن . م . س .

(٣) ابن دقماق : الانتصار ق ١ / ٤٥ ، ١٠٤ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ص ٢٦ .

(٥) المقريزى : الخطط ١/ ٤٠٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٣ / ٣٦٥ .

(٦) المقريزى : م . س ١ / ٤٤٥ .

موضع خزانة القصر الشرقى كانت تقع بجوار الإيوان الكبير [١] وذلك بدلا من دار الضرب القديمة [٢] ، التى تحولت إلى حى سكنى فى تلك الأثناء .

ومن الواضح أن تحول خزانة السلاح الفاطمية إلى فندق فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، قد أدى إلى إنشاء خزانة جديدة للأسلحة ، على أجزاء من القصر الشرقى أيضا . حيث تقع بجوار دار الضرب الجديدة، [٣] وكان يجرى بها صناعة الأسلحة للجيش الأيوبى [٤] ، ولعل من المفيد أن نذكر أن تغيير موقع باب القنطرة[٥] قد أدى إلى بناء قنطرة جديدة على الخليج القاهرى بدلا من تلك القديمة[٦] . فعلى الرغم من أن المقريزى يشير أثناء حديثه عن هذه القنطرة ، بأنها ظلت مستعملة منذ العصر الفاطمى حتى عصره [٧] ، مما يوحى بأنه لم يجر بناء أخرى جديدة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، إلا أنه من الواضح أن بناء باب قنطرة جديدة يقع إلى الجنوب من القديم ، قد أدى إلى تفقد القنطرة الفاطمية وظيفتها حيث أن السور الصلاحى الذى يتصل بالباب الجديد ، سيفصل فيما بينها وبين الباب القديم الذى تقع فى مواجهته [٨] . وبالتالى فمن المؤكد أن قنطرة هذا الباب التى ذكرها المقريزى وأشار إلى وجودها فى عصره ، يعود بناؤها إلى عصر الناصر صلاح الدين الأيوبى حيث لا بد أن يبنى أمام الباب الجديد قنطرة أخرى جديدة تصل

---

(١) المقريزى : م . س ، ١/ ٤٠٦ . ولا توجد معلومات واضحة يمكن من خلالها تحديد موقع هذه الدار على وجه التحديد ، ولعلها تقع فى الأجزاء الشرقية من هذا القصر .

(٢) المقريزى : م . س ١/ ٤٤٥ .

(٣) المقريزى : م . س ١/ ٤٠٧ .

(٤) القلقشندى ـ صبح الأعشى ٤/ ١٢ .

(٥) سبق الإشارة إلى أن الناصر صلاح الدين بنى فى هذه الناحية بابا جديدا بدلا من الفاطمى القديم .

(٦) بنى هذه القنطرة جوهر القائد بانى القاهرة ليتسنى العبور عليها نحو البر الغربى للخليج ، حيث المقس . المقريزى م . س ٢/ ١٤٧ .

(٧) المقريزى : م . س ٢/ ١٤٧ .

(٨) على باشا مبارك : م . س ٣/ ٢٧٢ .

فيما بينه وبين بر الخليج العربى [(١)] .

(هـ) عمائر تم تجديد عمارتها :

ونظرا لما عهده أواخر العصر الفاطمى من سيادة للفوضى والاضطراب وظهور التدخلات الأجنبية ، ممثلة فى أطماع الصليبيين فى مصر ، وما ارتبط بكل ذلك من حروب وصراعات ، ترتب عنها أن تعرضت العديد من المنشآت والعمائر فى القاهرة الكبرى للتلف والتخريب ، فلقد شهد عصر الناصر صلاح الدين القيام بتجديد عمارة العديد منها .

ومن أبرز العمائر التى تم تجديد عمارتها فى تلك الأثناء المساجد الجامعة ، ففى عام (٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م) قام الصلاح بتجديد عمارة جامع عمرو بن العاص (الجامع العتيق) [(٢)] فجدد بناء هذا الجامع ومحرابه الكبير ، وغطاه بالرخام ، كذلك قام بتجديد بياض أجزاءه الأخرى ، وأصلح رخامها [(٣)] . ومن الواضح أن هذه الاصلاحات كانت بسبب ما تعرض له الجامع من التلف والتخريب نتيجة حريق الفسطاط عام (٥٦٤ هـ / ١١٦٨م) [(٤)] كذلك قام صلاح الدين فى عام (٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م) بتجديد عمارة سور القاهرة القديم [(٥)] ، الذى كان فى حالة يرثى لها ، حيث لم يعد يرد داخلا ولا يمنع خارجا [(٦)] . ومن الواضح أن

---

(١) وبما أن هذا الباب كان يقع على رأس شارع مرجوش كما سبق أن ذكرنا . فمن الواضح أن موقع هذه القنطرة يدل عليه تقاطع هذا الشارع مع شارع الخليج (بور سعيد) .

(٢) ابن دقماق : الانتصار ١/ ٦٩ ، أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ٢/ ٧ . وهذا الجامع أقدم مساجد مصر بناه عمرو بن العاص رضى الله عنه عشية تأسيس الفسطاط . المقريزى : م . س ٢/ ٢٤٦ .

(٣) كذلك زود الناصر صلاح الدين هذا الجامع ببعض الإضافات . انظر ابن دقماق : ن . م . س .

(٤) المقريزى : م . س ٢/ ٢٥١ .

(٥) أبو شامة الروضتين ١/ ٢/ ٤٤٨ نظير سعداوى : التاريخ الحربى المصرى ص ٢٢ أحمد فكرى : مساجد القاهرة ٢/ ٧ كازانوفا : القلعة ص ٥٨ .

(٦) أبو شامة : ن . م . س .

الصرعات التى سادت فى آواخر العصر الفاطمى قد أدت به إلى هذا الحال ، حيث كلما نشب قتال تعرض هذا السور للتلف والتخريب ، ففى عام (٥٥٩هـ ١١٦٣م) تهدمت أجزاء من سور المدينة الغربى ، نتيجة القتال الذى نشب بين أسد الدين شيركوه والوزير الفاطمى شاور [١] .

ومن المؤكد أنه قد تم فى ذلك الأثناء تجديد عمارة دار صناعة السفن فى الفسطاط [٢] إذ يذكر المقريزى أنها ظلت « ... عامرة إلى ما قبل سنة سبعمائة ... »[٣] . في حين أن من المؤكد أن هذه الدار قد تعرضت للتلف في حريق الفسطاط عام (٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م) كما حدث لغيرها من المنشآت .

ومن الواضح أن المارستان الذى كان يوجد فى الفسطاط فى عهد صلاح الدين الأيوبى [٤] ، إنما هو مارستانها القديم جرى إعادة عمارته فى تلك الأثناء ، كما يشير إلى ذلك القاضى الفاضل حيث يقول : (... كذلك بمصر أمر بفتح مارستانها القديم ...) [٥] ، مما يشير إلى أنه كان مغلقا وذلك بسبب تعرضه للتلف نتيجة حريق الفسطاط على الأرجح .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفاء ٢/ ٢٧٦ .

(٢) أسست هذه الدار عام (٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م) المقريزى : الخطط ٢/ ١٩٧ .
ولا توجد معلومات تحدد موقعها فى الوقت الحاضر .

(٣) ن . م . س .

(٤) ابن جبير : الرحلة ص ٢٦ .

(٥) المقريزى : م . س ١/ ٤٠٧ ، ولا توجد معلومات عن هذا المارستان وموقعه .

الفصل الرابع

الأوضاع السكانية

إذا كانت المدينة ـ كوحدة مادية ـ تعتبر مجموعة من المنشآت والمبانى الكبيرة العدد ، والمتآزرة فيما بينها بطريقة تكاملية ، لتحقق وحدة المضمون ، فإن المدنية تعتبر أيضا تجمعا بشريا ضخما يشكله التآزر بين أفراد هذا التجمع الحضارى والإنسانى للمدينة . لذلك فإن دراسة الأوضاع السكانية تعكس المظاهر الأساسية التى يمكن من خلالها التعرف على مجالات النشاط العمرانى فيها بشكل عام .

وعلى الرغم من أهمية البيانات الإحصائية لدراسة هذا الجانب ، فإن عدم توفرها بشكل وافى لم يكن حائلا دون تقديم بعض التصورات الجيدة نظرا لما تقدمه المصادر من نصوص يمكن توظيفها فى الكشف عن العديد من الجوانب .

والحقيقة فإن القاهرة الكبرى التى شهدت فى تلك الفترة تغيرات عمرانية متعددة الجوانب . لم تستطيع أن تحافظ على أوضاعها السكانية التى كانت سائدة إبان حكم الفاطميين ، حيث طرق هذا الجانب العديد من أوجه التغير السكانى بشكل عدل جذريا من بنيتها السابقة ؛ ومن أبرز هذه المتغيرات :

(أ) التغير السكانى وتشجيع الهجرات السكانية :

لقد حدث فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى تغير كبير فى الأوضاع السكانية للقاهرة ، حيث مارس سياسة محددة استهدفت إحلال عناصر سكانية محل آخرى . فقد التزمت الدولة الصلاحية بسياسة إبعاد العناصر الفاطمية من مدينة القاهرة ونفيهم خارجها [١] . ويشير إلى ذلك رسائل القاضى الفاضل حيث يقول : (..... فأخرجناهم من القاهرة ، تارة بالأوامر المرهقة لهم ، وتارة بالأمور الفاضحة منهم ، وطورا بالسيوف المجردة) [٢] . وعلى الرغم من أن المصادر لا تقدم تفاصيل الخطة ، فإن من المؤكد أنها تمت على مراحل [٣] كما أنها تأثرت إلى حد بعيد بمواقف شيعة

---

(١) أبو شامة : الروضتين ١/ ٢/ ٥٦٥ .

(٢) أبو شامة : م . س ١/ ٦١٩ .

(٣) أبو شامة : م . س ١/ ٤٥٦ .

الفاطميين من الناصر صلاح الدين ورجاله . إذ أن ثورة العبيد السودان (٥٦٤ هـ/ ١١٦٨م) قد أسهمت فى أن يقرر السلطان صلاح الدين الأيوبى التخلص من جزء كبير من اتباع الفاطميين وشيعتهم ، وعلى الأخص أولئك الذين اشتركوا فى الثورة ، وكان النتيجة أنهم أخرجوا من المدينة وشردوا ومزقوا كل ممزق ، بعد أن تمكن صلاح الدين من القضاء على الخلافة الفاطمية فى عام (٥٦٧هـ / ١١٧١م)[١] قام بالتخلص من اتباع الفاطميين أيضا . فتذكر المصادر أن رجاله قاموا فى الأيام الأولى لتسلمه السلطة بالاستيلاء على دور من ينتمىَ إلى الدولة البائدة، حتى بلغ الحال بأنصاره أن صار كل من استحسن منهم دارا من أملاك أتباع الفاطميين وأشياعهم ، أخرج منها سكانها واستوطن بها [٢] وذلك يشير إلى تهجير أصحاب تلك الدور غالبا إلى خارج المدينة . ويبدو أن ذروة إجراءات التهجير هذه تمت فى عام (٥٦٩ هـ/ ١١٧٣م) بعد أن اكتشف الناصر صلاح الدين الأيوبى فيها مؤامرة استهدفت تقويض أركان حكمه ، وإعادة حكم الفاطميين ، الأمر الذى دفع السلطة إلى تتبع الحشم والخدم فى القصر السلطانى ، وتم اقصائهم إلى أقصى بلاد الصعيد جنوبى مصر [٣] . ومن الواضح أن الاجراء الأخير قد قضى وبشكل نهائى على وجود تجمعات سكانية كبيرة للشيعة فى القاهرة .

دون أن يؤدى إلى القضاء التام على وجودهم اتباع الفاطميين فى القاهرة ، بل استمر وجود بعضهم فيها خلال ذلك العصر إذ أن استمرار المظاهر الشيعية فى المدينة فى تلك الأثناء ، علاوة على استمرار الوجود الرمزى لبعض الأحياء فيها والتى تعود

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٩/ ١٠٣ ـ ١٠٤ ، أبو شامة : م . س ١/ ٢/ ٤٥٢ ، المقريزى الخطط ٢/ ٣، بول كازانوفا : قلعة الجبل ص ٣١ .

(٢) أبو شامة : م .س ، ١/ ٢/ ٥٠٧ ، البندارى : سنا البرق الشامى ص ٦٠ ، المقريزى : م . س ، ١/ ٤٩٦ ، عبد الرحمن زكى : القاهرة ص ٢٩ .

(٣) أبو شامة : م . س ١/ ٢/ ٥٦٥ ، المقريزى : السلوك ١/ ١/ ٥٤ .

إلى عهد الفاطميين ، نتيجة عدم تغير عناصرها السكانية كما سبق أن ذكرنا يعتبر من أبرز الدلائل على بقاء بعض العناصر الشيعية فى القاهرة .

ولكى تتواصل عملية التغيير السكانى فلقد حرص الناصر صلاح الدين الأيوبى ، على تشجيع الهجرات السكانية إلى مصر بشكل عام ، وكان أول من قدم إلى مصر من خارجها الأجناد والعسكريون ، وأول من استوطن مصر من هذه الفئة العسكر الشامى الذى قدم إلى مصر تحت قيادة أسد الدين شيركوه فى عام (٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م) فقد استلطف الأجناد طبيعة مصر وارتاحوا لسكانها[١] . ومن الواضح أن استقدام الأجناد خارج مصر ، قد استمر وتواصل مع تنامى القوة السياسية والعسكرية للدولة ، حيث قام الناصر صلاح الدين الأيوبى باستحداث جيش جل عناصره من الأكراد والأتراك [٢] ليكونوا قوة بديلة عن الجيش الفاطمى . وهو ما أشار إليه ابن إياس فى قوله : « فلما انفرد صلاح الدين يوسف بملك مصر والشام أزال ما كان بمصر من العساكر الملفقة ، وكان إما بين صقالبة ومصامدة وارمن وشنانرة العرب ، ومشانقه العبيد الزنج ، فمحا هذه الطوائف كلها ، واستجد بمصر عساكر من الأكراد خاصة ، فكان عدتهم اثنى عشر ألفا من شجعان الكرد » [٣] .

وبالإضافة إلى الأجناد والعسكريين فلقد قدم إلى مصر فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، عدد كبير من الناس على اختلاف أجناسهم ومن المناطق المختلفة[٤] فعندما قدم والد الناصر وأقربائه إلى مصر عام (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م) وفد معهم عدد كبير من التجار ، أضف إلى ذلك فقد كان لاهتمام صلاح الدين بالعلم والعلماء

---

(١) أبو شامة : م . س ١/ ٢/ ٤٣٥ .

(٢) المقريزى : م . س ١/ ٩٤ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ١/ ١/ ٢٤٢ ، وانظر أيضا حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٢٠٦ .

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٧ / ١٥٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٦ / ١٥ .

أكبر الأثر فى تشجيع الهجرة إلى مصر ، إذ أن رعاية التعليم وتشجيعه من عوامل الجذب السكانى المؤثرة [(١)]. خاصة وأنه كان كلما سمع بعالم ذائع الصيت زين له نزول بلاده[(٢)]، علاوة على رعايته لطلاب العلم عن طريق إسكانهم والانفاق عليهم، الأمر الذى دفعهم نحو الهجرة إلى مصر وطلب الاستقرار بها خلال تلك المرحلة . ويذكر ابن جبير أثناء حديثه عن الإسكندرية بأن بها طلابا للعلم « ... يفيدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه واجراء يقوم به جميع أحواله » [(٣)] . كما أنه يشير إلى العدد الكبير من طلاب العلم الذين سكنوا فى القرافة والذين كانوا أغلبهم من الغرباء الذين وفدوا إلى مصر نظرا لازدياد مكانتها العلمية بين أقطار ديار الإسلام خلال ذلك العصر [(٤)] ، وهو يذكر أثناء حديثه عن جامع ابن طولون بأن فيه عددا كبيرا من المغاربة الذين تفرغوا لطلب العلم والعبادة [(٥)] . وبالإضافة إلى الرحلة فى طلب العلم ، فلقد وفد إلى مصر عدد كبير من المتصوفة [(٦)] الذين شجعهم الناصر صلاح الدين على الهجرة إلى مصر وفتح لهم أبوابها [(٧)] .

ومن الواضح أن مثل هذا التدفق البشرى يعكس مدى اهتمام السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى بزيادة المحتوى السكانى للأقليم المصرى بشكل عام ، وللقاهرة بشكل خاص . لذلك فلقد حرص على الاهتمام بالوافدين إلى مصر[(٨)] ، فأنفق

---

(١) نيكيتا اليسيف : التخطيط المادى ضمن كتاب المدينة الإسلامية ص ١٠١ ، محمد الغريب : سيولوجيا السكان ، الإسكندرية ، ١٩٨٢ م ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

(٢) أحمد بدوى : الحياة العقلية ص ٣١٠ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ١٥

(٤) ابن جبير : م . س . ص ٢٤

(٥) ابن جبير : م . س ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٦) ابن خلكان : م . س ، ٧ / ١٥٢ ، ابن تغرى بردى : م . س ، ٦/ ١٥ .

(٧) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ٦٦ .

(٨) عبد الرحمن زكى : القاهرة ص ٧١

عليهم الأموال وخصص لهم المساكن وأعانهم بما يلزمهم من وسائل الرعاية الأخرى وذلك ما يشير إليه ابن جبير فى ثنايا حديثه عن الوافدين إلى الإسكندرية خلال ذلك العصر[١] . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المجال أن خان السبيل الذى بنى فى تلك الفترة ، إنما بنى ليكون مأوى للمسافرين بغير أجرة [٢] . مما يشير إلى تشجيع السفر والانتقال إلى مصر . وكذلك كان الحال بالنسبة لخانكاه سعيد السعداء ، التى جعلها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى « ... برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ... » [٣] ولقد ترتب على هذا الاهتمام زيادة الكثافة السكانية فى مصر عن طريق هذه الهجرة ، إذ أخذت بعض المراكز العمرانية بالظهور فى تلك الأثناء ، فمدينة الأقصر [٤] ، قد بدأت بالظهور فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى نتيجة هجرة بعض العلماء ورجال الصوفية واستقرارهم فى موضعها [٥] . ومن المرجح أن تكون الزيادة الحاصلة فى أعداد القرى والتى تضاعف عددها فى تلك الأثناء [٦] ، إنما قد حصلت نتيجة الهجرات السكانية . ولا شك فى أن الأمر ينطبق على القاهرة ولعل أبرز ما يشير إلى ذلك ما لوحظ من تنامى عدد الجيش الأيوبى عنه عما كان عليه الجيش فى أواخر العصر الفاطمى ، ففى عهد العزيز بالله عثمان ابن صلاح الدين الأيوبى كان إذا اجتمع أفراد الجيش خارج القاهرة للعرض ، فإن عددهم يبلغ ما يزيد عن مائتى ألف رجل ، فى حين أنهم فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى كانوا أكثر من

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٥ ـ ١٦ .

(٢) الخاصكى : التحفة الفاخرة لوحة ٨٨ البكرى : قطف الأزهار لوحة ١١٢ .

(٣) المقريزى : الخطط ٢ / ٤١٥ .

(٤) الأقصر : جمع قصر ، مدينة على شاطىء النيل الشرقى فى الصعيد كان فى موضعها فى القديم مجموعة قصور تعود إلى ما قبل الإسلام . ياقوت : معجم البلدان ١/ ٢٣٧ .

(٥) محمد عبده الحاجى : الأقصر فى العصر الإسلامى (دراسة تاريخية) القاهرة ١٩٧٨ م ، ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٦) سبق الإشارة إلى ذلك .

ذلك كما يذكر المقريزى [١] ... بينما بلغ عدد أفراد الجيش فى أواخر عهد الفاطميين ستة وسبعين ألفا فقط [٢]

إن تنامى العدد السكانى للقاهرة فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، يتناقض تماما مع ما كان عليه الحال فى عهد الفاطميين حيث شهد أواخر عهدهم تناقصا فى العدد السكانى للمدينة ، حيث فتكت الاضطرابات التى سادت فى تلك الفترة بعدد كبير من سكان المدينة هذا علاوة على دورها فى دفع عدد آخر نحو الهجرة منها نتيجة سيادة الفوضى وانعدام الأمن ، ففى عام ٤٩٣هـ/ ١٠٩٠م) هاجر من مصر والشام عدد لايحصى من سكانها نتيجة الغلاء والغزو الصليبى [٣] .

(ب) توزيع الكثافات السكانية :

تعرض توزيع الكثافات السكانية فى القاهرة الكبرى فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى للعديد من المتغيرات التى أثرت على بنيته إلى حد بعيد ، وبشكل خالف ما كان عليه الحال فى عهد الفاطميين ، فقد انتقلت مراكز التكتل السكانى فى عهد الناصر من مواقع إلى مواقع إخرى . ومن الواضح أن القاهرة قد غدت فى تلك المرحلة أهم مراكز الثقل السكانى ، حيث تركزت فيها أعداد كبيرة من البشر بشكل يفوق كثيرا ما كان عليه الحال فى الفسطاط ، ويذكر ابن سعيد أن القاهرة فى وقته كانت أكثر إزدحاما من الفسطاط [٤] . وهو مظهر لا شك أنه تكون فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، إذ أن الكثير من المواضع الخالية من البناء والمنشآت المتعددة الأغراض قد أخذت بالتحول إلى أحياء سكنية فى العصر الأيوبى كما سبق أن ذكرنا وذلك كنتيجة

---

(١) وكان هذا الجيش يقسم على أساس أن يكون هناك عدد من الفرسان يتبع كل واحد منهم عدد من الاتباع فمنهم من يتبعه العشرة ومنهم العشرون حتى المائة . المقريزى : م س ١/ ٩٤ ـ ٩٥ .

(٢) المقريزى : م . س ١/ ٩٤

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفاء ٣/ ٢٥ .

(٤) ابن سعيد الأندلسى ـ الأغتباط فى حلى الفسطاط ص ١١ .

طبيعية لزيادة الكثافات السكانية فيها ، ولا شك فى أن تلك الزيادة قد أسهم فيها سياسة السلطان الناصر التى تمثلت فى إباحة سكناها لمختلف الطوائف ، خاصة وأنه من المؤكد أن الكثير من أهل الفسطاط سيجدون فى ذلك فرصة للانتقال للقاهرة ، إذ تحول الكثير منهم نحوها نتيجة حريق شاور لمدينتهم عام (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م) حيث اضطروا إلى اللجوء إليها ، وانطرحوا بأهليهم وعيالهم فى المساجد والشوارع والأزقة والحمامات[١] . وعلى الرغم من أن المصادر تذكر بأن استقرار الأوضاع على يد بنى أيوب قد أدى إلى أن يعود هؤلاء إلى مدينتهم [٢] بشكل تدريجى كما يذكر المقريزى[٣] ، فإن ذلك لا يعنى أنهم جميعا قد عادوا إلى الفسطاط ، ولا شك بأن هناك من بقى منهم فى القاهرة ، حيث يذكر القلقشندى بأن الحريق قد أدى لأن يكثر الخلو من الفسطاط ويتزايد انتقال السكان منها [٤] ، وهو انتقال كان لصالح القاهرة بطبيعة الحال[٥] .

إن مظـهر التغير فى توزيع الكثافات السكانية يعكس انقلابا حقيقيا لما كان عليه الحال فى عهد الفاطميين ، حيث كانت الكثافة السكانية فى الفسطاط أكثر منها فى القاهرة ، فقد ذكر الطبيب أبو الحسن ابن رضوان (ت ٤٥٣هـ / ١٠٦١ م) ، بأن الفسطاط كانت فى وقته أكثر سكانا من القاهرة [٦] .

وعلى الرغم من أن القاهرة الفاطمية قد زيد فى مساحتها على يد الوزير الفاطمى بدر الجمالى ، فإن تلك التوسعة كانت محدودة[٧] ، ولا تعتبر مؤشرا قويا على تزايد

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ٩/ ٩٩ ، المقريزى : اتعاظ الحنفاء ٣/ ٢٩٦ ، الخطط ١/ ٣٣٩ .

(٢) البندارى : سنا البرق الشامى ص ٤١ ، نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٤ .

(٣) المقريزى : م . س ، ١/ ٣٣٩ ، ٢/ ٢٥١ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٧٣٤ .

(٥) القلقشندى : م . س ٣/ ٣٦٦ .

(٦) نقلا عن المقريزى : م . س ١/ ٣٦٥ .

(٧) يستفاد مما ذكره المقريزى عن أسوار القاهرة الفاطمية بأن بدر الجمالى قد عمل توسعة لأسوار المدينة عام (٤٨٠ هـ / ١٠٨٧م) ويذكر أحمد فكرى بأنها كانت تمتد من الناحية الشمالية والجنوبية =

السكني بالقاهرة بشكل يفوق مستوى الكثافة السكانية التى كانت فى الفسطاط ، إذ لا تقدم المصادر نصوصا تفيد بذلك [١] ، بالإضافة إلى التغير فى توزيع الكثافة بطريقة تبادلية فيما بين الفسطاط والقاهرة ، فإن هناك مواضع أخرى من المدينة الكبرى تعرضت البنية السكانية فيها للتغير سواء بالزيادة أو النقصان . فمن الواضح أن التراجع السكاني فى الفسطاط كان أثره كبيرا على بعض أجزائها فقط ، حيث تناقص مقدار الكثافة السكانية فى أجزائها الجنوبية الشرقية التى تحولت إلى أكوام فى تلك الأثناء ، ويذكر القلقشندى بأنه يسكن أطرافها رعاع الناس ولا تعد من العامر [٢] مما يشير إلى تراجع مستوى الكثافات السكانية فيها فى حين أن المناطق الواقعة على شاطىء النيل أصبحت منطقة جذب للنشاط السكني ، نتيجة تزايد فرص البناء عليها فى تلك الفترة. فأخذت الأحياء السكنية بالظهور على ساحل الفسطاط وغربى الخليج ، خاصة ناحية المقس التى اتصلت مبانيها بالقاهرة كما سبق أن ذكرنا ، مما يعكس تزايد النشاط السكني فى تلك المناطق ، وبالتالى تزايد المحتوى البشرى فيها .

= بمقدار مائة وخمسين مترا تقريبا . وإن كان من الواضح أن بدر الجمالى قد أجرى توسعة من الناحية الشرقية أيضا كما يدل على ذلك باب التوفيق الذى بنى فى هذه الجهة على يد الوزير المذكور بيد أنه يصعب تحديد مقدار هذه التوسعة لعدم وجود نصوص تاريخية أو مخلفات أثرية للسور من هذه الجهة . انظر : المقريزى : م . س ١ / ٣٧٩ ، أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ١/ ٢٤ ، عبد الرحمن زكي : موسوعة القاهرة ص ١٩ ـ ٢٠ ، القاهرة ص ١٤ ـ ١٥ .

Creswell, The Muslim Architectecture of Egypt, p. 23 .

(١) يذكر عبد الرحمن فهمى بأن القاهرة والمناطق المحيطة بها كانت فى أواخر العصر الفاطمى أكثر سكانا من الفسطاط وذلك بناء لما حدث فى عهد الآمر بأحكام الله العبيدى (٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ / ١١٠٢ ـ ١١٣٠ م) ، والذى أمر بأن تعمر المواضع الواقعة جنوبى القاهرة من باب الصفا إلى الباب الجديد ، حسن الباشا وآخرون : القاهرة ص ٥٥ . بيد أنه من الواضح أن هذه الأحياء كانت تعتبر من جملة الفسطاط وليس القاهرة ، بحيث أنها بنيت على أجزاء من القطائع والعسكر كما سبق أن ذكرنا .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٣٣٤ .

(جـ) التوزيع الاجتماعي :

تتكون المجتمعات الإنسانية بشكل عام من فئات اجتماعية تمتلك كل واحدة منها بعض الخصائص التي تميزها عن الفئات الأخرى [١] . وهذه الخصائص هي الوسيلة الأساسية التي يمكن من خلالها تصنيف الفئات المختلفة [٢] ويعد وجود هذه الفئات أمرا ضروريا في المجتمعات الإنسانية ، حيث أن التفاعل الحضري بين أفراد هذه المجتمعات يقتضي أن يسخر بعضه بعضا ، كل يتعامل مع الآخر بحسب إمكانياته المتاحة ووسائله المتوفرة [٣] وحيث أن مجتمع المدينة هو مجتمع صغير ضمن المجتمع الكبير ، فلا شك بأن تكوينها السكاني قد تأثر بالنواحي المهنية والطبقية [٤] ، ولذلك يلاحظ بعض علماء الاجتماع الحضري بأن الأسس الاقتصادية تلعب دورا في توزيع السكني في المدينة ، حيث يميل أصحاب الثراء إلى السكنى بجوار بعضهم البعض ، وكذلك الحال بالنسبة للفقراء [٥] ، بيد أن هذا الأساس في التوزيع السكاني لا ينطبق بشكل دائم على المدينة الإسلامية . ففي بعض المدن الإسلامية جرى توزيع السكنى فيها على أساس الانتماء القبلي ، كما حدث في مدن الفتح في مراحلها الأولى ، حيث سُكنت أرباعها بناء على هذا الاعتبار . بينما نجد أن الاعتبار الديني والسياسي قد أسهم أيضا في توزيع السكنى في المدينة ، كما حدث في القاهرة الكبرى في العصر الفاطمي ، فلقد جرى في تلك الأثناء الأخذ بمسألة الانتماء المذهبي والسياسي لتوزيع مواضع السكنى فيها ، لذلك فإنه بالإمكان القول بأن توزيع الفئات الاجتماعية في المدينة الإسلامية ، كان يخضع للمبادئ والمفاهيم الاجتماعية التي ينظر من خلالها إلى تلك الفئات ، وعليه فإن دراسة المبادئ والمفاهيم الاجتماعية التي

---

(١) إسماعيل حسن عبد الباري : الديمجرافيا الاجتماعية ، القاهرة ط/ أولى ، ١٩٨٣ م . ص ١٦١ .

(٢) ن . م . س .

(٣) قال تعالى : ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ [سورة الزخرف آية ٣٢ .

(٤) إسماعيل حسن عبد الباري : م . س ص ١٢٢ .

(٥) عبد المنعم شوقي : مجتمع المدنية ١٣٣ .

ينظر من خلالها إلى الفئات يعد أمرا ضروريا يمكن من خلاله فهم طبيعة التوزيع الطبقي والحرفي وما طرأ عليه من تحولات في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي . بيد أن الصورة لا تكتمل إلا إذا استطعنا أن نستوعب طبيعة هذا التوزيع في العصر الفاطمي. والتي من خلالها يمكن التعرف على التغيرات التي طرأت على هذا التوزيع بعد ذلك العصر .

ولقد قام توزيع السكني للفئات الاجتماعية في العصر الفاطمي على أسس مختلفة الجوانب يعبر بعضها عن وجود نظرة طبقية في التوزيع السكني لهذه الفئات . فالولاء السياسي كان من العناصر الرئيسية التي حددت المواضع التي تسكن بها بعض الفئات الاجتماعية . إذ أن القاهرة الفاطمية كانت في تلك الأثناء مدينة ملكية [١] يسكنها الخليفة وحرمه وخواصه وجنده [٢] . في حين أن الفسطاط كانت موضع إقامة الرعية[٣] وكان لا يجوز لهم سكنى القاهرة [٤] ، وكان يحق لمن يعمل فيها أن يدخلها نهارا ويعود منها إلى الفسطاط مساء [٥] . ولقد لعب الانتماء المذهبي دورا مهما في توزيع سكنى الفئات الاجتماعية ، فكانت هناك مناطق في المدينة الكبرى يسكنها الشيعة الفاطمية أو العلوية ، أو يغلب على سكانها بأنهم من اتباع المذهب المذكور . حيث من الواضح بأن الجزء الشرقي من الفسطاط والذي يقع ناحية الجبل كان يسكنه من الشيعة ، فقد ذكر المقدسي أن القسم العلوي في قصبة الفسطاط كانوا من الشيعة[٦] ولا شك في أن غالبية سكان القاهرة الفاطمية كانوا من الشيعة أيضا [٧] .

---

(١) حسن الباشا وآخرون : القاهرة ص ٢٩ ، عبد الفتاح وهبة : جغرافية العمران ص ٢٦٥ .
(٢) المقريزي : الخطط ١/ ٣٦٤ ، عبد الفتاح وهبة : ن . م . س .
(٣) المقريزي : م . س ١/ ٢٨٦ .
(٤) الأمين عوض الله : الحالة الاجتماعية ص ٢٣ .
(٥) ن . م . س .
(٦) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٠٢ .
(٧) هذا بالإضافة إلى وجود عناصر من أهل الذمة كالنصارى الذين كانوا يقطنون في حارة الروم . وقد سبق الإشارة إلى ذلك .

إن هذه الأسس يمكن اعتبارها الأسس الرئيسية التى شكلت الإطار العام لتوزيع السكنى فى المدينة الكبرى فى العصر الفاطمى والذى كانت تقع فى داخله أسس توزيع الفئات الاجتماعية التى كان يغلب عليها الانتماء الاجتماعى ، ذلك أن حارات القاهرة كان معظم سكانها يتألف من فئات ذات انتماء قبلى واحد .

أما فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى فقد كان مرحلة تحول فى توزيع السكنى للفئات الاجتماعية المختلفة . فالناصر صلاح الدين كان شديدا التمسك بالمبادئ والقيم الدينية الصحيحة ، وهى مبادئ كانت تحث على المساواة بين أفراد المجتمع الإسلامى [١] . الأمر الذى انعكس على النظرة الموجهة نحو الفئات الاجتماعية التى كانت تقطن المدينة الكبرى فى تلك الأثناء . ولذلك فلقد حرص السلطان الناصر على دمج الفئات فيما بين بعضها البعض ، فأباح القاهرة لسكنى عامة الناس على اختلاف طبقاتهم وفئاتهم [٢] . حيث أن حرية السكن كانت متاحة فى كافة أجزاء المدينة الكبرى ، وكان يحق لمن شاء من المواطنين والوافدين أن يسكن حيث شاء . لذلك فلقد وجدت بعض الفئات الاجتماعية فى تغيير السياسة السكانية للدولة فرصة مناسبة لها للسكنى فى بعض المواضع التى كان يحرم عليها السكنى فيها فى العصر الفاطمى .

ومن المعلوم أن انتقال العديد من الصناعات الخفيفه والأسواق الرئيسية من الفسطاط إلى القاهرة فى عهد الناصر صلاح الدين قد ارتبط بانتقال العديد من طوائف الصناع والتجار للسكنى فيها أيضاً ، ويدل على ذلك سكنى العديد من أهل الفسطاط فيها فى تلك الفترة ، والذين لا شك فى أن كثيرا منهم كانوا ينتمون لهذه الفئات حيث كانت الفسطاط تمثل المركز التجارى والصناعى فى العصر الفاطمى .

---

(١) محمد محمود فرغلى : البيئة الإدارية فى الجاهلية وصدر الإسلام ، مكة المكرمة ، ١٤٠٢ هـ ص ١٤٤ ـ ١٤٦ .

(٢) المقريزى : الخطط ١/ ٣٦٤ ، حسن الباشا وآخرون : القاهرة ص ٥٧ ، عبد الفتاح وهبة : جغرافية العمران ص ٢٦٥ .

الخاتمة

من المعروف أن دراسة القاهرة عمرانيا يمثل مرتكزا أساسيا لايضاح الكثير من المتغيرات التى طرأت عليها فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى وما صاحب ذلك العهد من ازدهار وتطور شمل مختلف أوجه النشاط الإنسانى والمادى فى هذه المدينة .

فقد كشفت الدراسة أن المدينة تعرضت لعوامل تطور عمرانى كان أهمها العوامل الجغرافية ، حيث تأثير بعض المكونات الطبيعية التى توجد فى القاهرة . فبالنسبة لنهر النيل فلقد عمل انحراف مجراه وتباعد خطر الفيضان النهرى عن كثير من الأراضى التى كانت توجد فى المدينة الكبرى إلى ظهور فرصة استغلالها عمرانيا .

كما كشفت الدراسة عن تزايد العلاقة بين المدينة وتلال المقطم وذلك عندما جرى بناء القلعة عليها .

كما كشفت الدراسة أن الأكوام والتى تكونت نتيجة الاضطرابات التى شهدتها المدينة فى العصر الفاطمى لم يعد لها أهمية عمرانية كبيرة كما أنها أصبحت خارج السور الذى بنى للمدينة فى تلك الأثناء .

وبالنسبة للبرك والخلجان ، فإن الدراسة أظهرت تزايد العلاقة العمرانية بين المدينة وهذه المواضع ، فبالنسبة للخلجان أصبحت المبانى تحيط بشواطئها ، وكذلك الأمر بالنسبة لبعض البرك علاوة على أنه قد جرى استغلال أجزاء من بعضها ليبنى عليها .

أما فيما يتعلق بالعوامل الاجتماعية فلقد كشفت الدراسة على أنه قد حدث تغير مذهبى فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ارتبط بمظاهر عمرانية تمثلت بشكل أساسى فى إلغاء القيمة المعنوية لبعض المواضع كما حدث بالنسبة لمصلى العيد .

كما كشفت الدراسة على أن التغير ارتبط بدخول المدارس كمنشآت جديدة لمحاربة التشيع .

كما جرى التطرق إلى دور الناصر صلاح الدين الأيوبى فى رعاية التعليم إذ ظهر ذلك جليا فى إنشاءه للعديد من المدارس فى القاهرة علاوة على تشجيع الهجرات

والرحلات العلمية إليها مما أدى إلى زيادة المحتوى السكانى للمدينة . وما ارتبط بذلك بطبيعة الحال من زيادة النشاط العمرانى فيها .

وفى جانب المتغيرات الاجتماعية كشف البحث عن سيادة مظاهر اجتماعية جديدة كانتشار الأمن والرفاه فى جانب وفى جانب آخر ظهور عادات وتقاليد جديدة فى الملبس والمأكل ترتب عليها نتائج عمرانية فى زيادة النشاط العمرانى فى المدينة إذ كان لها تأثيرا على الجانب الاقتصادى فى المدينة وما ارتبط به من تأثير على الأسواق فى داخل القاهرة الكبرى .

وكشفت الدراسة أيضا عن تزايد الأهمية السياسية لعاصمة الدولة الصلاحية نتيجة لتزايد قوتها العسكرية والاقتصادية فكان له انعكاس على القاهرة فى الجانب العسكرى حيث زودت بمنشآت ضخمة عبرت عن أهمية هذا الدور .

وكشفت الدراسة كذلك عن تغير الموقف الصليبى تجاه القاهرة بعد وصول الدولة الأيوبية إلى السلطة فى مصر حيث ركز الصليبيون أنظارهم تجاه مصر بهدف الاستيلاء عليها وانعكس ذلك فى قوة الهجمات التي وجهت لضرب مصر من مختلف الأنحاء. الأمر الذى دفع بالدولة الأيوبية إلى تزويد هذه المدينة باستحكامات حربية تدافع عنها والتى ساهم فى وجودها أيضا ظهور الفتن الداخلية التى استهدفت تقويض دولة صلاح الدين الأيوبى منذ بداية قيامها .

كما كشفت الدراسة بأن الموارد الاقتصادية لمصر أصبحت تنصب بشكل كبير فى القاهرة نتيجة تطبيق نظام الأقطاع إضافة إلى تزايد النمو فى مقدار هذه الموارد . كما اسهمت نفقات بنى أيوب وأمرائهم السخية ، وإتجاه الدولة نحو توفير الكثير من احتياجاتها من السوق إلى وصول كثير من الثروات إلى أيدى الشعب مما كان له أكبر الأثر فى انتشار الرفاه الاقتصادى الذى عم فئات المجتمع .

كما كشفت الدراسة على أن ازدهار التجارة والتبادل التجارى فى عهد الناصر صلاح الدين ارتبط بالتوسع فى بناء منشآت الخدمات الاقتصادية .

وفى جانب الإدارة والتخطيط أثبتت الدراسات أن المشروعات العمرانية التى أقيمت فى تلك الأثناء ارتبطت بالتخطيط والتنظيم ، كما أن انتقال مركز الحكم والإدارة أثر على القيمة المعنوية لبعض المواضع فجرى استغلالها عمرانيا بصورة تختلف عما كانت عليه فى السابق .

أما فى جانب المظاهر العمرانية فقد كشفت الدراسة حدوث تطورات واسعة النطاق ، ففى جانب التخطيط المادى للقاهرة شهدت توسعا كبيرا فى النواحى الإنسانية والمادية . وكذلك تأثرت بنية القاهرة الكبرى التى اتخذت معالم تخطيطية تختلف بشكل أساسى عما كانت عليه فى العصر الفاطمى حافظت عليها لقرون عديدة لاحقة .

كما أبانت الدراسة عن ظهور أحياء جديدة واختفاء أحياء وإعادة عمارة أحياء أخرى كان قد عمها الخراب فى العصر الفاطمى إضافة إلى تغير النطاق العمرانى للأحياء .

وبالنسبة للشوارع فقد كان لها نصيب فى التطور العمرانى داخل القاهرة الكبرى حيث ظهرت شوارع جديدة ، وجرى توسعة شوارع أخرى ، ومد أطوال شوارع أخرى قديمة وإغلاق بعض الشوارع القديمة .

وفى مجال الأسواق كشفت الدراسة عن ظهور أسواق جديدة إضافة إلى توسيع القديم منها ، وتغير مواضع بعض الأسواق والصناعات ، وظهور الأسواق المتخصصة فى القاهرة لأول مرة .

أما المنتزهات والبساتين فقد خضعت لنفس المتغيرات على وجه التقريب إذ ظهرت مواضع نزهة جديدة واختفت أخرى قديمة ، كما تزايد الاهتمام بالتنزه فى بعض المواضع الأخرى كالخلجان والبرك ، كما خضعت الرحاب والميادين والمقابر لبعض المتغيرات التى طرأت على الأقسام الأخرى .

أما عن منشآت المرافق فقد خضعت لمتغيرات أساسية شملت ظهور عمائر تدخل المدينة لأول مرة ، والتوسع فى بناء أنواع أخرى منها ، وبناء عمائر بدلا من قديمة كانت موجودة إضافة إلى بناء عمائر فى مواضع لم تكن توجد بها فى السابق ، بجانب التى تم تجديد عمارتها .

وفى جانب الأوضاع السكانية كشفت الدراسة عن حدوث تغيرات فى العناصر السكانية فى المدينة حيث جرى استبدال عناصر سكانية بأخرى بدلا منها علاوة على تشجيع الهجرة إلى القاهرة ومصر بشكل عام تغيرت أوضاع الكثافات السكانية فأصبح ارتكازها فى مواضع تختلف عما كانت عليه فى العصر الفاطمى .

أما بالنسبة للتوزيع الاجتماعى فلقد تغيرت المفاهيم التى تتحكم فى هذا التوزيع الأمر الذى ترتب عنه بطبيعة الحال التغير فى توزيع الكثافات السكانية .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطات :

* ابن أبى السرور البكرى : محمد بن محمد بن أبى السرور، ت١٠٨٧هـ ، قطف الأزهار من الخطط والآثار، مخطوط دار الكتب رقم ٤٥٧ .

* ابن بهادر المؤمنى : محمد بن محمد المؤمنى ، ت ٨٧٧ هـ / ١٤٧٣م ، مختصر تاريخ العينى المسمي : فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر ، مخطوط فى مكتبة أيا صوفيا بإسطنبول رقم ٣٣٤٤ .

* ابن فضل الله العمرى : شهاب الدين أحمد بن يحيي ، ت ٧٤٩هـ/ ١٣٠٠م ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، مخطوط فى مكتبة أيا صوفيا باسطنبول رقم ٣٤١٦ .

* ابن نباته : جمال الدين محمد بن محمد ، ت ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م ، مختارات من كلام القاضى الفاضل ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٨٨٢ .

* الاسحاقى : محمد عبدالمعطى بن أحمد، لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من الدول ، مخطوط بمكتبة أسعد أفندى باسطنبول رقم ٢٣٦٧ .

* الخاصكى آق بغا (دوادار السلطان قانصوه الغورى) ، التحفة الفاخرة بذكر رسوم خطوط القاهرة ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس ومنه نسخة مصورة بمعهد البحوث بجامعة أم القري بمكة المكرمة .

* الشافعى : محمد بن أبى الفتح الصوفى ، الصفوة فى وصف الديار المصرية ونظام المماليك الإسلامية ، مخطوط من نسخة مصورة بالميكروفيلم فى مكتبة المتحف البريطانى رقم ٢٢٣٩ .

* مجهول المؤلف : تاريخ مصر القاهرة ، مخطوط محفوظ فى مكتبة أيا صوفيا فى اسطنبول تحت رقم ٣٠٨٣ .

ثانياً : المصادر العربية المطبوعة :

* القرآن الكريم .

* ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد ، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣ م .

أ - التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل ، تحقيق : عبد القادر طليمات، القاهرة ١٩٦٣ م .

ب - الكامل فى التاريخ ، تحقيق نخبة من العلماء ، بيروت ، ط ٢ ، سنة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

* ابن اياس : محمد بن أحمد الحنفى ، ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣ م ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفي ، القاهرة ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

* ابن أيبك الدواداري : أبو بكر عبدالله ، ت ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥م ، كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع وعنوانه : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م .

* ابن تغرى بردى : أبو المحاسن جمال الدين يوسف ، ت ٨٧٤هـ / ١٤٤٣م .

أ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق محمد رمزى ، القاهرة ، ١٩٣٥م .

ب - الدليل الشافى علي المنهل الصافى ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ، القاهرة، ١٩٧٩م .

* ابن جبير : محمد بن أحمد ، ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧م ، رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٦٤م .

* ابن حماد : أبو عبدالله محمد بن علي ، ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م ، أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، تحقيق التهامى نقره ، عبدالحليم عويس ، الرياض ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

* ابن حوقل : ابن القاسم النصيبى ، ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧م ، صورة الأرض ـ بيروت ١٩٧٩م .

* ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيدالله ، ت حوالى ٢٧٢ هـ المسالك والممالك باعتناء دى غويه : ليدن ١٨٨٩م .

* ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد الأشبيلى ، ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ م ، مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر المشهور بمقدمة ابن خلدون - بيروت ، الطبعة الخامسة .

* ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد ، ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٢م .

* ابن دقماق : إبراهيم بن محمد بن أيدمر ، ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦م .

أ - الانتصار لواسطة عقد الأمصار - القاهرة ١٨٩٢م .

ب- الجوهر الثمين فى تاريخ الخلفاء والملوك والسلاطين ، تحقيق : سعيد عبدالفتاح عاشور ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢م .

* ابن سعيد الأندلسى : علي بن موسى بن محمد ، ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م .

أ - الاغتباط في حلى مدينة الفسطاط ، من كتاب المغرب فى حلى المغرب ، القسم الخاص بمصر ، حققه وعلق عليه : زكى محمد حسن - وآخرون ، القاهرة ، ١٩٥٣م .

ب- النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، تحقيق : حسين نصار ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

* ابن سيدة : أبو الحسن على بن إسماعيل ، ت ٤٢٨ هـ / ١٠٦٥م ، المخصص - تحقيق لجنة إحياء التراث العربى - بيروت .

* ابن شاهنشاه الأيوبى : محمد بن تقى الدين عمر ، ت ٦١٧ هـ / ١٢١٩م ، مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق : حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨م .

* ابن شداد : أبو المحاسن يوسف بن رافع ، ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٩ م ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) ، تحقيق : جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٦٤م .

* ابن شداد : عز الدين محمد بن علي ، ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م ، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق يحيى عبادة ، دمشق ١٩٧٨م .

* ابن ظافر الأزدى : جمال الدين علي ، ت ٦١٣هـ / ١٢١٦م ، أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق : أندريه فرية ، القاهرة ١٩٧٢م .

* ابن ظهيرة القرشى : مجهول الشخصية عاش فى القرن ٩ هـ / ١٥ م ، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق : مصطفي السقا ، كامل المهندس – القاهرة ١٩٦٩م .

* ابن عبد الحق : صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى ، ت ٧٩٠ هـ ، مراصد الإطلاع عن أسماء الأماكن والبقاع ، تحقيق : علي محمد البجاوى ، نشر: دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م .

* ابن عبد الظاهر : عبدالله بن رشيد الدين بن نشوان السعدي المصري ، ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق : عبدالعزيز الخويطر – ط١ ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

* ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبدالحي الحنبلي، ت ١٠٨٩هـ / ١٨٧٨م ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ط . بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م .

* ابن فضل الله العمري (سبق ذكره) ، التعريف بالمصطلح الشريف – القاهرة ١٣١٢هـ .

* ابن القلانسى : أبو يعلى حمزة ، ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م ، ذيل تاريخ دمشق – بيروت ١٩٠٨م .

* ابن كثير : إسماعيل بن عمر ، ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢م ، البداية والنهاية ، بيروت ١٩٦٦م .

* ابن مماتي : أسعد بن المهذب بن أبي مليح ، ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م ، قوانين الدواوين ، تحقيق : عزيز سوريال عطية – القاهرة ١٩٤٣م .

* ابن منقذ : أسامة بن مرشد الكنانى ، ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م ، كتب الاعتبار- تحقيق : فيليب حتى ، ط . جامعة برنستون - الولايات المتحدة سنة ١٩٣٠م.

* ابن ميسر : تاج الدين محمد بن علي بن جلب راغب ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م ، أخبار مصر (بانتقاء المقريزى) ، تحقيق أيمن فؤاد سيد - القاهرة .

* ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٧م .

* أبو شامة : شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسى ، ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦م.

أ - كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ج١ ق ٢ ، تحقيق : محمد حلمي ، القاهرة ١٩٦٢م ، ج ١ م ٢ ط . القاهرة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠ م .

ب - الذيل علي الروضتين ، تحقيق عزت العطار ، القاهرة ١٩٤٧م .

* أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م ، تقويم البلدان ، تحقيق : دينور والبارون ماكوكين دى سلانا ، باريس ١٨٤٠م.

* الأحدب : نجم الدين حسن الرماح ، ت ٦٩٥ هـ / ١٢٩١ م ، الفروسية والمناصب الحربية ، تحقيق : هيد ضيف العبادى ، بغداد ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

* أحمد بن محمد المالكى ، الحاشية على تفسير الجلالين للجلال المحلى والجلال السيوطي ، القاهرة ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١م .

* الاصطخرى : إبراهيم محمد المعروف بالكرخى ، ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م ، المسالك والممالك - تحقيق : محمد جابر عبد العال ، مراجعة : محمد شفيق غربال - القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١ م .

* الأصفهانى : محمد بن محمد بن حامد الكاتب : العماد الأصفهانى ، ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م ، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) ، تحقيق : أحمد أمين وآخرون - القاهرة .

* البغدادى : إسماعيل باشا بن محمد البابانى ت ١٣٣٩ هـ ، إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون – استانبول ١٩٤٥م .

* هدية العارفين فى أسماء المصنفين – استانبول ١٩٦٠ م .

* البغدادى : عبد القادر بن طاهر بن محمد ، ت ٤٢٩ هـ ؟ ١٠٣٧ م ، الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد، ط٤– ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

* البغدادى : قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب ، ت ٣٢٧ هـ / ٩٤٨ م ، الخراج وصناعة الكتابة ، شرح وتعليق : محمد حسين الزبيدى ، بغداد ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

* البلاذرى : أحمد بن حيى ابغدادى ، ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م ، فتوح البلدان ، مراجعة وتعليق : رضوان محمد رضوان ، بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

* البندارى : الفتح بن علي بن محمد ، ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م .

– تاريخ دولة آل سلجوق ـ ط : دار الآفاق – بيروت ١٩٧٨م .

– سنا البرق الشامى – تحقيق فتحية النبراوى ، القاهرة ١٩٧٩م .

* الجوهرى : إسماعيل بن حماد ، ت ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢م ، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، القاهرة ١٤٠٢هـ .

* حاجى خليفة : مصطفي بن عبدالله ، ت ١٠٦٧هـ ، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، مكتبة المثني ببغداد عن ط . استانبول ١٩٤١م .

* الحموى : ابن الفضائل محمد بن علي الحموى (عاش فى القرن ٧هـ / ١٣م) التاريخ المنصورى (تلخيص كشف البيان فى حوادث الزمان تحقيق : أبو العيد دودو دمشق ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

* الحنبلى : أحمد بن إبراهيم ، ٨٧٦ هـ ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، تحقيق ناظم رشيد ، بغداد ١٩٨٧ م .

* الخطيب البغدادى : أحمد بن على ، ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م ، تاريخ بغداد ، بيروت.

* الزبيدى : محمد بن محمد بن عبدالرزاق الشهير بالسيد الحسينى : محب الدين ، ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م ، تاج العروس من جواهر القاموس ، القاهرة ١٣٠٦هـ .

* السخاوى : نور الدين على بن أحمد بن عمر ، تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات ، تحقيق : محمود ربيع ، وحسن قاسم ط١ ، القاهرة ١٣٥٦هـ / ١٩٥٧م .

* السمهودى : نور الدين على بن أحمد ، ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥م ، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفي ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، بيروت ط٣، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

* السيوطى : جلال الدين عبدالرحمن ت ٩١١هـ ، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

* الشوكانى : محمد بن علي ، ت ١٢٥٠ هـ ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، القاهرة ١٣٤٨هـ .

* الشيزرى : عبدالرحمن بن نصر ، ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م .

– نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق : السيد الباز العرينى ، بيروت ط٢، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

– المنهج المسلوك في سياسة الملوك ، القاهرة ١٣٢٦ هـ .

* الطبرى : محمد بن جرير ، ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م ، تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

* الطرسوسى : مرضى بن علي ، ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣ م ، تبصرة أرباب الألباب فى كيفية النجاة من الأسواء ونشر أعلام الأعلام فى العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداد (ألفه لصلاح الدين الأيوبى) ، تحقيق : كلود كاهين ، بيروت ١٩٤٨م .

* العبدرى : عبدالله محمد بن محمد ، رحلة العبدرى المسماة – الرحلة المغربية ، تحقيق : محمد القاسمى – فاس .

* عبداللطيف البغدادى : أبو محمد عبداللطيف بن يوسف بن محمد ابن علي ، عاش فى القرن ٦هـ / ١٢ م وعاصر صلاح الدين – الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر – المجلة الجديدة .

* عمارة اليمنى : أبو محمد نجم الدين عمارة الحكمى ، ت ٥٦٩ هـ ، النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية ، تحقيق : هرتويغ دركبرغ ، شالون : ١٨٩٧م.

* القزوينى : زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣٨ م ، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩م .

* القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على ، ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، القاهرة ١٣٣١ هـ / ١٩١٣ م .

* الكتبي : محمد بن شاكر ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م ، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٤ م .

* الماوردى : علي بن محمد بن حبيب البصرى ، ت ٤٥٠ هـ / ١١٥٥ م ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، القاهرة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

* المسبحي : محمد بن عبدالله ، ت ٤١٥ هـ ، أخبار مصر فى سنتين (٤١٤ – ٤١٥هـ)، تحقيق وليم ج : ميلورد ، القاهرة ١٩٨٠م .

* المقدسى : شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر البنا ، ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧م، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م .

* المقريزى : أحمد بن علي ، تقى الدين أبو العباس ، ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م .

أ – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، القاهرة ١٢٧٠ هـ .

ب – السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفي زيادة ، القاهرة ١٩٥٦م.

جـ – اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق : محمود حلمى محمد ، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

د – إغاثة الأمة بكشف الغمة (أو تاريخ المجاعات فى مصر) ، نشر : محمد مصطفى زيادة ، جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ م .

* المنذرى : أبو محمد زكى الدين عبد العظيم ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، التكملة لوفيات المقلة، تحقيق : بشار عواد معروف ط ٢ ، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

* ناصر خسرو : سفر نامة – ترجمة : يحيى الخشاب ، بيروت ١٩٧٠م .

* ياقوت الحموى : شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادى ، ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨م .

أ – معجم البلدان ، بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م .

ب – المشترك وضعا والمفترق صقعا ، بغداد .

ثالثا : المراجع والدراسات العربية والمعربة :

* إبراهيم الحقحقى : معجم المدن والقبائل اليمنية ، صنعاء ١٩٨٥م .

* إبراهيم درويش : وبكر العمرى : دراسة الحكومات المقارنة ، جدة ط ٢ – ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

* إبراهيم على طرخان : النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، القاهرة .

* إحسان الهى ظهير : الإسماعيلية تاريخ وعقائد ، لاهور ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

* أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، القاهرة .

* أحمد بيلى : حياة صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م.

* أحمد رمضان : شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ،. القاهرة .

* أحمد زايد : علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية ، القاهر ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

* أحمد السيد الصاوى : المجاعات وتأثيرها علي النواحى المالية والحضارية زمر الفاطميين ، دراسة أثرية حضارية ، رسالة ماجستير مخطوط - كلية الآثار - جامع القاهرة ، القاهرة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

* أحمد شلبي : موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، الجزء الخامس (التربيـ الإسلامية - نظمها - فلسفتها - تاريخها) ، القاهرة ط ٦ ، ١٩٨٧ م .

* أحمد عبدالله خياط : الإقطاع فى الدولة الإسلامية حتى نهاية العصر العباسى الأول، رسالة ماجستير فى الحضارة - جامعة أم القري - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، مكة المكرمة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م .

* أحمد علي إسماعيل : دراسات فى جغرافية المدن ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

* أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة .

* أحمد بن محمد بنانى : موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ، مكـ المكرمة ، ط١ ، ١٤٠٦هـ .

* أحمد محمد عدوان : العسكرية الإسلامية فى العصر المملوكى ، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٥م .

* أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩م.

* أحمد مختار العبادي - السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس ، الأسكندرية .

* آدم متــز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

* آدى شير : السيد آدى شير : معجم الألفاظ الفارسية المعربة ، الناشر : مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٨٠م .

* أرنولد تونبى : مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد محمد شبل ، مراجعة محمد توفيق غربال ، القاهرة ١٩٦٦م .

* إسماعيل حسن عيد البارى : الديمجرافيا الاجتماعية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٨٣م .

* اسـمت غنيم : الدولة الأيوبية والصليبيون ، الأسكندرية ١٩٨٥م .

* الأمين عوض الله : الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى ، جدة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م .

* أمينة بيطار : التعليم فى الشام فى العصر الأيوبى ، بحث منشور فى مجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ٧٠ ، سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م .

* بدرو شالمتيا : الأسواق – ضمن كتاب المدينة الإسلامية .

* بروكلمان – كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمير فارس – منير البعلبكى ، بيروت ، ط ٧ ، ١٩٧٧ م .

* بسام العلى : صلاح الدين الأيوبى ، بيروت .

* بول كزنوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، ترجمة : أحمد السيد دراج ، مراجعة : جمال محرز ، القاهرة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤م .

* توفيق عبد الجواد : تاريخ العمارة والفنون الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٠م .

* جاستون فييت : القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ترجمة : مصطفى العبادى، بيروت ١٩٦٨م .

* جرجي زيدان :

– تاريخ التمدن الإسلامى ، بيروت .

– تاريخ مصر الحديث مع فذلكة من تاريخ مصر القديم ، القاهرة ١٣٠٦هـ / ١٨٨٩م .

* جمال حمدان :

– جغرافية المدن ، القاهرة ، ط ٢ .

– شخصية مصر (دراسة في عبقرية السكان) ، القاهرة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م.

* جمال الدين الرمادى : صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ١٩٥٨م .

* جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية (العصران الأيوبى والمملوكى) ، القاهرة ١٩٦٧م .

* جميل حرب : الحجاز واليمن فى العصر الأيوبى ، جدة ط١ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

* جورج لوفران : تاريخ التجارة ، ترجمة : هاشم الحسيني ، بيروت .

* جوستاف فون جرونباوم : إنجازات العصر الفاطمى ، ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، القاهرة ، جـ ١ ، ١٩٦٩م .

* جون كلارك : جغرافية الشكان ، ترجمة : محمد شوقى ، إبراهيم مكى ، الرياض ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

* جيرار – ب – س : موسوعة الحياة الاقتصادية ضمن كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية ، ترجمة : زهير الشايب ، القاهرة ، ط ١ .

* حامد عبد السلام زهران : علم النفس الاجتماعى ، القاهرة ، ط٥ ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

* حسام الدين السامرائى :

– المؤسسات الإدارية فى الدولة العباسية ، مكة المكرمة ، ط ٢ .

– المدرسة مع التركيز على النظاميات ، بحث مقدم للمجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية ، عمان ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

* حسن إبراهيم حسن :

- تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٨١م .

- تاريخ المماليك البحرية ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٧م .

* حسن أحمد البدوي : ظاهرة الحرب ومذاهبها ، محاضرة ألقيت ضمن فعاليات الموسم الثقافى لكلية الملك خالد العسكرية ، ونشرت فى مجلتها العدد ١٦ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

* حسن الباشا :

- المدخل للآثار الإسلامية ، القاهرة .

- الفنون الإسلامية والوظائف علي الآثار ، القاهرة ١٩٦٦م .

- الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٧٨م .

- فنون التصوير الإسلامى فى مصر ، القاهرة .

* حسن الباشا - وآخرون : القاهرة : تاريخها ، منشؤها ، آثارها ، القاهرة .

* حسن عبدالحميد صالح : الحافظ أبو طاهر السلفى ، ط١ ، بيروت .

* حسن عبد الوهاب :

- تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها ، القاهرة ١٩٥٧م .

- تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ١٩٤٦م .

* حسن محمد الهواري : الرحلات العلمية (الفسطاط) ، القاهرة ١٩٢٧م .

* حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٤م .

* ديماند : الفنون الإسلامية ، ترجمة : أحمد عيسي ، مراجعة : أحمد ذكرى ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٨م .

* رشاد عباس معتوق : نظام الحسبة في العراق حتي عصر المأمون (نشأته وتطوره) ، جدة ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م

* رنسيمان – ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : السيد الباز العرينى ، بيروت.

* زكى محمد حسن :

– فنون الإسلام ، الكويت

– الرحالة المسلمون فى العصور الوسطي

– كنوز الفاطميين ، جـ ٤ / جـ ٨ ضمن كتاب الأعمال الكاملة ، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م

* سعيد عبد الفتاح عاشور :

– الحياة الاجتماعية فى المدينة الإسلامية ، جـ١١ ، العدد الأول ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

– مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، القاهرة .

– الحركة الصليبية ، القاهرة .

* سعاد ماهر :

– النسيج الإسلامى ، القاهرة ١٩٧٧م

– القاهرة ، القاهرة .

– مجري مياه فم الخليج، بحث منشور فى المجلة التاريخية المصرية، ١٩٥٨م، جـ٢ .

* سعد جلال : المرجع فى علم النفس ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

* سفيتلانا باتسييفا : العمران البشرى فى مقدمة ابن خلدون ، ترجمة : رضوان إبراهيم، تونس ١٣٩٨هـ / ١٩٨٧ م .

* سناء بلال : الملابس فى العصرين القبطى والإسلامى ، ط ١ ، ١٩٨٢م .

* السيد الباز العرينى :
- مصر فى عهد الأيوبيين ، القاهرة ١٩٥٢م .
- المماليك ، بيروت .
* سيد سابق : فقه السنة ، ط ١ ، ١٣٩٧هـ .
* شاكر أحمد أبو بدر : الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، بيروت .
* شحاته إبراهيم : القاهرة ، القاهرة .
* شكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ، دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية ، بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
* شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، القاهرة .
* صالح العلى : بغداد مدينة السلام (الجانب الغربى)، بغداد ١٤٠٥ هـ /١٩٨٥م.
* صالح لمعى مصطفي : التراث المعمارى الإسلامى فى مصر ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
* صباح إبراهيم الشحتلى : النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوى الغربى حتي نهاية القرن الخامس الهجرى ، بحث منشور ضمن كتاب تجارة القوافل ودورها الحضارى حتي نهاية القرن التاسع عشر - همذان ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
* ضيف الله يحيى الزهرانى : موارد بيت المال فى الدولة العباسية فيما بين سنة (١٣٢ - ٢١٨ هـ / ٧٤٩ - ٨٣٣ م) ، مكة ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
* طلال جميل رفاعى : نظام البريد فى الدولة العباسية حتي منتصف القرن الخامس الهجرى ، رسالة دكتوراه مخطوط ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية - جامعة أم القري ، مكة المكرمة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .
* عبدالرحمن زكى :
- الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع ، القاهرة ١٩٦٦م .

- حواضر العالم الإسلامى ، القاهرة .

- القاهرة منارة الحضارة الإسلامية ، القاهرة .

- القـاهرة وتاريخـهـا وآثارها من جوهر القـائد إلي الجبرتى المؤرخ ، القـاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .

- الأزهر وما حوله من آثار ، القاهرة .

- امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلي عصر المماليك ، ضمن أبحاث الندوات الدولية لتاريخ القاهرة والمنشور فى كتاب يحمل عنوان الندوة ، القاهرة ١٩٧١ .

- موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام ، القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

* عبدالرحمن فهمي :

- دراسات فى الحضارة الإسلامية ، مذكرات مطبوعة تحتفظ بها مكتبة قسم التاريخ فى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القري بمكة المكرمة، تحت رقم ٧٥ .

- النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٦٤ .

* عبد العال الشامي : مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى ، الكويت ، ط١ ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

* عبد العزيز الدورى - وآخرون :

- بغداد ، نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : إبراهيم خورشيد وآخرون- بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

- المؤسسات الحكومية ، ضمن كتاب المدينة الإسلامية - بغداد .

* عبد العزيز عبد الدايم : الرعاية الطبية فى عصر المماليك ، بحث منشور فى مجلة كلية الآثار - جامعة القاهرة ، العدد الثانى، ١٩٧٧م .

* عبد الفتاح محمد وهبة :

- الجغرافيا التاريخية بين النظرية والتطبيق ، بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م .

- جغرافية الإنسان ، القاهرة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م .

- جغرافية العمران ، الأسكندرية ١٩٧٥م .

* عبد القدوس الأنصارى : مع ابن جبير فى رحلته ، ط ١ ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

* عبداللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، القاهرة ١٩٦٨م .

* عبدالله عبد الغنى غانم : النظرية فى عالم الإنسان الاقتصادى ، دراسات للاتجاهات النظرية فى الانثروبولوجيا الاقتصادية ، الأسكندرية ١٩٨٤م .

* عبد المنعم شوقى : مجتمع المدينة (الاجتماع الحضرى) .

* عبد المنعم ماجد :

- نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٧٨م .

- المرأة المصرية تتزعم مظاهرة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، بحث منشور فى المجلة التاريخية المصرية ١٩٧٧م .

* عزام باشا : النظام الإدارى فى الدولة العباسية فى العصر السلجوقى ٤٣٢-٤٨٥هـ/ ١٠٤٠-١٠٩٢م ، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه فى الحضارة الإسلامية جامعة أم القري كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ١٤٠٦هـ .

* عطية القوصي : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية .

* عطية مصطفى مشرفه : نظم الحكم فى مصر فى عصر الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨م .

* على إبراهيم حسن :

- مصر فى العصور الوسطى ، القاهرة .

- المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٦٨م .

* علي إبراهيم حسن – حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٢م .
* على بن محفوظ : الإبداع فى مضار الإبتداع ، بيروت .
* علي بيومي : قيام الدولة الأيوبية فى مصر ، القاهرة ١٩٥٢م .
* علي باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٠م .
* عيسي سليمان – وآخرون : العمارات العربية الإسلامية فى العراق (تخطيط مدن ومساجد) ، بغداد ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
* فادية عمر الجولانى : علم الاجتماع الحضرى ، الرياض ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
* فالتر هنس : المكايل والأوزان الإسلامية ، وما يعادلها فى النظام المترى ، ترجمة : كامل العيسى ، عمان ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م .
* فتحي حافظ الحديدي : دراسات فى مدينة القاهرة ، القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
* فريد شافعي : العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
* فؤاد فرج : المدن المصرية وتطوراتها عبر العصور ، مجموعة فنية تاريخية (القاهرة)، القاهرة ١٩٤٣م .
* قدري قلعجى : صلاح الدين الأيوبي ، بيروت .
* الكتانى : عبد الحي بن عبد الكبير الحسيني ، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية ، بيروت .
* كحالة : عمر رضا ، معجم المؤلفين (تراجم مصنفي الكتب العربية) ، بيروت .
* كريزول : ك . أ ، وصف قلعة الجبل ، ترجمة : جمال محمد سمرة ، مراجعة : عبدالرحمن زكي ، القاهرة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
* كراتشكوفسكى : أغناطيوس يوليا نوفتش ، تاريخ الأدب الجغرافى ، ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٦٣م .

* كريستس أ. هـ : الفنون الإسلامية الفرعية وتأثيرها فى الفنون الأوربية ، بحث منشور فى كتاب تراث الإسلام ، ترجمة : زكي حسن ، القاهرة ١٩٣٦م .

* كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٣م .

* لسترنغ - كي : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة : بشير فرنسيس، كوركيس عواد، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

* ليتيـــول : سيرة القاهرة ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن ، ادوارد حلمي ، القاهرة ١٩٥٠م .

* ماير : ل . أ ، الملابس المملوكية ، ترجمة : صلاح الشيتي ، مراجعة : عبدالرحمن فهمي .

* محمد أبو زهرة : محاضرات فى الوقف ، القاهرة ، ط٢ .

* محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، سسياستها الداخلية ومظاهر الحضارة فى عهدها ، القاهرة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م .

* محمد الجوهرى : الأنثروبولوجيا (أسس نظرية وتطبيقات عملية) ، الدمام .

* محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية فى عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ ، القاهرة ١٩٥٤ .

* محمد رياض : الإنسان ، دراسة فى النوع والحضارة ، بيروت ١٩٧٤م .

* محمد سيد الكيلانى : الحروب الصليبية وأثرها علي الأدب العربى فى مصر والشام، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٤هـ .

* محمد ضيف الله البطانية : تاريخ الحضارة الإسلامية ، عمان ، ط١ ، ١٩٨٤م .

* محمد عبده الحجاجى : الأقصر فى العصر الإسلامى ، دراسة تاريخية ، القاهرة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨ك .

* محمد عبدالستار عثمان : المفهوم الإسلامى لتخطيط المدن ، بحث منشور فى مجلة المنهل العدد ٤٥٤ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٧٨م .

* محمد عبدالعزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ، القاهرة ١٩٦٣م .

* محمد عبدالله عنان :

– مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٩م .

– مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى ، القاهرة .

* محمد الغريب : سيسولوجيان السكان ، الأسكندرية ١٣٩٢هـ / ١٩٨٢م .

* محمد فاتح عقيل : أهمية الموقع الجغرافى لسواحل مصر ، بحث منشور ضمن كتاب البحرية المصرية، القاهرة .

* محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والاتابكية والأيوبية ، دراسة ونصوص ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

* محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ٦٤٨ – ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠–١٥١٧م ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م .

* محمد محمود فرغلي : البيئة الإدارية فى الجاهلية وصدر الإسلام ، مكة المكرمة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

* محمد محمود محمدين : التراث الجغرافى الإسلامى ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

* محمود وصفي : دراسات فى الفنون والعمارة الإسلامية ، الدمام .

* مصطفي عباس الموسوي : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ، بغداد ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

* موريس لومبارد : الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولي، ترجمة : عبدالرحمن حميدة ، دمشق ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

* نظير حسان سعداوي :

– التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة .

– المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ١٩٦٢م .

* نعمت إسماعيل سلام : فنون الشرق الأوسط فى العصور الإسلامية ، القاهرة ، ط٢.

* نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣م .

* نقولا زيادة : الطرق التجارية فى العصور الوسطي ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، العددان ٥٩ - ٦٠ ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م .

* نيكيتا اليسييف : التخطيط المادى ، بحث ألقي ضمن فعاليات حلقة التدارس عن المدينة الإسلامية التي عقدت بمركز الشرق الأوسط ، التابع لكلية الدراسات الشرقية فى جامعة كمبردج بالمملكة المتحدة تحت رعاية اليونسكو ، ونشرت فى كتاب يحمل عنوان الحلقة ، بإشراف ر . ب - سرجنت ، ترجمة : أحمد محمد تعلب - اليونسكو ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م .

* هاملتون جب :

- دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ترجمة : إحسان عباس وآخرون ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٧٩م .

- صلاح الدين الأيوبى ، ترجمة : يوسف أبيش ، بيروت .

* هشام جعيط : نظرة ابن خلدون للمدينة ومشكلة التمدين ، بحث ألقي ضمن فعاليات ندوة ابن خلدون والفكر العربى المعاصر المنعقد فى تونس عام ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، تحت رعاية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمنشور فى كتاب يحمل عنوان الندوة ، تونس ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

* هشام عجيمى : قلاع الأزلم والوجه وضبا ، دراسة معمارية حضارية ، رسالة دكتوراه غير منشورة - جامعة أم القري ١٤٠٦هـ .

* يعقوب لتــز : خطط بغداد فى العهود العباسية الأولي ، ترجمة : صالح أحمد العلى ، بغداد ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

رابعاً : المراجع الأجنبية :

-- Agricultural in Iraq During The 3rd Century A. H. El Samarraie - Husam Qawam, Thesissu Limited Forthedegree of Doctor of Philosophy in University of London 1970 .

-- Conquest and Fusion, The Social Elvolution of Cairo A.D. 642-1890, Suzan Jane Staffa, Leiden 1979.

-- De Reconstitution , Topographique de of ville D' Al Foustat au Misr Mifao, Casanova, Paul, Tome Tranteeinguieme, Le Caire 1919.

-- Egyption Brigaton, Willcocks, 1913.

-- Essai sur Chistoir et sur la topographie du Caire D'apres Makrizi (Palais des Khaliles), P. Ravaisse, Memoires Publies par les membres de la Mission archiologique France alse au Caire Paris 1887.

-- Muslim Cities in the Later Middle Ages, Iram Lapidus, Cambridge University Press, London 1984.

-- Palais Et Maisons du Caire Epque Mamelouke, Jean Cloude Garcin, Bernard Maury Jaques Revault, Mōna Zakariya, Paris 1982.

-- Les Marcees de Caire Traduction annotced Du rexte de Maqrizi, A. Raymond E. T. G. Wiet, Caire 1979 .

-- The Muslim Architecture of Egypt, Ikhshids and Fatmides A. D. 939-1171, K.A.C. Creswell , Haker Art Books, New York 1978.

-- The Tasrif And tasir Calculations, Cir Mesiaral Mes oporomain Fiscal Operation, JES HO, I, 1964 .

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث : العوامل الاقتصادية والإدارية

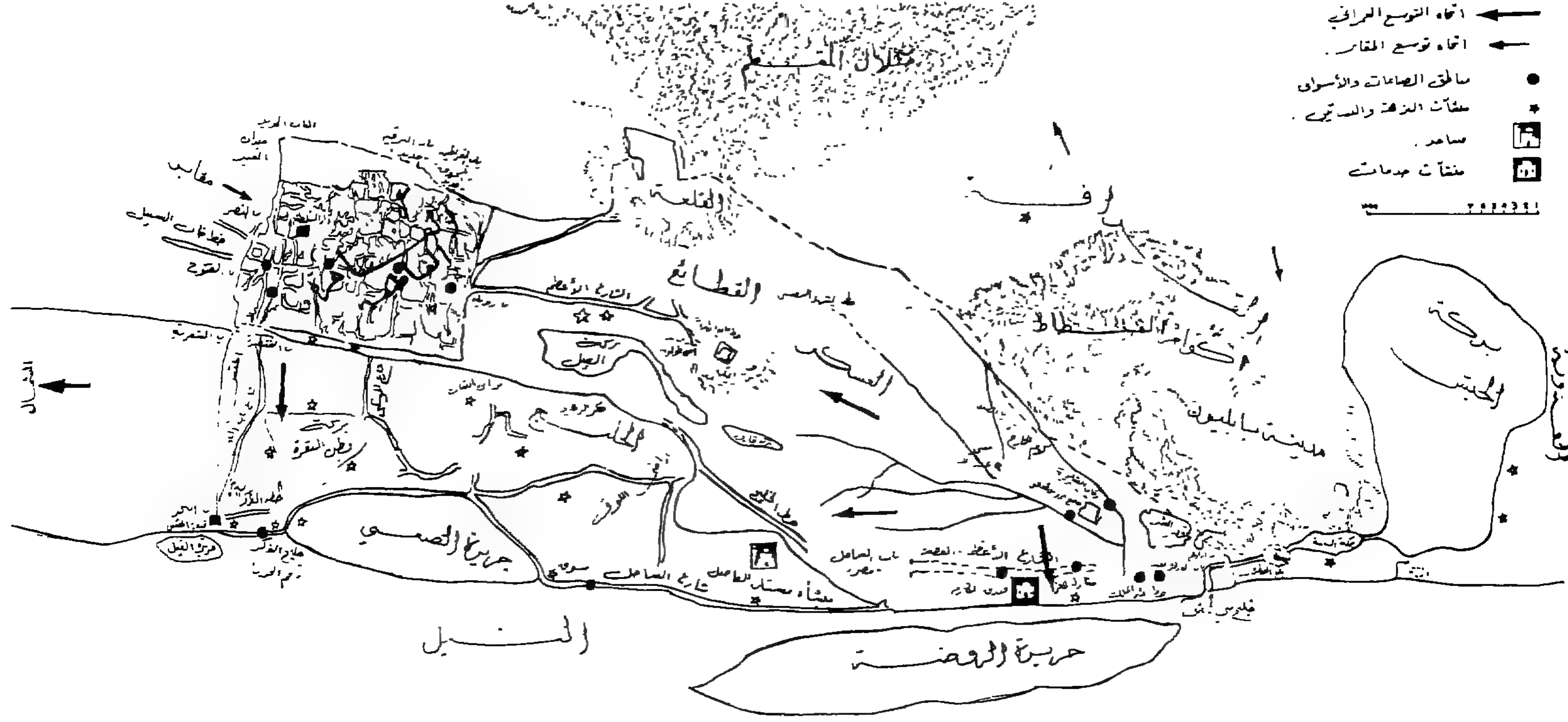
الباب الثانى

مظاهر التطور العمرانى

الفصل الأول التخطيط المادى

الفصل الثانى : أقسام المدينة

مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة : ٥٨١٧٥٥٠



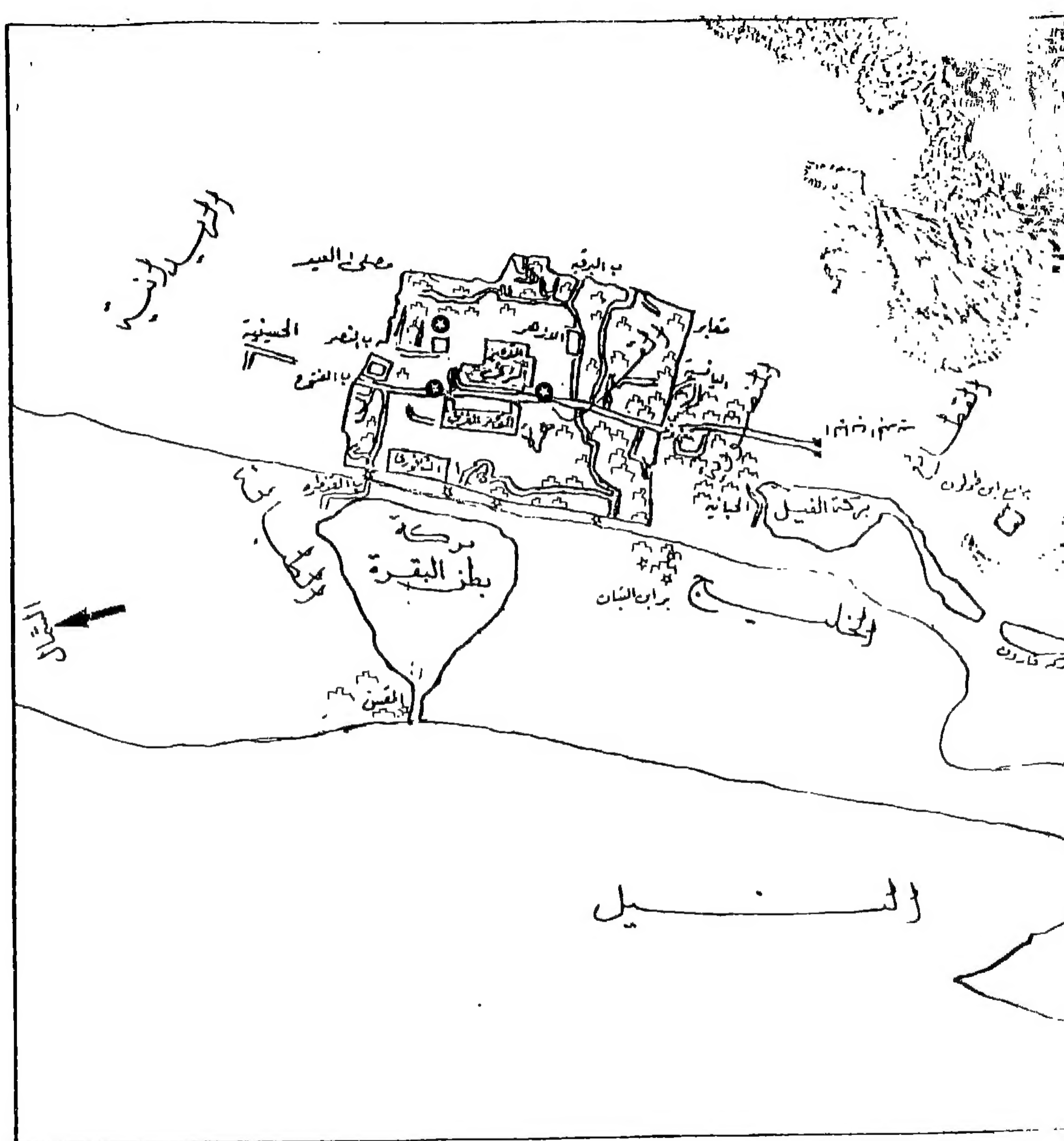
خارطة رقم (١) القاهرة الكبرى

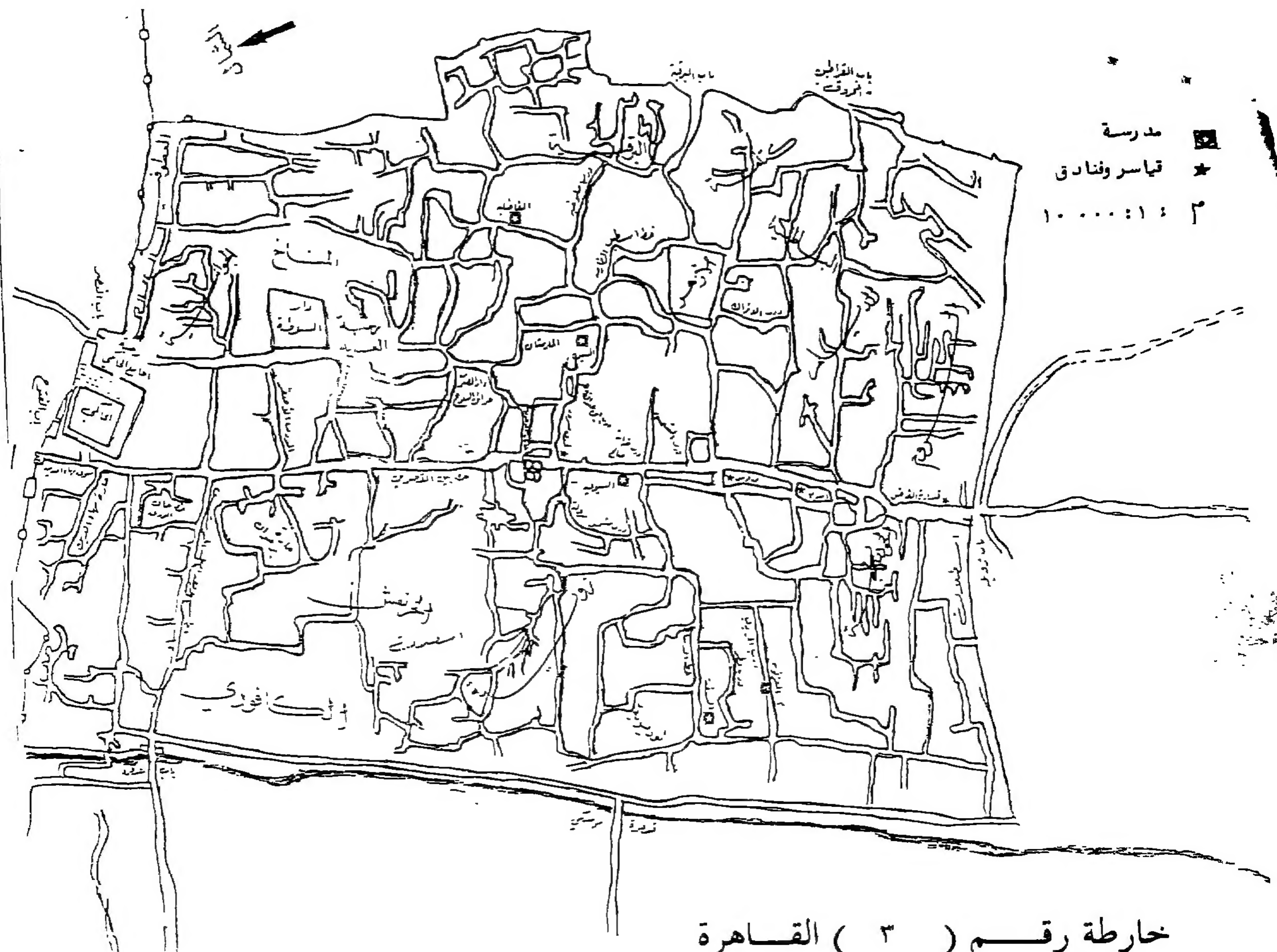
في عهد صلاح الدين الأيوبي



خارطة رقم (٢) القاهرة الكبرى

أواخر العصر الفاطمي


مصلى العيد
ب البرقية
الحسينية
ب النصر
ب الفتوح
مقابر
الأزهر
بركة بطن البقرة
بركة الفيل
الخليج
النيل
المقس
جامع ابن طولون



خارطة رقم (٣) القاهرة

الفاطمية في عصر صلاح الدين الأيوبي